

تاريخ
الأدب العربي
٢

العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف

سنة الذب الخراج الحديث

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالعصر الإسلامي ، وقد وزعته على كتابين ، جعلتُ أولهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بني أمية ، وكل كتاب ينقسم فصولاً تُبَحِّثُ فيها جوانب الحياة في العصر بحثاً ترتب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص ، كما يُبَحِّثُ فيها الأعلام النابيون في الشعر والحطابة والكتابة بحثاً تُرسمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى تقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أرضيئيل نحيل في أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق ، فقد أتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح . وهم في ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض ، وقد مضوا يتصدرون عنه في أشعارهم صدور الشدَى عن الأزهار الأرجة . وبالمثل صدروا عنه في نثرهم ، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاءً إذ أنشأوا - على هدى القرآن الكريم - آيات بديعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضرباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بني أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم في مشارق الأرض ومغاربها ، مما أذكى في نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يَحْيِي في

أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضاً خراسان التي أهملها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً. وقد أخذ الشعراء يخضعون في كل مكان لمؤثرات مختلفة: بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية. وفي هذه الأثناء كان الموالي يتعربون، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعرّبوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم. وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب في العصر الأموي، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة بيرة وتعاون وإنهاء.

والكتاب الثاني يبسط كل هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية وكيف اندفع الشعراء في ظلها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه، فقد مضى شعراء المهجاء والفخر في البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائض التي بثوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية: كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة. ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسي الذي صور فيه الزبيريون والحوارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم في الحكم وقيامهم من دونها مدافعين، ولكل فرقة من هذه الفرق في شعرها طوابع تميزه، فبينما يميز مثل شعر الحوارج بتصوير استيصالهم في الحروب وتهاقهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ما ذرفوا على أمتهم المستشهدين من دموع غزار، مطالبين برد السلطان إلى أصحابه الشرعيين. وقد اضطرت فنون الشعر اضطراباً لا في المديح والمهجاء والفخر فحسب، بل أيضاً في الغزل، فظهر فيه الغزل العنّدي بجانب الغزل الصريح، وزكا شعر الزهد، ونما شعر المعجون ووصف الطبيعة، ومدّ الرُّجّاز طاقة أراجيزهم، وسلكوا فيها الطرديات، فهي ليست عباسية - كما كان يُظن - إنما هي أموية. وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذها وشواردها، حتى غدّت - في بعض جوانبها - كأنها متون للاستظهار والحفظ. وفي كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء.

ولعل عصرًا عربيًّا لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت في عصر بني أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها يذُودون عن نظرياتهم مؤلِّبين الناس على خصوصهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتدمت على لسان الوعَّاظ والقُصَّاصِ احتداماً ، استطاعوا في أثنائه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المبتذلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات في المراكز المتحضرة التي يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات ، مع العناية بدقائق المعاني وفتق الحيل للتعبير عن خفياتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجة ، وبذلك كانوا أول من مهد لوضع قواعد البلاغة العربية .

ومما تدوين المعارف في عصر بني أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبويّ وخطوب جسام . وقد مضوا يصنّفون في المغازي والتاريخ وقصص الأنبياء ، وفي المثالب والأمثال والمواعظ ، وفي مسائل العقيدة من قدر وغير قدر ، وفي الأغاني والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل في الطب والنجوم والكيمياء ، ودوّنوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة ، جعلتهم يستعبرون من الوعَّاظ أسلوبهم الذي وصفناه ، وما زالوا يترقّون بكتاباتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهديني سواء السبيل .

الكتاب الأول
في عصر صدر الإسلام

الفصل الأول

الإسلام

١

قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوي على معنى الخضوع والانقياد ، وقد تردت في القرآن الكريم بهذا المعنى في مثل : (وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له) (وأمرت أن أسلم لرب العالمين) . ومن ثم أُطلقت علماً على ديننا الحنيف في قوله تبارك وتعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جل شأنه : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) ، ويقول : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) ويقول : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه) .

فالإسلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التي تفرض سلطانها على كل ما سبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهم أصل في العقيدة الإسلامية الإيمان بوحدة الله ، يقول سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو (رب العالمين) رب كل شيء في الكون وخالقه (ليس كمثله شيء) (لا تدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما في الكون (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبيبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم وتقبض على زمامه (وسع كرسيه السموات والأرض) (والله على كل شيء قدير) . وهو مع قدرته وسلطانه وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتي وسعت كل شيء) (وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقرن بالرحمة في القرآن الكريم المحبة التي يفيضها على عباده مستشعرين لجلاله وكماله المطلق (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة إلى العمل الصالح والنهي عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم في الدارين الأولى والآخرة (رُسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

وراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبي ، به نوعان من الأرواح خيّر وشرير ، والخيّر هو الملائكة الذين يتنزلون بالوحي على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهي الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى ، وهم ينسفون غوايتهم فيمن ضلوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا في السماء بُرجاً وزيّناها لناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

ويُكثِر القرآن من الحديث عن عقيدة المعاد؛ فالناس جميعاً مبعوثون بعد موتهم (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون) وهو يوم الحساب ، كل يحاسب على أعماله (فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يرهُ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات جزاءُ سيئةٍ بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصمٍ كأنما أغشيت وجوههم قطباً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (لا يدوقون فيها برّداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً جزاءً وفاقاً) .

ودائماً يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيتته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى ، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه في كل ما يأتي ويدع . فهناك مشيئة مطلقة هي مشيئة الله التي تسيطر على كل ما في الكون (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وبجانبا مشيئة الإنسان التي تجعله مسئولاً أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يده (وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (كلُّ نفس بما كسبت رهينة) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه) .

وتلك هي أصول العقيدة الإسلامية ، وبجانبا أعمال من العبادات يجب على المسلم أدائها ، وهي ترجع إلى أربعة أصول : الصلاة والصوم والحج والزكاة . الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسبيح واستغفار ، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفية وأوقاتها ، وفي القرآن الكريم (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) . والصوم هو صوم شهر رمضان تبتلاً إلى الله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبكم لعلكم تتقون . . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه . . وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (والله على الناس حيج البيت من استطاع إليه سبيلاً) وهو في أشهر معلومات ، وقد بين الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسييح . ثم الزكاة وهي أن يُردَّ من مال الغنى على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهي تُذكر في القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثاً عليها في مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغى أن يتحلوا به في سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته ، يقول تبارك وتعالى : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً .. ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً .. والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن . . . وأمرٌ بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعقن خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصدي في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . ويقول جلَّ وعز ناهياً عن الهزاء بالناس والغيبة والظن الآثم : (إنما المؤمنون إخوة . . . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثمٌ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توابٌ رحيم) .

وقد حرّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر (قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . ومما حرّمه تحريماً باتاً آفة الخمر وآفة القمار (إنما الخمر والميسر .. رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ودائماً تلقانا في الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنيا والنقائص (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس وتبذ كل الفواحش والردائل ، ومراقبة الإنسان لربه في كل ما يأتي من قول أو فعل ، فإنه معرض عليه يوم القيامة ، يوم يُجزى كلُّ إنسان بما قدّمته يداه . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه في سره وعقله ، كما يستشعر الرجاء في نعيمه ورضوانه .

٢

. قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلّصه من الحماقات والترهات ، وقد مضى يمتكم إليه في معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل في ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر في هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخلَق عبثاً وأن له صانعاً سوى كل شىء فيه وقدّره ، يقول جلّ ذكره : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فبيننا عذاب النار) (الشمس والقمر بحسبان) (والسماء بنيناها بأيدي وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن في الإيمان بوحدهائه . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وما كان لهذا الذى

فضله على كل ما في الوجود أن يعبد أشياء خلقها الله وسخرها لفائدته (قل أغير الله أبغى رباً وهو ربُّ كل شيء) (ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن). وهو إله واحد يدبر السموات والأرض (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون). وبالمثل يحتكم القرآن إلى العقل في الدلالة على صحة البعث والنشور فإن من يبعث الحياة في الكائنات قادر على أن يردّها إليها (كما بدأنا أولَ خلقِ نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير).

ويُسحى الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم ، فيشبههم بالأنعام التي لا تعقل ، ويقول إنهم لا يمتازون في شيء عن الصمِّ البكم العمى (لم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنهم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً). وكثيراً ما تُختَمُ الآيات بمثل (أفلا تتذكرون) (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

ووداعاً يدعو القرآن كل مسلم أن يستغل عقله فيما خلق له من التدبر ، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثه بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة ، ومن ثمَّ كانت المعرفة المستبصرة ركناً أساسياً في الإسلام ، فمن أسلم عن غير فهم وتبصر كان إسلامه منقوصاً ، إذ الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والافتناع لا على التقليد والمحاكاة للأباء والأسلاف .

ويشير القرآن مراراً إلى ما وهب الإنسان من فضيلة العقل ، وأن الله أودع في هذه الفضيلة خواص تمكنه من السيطرة على جميع المخلوقات ، يقول جلَّ شأنه : (الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفُلُكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافع للناس) (هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . فكلُّ ما في الوجود مسخّر للناس ولعقولهم كي يستغلوه وكي يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقترن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء في مثل : (وقل رب زدني علماً) (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفي كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كي يطلبوا كل علم ويفيدوا منه : ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم في أي عصر من العصور ، بل تعاوننا دائماً تعاوناً مشمراً . وقد رُويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحث على العلم والتعلم من مثل : « طلب العلم فريضة » على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثة الأنبياء » .

وقد حمل الإسلام هؤلاء العلماء أمانة الدين الحنيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد في فروعه وما يُطَوَى فيه من استنباط للأحكام يقول جتل ذكره : (فلولا نصر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) ويقول : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . ويقول للرسول الكريم : (وشاورهم في الأمر) . وفعلاً كان يستشير أصحابه في كثير من المسائل ويتصنر عن رأيهم^(١) . ومن هنا أصبح الأجهاد بالرأي أصلاً من أصول الإسلام حين لا يوجد نص في كتاب أوسنة ، روى الرواة عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما في كتاب الله

(١) انظر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » وما بعدها .

لمصطفى عبد الرازق (الطبعة الأولى) ص ١٤٣

قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو ، قال : فضرب
 بيده في صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول
 الله» (١) . وقد نسا الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم
 يكن الخلفاء يفتنون بأرائهم إلا بعد استشارة الصحابة (٢) . وسُئرت الأمصار
 وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء في كل مصر إسلامي تحمل
 للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حكمه في
 القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفي كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفع من شأن العقل
 الإنسانى إذ جعله الحكيم في فروع الشريعة وحثه على استكمال سيطرته على
 الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتح الأبواب واسعة أمامه
 كى يجتهد فى مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين
 يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى .
 وسرعان ما شادوا صرح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم
 الذهنية فى جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصله الإسلام من
 حق الاجتهاد العقلى أثر واسع فى أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقاً
 أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصول أسست على العقل الصحيح وفسحت
 له فى التشريع .

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون فى الجاهلية قبائل متنازلة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما
 يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها
 تعصباً شديداً ، فإذا جنى أحدهم جناية شركته فى مسئوليتها ، وإذا قتل لها

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن

ببدر (طبع القاهرة) ٥٥/٢

أحد أبنائها هبَّت للأخذ بثأره هبته واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحِلُّ محلها فكرة الأمة ، يقول جلَّ ذكره : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خير أمة أُخرجت للناس) وهي أمة يعلو فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى كل شيء ، ومن ثمَّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هي التي توحد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن نقل حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر - كما كان الشأن في الجاهلية - يجرُّ ثأراً في سلسلة لا تنتهي ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدِّم القاتل لأولى الأمر حتى يلتقي جزاءه . وقدمضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزَّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . »^(١)

وأخذ الإسلام يرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة ، تُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات ، وينبغي أن يعودوا إخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، باذلاً له ولصالحه هذه الأمة كل ما يستطيع ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة يفديها بروحه وبماله وبكل ما أوتي من قوة . ومن ثمَّ وُضع نظام الزكاة وعُدَّتْ - كما قدمنا - ركناً أساسياً في الدين ، فواجب كل شخص أن يقدم من ماله سنوياً فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

(١) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ٣٣/٢ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم في مال الغني ، يؤديه إليه راضياً . ومدّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق في سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة في حسن المثوبة ، يقول مجلّ وعزّ : (من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . . مثلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبة من برّية أصابها وابلٌ فانتأكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطأ الله بما تعملون بصير . . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الحبيث منه تنفقون ولستم بأخذية إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد . . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردّ الغني بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقاً دينياً . إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأُمته ويترايط معها ترايطاً اقتصادياً كما يترايط في وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها في سبيل الله ، ويؤثّر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تقنى مالٌ ما تقنى مالُ أبي بكر »^(١) وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به ، فقد جهّز عثمان جيش العُسرة في غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمّ الألف بخمسين فرساً^(٢) ، وكشّر مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قدّم عليه في إحدى تجارته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها في سبيل الله^(٣) . ولم يُعن الإسلام فقط بتنظيم العلاقة بين الغني من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عنى أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ . (٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف)

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغل الناس بأى وجه من الوجوه : سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جل شأنه : (وأوفوا الكيل إذا كيلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم) (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس .. وأحل الله البيع وحرم الربا) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قوامها العدالة .

وقد نظّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية ، فردّ إليها حقوقها ، وجعلها كفوّاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأيضاً لهن مثل ما للرجال من السعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزّ شأنه : (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) . وكان كثير من غلاظ القلوب يتلدون بناتهم خشية العار ، فحرم ذلك القرآن ، يقول جلّ ذكره : (وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشره أيمسكه على هون أم يدسه فى الترابِ ألا ساء ما يحكمون) . وحرم البغاء وشدّد فى النكير عليه حتى القتل . ونظّم الزواج وجعله فريضة محبّبة إلى الله ونعمة من نعمه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجّة الوداع : « أيها الناس إن نسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم وأن لا يبدخن أحداً تكروهنه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضامع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جلّ شأنه : (فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاقَ بَيْنَهُمَا فابِعَثُوا حَكَمًا من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفّق الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تُفصم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يُسَرَّحها بإحسان وأن لا يُمسك عنها شيئاً من صداقها، يقول جلّ وعز: (وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكلّ ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يراها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحرّيم الذي شاع في العصر العباسي ، فإن الإسلام يُجِلّ المرأة ويرفع قدرها ، حتى نراها في الصدر الأول من العصر الإسلامي تشارك في الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين في حروب عليّ وطلحة والزبير ، وكانت هي نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوي وهديّ الرسول الكريم .

٤

قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته . إذ حرّره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلاً من أن يشعر أنه مسخّر لعوامل الطبيعة تتقاذفه كما تهوى نَبَّهه إلى أنها مسخرة له ولنفعته ، ودعاه لأن يستخدم في معرفة قوانينها عقله ويُعمل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهياه حياة روحية وعقلية سامية ، كما هياه حياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبرّ والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة في الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه في المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه بِفَضْلٍ سائر المخلوقات فقد خلق في (أحسن تقويم) ، وُسْوَى وَعُدْلٍ وَرُكْبٍ في أروع صورة ، ووهب من الخواص الذهنية ما يُحيل به كل عنصر في الطبيعة إلى خدمته ، يقول جلّ شأنه : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً) . ويذكر القرآن في غير موضع أن الإنسان خليفة الله في الأرض (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة) (وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض) فالإنسان خليفة الله في أرضه ووكيله فيها ، خلقه ليسودها ، ويخضع كل ما في الوجود لسيطرته .

وقدمضى الإسلام يعتدّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل في جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغّب في ذلك ترغيباً واسعاً ، فانبرى كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكّون رقاب الرقيق بشراهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحقّ الكامل في أن يكتب مولاة ، أو بعبارة أخرى أن يستردّ حرّيته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكتم أيما نكحتم فكاتبوهم . . وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) . وقد حرّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاها ، حتى إذا ماتت رُدّت إليها حرّيتها . وكانوا في الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كأباؤهم .

ووسّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها في الدين نفسه إذ نصّت آية كريمة على أن (لا إكراهَ في الدين) فالناس لا يُكْرَهُون على الدخول في الإسلام ، بل يتشركون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الديني ، يقول تبارك وتعالى : (ولو شاء ربك لآمنَ من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكْرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين) . وحقاً اضطرّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعدوان ، يقول جلّ وعز : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

المعتدين) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلاً إلى السلم والسلام في مثل قوله تعالى :
(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا
في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) لذلك لا نعجب
إذا كانت تحية الإسلام هي « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة،
ومن تنمة ذلك ما وضعه من قوانين في معاملة الأمم المغلوبة سلمياً وحرباً ، فقد
أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين في حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً
ولا طفلاً ولا امرأة ، وعهده^(١) لنصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن
المعاملة لأهل الذمة، فقد أمر أن لا تُمسّ كنائسهم ومعابدهم وأن تُترك لهم
الحرية في ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به في
معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور
هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم
أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . . . لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم
ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكْرهون
على دينهم ولا يضار أحد منهم »^(٢) . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التي
عُقِدَت مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هي التي فتحت الشام ومصر
إلى الأندلس ، والعراق إلى خراسان والهند . فقد كفل للناس حريتهم لا لأتباعه
وحدهم ، بل لكل من عاشوا في ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة
النوع الإنساني ، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

(١) انظر السيرة النبوية (طبعة الحلبي)

٢٣٩/٤ وما بعدها و ٢٤١/٤ وما بعدها .

وقارن بفتوح البلدان للبلاذري (طبع المطبعة

المصرية بالأزهر) ص ٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري (طبع مطبعة الاستقامة

بالقاهرة سنة ١٩٣٩) ١٠٥/٣ .

الفصل الثاني القرآن والحديث

١

نزول القرآن وحفظه وقراءاته

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنجمًا في ثلاث وعشرين سنة . حتى تهياً النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهي (وقرآنًا فرقتناه لتقرأه على الناس على مكثٍ ونزلناه تنزيلاً) . وكان أول نزوله في شهر رمضان وفي ليلة معلومة منه هي ليلة القدر (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) (إننا أنزلناه في ليلة القدر) وظلَّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربي بليغ (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) (من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) (نزله روح القدس من ربك بالحق) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذي اختاره لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافة . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبيين مثل علي وعثمان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب . ومضى كثير من كتبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعولوا على كتابته فقط ، إنما عولوا أولاً على حفظه وأخذوه شفاهاً عن الرسول الأُمي ، الذي كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سنته يتحفظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار مرتلين له ترتيلاً .

ونصوصُ القرآن صريحة في أن سوره وآياته جميعاً رُتبت بوحي من الله إلى رسوله ، يقول مجلَّ شأنه : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً) (إن علينا جمعه وقرآنه) . فالرسول لم

يُرفَعُ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد ترتيب القرآن وآياته وسوره ترتيباً كاملاً . وتلقاه عنه الصحابة بهذا الترتيب ، وكان حفظته يسمون بالقُرَّاء . ولما استحرَّ القتل بهم في يوم اليمامة لعهد أبي بكر خشى عمر بن الخطاب أن يستحرَّ بهم في مواطن أخرى ، فيذهب قرآن كثير ، فدخل على أبي بكر لستين من خلافته ، فقال له : إن أصحاب رسول الله يتهافتون في المعارك ، وإني أخشى أن تأتي عليهم . وهم حَمَلَةُ القرآن فيضيع وينسى ، فلو جمعته! ولم يزل عمر يراجع حتى شرح الله صدره للفكرة ورأى رأيه ، وحينئذ عهد إلى زيد بن ثابت - أحد كتبة الوحي الأبرار - يجمعه ، فجمعه من العُصب واللِّخاف وصدور الحفظة المشهود لهم بالإتقان من مثل أبي بن كعب وعثمان وعلي وعبد الله بن مسعود وطلحة وحذيفة وأبي هريرة وأبي الدرداء وأبي موسى الأشعري وتحرياً في الدقة ومبالغة في الحيلة أمر أبو بكر أن لا يُقبَّلَ من حافظ شيء حتى يشهد شاهداً عدلان بصحته وأنه كُتِبَ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما جُمِعَ المصحف حفظ في بيت أبي بكر ، ولما توفي وخلفه عمر انتقل المصحف إليه ، وبعد وفاته انتقل إلى حفصة ابنته أم المؤمنين .

وحدث في عهد عثمان أن أخذ القُرَّاء في الأمصار البعيدة يختلفون في بعض الأداء ، ولم يكن بين أيديهم مصحف أبي بكر ليرجعوا إليه ، فأقرع ذلك حذيفة بن اليمان الذي كان يغزو في فتح أرمينية وأذربيجان فهُرِعَ إلى عثمان قائلاً : إن الناس قد اختلفوا في القرآن حتى إنى والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف . فهمَّ عثمان الأمر ، وأجمع رأيه على أن يكتب للمسلمين إماماً يرجعون إليه . وبعث إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخ منه نسخاً ، ثم نرده إليك ، فأرسلت به إليه ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقال عثمان للرهط القرشيين ، وهم الثلاثة الأخيرون : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، فصدعوا بأمره . وردَّ عثمان مصحف أبي بكر إلى حفصة وطابت

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القُرَّاء إلى الأمصار ، ويُقرئوا الناس على حَرَفِهَا ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحرق ما سواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم في صنيعة من الرشد والهداية . ومضى القُرَّاء في العالم الإسلامي يُقرئون الناس القرآن على حَرَفِ هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف ، وهي المعروفة بالقراءات ، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها ، وهي قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبي عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائي .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها ، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونّها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلاً ونهاراً ، وسرعان ما جمعه أبو بكر في مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعث بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

٢

سور القرآن وتفسيره في العهد الأول

عَدَدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولاً وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهي تبلغ عدا البسمة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسِّمَتْ تسهيلاً لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهي أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلت كثرة السور بمكة ، ومن ثم كانت السور إمامكية وإمام مدنية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للمدين الحنيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبى نداء ربه . على أن بعض السور تخرج فيها آيات مكية بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جلَّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهي لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً في المعاني التي تدور عليها . أما السور المكية فإنها تخوض غالباً في الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونسب عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عمل صالحاً فله الجنة والنعيم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر في خَلْق السموات والأرض ، فإن من تدبر في هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فإنها تفصّل القول في العمل الصالح الذي ينبغي على المسلم أن يقوم به ، ومن ثمّ كان يكثر فيها التشريع الديني وكذلك التشريع الاجتماعي بكل ما يتصل به من نظم الأسرة كالميراث والزواج والطلاق وبيع الوالدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمدائنة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحريم . وفي تضاعيف ذلك تُذكرُ العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسّر لهم بعض ما يتوقفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبين لهم بعض الآيات ، يقول جلَّ ذكره : (وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبين للناس ما نزل إليهم) ويقول : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهياً ، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه . وتدل الآية الثانية على أن في القرآن آيات تحتاج تأويلاً ، وهي تصرّح بذلك في وضوح .

وفي مقدمة تفسير الطبري عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه سُمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسروا للناس آي الذكر الحكيم ، وهم الذين يسميهم الله عز وجل باسم الراسخين في العلم . ويحدثنا السيوطي في كتابه « الإتيقان^(١) » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدونها في كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » وقد اختصره في كتاب طبع في ستة أجزاء سماه « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وابن عباس^(٢) ، ويصرّح بأن الرواية عن أبي بكر وعمر وعثمان نزرّة ، أما علي فقد روى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير . أما أبيّ فله سند في الطبري عن طريق أبي العالية ، وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كوّن في أثنائها مدرسة في الكوفة حملت عنه تفسيراً كثيراً ، وسنده الجيد هو السدي الكبير عن مرة الحمداني . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلي بن أبي طلحة . وهو يُعدّ المؤسس الحقيقي لعلم التفسير فهو الذي تهجه ووضع أصوله ، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم في تفسير بعض الألفاظ^(٣) . وقد حمل ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير ما أُثّر عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة في تفسير هذا النبع الإلهي الذي لا تفي كنوزه .

(٣) انظر في ابن عباس ودوره في التفسير كتاب مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر (ترجمة عبد الحلیم التجار) ص ٨٣ وما بعدها .

(١) انظر النوع الثامن والسبعين في هذا الكتاب .

(٢) راجع النوع الثمانين .

أثر القرآن في اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يُتَّخَذْ لأمة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله، أو عن خلقه للسماوات والأرض، أو عن البعث والنشور، أو حين يشرع للناس حياتهم وقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين: الأولى والآخرة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم: سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه، فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألد خصومه سمعه يتلو بعض آي الذكر الحكيم، فتوجه إلى نفر من قريش يقول لهم: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن»، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق»^(١). وواضح أنه أحس في دقة أن آي القرآن تباين كلام الإنس من فصحاتهم كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهانهم. إنه ليس شعراً موزوناً، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كهانهم وغيرهم من خطبائهم، إنما هو نمط وحده فُصِّلَتْ آياته بفواصل تطمئن عندها النفس: وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعدوبة. إنه نمط باهر، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته، يقول جليل ذكره: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين). وفعلاً عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً، فمضوا يجرِّدون سيوفهم ويغمدون ألسنتهم، ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت،

(١) انظر تفسير الزمخشري في

سورة المدثر. مفدق: كثير المياه.

ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت في الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هيا لانقلاب واسع في تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونُجِّمِل ذلك إجمالاً . فإن تفصيله لا يتسع له كتاب فضلاً عن صحف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جمَّع العرب على لهجة قريش ، وحقاً كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية في الجاهلية : غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً : أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلاً أو كثيراً : حسب قربها من مكة أو بعدها . فعمِلَ القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلونه آثناء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعمُّ بين القبائل الجنوبية متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجته تسود في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحثَّ الإسلام على حفظه وترتيبه . يقول عزَّ شأنه : (ورتِّل القرآن ترتيلاً) (ومنَّ عرضَ عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونخسره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) . وبذلك تحول المسلمون في جمهورهم إلى حفظة للقرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة ورعوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر في العالم الإسلامي فحسب ، بل أن تُحفظ أيضاً وتظل على مرَّ العصور جديدة عَضَّة لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوبٌ — لا حصر لها — لسانتها . فأصبح هو اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي . فكل من عاشوا في هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذ حلَّت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذى حفظ العربية من الضياع ، ونشرها في أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثانى آثاره أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، وبذلك أحلّ فيها معانى لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفزقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتميم والركوع والسجود . وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف ، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد . له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خلقت السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعى من عظات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من غير ، ومن تقرير البعث والنشور وبسط صور الثواب والعقاب مستعيناً فى ذلك بالوجدانات الغريزية وبالعقول وتمييزها وما ينبغى أن يتهياً لها من صواب الرأى . وإنه ليرتقى دائماً من معرفة الحواس إلى معرفة الأذهان ، وفى خلال ذلك يشرع للناس ما ينبغى أن تكون عليه حياتهم من نظام فى أسرهم وفى مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يسندل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه ؛ أخوة لأسود فيها ولا أبيض ولا عربى ولا أعجمى . وكل هذه الدعوة الكريمة التى نزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تُعَدُّ ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصرى وغيره من كبار الواعظين ، إنما هو من فيض القرآن ومعينه الغزير .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة . ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا فى غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التى عرض لها السيوطى فى كتابه « الإتيقان فى علوم القرآن » وهو يقع فى مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامه وخاصه مما هياً لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذى هياً بقوة لهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفي أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف أنه حقاً اختطَّ أسلوباً جزلاً ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف . وما لا شك فيه أن القرآن هو الذى ابتدع هذا الأسلوب المحكم ، بل هذا الأسلوب السهل الممتنع الذى يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغى إليه ، هذا الأسلوب الذى يميز عربيتنا ، والذى استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفافة . وقرأ في قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفي ملاحظاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطرداً في جودة الإفهام وروعته مع سهولة اللفظ ومثابته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظروهم يوم يُبعثون : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَادَاتِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوَفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسَيِّقُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتَأَبُوا أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَشْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) . وقارن بين ذلك وبين ملاحظته جلَّ وعز لرسوله في سورة الضحى : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضَىٰ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعرة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالته وعدويته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانيها ، ومع الألفاظ المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التي تغذي العقول برحيقها الصافي وتشفي القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره ، فعلى هديته أخذ الخطباء والكتاب والشعراء بصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديابجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّي عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب – ولا يزالون – يتحفظونه ، فهو معجمهم اللغوي والأدبي الذي ساروا على هدايته ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آية من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقّة وسلسّ الموقع . وقال الهيثم بن عدي : قال عمران بن حطان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد – أو عند ابن زياد – فأعجب بها الناس وشهدها عمي وأبي ، ثم إنني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : هذا الفتي أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن » (١) . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نظمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتي في سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضيء ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوم ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

٤

الحديث النبوي

الحديث هو كل ما حكى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جميعه أقوالاً له ، بل منه ما يسمّى باسم

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

الآثار وهي ما رواه الرواة حكاية عن خلقه أو عمله أو في شأن من شئونه .
 وضم إليه الرواة كثيراً مما حكى عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ
 كانوا يقتدون به في أقوالهم وأفعالهم عملاً بقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ويقول الجاحظ : « كانوا يكرهون أن يقولوا سُنة أبي بكر وعمر ،
 بل يقال : سنة الله وسنة رسوله »^(١) . وفي ابن سعد عن صالح بن كيسان قال :
 « اجتمعت أنا والزُّهري ونحن نطلب العلم فكننا نكتب السنن ، قال : وكتبنا
 ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن
 الصحابة فإنه سُنة ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم
 أكتب ، فأنجح وضيَّعت »^(٢) .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي
 وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصلها ، فالقرآن مثلاً لم يذكر
 تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله
 تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وفصل الحديث أوقات الصلاة وكيفياتها ،
 كما فصل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها . وهذان
 أمران من مئات الأوامر التي تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذي بيَّن
 أحكام الشريعة وصورها عملياً كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية
 التي جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملًا للقرآن ، وخاصة حين تُجْمَل أحكامه
 أو يُسْتَبْهَم المراد من معنى بعض آياته ، فقد روى عن علي بن أبي طالب أنه لما
 أرسل ابن عباس ليحاج بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه
 حتمالٌ أوجه ، ويحتمل معاني مختلفة ، وبأن يكون عماده السنَّة فلا يجدوا منها
 مخرجاً^(٣) .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وكان
 هو نفسه يحثهم على ذلك ، فعن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلفائنا قلنا

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥ .
 (٢) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا) ٣٣٦/١ .
 (٣) نهج البلاغة (طبعة بيروت) ١٤٦/٢ .

يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس^(١) .
 وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها مَنْ وراءكم
 من العشائر ، وتكرر في خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم
 الغائب » . وكان يُرسل في القبائل رسوله ليعلّمهم القرآن وسنته . ومرّ بنا أنه لما
 أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تقضى؟ فقال : بكتاب الله ، فقال :
 فإن لم تجد؟ قال : فبسنة رسوله . فالحديث كان متداولاً في حياة الرسول وكان
 الرسول يأمر بنشره وإذاعته في الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه
 وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفى الرسول وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلغون كتاب
 الله وسنة رسوله أينما ذهبوا ، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله
 إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثرة ما روي عنهم في هذا
 الباب مثل أبي هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس
 وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون
 يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل ، فالمحدث
 يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني . ومن ثمّ تكون
 سند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من روايته ، تلك السلاسل التي
 تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين المحدث ومن ينقل عنهم حتى
 عصر الرسول . وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرّق الصحابة
 في الأرض ، وبذلك تعددت طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح
 يحتوي متناً وسنداً يطول ويقصر . وطبيعي أن يسمّى حديثاً لأنه كان يعتمد على
 الرواية والنقل الشفوي ، وهو يسمّى أيضاً السنة ، وهي في اللغة العادة ويراد بها
 العادة المقدسة التي رويت عن النبي وصحابته ، وهي تُستعمل في القرآن بمعنى
 تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التي حكيت عن الرسول
 وصحبه .

وما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُون في حياته ، وخاصة تلك

(١) انظر في هذا الحديث مقدمة القسطلاني

عل البخارى .

التي تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبيِّن لهم فرائض دينهم ، على نحو ما نجد ذلك في بعض كتبه المأثورة^(١) . ورخص النبي في بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، فقد أذن لرجل من الأنصار شكاً إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه^(٢) ، وعن رافع بن حديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج^(٣) » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما يسمع من حديث فأذن له^(٤) ، وكان يسمى صحيفته التي كتبها عن الرسول الصادقة^(٥) . وفي بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا لرجل يميناً خطبة سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية^(٦) . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان من هذه الكتابة لحديث الرسول في حياته ، فإنها كانت محدودة جداً ، وكان الرسول ينهى أن تصبح كتابة حديثه عامة ، حتى لا يختلط بالقرآن ، وهذا هو السبب فيما أثار عنه من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه : « لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن فمن كتب شيئاً فليمحاه »^(٧) . وما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يكتب على عهد الرسول أن نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة في كتابته ، وطفق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإني والله لأُلبس كتاب الله بشيء أبداً^(٨) . فترك كتابة السنن ، وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري ، واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته ، ولكنه على كل حال لم يدون في القرن الأول للهجرة تدويناً عاماً . وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز

- | | |
|--|------------------------------------|
| (١) انظر في ذلك مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة لحفيد الله (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) . | (٤) تقييد العلم ص ٧٤ وما بعدها . |
| (٢) تقييد العلم ص ٨٤ . | (٥) نفس المصدر ص ٨٦ . |
| (٣) تقييد العلم ص ٢٩ وما بعدها . | (٦) تقييد العلم ص ٢٩ وما بعدها . |
| (٤) يوسف العش (ص ٦٥) . | (٧) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها . |
| (٥) تقييد العلم ص ٧٢ . | |

الخلافة (٩٩ - ١٠١ هـ) فأمر بتدوينه . جاء في حاشية^(١) الزرقاني على موطأ مالك : « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشئء اليسير .. حتى خيف عليها اللروس وأسرع في العلماء (من حفظها) الموت ، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمي (ولى المدينة) فيما كتب إليه : أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه . وقال مالك في الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته أو نحو هذا فاكتبه لي فإنني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، علقه البخاري في صحيحه ، وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه . وتوفى عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم في هذا الصدد . وأول مدون للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهري^(٢) المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف في الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تابعت صحاحه مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم .

و إنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبيعياً أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى يهجموا نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا في عبارته وقدموا في كلماتها وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تُروى بألفاظها كما جاءت عن الرسول إنما كانت - تُروى غالباً - بمعانيها ، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

١/٥٧١ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤٤٥
وتذكرة الحفاظ للذهبي ١/١٠٢ والمعارف
لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢/٧٧ .

(١) انظر الحاشية ١/١٠ .
(٢) انظر في ترجمته كتاب الأنساب
للسعافى ٢٨١ وابن خلكان (طبعة بولاق)

على أن طائفة من الأحاديث رُويت رواية تواتر، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نصَّ عليه العلماء بأنه رُوِيَ بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوفى جوامع الكلم ،
 وحققاً ما يقوله الجاحظ من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويُسرَّ بالتوفيق »^(١) ويضرب الجاحظ لبيانه الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذي قلَّ عدد حروفه وكثرت معانيه ، فمن ذلك قوله للأَنْصار :
 « أما والله ما علمتكم إلا لتقلُّون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » وقوله
 « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم » ،
 وقوله : « لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً » ،
 وقوله « المستشار مؤتمن » ، وقوله : « إن أحببكم إلى وأقربكم مني مجالس
 يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطَّئون أكنافاً الذين يآلفون ويؤلفون .
 وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفهبون » ،
 وقوله « لا تَجُنَّ يمينك على شمالك » وقوله : « ما أملقَ تاجر صدوق » وقوله :
 « رَحِمَ اللهُ عبداً قال خيراً فغنمَ أو سكتَ فسلمَ » وقوله : « إن الله يرضى لكم
 ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا
 بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تُنصِّحوا من ولّاه الله أمركم ، ويكره لكم قيلَ وقالَ
 وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقوله : « يقول ابنُ آدمَ : مالي مالي ، وإنما لك من
 مالك ما أكلت فأفانيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو وهبتَ فأمضيتَ » وقوله : « إن قوما
 ركبوا سفينة في البحر فاقْتَسَموا فصار لكل رجل موضع ، فنقرَ رجل موضعه
 بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع به ما شئتُ ، فإن أخذوا
 على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » وقوله : « حصَّنوا أموالكم بالزكاة
 وداووا مرضاكم بالصدقة » وقوله : « من ذبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان
 حقاً على الله أن يحرمَ لحمه على النار » وقوله : « أوصاني ربي بتسع : أوصاني
 بالإخلاص في السرِّ والعَلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ، وبالقصد في الغنى
 والفقر ، وأن أعفو عن ظلمي ، وأعطي من حرمني ، وأصيل من قطعني ،
 وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبيراً » وقوله : « إن الأحاديث ستكثر

(١) البيان والتبيين ١٧/٢ .

بعدي كما كثرت على الأنبياء من قبلي، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله». ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التي دارت بين الناس دوران الأمثال والتي تُعدُّ ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله صلى الله عليه وسلم^(١):

يا خيل الله اركبي - مات حتف أنفه^(٢) - لا تنتطح فيه عنزان - الآن حمى الوطيس^(٣) - كل الصيّد في جوف الفراء^(٤) - هُدنة على دخن وجماعة على أقذاء^(٥) - لا يُلْسَع المؤمن من جُحُر مرتين . ومن أمثاله أيضاً : إن المنبّت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى^(٦) - إياكم وخضراء الدمن^(٧) - الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة^(٨).

وإذا كنا قد عرضنا في غير هذا الموضع لأثر القرآن في اللغة والأدب فإن للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه في البلاغة ، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم . ويمكن أن نلاحظ أثره في أنه عاون القرآن الكريم في انتشار العربية ، وفي حفظها وبقائها ، وكان له أثر أيضاً في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُستخدَم من قبل هذا الاستخدام الخاص . وقد أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسونه ويتحفظونه ويشرحونه ويستنبطون منه . وحقاً أن كثرة رؤيته بالمعنى ، ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور في عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وهي من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالي هي كثر ثمين . وقد استمد المتأديبون من هذا الكثر في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها - على مر العصور - رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

-
- (١) انظر البيان والتبيين ١٥/٢ راجع كتب الأمثال .
 (٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه .
 (٣) الوطيس : التنور . يضرب مثلاً في اشتداد الحرب .
 (٤) الفراء : حمار الوحش . يضرب مثلاً في نفاة الشيء ، أو الشخص .
 (٥) دخن : حقد .
 (٦) المنبت : من أسرع بناقته حتى هلك فلم يقض ما ينبغي من حاجة أو من سفر . والظهر : الناقة التي يركبها .
 (٧) الدمن : البعر المتلبد . يضرب مثلاً للتفسير من المرأة الحسناء تنشأ في منبت سيء .
 (٨) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذي أبدل فيه أل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من أمبير أمصيام في أمسفر » ، أي ليس من البر الصيام في السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء في غريبه كتباً ، من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام . ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا في السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً في تراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب في أن المسلمين أشد الأمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف في مثل طبقات ابن سعد وأُسْدُ الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبي . فالحديث هو الذي فتح باب الكتابة التاريخية وهياً لظهور كتب الطبقات في كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته في علوم التفسير والفقهِ ، مما بعثَ على نهضة علمية رائعة .

الفصل الثالث

الشعر

١

كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظِم من أشعار في صدر الإسلام ، وهي أشعار كثيرة ، نلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهي دعوة اضطرتته إلى حمل السيف للنياد عنها ، وانقسم العرب بلزأها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحسن إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلاً على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام في الجزيرة ، غير أن أقواء ارتدوا لعهد أبي بكر ، فحاربهم ومثل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم ينشدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب علي وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب علي ومعاوية من جهة ثانية ، فعملت أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم في كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون في هذا العصر لامع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيين إلى حد كبير بالإسلام وهديته الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر ، وهذا طبيعي لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه . وقرأ في كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبري وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، وقرأ في

المفضليات والأصعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان في كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة في الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوديهم البارعين :

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر في نفسه أن الشعر ظل مزدهراً في صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقّف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقرّ ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه ^(١) . وكأنه يجعل توقّفهم عن الشعر مدة نزول الوحي لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل في الإسلام بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة . وإذن فانصرفهم عن الشعر — إن صح — إنما كان لمدة عامين أي إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله في أول كلامه بما قاله في آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة يتنافحون عنه ويردّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذاتيين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وحتى في العامين الأخيرين من حياته عامي الوفود كان كل وفد يتقدّم معه خطباؤه وشعراؤه ، وبمجرد أن يمشلوا بين يديه يتحدث خطباؤهم وينشد شعراؤهم ويردّ عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه ^(٢) .

ولعل الذي دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلام وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب وتشاغلوا

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) . (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٦/٤ ص ٤٢٧ . وما بعدها .

بالجهاد وغزو فارس والروم ولقت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير»^(١) . وابن سلام إنما يقول ذلك ليدل على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفي ما قاله من أنهم لم يدونوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل ، أما قوله بأن العرب لقت عن الشعر وشغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى : (والشعراءُ يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » . وواضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويشبِّطون عن دعوته . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذي قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً »^(٢) أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعْجَبُ بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً أو حكمة »^(٣) ، وكان يحضُّ حسان بن ثابت وغيره على نظمه وشيئهم . وكان بعض خصومه ممن توعدهم يتخذه وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذي أحفظه بأشعار مختلفة ندد فيها بالإسلام ، ثم قدِمَ عليه فأنشدته لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فهلل وجهه بشراً وخلع عليه برُدته^(٤) .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (٣) العمدة ٩/١ .
 (٢) (٤) أغاني (طبعة الساسي) ١٥/٢١ وما بعدها .
 (٣) (٢) العمدة لابن رثيق (الطبعة الأولى) ١٢/١ .
 (٤) (٣) العمدة لابن رثيق (الطبعة الأولى) ١٢/١ .

والحق أن الإسلام لم يردَّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذهُ سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وقع نبئله عليهم أشد من وقع الحسام^(١) . وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم^(٢) ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه في المسجد^(٣) . وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً^(٤) ، ويقال إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : « مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »^(٥) ، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »^(٦) .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُشَبَّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الخطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع في هجائه للزبير بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهدته على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء^(٧) . وتابع عثمان سنة عمر في التشديد على من يسألون المسلمين بالسنة حداد ، وقصته مع ضبابي بن الحارث البُرْجمي مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعا أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات^(٨) .

٢٧٠/٥ وخزانة الأدب للبغدادى ٢٩٢/٢ .

(٥) العمدة ١٠/١ .

(٦) البيان والتبيين ٢٤١/١ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٥/٢ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ وانظر في ترجمة

ضبابي أيضاً الشعر والشعراء ٣٠٩/١ والإصابة

٢٦٧/٣ والخزانة ٨٠/٤ والكامل للبرد (طبعة

رايت) ص ٢١٩ .

(١) العمدة ١٢/١ .

(٢) راجع خطبة أبي بكر في السقيفة

وكتاب عثمان إلى علي حين حوَّص ، وانظر ابن

سعد ٥٧/٦ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوروبا) ج ١ ق ٢

ص ٩٥ - ٩٦ والفائق للزحشرى ٢٥٧/١ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٩/٨ ،

٢٨٨/١٠ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف)

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة في هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض ، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كَفَّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان يُنشدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين المرتدين أو في الفتوح أو في معركة على مع خصومه في العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حَلَّتْ من عَقْدِ الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعرَف في الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معاً .

٢

الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثم كُنا نخرج دُرَيْدَ بن الصَّمَّةِ والأعشى وأمية ابن أبي الصلت والأسود بن يعفر النهشلي وأضرابهم من سِلْكِ المخضرمين ونظمهم في سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادَّت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلديتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب في جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفؤوا حوله في المدينة في جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء في الجائنين المتناقضين يسلّون ألسنتهم ، ولم تكن مكة في الجاهلية - كما قدمنا - تُعرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنسب لورقة ابن نوفل وغيره من المتحتمين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتيانها مثل نبيته ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج في أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبَيْرِ وضرار بن الخطاب الفهري وأبي عزة الجمحي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ، وقد أخذوا يسدّون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعز ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله بما يذيع من شعرهم في القبائل العربية ، فقال لأنصار : «ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرني به ميقول بين بصرى وصنعاء»^(١) وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . وقرأ في سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد في السنة الثالثة وغزوة الخندق في السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك في فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغي أن نشك في كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق - كما يقول ابن سلام - كان يحتمل كل غشاء من الشعر حتى أفسده وهجنه^(٢) ، ونرى ابن سلام يقول في ترجمته لأبي سفيان بن الحارث : «لسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم»^(٣) . على أن ابن سلام نفسه يثبت لأبي سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها في يوم أحد كافية كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر^(٤) ، وقد

(١) أغاني ٤/١٣٧ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٣) ابن سلام ص ٨ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزبعمري قصيدته التي قالها في نفس اليوم^(١) ، والتي يقول فيها :
 ليت أشياخي ببدر شهدوا ضَجَرَ الخَرْجِجِ من وقعِ الأَسَلِ^(٢)
 حين أَلقتُ بقباءِ بَرَكْهَا واستحِرَّ القتلُ في عبدِ الأَسَلِ^(٣)
 فقبلنا النُّصْفَ من سادتهم وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتدل^(٤)

وأيضاً فإنه أثبت لأبي عَزَّة ميمية يحرض فيها بني كنانة^(٥) ، وقال عن هبيرة بن أبي وهب : إنه كان شديد العداوة لله ورسوله ، وهو الذي يقول في يوم أحد^(٦) :

قُدْنَا كنانةً من أكنافِ ذى يَمَنٍ عَرَضَ البلادِ على ما كان يُزجِيها^(٧)
 قالت كنانةُ : أنى تذهبون بنا قلنا : النخيلَ ، فأموها وما فيها^(٨)

وكان في الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدثى بها أبا سفيان بن الحارث^(٩) :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجَزَاءُ
 فإن أبي ووالده وعرضي لِعَرَضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ
 أتَهجوه ولستَ له بكفءٍ فشركما لخيركما الفِداءُ

-
- (١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .
 (٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركي قريش . الأسل : الرماح .
 (٣) قباء : موضع بضواحي المدينة . أَلقتُ الحرب بركها : حمى وطيمها . استحِرَّ القتل : اشتد وكثر .
 (٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتل بدر .
 (٥) ابن سلام ص ٢١٣ .
 (٦) ابن سلام ص ٢١٥ .
 (٧) الأكتاف : النواحي . ذويمن : موضع قريب من مكة . يزجي : يسوق ويدفع .
 (٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرة فيها . أموها : تصدوها .
 (٩) أغاني ١٣٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أُحُدٍ في كلمة :

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطَهُ	أَحَابِيثُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْنَعٌ ^(١)
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيْبُهُ	ثَلَاثُ مِثْنِ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعٌ ^(٢)
فَرَاخُوا سِرَاعاً مُوجِفِينَ كَأَنَّهُمْ	جَهَامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعٌ ^(٣)
وَرُخْنَا وَأَخْرَانَا بِطَاءٍ كَأَنَّنَا	أَسْوَدٌ عَلَى لَحْمٍ بَيْشَةَ ظَلَعٌ ^(٤)

وقال في أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُرْعِبِلُ بَعْضُهُ	بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُحْرَقِ ^(٥)
فَلِيَّاتٍ مَأْسَدَةً تُسَلُّ سِيوفُهَا	بَيْنَ الْمَذَادِ وَبَيْنَ جِرْعِ الْخَنْدَقِ ^(٦)

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسن إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مؤتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله^(٧) :

نَجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ فَنَأْسِرُهُمْ	فِينَا النَّبِيُّ وَفِينَا تَنْزِلُ السُّورُ ^(٨)
وَقَدْ عَلِمْتُمْ بَأَنَا لَيْسَ غَالِبَنَا	حَتَّى مِنْ النَّاسِ إِنْ عَزَّوْا وَإِنْ كَثُرُوا
يَا هَاشِمَ الْخَيْرِ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَكُمْ	عَلَى الْبَرِيَّةِ فَضْلاً مَا لَهُ غَيْرُ ^(٩)
فَثَبَّتْ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ	تَثْبِيتِ مُوسَى وَنَصْرَ آكَالِذِي نُصِرُوا ^(١٠)

النار في القصب . الأباء : أجمة القصب .
يصف أصوات المعركة .
(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد :
موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .
(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .
(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم
لا يبالون من يضر بون .
(٩) غير : تغيير .
(١٠) يقصد الرسل .

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا
عند جبل يسمى حبشياً . الحاسر : الذي لا بيضة
له عكس المقنع .
(٢) النصبة : الخيار والأشراف .
(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب
أفرغ مائه .
(٤) بيشة : مسبة في واد كثير الشجر .
ظلع : من الظلع وهو العرج . يكتنى بذلك عن سيرهم
البطيء المطمئن .
(٥) يرعبل : يمزق . المعمة : صوت لهب

وفي الأغاني أن حسناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعبيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة»^(١). ومن المؤكد أن حسناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبت على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة، لأنها هي التي كانت تؤذي نفوس القرشيين المكثين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزُّون بها، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا في الأحساب والأنساب، وعير اساداتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير. وطبيعي لذلك أن لا نجد عندهما تأثيراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم في ذم المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والطعن في الأعراض والأحساب، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحربٍ مُسيرة تأتي على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون في دينه الحنيف.

وكان يَشْرَكُ شعراء قريش في التآليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الحوار^(٢) وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذّلون عنه قريشاً والعرب، يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم وبأبي الله إلا أن يُتَسِمَ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم في هذا الفساد كعب بن الأشرف^(٣)، وقد بلغ من سوء فعله أن كان يشبّب بنساء الرسول ونساء المسلمين، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله في رهط من الأنصار^(٤). غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سراً وجهاً على تقويض الدعوة المحمدية، فاضطر الرسول إلى إجلائهم عن المدينة، حتى إذا اتهمنا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلائهم عن الجزيرة.

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية

٥٤/٣ وما بعدها.

(١) أغاني ١٣٨/٤.

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٤٧/٢.

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٠٦/١٩.

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت، ورتاؤه لقتلى بدر مشهور^(١) ومثل الأسود بن يعفر الذي أشاد بانتصارها في يوم أحد^(٢)، وقد ماتا في أثناء هذا الصراع. وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التي لما تدخل في الإسلام. وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر^(٣) :

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ وَتَرٍ وَخَيْبَرَ ثُمَّ أَحْجَمْنَا السُّيُوفَا^(٤)
 نَخِيرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا^(٥)
 فَلَسْتُ لِحَاصِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مَنَا أُلُوفَا^(٦)
 فَتَنْتَزِعَ الْعُرُوشَ بَبْطِنٍ وَجٍ وَتَتْرِكُ دَارِكُمْ مَنَا خُلُوفَا^(٧)
 وَتُرْدِي اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَوَدَا وَتَسْلُبُهَا الْقَلَائِدَ وَالشُّنُوفَا^(٨)

وتفتتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية في شعراء هذيل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهذلي في بكائه لدمية سادن العزري حين قتله خالد بن الوليد^(٩). وتظل بقية أخرى في ثقيف ومعاركها مع الرسول في حنين. على أنه بمجرد أن دخلت مكة في الإسلام أدمجت الجزيرة كلها فيه، وأخذت وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدين الحنيف. وفي هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

- (١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١.
 (٢) ابن سلام ص ١٢٣.
 (٣) ابن سلام ص ١٨٤.
 (٤) الوتر : الثار .
 (٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف .
 (٦) الحاصن : المرأة العفيفة .
 (٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم .
 وج : الطائف ونواحيها . والحى الخلوف : الذي فارقه الرجال، يقصد أنهم سيبيدونهم .
 (٨) نردى : نهدم . اللات والعزى وود : أصنام . القلائد : السموط . الشنوف : جمع شنف وهو القرط .
 (٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ١٤٨/٢ وانظر الأصنام لابن الكلبي ص ٢٤ وما بعدها .

يطلبون عفوهُ ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ، ومثله أنس بن زعيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم تاب إلى رشده ، فقدم عليه معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول في تضاعيفها^(١) :

وما حملتُ من ناقةٍ فوق رَحَلها أبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمدٍ

ونظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرةً يأسى فيها على ما فرط في جنب الله ورسوله على شاكلة قوله^(٢) :

لعمرك إني يوم أحمل رايةً لتغلبَ خيلُ اللات خيلَ محمدٍ
لكالمُدْلِجِ الحَيْرانِ أظلمَ ليلهُ فهذا أوانٌ حين أهدى وأهتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمدح الرسول وهدية الكريم ، يتقدمهم في ذلك شعراء المدينة ، وتُنسَبُ إلى الأعشى قصيدة في مديحه^(٣) لا شك أنها منحولة ، وتُنسَبُ لأبي طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضٌ يُسْتَشْفَى الغمامُ بوجهه ربيعُ اليتامى عِصمةٌ للأرامل

ويقول ابن سلام : «قد زيد فيها وطوِّلت»^(٤) وتُنسَبُ إلى عباس بن مرداس فارس بنى سُليمان أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله^(٥) :

نبيُّ أتانا بعد عيسى بنساطقٍ من الحق فيه الفضلُ منه كذلكا
أميناً على الفرقان أول شافعٍ وآخر مبعوثٍ يجيب الملائكا

ونظم كثير من المراثي في قتلى المسلمين والمشركين ، ورتاءُ قتيبة لأبيها النَّضْر بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رثي به قصيدة حسان التي يستهلها بقوله^(٦) :

ما بالُ عيني لا تنام كأنما كُحِلتُ مآقيها بكُحْلِ الأزمَدِ

(١) الإصابة لابن حجر ٦٩/١ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٥/٩ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٠٥/١٤ .

(٦) ديوان حسان (طبعة هرشفيلد) ص ٥٨ .

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكفى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصَفَى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون في صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

٣

الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

عَمَّت أضواء الإسلام في الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن في الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قضى على الوثنية في أنحاءها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية، وهذا هو السر في نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبعيرهم ، فاستشار الصديق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أحر من السماء فتحظفني الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيي هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعوني عيالا لجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبى ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حسن إسلامهم في القبيلتين أن يردوهما عن غيبتها ، ولم يلبث أن التقى بهما خالد عند بئر بُزَآنحة ، فنكل بهما تنكيلاً شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد تَوّاً إلى تميم ومنتبئتها مسجاح فلم تلبث بعد مناوشات صغيرة أن أذعنت له ،

وقُتل حينئذ مالك بن نويرة سيد بني يربوع ، ولأخيه متم فيه مرث رابعة^(١) .
واتجه خالد بجيشه نحو بني حنيفة في اليمامة ومنتبهاً مسيلاً ، فالتقى بها في
«عقربة» ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحر فيها القتل ، غير أن الدوائر لم
تلبث أن دارت على بني حنيفة ، فسقط منتبهاً في ميدان المعارك ، وأعلنت
استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله ، وسرعان ما دانت «البحرين»
بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن ،
حيث التفّ الناس هناك حول متبني يسمي الأسود العنسي ومنتبني آخر يسمي
قيس بن عبيد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت
ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هي الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها
كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة في وعظه لبني
عامر^(٢) :

بني عامرٍ إن تَنصُرُوا اللهَ تَنصُرُوا وإن تَنصَبُوا للهَ والدينَ تُخَدَلُوا
وإن تُهزَمُوا لا يُنَجِّمُ منه مهربٌ وإن تثبتوا للقومِ واللهُ تُقَتَّلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول
أوس بن بجير الطائي في موقعة بزاخة^(٣) :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنا وما تَخْتَلِي من أذرعٍ ورقابٍ^(٤)
ألم تر أن اللهَ لا ربَّ غيره يصبُّ على الكفارِ سوطَ عذابٍ
وللمرتدينَ أشعارٌ مختلفة يستثيرون بها العزائم^(٥) .

(١) انظر في متم وراثته لأخيه الأغانى (طبعة الساسى) ٦٣/١٤ والشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ٢٩٦/١ والخزاة ٢٣٤/١ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبي) ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٦٣ ، ٢٧١ .
(٢) الإصابة لابن حجر ٥٥/٢ وراجع في أشعار أخرى الإصابة ٢٧٤/١ ، ٣/٢ ، ١٥٢/٢ ، ١٢٢/٥ .
(٣) الإصابة ٥٥/٢ .
(٤) تختلى : تقطع .
(٥) تاريخ الطبرى ٤٩٤/٢ والإصابة ١٢٥/٣ .

ورُئِبَ الصَّدْعُ وعاد الحق إلى نصابه، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كي ينتشروا الإسلام في آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجاهدون في سبيل الله ويتغنون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبي العراق أمام جيوش المنشي بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان في فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرطابون في موقعة أجنادين كما انتصر في موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولي على حمص . ويتوفى أبو بكر في السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى لله ورسوله ، وكان آخر ما تكلم به « رَبِّ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ »^(١) ، وبكاه كثير من الشعراء^(٢) ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت^(٣) :

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقةٍ فاذكرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا
التالي الثاني المحمودَ سيرته وأولَ الناسَ منهم صدقَ الرسلا
وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعَّد الجبلا
وكان حِبُّ رسولِ الله قد علموا خيرَ البريةِ لم يعدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف في الحق لومة لائم . وهو أول من دوّن الدواوين ورتّب الناس فيها على سوابقهم ، وأول من رتّب التاريخ العربي وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمر المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره في ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش في الشام وولّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، قائمًا يعاونه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر . أما في الشرق فكانت المعركة

(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين

(١) الطبرى ٦١٥/٢ .

(٢) الطبرى ٦١٧/٢ والاستيعاب ص ٣٤٢ . ٣٦٢/٣ .

حامية الوطيس . وقد أمدَّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قَسِّ الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومضى الفرس بهزيمة شديدة ، وقتل قائدهم رستم فى المعركة . وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرقى دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزدجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزدجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان من قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ونحيل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسَّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الحنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البريقي بن عياض الهنلى ، إذ يقول (١) :

وإن أمس شيخاً بالرجيع وولدةً وتصبح قوى دون دارهم مضر (٢)
أسائلُ عنهم كلما جاء ركبٌ مقياً بأملحٍ كما ربط اليعر (٣)
فما كنت أخشى أن أقيم خلافتهم بستة أبيات كما نبت العتر (٤)
وكان عمر ينتهى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برآ بهم ، ويروى أن المخبل السعدى جزع جزعا شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنَّ وضعف ، فافتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

(٣) أملح : موضع . اليعر : الجدى الكبير .
(٤) العتر : شجر له ورق صفار .
خلافتهم : بعدهم .

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب)
٥٨/٣ وانظر أيضاً ١٩٧/٢ ، ١٩٩/٢
حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً مماثلة .
(٢) الرجيع : موضع . وللة : صبية .

إذا قال صحبي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شييان أن لن يعقني تعقُ إذا فارقتني وتَحُوبُ^(١)
فرقاً له عمر، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شييان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل
عنده حتى مات^(٢). وليس المخبل وحده الذي فرغ إليه يشكو هجرة ابنه، فقد
فرغ إليه أيضاً أمية بن حُرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب
الفرس، وكان مما أنشده فيه:

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا^(٣)
إذا هتفتُ حمامةُ بَطْنِ وَجٍ على بَيْضاتها ذكراً كلابا
تركتَ أباك مُرْعَشَةً يدها وأمك ما تُسِيغُ لها شرابا
فأمر بإشخاصه إليه^(٤). ومن فرغ إلى عمر أيضاً في ذلك أبو خراش الهذلي
حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام، وقد أنشده شعراً مؤثراً، فأمر برده عليه
وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته^(٥).

ولعل في هذا كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد
في سبيل الله، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء
الدنيا والغنائم^(٦) لا ابتغاء الله وثواب الآخرة، وربما كان من خير ما يرد عليهم
قول النابغة الجعدي لامرأته، وقد أظهرت تأثرها لهجرته في فتوح فارس^(٧):

يا ابنة عمي كتابُ الله أخرجني طوعاً وهل أمنعُ الله ما فعلا
فإن رجعتُ فربُّ الناس يرجعني وإن لحقتُ بربي فابتغى بدلا
ما كنتُ أعرجُ أو أعمى فيعذرني أو ضارعاً من ضنني لم يستطع حولا^(٨)

(٦) راجع تاريخ الدولة العربية لقلهوزن
(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥
والعقيدة والشريعة لجولد تسيهر ص ١٣٧ .
(٧) الشعر والشعراء ١/٢٥١ وقد ظلت هذه
الروح مهيمنة على القاتحين في العصر الأموي،
انظر الطبري ٥/٤١٣ .
(٨) ضارعا : ضاويانحيا . ضنى : مرض .

(١) تحوب : تأثم .
(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/١٩٠ .
(٣) يقصد ما في كتاب الله من رعاية الآباء
والبر بهم .
(٤) ابن سلام ص ١٦٠ والخزائن ٢/٥٠٥ .
(٥) أغاني (مأسي) ٢١/٦٩ وديوان الهذليين
٢/١٧٠ وانظر في حالات مشابهة الأمالي
٢/٣٠٩ وذيله ص ١٠٩ .

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعا للعدل والتقوى والزهد في الدنيا .
وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد
أبي لؤلؤة المجوسى الآثمة في الظلام ، قطعته بمنجبر مسموم طعنات لأربع ليال
بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء
المسلمين ونشيجهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جرّاء بن ضرار أخى
الشاخ^(١) :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمَمْرُقِ^(٢)
فَمَنْ يَسْعَ أَوْ يَرْكَبَ جَنَاحِي نِعَامَةٍ لِيُذْرِكَ مَا حَاوَلْتَ بِالْأَمْسِ يُسْبِقُ
قَضِيَّتَ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تَفْتَقِ^(٣)

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى في ستة من أصحاب
رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان
وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام
وسعد بن أبي وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، ففضى ينفذ سياسة عمر في
إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقر معاوية بن أبي سفيان على الشام ، إلا أنه
عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاهها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ،
ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة
على عثمان في الكوفة يقودها الأشتر النخعي وفي مصر يقودها محمد بن أبي حذيفة
ومحمد بن أبي بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ،
إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من
الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملاهم موجدة . وكانت هناك أسباب
وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خمّس الغنائم وأن تستأثر الدولة
بالقسيء وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها
إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يُسلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفائهم من

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ١٥٩/٩ (٢) البوائق : النواهي . تفتق : تشق عن
والبيان والتبيين ٣/٣٦٤ .
ثمها . والاستمارة واضحة .

(٢) الأديم : الجلد .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يشركوا الدولة في الفىء ، ولكن صوتهم لم يرتفع في عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التذمر يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدنى إلى قتله في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة^(١) ، من ذلك قول أيمن بن خريم^(٢) :

ضَحُوا بِعِثَانَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ضَحَى وَأَيُّ ذَبْحٍ حَرَامٍ لَهُمْ ذَبَحُوا
 إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَتْلَهُ سَفَهًا لَاقُوا أَثَامًا وَخُسْرَانًا فَمَا رِبَحُوا
 مَاذَا أَرَادُوا أَضَلَّ اللَّهُ سَعْيَهُمْ بِسَفْهِهِمُ لِلدَّمِ الزَّكِيِّ الَّذِي سَفَحُوا
 وكان علي[ؑ] يُعَدُّ أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرضِ طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سخطهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده ، وتبعهم علي ، فترزق في الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ، وسرعان ما انتصر علي في موقعة الجمل المشهورة ، وقُتِلَ طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة . وكان علي[ؑ] قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام ، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولي[ؑ] دم عثمان ، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . وسار إليه علي[ؑ] بجموعه ، فالتقوا على الحدود العراقية السورية في صيفين الواقعة على الضفة اليمنى للفرات ، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يكتسب لعلي[ؑ] ، غير أن معاوية عمد - بمشورة عمرو بن العاص - إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده ترزق المصاحف على أسنة رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن ووقف هذه الحرب الميرة للمسلمين ، وتنبه علي[ؑ] للحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وقف القتال والدخول مع معاوية في مفاوضات . واتفق الفريقان على اختيار حكيمين ، هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبي موسى الأشعري عن علي ليحكما بينهما على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يُقنع أبا موسى بخلع علي ومعاوية

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل .

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٤٩٣ .

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل
 للمبرد (طبعة رايت) ص ٤٤٤-٤٤٥ والطبرى

معاً . ولم يلبث مركز عليّ أن تززع في العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعت منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها في حروراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع علي . وعبثاً حاول إقناعهم بخطهم ، ولم ير أخيراً بلداً من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النهروان في دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذي تحيّن منه فرصة ، وقتله غيلةً ليلة الجمعة لثلاث عشرة نخلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه^(١) ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي إذ يقول^(٢) :

أفي شهر الصيام فجعثمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث حلت بأنك خيرها حسباً وديننا

وقد كثرت الأشعار في هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض الثائرين عليه والساخطين بصورون ثورتهم وسخطهم في أشعار كثيرة^(٣) ، ويُقتل عثمان ، ويبكيه كثيرون وخاصة من بني أمية . وقد ذهبوا يتوعدون علياً ويتهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم^(٤) :

وإنا وإياكم وما كان منكم كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرزبه
وقد مضى بحرّض معاوية على الأخذ بثأره في أشعار كثيرة^(٥) . وتطورت

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٠/٥
والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .

(٥) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)
١٢٢/٥ وما بعدها والاستيعاب ص ٢٢٢
والطبرى ٤٤٩/٣ .

(١) انظر في مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ -
٤٨٦ والطبرى ١١٦/٤ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢
والطبرى ١١٦/٤ وخيسها في البيت الثاني :
ذالها .

(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .

الأمور ، ونشبت وقعة الحمل بين علي وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوت
في هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة^(١) من مثل قول القائل^(٢) :

نحن بنو ضَبَّةَ أصحابُ الجمَلِ نَنعَى ابنَ عَفَّانِ بِأَطرافِ الأَسَلِ
ننازل الموتَ إذا الموتُ نَزَلَ والموتُ أَشهى عندنا من العَسَلِ

والتقى علي بمعاوية في صفين ، وحمل وطيس المعارك ، وتنادى الشعراء
يهددون ويتوعدون ، وكلُّ يعتقد أن الحق في جانبه ، من مثل قول أبي الطَّفَيْلِ
عامر بن وائلة يصف بعض أنصار علي :

كَهولُ وشبانُ وساداتُ معشِرِ على الخَيْلِ فرسانُ قليلُ صدودها
شعارهمُ سِيا النبيِّ ورايةُ بها انتقمُ الرحمنُ ممن يكيدها
وردَّ عليه خزيمَةُ الأسدِ يصف جيش معاوية^(٣) :

ثمانون ألفاً دينُ عثمانِ دينهم كتائبُ فيها جِبْرِيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمِتُ ففي النارِ سُقْياهُ هناك صديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها
نيران العصبية القبلية^(٤) ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن في
تاريخ الطبري وفي كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفي لبيان ما انزلق على
الألسنة من أشعار ملتهبة^(٥) . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين علي والخوارج ،
ومنذ خروجهم وشعرهم لا يتخمد له أوار . ومن غير شك أذكت كل هذه
الأحداث جذوة الشعر العربي إذكاء وأشعلتها إشعالا .

(١) تاريخ الطبري ٥٢٢/٣ وما بعدها . نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ٣١٢ ،

(٢) الطبري ٥٢٧/٣ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥ / ١٤٩ .

(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبدالسلام محمدرؤف)

(٥) انظر الطبري ١٦/٤ وما بعدها

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله دولتي
الفرس والروم . فقبضوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام
ومصر . وكانوا في أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتغنون
فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن
نعرِّض كل ما نظموه في مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف
قليلاً عند موقعة واحدة في الشرق هي موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم
أبي محجن الثقفي^(١) ، وكان مولعاً بالحمرة فحبسه سعد بن أبي وقاص ، حتى
إذا احتدمت المعركة توسَّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه - على أن يعود إلى
قيده - ليسبهم في شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد
إلى سجنه وهو ينشد^(٢) :

لقد علمت ثقيفٌ غير فخرُ بآنا نحن أكرمهم سيفنا
فإن أحيِسُ فقد عرفوا بلائى وإن أطلقَ أجرعهم حُتوفا
وكان حول أبي محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برؤوس أبطالهم ،
وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ، منهم عمرو بن معديكرب الزبيدي^(٣) ، وكان
من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك
ونهاوند ، ومن شعره^(٤) :

والقادسيةُ حين زاحم رُستمُ كنا الحماةُ بين كالأشطان^(٥)
الضاربين بكل أبيضٍ مخدَمٍ والطاعنين مجامع الأضغان^(٦)

٤٦٠/٣ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة
الجبلي) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢٤٠/٢
والعيني ٣٧٩/١ .

(٤) ذيل الأمانى ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخدَم : القاطع .

مجامع الأضغان : القلوب .

(١) انظر في ترجمة أبي محجن الأغاني (طبع

الساسي) ١٣٧/٢١ والشعر والشعراء ٢٨٧/١

والإصابة ١٧٠/٧ والخزاة ٥٥٠/٣ وما بعدها

والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغاني ١٤٠/٢١ .

(٣) انظر في ترجمته كتب الصحابة وأغاني

(دار الكتب) ٢٠٨/١٥ والشعر والشعراء ٣٣٢/١

وذيل الأمانى ص ١٤٥ والخزاة ٤٢٢/١ ،

ومهم بشر بن ربيعة الخشعمي ، وله يصور بلاءه وبلاء قومه في مواقع القادسية^(١) :

تذكرُ - هداك الله - وقع سيوفنا
عشيةً ودُ القوم لو أن بعضهم
إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ
ترى القوم فيها واجمين كأنهم
بباب قُدَيْسٍ والمكرُ عَسِيرٌ^(٢)
يُعار جَنَاحِي طائر فيطير
دَلَفْنَا لِأُخْرَى كالجبال تَسِيرٌ^(٣)
جمالٌ بِأَحْمَالٍ لهنَّ زفيرٌ^(٤)

ومن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح المرادي ابن أخت عمرو بن معديكرب ، وهو الذي قتل رستم قائد الفرس في تلك المعارك ، وله يصور ذلك^(٥) :

جلبتُ الخيلَ من صنعاء تَرْدِي
إلى وادي القُرَى فديارِ كلبِ
وجئتُ القادسيَّةَ بعد شهرٍ
فناهضنا هنالك جَمع كسرى
بكل مدججٍ كالليث ساهي^(٦)
إلى اليَرْموكِ فالبلد الشاهي
مسومةٌ ، دوابرُها دواهي^(٧)
وأبناء المرازبة الكرام^(٨)
قصدتُ لموقف الملكِ الهمام
فأضربُ رأسه فهوى صريعاً
وقد أبلى الإلهُ هناك خيراً
وفعلُ الخير عند الله نامي^(٩)

ومن حضر القادسية الأسود بن قُطبة ، وله فيها أشعار كثيرة^(١٠) ، وعمرو بن

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٤٣/١٥ .
(٢) قديس : يريد القادسية أو موضع بجانبها .
(٣) دلغنا : تقدمنا .
(٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع كظم النفيظ .
(٥) فتوح البلدان للبلاذري (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .
(٦) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .
(٧) مسومة : معلمة . الدوابر : العراقيب .
دواهي : ملطخة بالدم .
(٨) المرازبة : رؤساء الفرس .
(٩) أقل : مثلم . كهام : كليل لا يفلح .
(١٠) الإصابة ١٠٨/١ .

شأس الأسدي^(١)، وكان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام، وله يذکر قتل
رستم^(٢) :

قتلنا رُستماً وبنيه قسراً تثير الخيلُ فوقهم الهيالا^(٣)
وفرُّ الهرمزانَ ولم يحامى وكان على كتيبه وبالا^(٤)

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله^(٥) :

برزتُ لأهل القادسية معلماً وما كلُّ من يَغشى الكريهة يُعلم
ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبي^(٦)، وقد ختم
الجاحظ كتابه «الحيوان» بأبيات له يذکر فيها بلاءه حيثنذ، يقول فيها^(٧) :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحولها أبناء فارس بيضها كالأعبل^(٨)
مُتسربلي حلقِ الحديد كأنهم جُربٌ مقارفةٌ عنيّةٌ مهمل^(٩)

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج في أغانيه، وهو فيها يتحدث بجانب
صنيعه في تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى
صاحبه الصبوح، ونحن نعرف أن الإسلام حرّم الخمر، ومن ثم كنا نقطع
بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما في الجاهلية، وقيل ثانيهما في
الإسلام، وسرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين ترجم
له في الفصل التالي. ومن ذلك قصيدة لعمبة^(١٠) بن الطيب، وهو من الشعراء
المجيدين الذين أبلوا في حروب القادسية والمدائن، ونراه يستهلها بقوله^(١١) :

- | | |
|---|---|
| (١) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٦/١١ والشعر والشعراء ٣٨٩/١ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٢. | (٧) الحيوان (طبعة الحلبي) ٢٦٣/٧. |
| (٢) الطبري ٥٠/٣. | (٨) البيض: الخوذ. الأعبل: حجر أبيض. |
| (٣) الهيال: ما ينهال من النبار. | (٩) يشبه الفرس بإبل جرباء. مقارفة: من القراف وهو داء يقتل البعير. العنية: طلاء للجرب، وأراد نفس الإبل الجربي. والمهمل: الذي يهمل الإبل في المرعى. |
| (٤) الهرمزان: الكبير من حكام الفرس. | (١٠) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة الساسي) ١٦٣/١٨ والشعر والشعراء ٧٠٥/٢ والإصابة ١٠١/٥ والموشح ص ٧٥. |
| (٥) الأغاني (طبع الساسي) ٥١/١٦. | (١١) انظر القصيدة في المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ١٣٥. |
| (٦) انظر ترجمته في أغاني (ساسى) ٩٠/١٩ والشعر والشعراء ٢٧٩/١ والإصابة ٢٢٠/٢ والخزاة ٥٦٦/٣. | |

هل حبل خَوْلَة بعد الهجر موصولٌ أم أنت عنها بعيدٌ الدار مشغولٌ
ويعمى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رعوَسَ العُجْمِ ضاحيةً منهم فوارسٌ لا عُزْلٌ ولا مِيلٌ^(١)
ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربِّ سَيِّئه حسنٌ وكل خيرٍ لديه فهو مقبول
ولكننا نُصدَمُ في آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثمَّ كنا
نقطع بأن للقصيدة أصلاً قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يجلِّون من
خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة في سبيل
الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجتمع كثيراً من الأشعار التي نُظمت في
كل معركة ، سواء مع الفرس أو مع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة
مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبري وكتب الأدب مثل
الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب في الفتوح
ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مرث راثعة لبعض
من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كثير بن الغريزة التميمي يرثي بها من
أصيبوا في معارك الطالقان وجوزجان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول^(٢) :

سَقَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ مصارعَ فتيةٍ بالجوزجانِ
وما بي أن أكون جَزِعْتُ إلا حنينَ القلبِ للبرقِ اليماني
ورُبُّ أخٍ أصاب الموتُ قبلي بكيتُ ولو نُعيتُ له بكاني

وعبروا في أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهلهم . وبجانب هذا الحنين
والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم في المغازي بعامة ، على نحو

حيث سرد أبو الفرج القصيدة في ترجمته وانظر
فيه الإصابة ٣١٨/٥ والخزانة ١١٨/٤ ومعجم
الشعراء ص ٢٤٠ .

(١) يقارعون: يضاربون . العجم : الفرس .
العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
الميل : جمع أميل وهو الذي لا يحسن ركوب الخيل .
(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٧٨/١١

ما نجد عند زياد بن حنظلة في وصفه لمغازى الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين^(١) ويروون أنه كان لأوس^(٢) بن مخرّاء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم في الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمدٌ خيرٌ من يمشى على قدمٍ وكان صافيةً لله خلصانا
ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما اتّسمنوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصّعق ، فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الحراج ، يقصُّ عليه كيف أثروا ثراء غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها وما يأخذون لأنفسهم من المغازى ، وفيها يقول^(٣) :

نؤوبٌ إذا آبوا ونغزوا إذا غزوا فأنى لهم وفرٌ وليس لنا وفرٌ

وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه في فتوحهم من المعازل والحصون والحيوان كالقيل . وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين^(٤) .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التي نسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المجوّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولاً ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجنود . ومن ثمّ اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يرسل الراوى الشعر إرسالاً بدون نسبه إلى شاعر بعينه ، وينصُّ الطبرى على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يُعرَفُ من نظمهما ، ويعقب عليهما بقوله : « وسمع بنحو

(١) طبرى ١٠٨/٣ .

مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة

(٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

دار الكتب) ٨/٥ والشعر والشعراء ٦٦٨/٢ (٤) الحيوان ١٣٧/٤ والإصابة ١٤/٢ ، ٦٠/٥

والإصابة ١١٨/١ وابن سلام ص ٤٤٥ وفي

ذلك في عامة بلاد العرب^(١) . وكان طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب ، فناظمها لا يعرفُ كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجِّدوا بل إنه لا يعنيه أن يذكر أو يمجِّدوا ، إذ هم آخرون يهتم بهذا الفضل .

ويسود في هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللوحات السريعة والمواقف الحافظة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدوره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمى به في سرعة كما يرمى بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهي أن قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم في حروب الفرس والروم أضيف إلى هذه الأشعار . وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القصص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدقق على ألسنة الفاتحين ، وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معترك ، مقصدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلاً الوزن الشعبي الذي ينظم فيه عامة العرب .

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون

ومدى تأثيرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصطبغون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها ونخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القديح المعلنين في هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرائهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصورين لهديه الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشركين وفي كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله (١) :

شهدتُ بأن وعد الله حقٌّ وأن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار تمُّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبي قيس صيرمة بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة بديعة (٢) :

ونعلم أن الله لا شيء غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا

وقول أبي الدرداء (٣) :

يريد المرء أن يؤتَى مناهُ ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

(١) الاستيعاب ص ٢٦٢ .

(٢) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

وتحوّل شعراء قريش منذ فُتحت مكة ودخلوا في دين الله يكفّرون عما
قدّمتم ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن
الزبّعري^(١) :

يا رسولَ الملّيك إنَّ لساني راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور^(٢)
إذ أجازى الشيطان في سنن الغي^(٣) ومن مال مَيْلُهُ مَثْبُورٌ^(٣)
آمن اللحمُ والعظامُ بما قدّمنا فنفسى الفِداً وأنت النذيرُ
وقد حسُن إسلامهم ، ومضوا يصلدون عنه في أشعارهم ، حتى إذا انتقل
الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجّعون عليه ، على شاكلة قول
أبي سفيان بن الحارث^(٤) :

لقد عظمتُ مُصيّبتنا وجلّتُ عشيةً قيل : قد قبضَ الرسولُ
نبيُّ كان يجلو الشكُّ عنا بما يوحي إليه وما يقولُ
وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادي وجدنا بينهم
كثيرين يتقبسون من أضواء الإسلام ، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد في سبيل
الله فحسب ، فقد عمّ ذلك من ظلوا في الجزيرة ولم يُتّيح لهم تقديم سنهم شرف
الاشترار في هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهورهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من
الشهرة ، ولعل أول من ينبغى الوقوف عنده عبّدة بن الطبيب الذي تحدّثنا عنه
في شعر الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، وزراه في شطر
كبير منها يوصي أبناءه بتقوى الله وبرِّ الوالد والحدّ من التمام الذي يزرع
الضغائن بين الناس ، مستلهماً في ذلك آي الذكر الحكيم ، يقول^(٥) :

أوصيكمُ بتقوى الإله فإنه يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ
وبيرِّ والدكم وطاعة أمره إن الأبرَّ من البنين الأطوعُ

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رقق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

واعصوا الذي يُزجى النّائم بينكم متنصّحا ذاك السّام المنقّع^(١)
 يُزجى عقاربته ليعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأخدع^(٢)
 وهو القائل في رثاء قيس بن عاصم^(٣) :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمته ما شاء أن يترحمها
 فلم يكُ قيسٌ هلكهُ هلكَ واحدٍ ولكنه بنيانُ قومٍ تهدهما

وواضح ما في البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سويد^(٤) بن
 أبي كاهل اليشكري فسرى المفضل الضبي يروي له قصيدة^(٥) يفخر فيها فخراً
 جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربّه وما أنعم به عليهم
 من نعمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدُ له سعةُ الأخلاقِ فينا والضلَعُ^(٦)
 وإبَاءُ للدنِيَّاتِ إذا أُعْطِيَ المكثورُ ضيماً فكَنعُ^(٧)
 وبنَاءُ للمعالي إنمّا يرفعُ اللهُ ومن شاءَ وضعُ
 نعمٌ اللهُ فينا ربّها وصنِيعُ اللهِ ، واللهُ صنَعُ^(٨)

ويعمى فيعرض لخصم دنىء النفس كان يغتابه ، ونراه يصفه وصفاً
 يستلهم فيه الآية الكريمة (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل
 لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) يقول :

(١) يزجى : يدفع ويسوق . السام : السم .
 المنقّع : القاتل .
 (٢) الأخدع : عرق في العنق إذا ضرب
 أجابته العروق .
 (٣) الشعر والشعراء ٧٠٥/٢ .
 (٤) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٣٨٤/١ وابن
 والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٠٢ وابن
 سلام ص ٢٨ والإصابة ١٧٢/٣ والخزانة
 ٥٤٦/٢ وحديث الأربعة لطف حسين
 (طبعة الحلبي) ١٩٠/١ .
 (٥) المفضليات ص ١٩٠ .
 (٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .
 (٧) المكثور : المغلوب . كنع : خضع .
 (٨) ربهما : أمهما . صنع : صفة ، لافعل ،
 أي قادر على أن يصنع .

يَشْسُ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابِنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌّ وَدَاءٌ يُدْرَعُ^(١)
 وَيَحْيِينِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُو لَه لَحْمِي رَتَعُ^(٢)
 وَمَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي سَنٍّ كَبِيرَةٍ الْخَصَيْنِ^(٣) بِنِ الْحُمَامِ سَيِّدِ بَنِي مِرَّةِ الذَّبْيَانِيِّينَ ،
 وَهِيَ آيَاتٌ تَطْرُدُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ^(٤) :

وَيَوْمَ تَسْعَرُ فِيهِ الْحُرُوبُ لَبَسْتُ إِلَى الرَّوْعِ سِرْبَالَهَا^(٥)
 فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا التُّقَى وَنَفْسٌ تَعَالَجُ آجَالَهَا
 أُمُورٌ مِنَ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مَقَادِيرُ تَنْزَلُ أَنْزَالَهَا^(٦)
 أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْمُخْزِيَا تِ يَوْمَ تَرَى النَّفْسُ أَعْمَالَهَا
 وَخَفَّ الْمَوَازِينُ بِالْكَافِرِينَ وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

والصلة واضحة بين هذه الآيات وآي الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى :
 (واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذي
 يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون) (وإن من شيء
 إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقوله عزَّ شأنه : (إذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ
 زِلْزَالًا) (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأما
 هاويةٌ وما أدراك ما هي نار حامية) (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم
 بما يفعلون) .

واقراً في النَّمِيرِ^(٧) بِنِ تَوَلَّبٍ ، وَهُوَ مِمَّنْ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ وَقَدْ عَمَلَتْ سَنَّتُهُمْ ،

- (١) وخم : غير مرى . يدرع : يلبس .
 (٢) رتع : أكل بنهم .
 (٣) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢٠٠/٦٣٠
 وابن سلام ص ١٣١ والأغاني (طبعة دار الكتب)
 ١/١٤ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد
 الغابة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزانة ٢/٧
 (٤) أغاني ١٤/١٤ .
 (٥) تسعر : تتقد . السربال : الدرع .
 (٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع
 مواقعها .
 (٧) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ج ٧
 ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨
 وابن سلام ص ١٣٣ والأغاني ١٩/١٥٧
 والموشح ٧٨ والخزانة ١/١٥٢ والاستيعاب
 ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢٥٣ .

فسترى في شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله^(١) :

ومتى تُصَبِّكُ خِصَاصَةً فَارْجُ الْغِنَى وإلى الذي يُعْطَى الرَّغَائِبَ فَارْغِبِ
وهو القائل^(٢) :

أَعِدْنِي رَبِّ مِنْ حَصْرٍ وَعَيْءٍ ومن نَفْسٍ أَعَالَجُهَا عِلَاجًا
ومن حاجات نفسي فَأَعْصِمْنِي فَإِنَّ لِمُضْمَرَاتِ النَّفْسِ حَاجَا^(٣)
وأنت وَلِيِّهَا فَبَرِّئْتُ مِنْهَا إليك وما قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجَا^(٤)
ويُروى أنه أنشد الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة قال فيها^(٥) :

لله من آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ وَالشُّعْرَى وَآيَاتُ أُخْرَى
ومرت بنا استجارةُ الْمُخْبِلِ^(٦) السَّعْدِيُّ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ هَاجَرَابَنَهُ
لِلغَزْوِ وَكَيْفَ رَدَّه عَلَيْهِ ، ومن قوله في نهاية قصيدة له رواها المفضل الضبي^(٧) :

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشُدُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الْإِثْمُ

وكان في الشَّهْمَاخِ^(٨) شركثير ، وهو ممن شاركوا في معركة القادسية ومعارك
أذربيجان ، ومع ذلك لا نجد في ديوانه شيئاً واضحاً عن جهاده في سبيل الله ،
وكأنما عُمِّي الرواة بشعره البدوي وإحسانه فيه لوصف القوس وحمار الوحش^(٩) ،
ومما يتمثل به من شعره^(١٠) :

ليس بما ليس به بأسٌ بأش ولا يَضُرُّ الْبَرَّ مَا قَالَ النَّاسُ

- | | |
|---|--|
| (١) الشعر والشعراء ٢٦٩/١ والأغاني | (٧) المفضليات ص ١١٨ . |
| ١٦١/١٩ . | (٨) راجع في ترجمته ابن سلام ص ١١٠ |
| (٢) الأغاني ١٦٢/١٩ والحيوان ٣٠٥/٢ . | والشعر والشعراء ٢٧٤/١ والأغاني (طبع |
| (٣) حاج : جمع حاجة . | دار الكتب) ١٥٨/٩ والخزانة ٥٢٦/١ |
| (٤) خلاج : اعتراض . | والإصابة ٢١٠/٣ والموشح ص ٦٧ . |
| (٥) أغاني ١٥٩/١٩ . | (٩) انظر ترجمته في المراجع السابقة وراجع |
| (٦) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٨٣/١ | الحيوان ٧٩/٥ . |
| والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٩/١٣ | (١٠) الشعر والشعراء ٢٧٧/١ وبأس الأولى : |
| والإصابة ٢١٨/٢ والخزانة ٥٣٦/٢ والموشح | شجاعة . |

وقد أنشدنا في الفصل السابق أبياتاً من مراثية أخيه جزءاً لعمر بن الخطاب،
 واشتهر أخوهما مزرد^(١) بهجائه وخاصة للأضياف، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن
 الهجاء . كما يدل على ذلك قوله^(٢) :

تَنَزَّلْتُ مِنْ شَتْمِ الرِّجَالِ بِتَسْوِبَةٍ إِلَى اللَّهِ مَنِي لَا يَنَادِي وَلِيَسْدهَا
 وَمِنْ شِعْرَاءِ هَذَيْلِ الْبَارِعِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَبُو ذُوؤَيْبٍ^(٣) الْهَذَلِي . وَقَدْ قَدِمَ
 الْمَدِينَةَ عِنْدَ وِفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَقَفَ بِبَيْتِهِ مَعَ الْبَاكِينَ قَائِلاً
 مِنْ آيَاتِ^(٤) :

كُشِفَتْ لِمَصْرِعِهِ النُّجُومُ وَبَدَّرَهَا وَتَزَعَزَعَتْ آطَامُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ
 وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلِّهَا وَنَخِيلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُفْدِحِ

وهو في ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْلِ، مثله في ذلك مثل شعراء هذيل،
 وقد خرج يغزو في سبيل الله، ونراه في جنود عبد الله بن سعد بن أبي سرح
 الذين فتحوا قرطاجنة، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين
 له بفتحها . وعاد إلى مصر، ولكن حدث أن توفى له - قبل وفاته بعام -
 خمس بنين في وباء، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحس^٥ رضاه بقضاء الله مع
 التحسر اللاذع على نحو ما نجد في قوله^(٥) :

أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً بَعْدَ السُّرْقَادِ وَعِبْرَةٌ لَا تُقْلَعُ
 فَغَبِرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالٍ أَنِي لَأَحِقُّ مُسْتَتَبِعٌ^(٦)

ومعاهد التنصيص ١٩٥/١ ومعجم الأدباء.
 لياقوت (طبع مصر) ٨٣/١١ وشرح
 شواهد المغنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجي)
 ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦ .
 (٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب
 المصرية) ١/١ وما بعدها .
 (٦) غبرت : بقيت . ناصب : متعب .
 مستتبع : تابع .

(١) راجع في ترجمة مزرد الشعر والشعراء
 ٢٧٤/١ والخزانة ١١٧/٢ والإصابة ٨٥/٦
 ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص
 ٢٠٢/١ .

(٢) الإصابة ٨٥/٦ .
 (٣) انظر في ترجمته ابن سلام ص ١١٠
 والشعر والشعراء ٦٣٥/٢ والأغاني ٢٦٤/٦
 والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٦٣/٧
 والخزانة ٢٠٣/١ وأسد الغابة ١٨٨/٥

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُردُّ إلى قليل تقنع
وروى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى
أبا عبيد^(١) :

أبا عبيد وقع الكتاب واقرب الوعيد والحساب
وأشاع الإسلام في نفوس كثير من الشعراء برأاً ورحمة بأهلهم وأقربائهم .
ويشتهر في هذا الصدد عمرو بن شأس الذي سبق أن عرضنا له في شعر الفتوح ،
فقد كان له ابنٌ من أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها
بقطعته المعروفة^(٢) :

أردت عِراراً بالهوان ومن يُردُّ عِراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
وكان ينحو هذا المنحى معن^(٣) بن أوس المزني في عتابه لابن عمه الذي
أساء إليه إساءة كبيرة . وظل يسئ إليه وهو يوالى أشعاره في صفحه عن
زلاته برأ به وبقرابته مع تجنبيه عليه وتجرمه ، يقول^(٤) :

وذى رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ بِحَلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
فَمَا زَلْتُ فِي لَيْنٍ لَهُ وَتَعَطَّفٍ عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمِّ
ومن غير شك كان يستهدى في ذلك آى الذكر الحكيم التي تدعو إلى
البر بالأقرباء والصفح الجميل . ويمرض عمرو^(٥) بن أحمر الباهلي فيتوجه
إلى ربه داعياً^(٦) :

- (١) أغاني ٢٧٩/٦ ومعجم الأدباء ١١/٨٩ .
(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ٣٨٩/١ .
(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار
الكتب) ١٢/٥٤ والإصابة ٦/١٧٩ والخزانة
٣/٢٥٨ وانظر فهرس البيان والتبيين والحماسة
للمرزوق ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد
التنخيص . وقد نشرت أشعاره في ليزج .
(٤) أغاني ١٢/٦٠ وديوانه (طبعة ليزج)
ص ٣٦٠٥ .
(٥) راجع ترجمته في ابن سلام ص ٤٩٢
والشعر والشعراء ١/٣١٥ والإصابة ٥/١١٤
والخزانة ٣/٣٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والموشح
ص ٨٠ .
(٦) الشعر والشعراء ١/٣١٦ وقد روى له
ابن سلام قطعة حكيمة يقول فيها :
والحي كالميت ويبقى التقى
والعيش فنان فحلو ومر

إليك إله الحق أرفع رغبى عياداً وخوفاً أن تُطيل ضمانياً^(١)
 فإن كان بُرءاً فاجعل البرءَ نعمةً وإن كان فيضاً فاقض ما أنت قاضياً^(٢)
 ومن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نهشل^(٣) بن حيرى في مراثيه لأخيه
 مالك ، وكان قد قُتل بصيفيين ، ومن قوله في إحداها^(٤) :

أناس صالحون نشأت فيهم فأودوا بعد إلفٍ واتساقِ
 أرى الدنيا ونحن نعيثُ فيها موليّةً نهباً لانطلاقِ
 أعاذلَ قد بقيتُ بقاء قيسٍ وما حى على الدنيا بيباقِ
 وكان بجانب من قدّمنا شعراء عُرِفوا برقة دينهم ، ومع ذلك فحين نتعقب
 شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر في نسجه من حين إلى حين ، منهم
 عبّد^(٥) بن الحسحاس ، وكان يتغزل غزلاً مفضحاً جعل قومه يقتلونه لعهد
 عثمان ونراه يقول :

عُميرةٌ ودّع إن تجهزتَ غازياً كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهياً
 ويروى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك
 مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشي^(٦) قيس بن عمرو ، الذى حدّاه على بن
 أبى طالب فى شرب الخمر بـرمضان ، وقد تهاجى مع كثير من الشعراء وعلى
 رأسهم تميم بن أبى بن مقبل العجلانى ، وفيه وفي قبيلته يقول :

إذا الله عادى أهل لؤمٍ ودقةٍ فعادى بنى العجلان رهط. ابن مقبل^(٧)
 قبيلةٌ لا يغدرون بدميةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردلٍ

والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة
 ٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى
 ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .
 (٦) راجع فى ترجمة النجاشي الاشتقاق
 لابن دريد (نشرة الخانجي) ص ٤٠٠ والشعر
 والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة
 ٤/٣٦٨ .

(٧) البيت دعاء على بنى العجلان ، وواضح
 أن النجاشي يرميهم بأن أحسابهم لثيمة خسيّة .

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان فى جسده
 من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتاً .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥
 والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠
 والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/١٤٧ .

(٤) أمالى المرتضى ٢/٢٢٦ .

(٥) انظر ترجمة عبّد بنى الحسحاس فى
 أغانى (ساسى) ٢/٢٠ وما بعدها والشعر

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجأهم بالبیت الثاني، فإن الإسلام يُجیلُ
الوفاء بالذم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت
جاهلية. وكان ابن^(١) مقبل على شاكلته، يقول ابن سلام: «إنه كان
جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية»^(٢) ومع ذلك نددت على
لسانه أبيات فيها ما يدل في وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله^(٣):

هل الدهرُ إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكذحُ
وكلتاها قد خُطَّ لي في صحيفة فلا الموتُ أهوى لي ولا العيش أروحُ
وهو يصدر في البيتين عن الآية الكريمة: (ما أصاب من مصيبة في
الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتابٍ من قبل أن نبرأها) وما يروى له قوله^(٤):

الناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خبالٍ
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
ومن يسلك في هؤلاء الشعراء الذي عرفوا برقة دينهم الحطيئة، وسرى عما
قليل أثر الإسلام في شعره.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التي شاعت بين
الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة في نفوس
المخضرمين، وخاصة أهل البادية^(٥)، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم
جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يُعدون في طليعتهم هم حسان بن ثابت
وكعب بن زهير ولييد والحطيئة والنابغة الجعدى، لنرى فيهم مدى تأثير
المخضرمين بالإسلام، ولندل في وضوح على أن هذا التأثير لم يقف عند
شعراء المدينة من مثل حسان، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمقهم على نحو
ما سنرى عند لييد والنابغة الجعدى.

(١) راجع في ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء
٤٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة
١٩٥/١ والخزانة ١١٣/١ وزهر الآداب
١٩/١.
(٢) ابن سلام ص ١٢٥.
(٣) الحيوان للجاحظ ٤٨/٣.
(٤) طبرى ٢٩/٥.
(٥) راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من
الجاهلية حتى عصر بني أمية لالتينو (طبع
دارالمعارف) ص ٩٥.

حسان^(١) بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي « من سادة قومه وأشرافهم » ، وكانت أمه « الفُرَيْعَة » خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله^(٢) . وهو يُسَلِّك في المعمرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى ، وهي سنٌ تقريبيه ، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين ، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين . وهو ليس خزرجياً فحسب ، بل هو أيضاً من بني النجار أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

ونراه قُبَيْل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة ، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر ؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، ومن ثمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت^(٣) . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وقدَّم عليه الأعشى ، فأثار موجده^(٤) .

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فيدخل حسان في الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه ، وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل : « اللهم أيِّدْه بروح القدس » واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال : « لهذا أشدُّ عايبهم من

المغنى ص ١١٤ والخزانة ١٠٨/١ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوق وفي تونس والهند وبيروت ، وسنعمد في المراجعة على طبعة ليدن .

(٢) انظرها في ابن سعد ٢٧١/٨ .

(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ١٢/٣ والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة .

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣٤٠/٩ .

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغاني (دار الكتب) ١٣٤/٤ وما بعدها و ٢٧/١١ و ١٥٧/١٤ و (طبعة الساسي) ١٢/١٦ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٦٤/١ والموضح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٢٥/٤ والامتياعاب ص ١٢٨ والإصابة ٨/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف) ١١٥/٢ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد

وقع النَّبْلُ ، ، وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشتى واشتفى» . ومرَّ بنا في الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها ويعيبرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعي لأنهم كانوا مشركين فعلا ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويُروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهُمْ وجبريل معك » (١) .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بِرَيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْتِي مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ (٢)
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهُ فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنْامِلِي

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطل أثاروه في هذا الحادث ، حتى وجدوا جديداً شديداً ، فقال :

أَمْسَى الْجَلَابِيْبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا وَابْنُ الْقُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ (٣)
على أنه مضى في نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر في ذبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد ، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمتزلة رفيعة ، حتى ليُروى أنه كان يرفع أزواجه إلى أطمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يتقسم له في الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهي أم ابنه عبد الرحمن . وكان

(١) انظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته

في كتب الصحابة والأغاني ١٣٧/٤ وما بعدها .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار .

تزن : تهم . غرتي : جائمة . يريد أنها لا تغتاب

النساء .

(٣) سمي بعض المهاجرين الجلابيب استصغاراً

لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفي المثل هو أذل

من بيضة البلد لأن النعام يتترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلسونه ويفرضون له في العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عمي بأخرة .

وبحق سُمِّيَ حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصنّية . وقصته مع الحارث بن عوف المُرِّي حين قُتل في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة، فقد قال فيه وفي عشيرته :

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبِتُ فِي أَصُولِ السَّخْبِرِ (١)

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلاً إليه أن يكفّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بني تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزُّبْرَقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً . يقول في تضاعيفه :

إِنْ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيْنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ (٢)
يَرْضَى بِهَا كُلٌّ مِنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهَ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبِعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فِيمَا أَرَادَ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلّف ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعي : «تُنسَبُ إليه أشياء لا تصح عنه» (٣) ويقول ابن سلام : «قد حمل عليه ما لم يُحتمل على أحد ، ولما تعاضهت (تشاطعت) قريش واستبست وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنقى» (٤) . وكان ممن حمل عليه غثاء كثيراً ابنُ إسحق في المغازي، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يروى عنه السيرة النبوية . فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصاري راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

(١) السخبير : شجر ، ومن أمثالهم : ركب فلان السخبير إذا غدر .
(٢) الذوائب : شجر ، ومن أمثالهم : ركب فلان السخبير إذا غدر .
(٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .
(٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عند ابن إسحق فكانوا يُشبتون بعضها وينكرون بعضها آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكره مثبتاً في رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام ليعلم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد: « وأهل العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان»^(١) ومن ذلك أنه نسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك^(٢) ونسب ثالثة إلى عبد الله^(٣) بن الحارث السهمي ورابعة إلى معقل^(٤) بن خويلد الهذلي وخامسة إلى ربيعة بن أمية اللدلي وقيل بل هي لأبي أسامة الجشمي^(٥) . ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن^(٦) . وإذا مضينا نبحث في مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهي في رثاء نافع بن بُدَيْل^(٧) ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهي في رثاء عثمان^(٨) ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصيرمة^(٩) بن أبي أنس الأنصاري ، ونُسب له بيتان في الفخر بالأزد وهما لسعد^(١٠) بن الحصين الأنصاري ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهي لبشير^(١١) بن سعد بن الحصين . ونظن ظناً أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه في هجاء قريش ،

- | | |
|--|---|
| (١) انظر ابن هشام في مقطوعة عينية ٥٦/٣ وفي قصيدة عينية ١٤٩/٣ وما بعدها وقابل بالديوان ص ٧٦ وهي في رثاء حمزة ، وانظر حائية في رثاء حمزة ١٥٩/٣ ومقطوعتين في رثاء خبيب ١٨٦/٣ وقابل بالديوان ص ٨٤ ، ٤٦ وكذلك مقطوعة يائية في ١٩٢/٣ وقابل بالديوان ص ٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية في عمرو بن ود في ٢٨١/٣ وقابل بالديوان ص ٤٦ . | (٦) السيرة النبوية ١٩٩/٤ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ١٠٨/٣ حيث تشكك الجاحظ في مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن . |
| (٢) انظر بالديوان ص ٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ١٩٨/٣ . | (٧) انظر بالديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ . |
| (٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٧/٣ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣٦٢/٣ وقابل بالديوان ص ٦٣ . | (٨) انظر بالديوان ص ٤٠ وقارن بالأغاني (طبع الساسي) ١٢٠/١٤ . |
| (٤) السيرة النبوية ٢٠/٣ والديوان ص ٢٩ . | (٩) راجع بالديوان ص ٢١-٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ . |
| (٥) السيرة النبوية ٨١/٣ والديوان ص ٨٤ . | (١٠) انظر بالديوان ص ٤٠ وقارن بالأغاني (طبع الساسي) ١٢٠/١٤ . |
| (٦) السيرة النبوية ٢٨٢/٣ والديوان ٥١ . | (١١) راجع بالديوان ص ٤٢ - ٤٣ وقارن بالأغاني ١٢٠/١٤ . |

وأما عبد الرحمن فعروف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذماً قبيحاً^(١) ، ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حمل عليه^(٢) . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون^(٣) ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرهم حين كان أبوسفیان وغيره من رءوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير^(٤) بن العوام وعبد الله^(٥) بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً في وضع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كثر الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركافة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثق شعره في الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة^(٦) ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التي يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتي يقول فيها :

لنا الجففاتُ الغرُّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولاميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغى أن نبتعد منه ما اتهمه الرواة وأن لا نقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ، ومن ثم كنا نرتضى ميميته (تبَلَّتْ فؤادك في المنام خريدة^١) التي يعبر فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره في يوم

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان في هجاء بنى الحماس الحارثيين

قوم النجاشى ص ٤٧ ، ٨١ ، وكذلك انظر مقطوعة

رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٤٩٢

حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه في رثاء

عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه

أشعار في هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر

الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١ / ٣٠

(٦) انظر الأغاني (سامى) ١٤ / ١٢٥ - ١٢٧ .

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النوم - بالعشاء الموم) التي يهجو فيها ابن
الزبير ويفتخر بقومه فخرأعنيفا ، ومن نمطهما لاميته (أهاجك بالبيداء رَسْمُ
المنازل) . وبهذا التماس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان
ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام^(١) . ومثلها مقطوعته اللالية التي يستهلها
بقوله :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد^(٢)
ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام^(٣)
وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الهزلية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :

هجوت محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذلك الجزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبه مشبهاً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر
على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزئين :
جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام^(٤) . وهو يمضي في الجزء الثاني
متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط في هذا الجزء
المعاني الجاهلية بالمعاني الإسلامية إذ يعرض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم
ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه : من مثل قوله :

وجبريلُ أمينُ الله فينا وروحُ القدس ليس له كفاء^(٥)
وقد تبرز المعاني الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة
يعيرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نتبعه حتى الممات ونصُرُ غير محدود
مستعصمين بحبْلٍ غير مُنْجذمٍ مُستحْكِمٍ من حبالِ الله ممدود^(٦)

الإل : القرابة .

(٤) انظر الاستيعاب ص ١٢٩

(٥) كفاء : كفء ونظير .

(٦) منجذم : منقطع .

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومي

وهي أم عبد الله وأبي طالب والزبير بن عبدالمطلب .

(٣) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام .

وهو يشير في البيت الثاني إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) .
وله مرث في الرسول الكريم تتضح فيها المعاني الإسلامية اتضحاً على نحو
ما يلقانا في مرثيته التي رواها أبو زيد الأنصاري والتي يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقد
وقد مرّت بنا في الفصل السابق مرثيته البديعة لأبي بكر الصديق ، ومن
قوله في عمر حين توفّي على إثر طعنة فيروز المجوسى :

وفجّعنا فيروزُ لا درُّ درهٗ بأبيض يتلو المحكمات منيب^(١)
وعلى هذا النحو اتسحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين
الحنيف وهديه الكريم .

٣

كعب^(٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبي سلمى من فحول الشعر في الجاهلية . وهما من قبيلة
مزينة ، ولكنهما يوضعان في عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله
بنى مُرّة الذُّبيانين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بُجَيْر
ومثل الحطيئة ، ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه
من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى
تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ،
فيُلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه^(٣) تمريناً له وتدريباً . على صوغ

والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٤/٢٤٠
والإصابة ٥/٣٠٢ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٢٣٠ والخزانة ١/٣٧٥ ، ٤/١١ .
وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .
(٣) أغاني (طبع الساسي) ١٥/١١ وأمالى
المرتضى (طبع الحلبي) ١/٩٧ .

(١) لا در دره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو
عليه بأن لا يترك عمله . المحكمات : آيات
الذكر الحكيم . وكفى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .
(٢) راجع في ترجمة كعب طبقات فحول
الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر
والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ وأغاني (طبعة الساسي)
١٥/١٤٠ وابن هشام ٤/١٤٤ وما بعدها

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر في الجاهلية بأكثر مما اشتهر الحطيئة ، يدلُّ على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له : « قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكرك فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع »^(١) ، فقال كعب قطعته التي يقول فيها :

فَمَنْ لِلقَوَانِي شَانَهَا مِنْ يَحُوكَهَا إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفُوزٌ جَرُولٌ^(٢)
ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بـجَيْرٍ ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله^(٣) :

أَلَا أَبْلَغَا عَنِي بُجَيْرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ وَيْحَكَ هَلْ لَكَ
شَرِبْتَ مَعَ المَأْمُونِ كَأْسًا رَوِيَةً فَانْهَكَ المَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ^(٤)
وخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيءٍ - وَيْبَ غَيْرِكَ دَلَّكَ^(٥)
على خُلُقٍ لَمْ تُلْفِ أُمَّاً وَلَا أَباً عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا
ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بـجَيْرٍ فيما أجابه به بقوله^(٦) :

من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من النار إلا طاهر القلب مسلم
وما زال كعب على وثنيته حتى فتحت مكة وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل كل من

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغاني (طبع

دار الكتب) ١٦٥/٢ .

(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول : الحطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغاني (سامي)

١٤٢/١٥ والسيرة ١٤٤/٤ والاستيعاب

ص ٢٢٦ .

(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر .

النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثاني .

(٥) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك ،

ويب بالنصب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ١٤٥/٤ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ودعاه أن يتقدم على رسول الله تائباً. وشرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر، فوقع من نفسه « فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله! هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده، فحسّر كعب عن وجهه، وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير. فتجهمت الأنصار وغلظت له، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجبت المهاجرة أن يسلم ويؤمنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأمنه رسول الله^(١)، وأنشده مدحته الخالدة:

بانَتْ سَعادُ فقلبي اليوم مَتْبُولٌ مَتِيمٌ إِثْرَها لَمْ يُفدَ مَكْبُولٌ^(٢)

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم برودة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين^(٣). وقد اكتسى بها كعب حُلَّةً مجد لا تبلى، ولقبت قصيدته من أجلها بالبردة. ونراه يستهلها بالغزل، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتين عندها فليس له فكاك، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده^(٤):

وفارقتك برهنٍ لا فِكاكَ له يوم الوداع فأمسى الرهنُ قد غَلِقَا^(٥)

ويُلبحُ في وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالحمير، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبتة لوعدها. ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل. وما زال ينعت ناقته حتى قال يصورُ خوفه وفزعه من رسول الله:

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١٠٦ / ١٠٤ / ١ وانظر الأغاني ١٤ / ١٤٢ .
(٢) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة دار الكتب المصرية) ص ٦ . ومتبول: مغرم .
(٣) ابن سلام ص ٨٧ والشعر والشعراء ١٠٦ / ١٠٤ / ١ .
(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٣٣ .
(٥) غلق الرهن: لم ينفك أبداً .
وبانت: فارقت . ومكبول: مقيد .

وقلت خلُّوا طريقي - لا أبا لكم - فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولٌ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامتهُ يوماً على آلهِ حَدْبَاءُ محمولٌ
أنبئتُ أنَّ رسولَ الله أوعدني والعفوُّ عند رسول الله مأمولٌ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةً الـ قرآن فيها مواعِظٌ وتفصيلٌ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنبُ ولو كثرتُ عنى الأقاويل
إن الرسول لنورٌ يُستَضَاءُ به مهندٌ من سيوف الله مسلولٌ^(١)
في عُصْبَةٍ من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا^(٢)
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ معازيل^(٣)
ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يمشون مشى الجمال الزُّهرِ يعصمهم ضربٌ إذا عرَّدَ السُّودُ التنايل^(٤)
يعرِّضُ بالأنصار لغلظتهم - كانت عليه - فأنكرت قريش ما قال ،
وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصارَ :
من سرَّه كرمُ الحياة فلا يزلْ في مقنَّبٍ من صالحى الأنصار^(٥)
الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون - كأنه نسكٌ لهم - يوم الهياج وسطوة الجبار
صلموا علياً يوم بدرٍ صدمةً بدماءٍ من علقوا من الكفار^(٦)
دانت لوقعتها جميع نزار^(٧)

(١) المهند: السيف المطبوع من حديد الهند وهو خير السيوف .
(٢) زولوا: هاجروا .
(٣) أنكاس: جمع نكس وهو الضعيف .
الذليل . كشف: جمع أكشف وهو الذى ينكشف
في القتال وينهزم . ميل: جمع أميل وهو الجبان .
معازيل: جمع معزال: وهو الذى ينعزل في الحرب
عن صحبه ومن يستغيث به .
(٤) الزهر: البيض . عرد: نكل وجبن .
التنايل: القصار .
(٥) المقنَّب: جماعة الخيل والفرسان .
(٦) علقوا: قتلوا .
(٧) يريد بعلى بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

ورثوا السيادة كابرًا عن كابرٍ إن الكرام همُ بنو الأخيار
 ➤ وَحَسُنَ إِسْلَامَ كَعْبٍ، وَأَخَذَ يَصْدُرُ فِي شَعْرِهِ عَنِ مَوَاعِظِ وَحَكْمِ يَسْتَهْدِي
 فيها التذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سَعَى الْفَتَى وَهُوَ مَخْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ
 يسعى الفتى لأمرٍ ليس يُدركها وَالنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَالْهَمُّ مَنْتَشِرٌ
 والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أَمَلٌ لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثرُ

ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم
 الذي يَفْضَلُ عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أَعْلَمُ أَنِّي مَتَى مَا يَأْتِي قَدْرِي فَلَيْسَ يَحْبُسُهُ شُحٌّ وَلَا شَفَقٌ^(١)
 والمرءُ والمالُ يَنْمِي ثُمَّ يُذْهِبُهُ مَرُّ الدَّهْرِ وَيُفْنِيهِ فَيَنْسَحِقُ
 فلا تخافى علينا الفقر وانتظري فَضْلَ الَّذِي بِالْغِنَى مِنْ عِنْدِهِ نَشِقُ
 إن يَفْنَ مَا عِنْدَنَا فَاللَّهُ يَرْزُقُنَا وَمَنْ سَوَانَا وَلَسْنَا نَحْنُ نَرْزُقُ

وهو في ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر
 الشخص منهم في رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر .
 وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها في الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر
 مع من يصطنيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فَأَقْسَمْتُ بِالرَّحْمَنِ لَا شَيْءَ غَيْرِهِ يَمِينَ أَمْرِي بَرٌّ وَلَا أَتَحَلَّلُ^(٢)
 لأستشعرنُ أعلى دَرِيْسِي مسلماً لوجه الذي يُحْيِي الْأَنَامَ وَيَقْتُلُ^(٣)
 هو الحافظُ الوَسْنَانُ بِاللَّيْلِ مَيْتاً عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ مِنَ النَّوْمِ مُثْقَلُ^(٤)
 من الْأَسْوَدِ السَّارِي وَإِنْ كَانَ ثَائِرَا عَلَى حَدِّ نَابِيهِ السَّامُ الْمُثْمَلُ^(٥)

(١) شفق : خوف .
 (٢) لا أتحلل : لا أستحي .
 (٣) الدريس : الثوب البالي . كنى بذلك عن
 حسن إسلامه وتوكله على الله الذي يحيي ويميت .
 (٤) الوسنان : النائم .
 (٥) الأسود : الأفعى . الساري : الذي يسير
 ليلاً . الثائر : الطالب بثأر . المثمل : المجمع

وهي تتمّ عن ولاته لدينه الخفيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظ الذي يكلاً عباده و يقيهم الأذى ، ولعلّ في ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام في نفسه وفي شعره . وديوانه يدل - كما يدل تأخره في إسلامه - على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخرأ متوعداً مهدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معاني الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى لراه في الهجاء نفسه يعلن لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائقاً له ، لا من الشتم والسباب ؛ بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكفّ أذاه عنه ، يقول (١) :

إن كنت لا ترهب ذميّ لما تعرف من صفحي عن الجاهل
فأخش سكوتي إذ أنا منصتٌ فيك لسموع خنا القائل
فالسامع الدام شريكٌ له ومطعمُ المأكول كالأكل
مقالةُ السوءِ إلى أهلها أسرع من منحدرٍ سائل
ومنّ دعا الناس إلى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل
ولا تهجّ إن كنت ذا إرْبَةٍ حرباً أخى التجربة العاقل (٢)
فإنّ ذا العقل إذا هجته هجّت به ذا خبلٍ خابلٍ

فهو ينهاه أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول ، حتى لا ينجى على نفسه ما هو أقبح أثراً وأبقى وسمّاً ، ويقول إن الذين يبسطون ألسنتهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاءً أقذع وأمرّ ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو في ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التفرّيع لمن يهجوّه بدلا من الطعن في الأعراض سنّهم القديمة .

(٢) الإربة : الدهاء .

(١) الخزانة ١٢/٤ والاستيعاب ص ٢٢٧

والحيوان ١٥/١ .

ليبد^(١)

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامريين ، هي عشيرة بني جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوه ربيعة وأعمامه الطَّفَيْل وأبو براء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثمَّ لُقِّبَ : « ربيعَ المُقْتَرين » وقد قتلته بنو أسد في بعض حروبها مع قومه . وأما الطَّفَيْل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأُسنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقَّب بمعوذ الحكماء . وأم ليبد تامرة بنت زباج العبَّسية .

وقد نشأ ليبد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها ، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها ووفادتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل - إن صحَّ - بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حَدَثًا ، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفداً من بني عبَّس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العبَّسين وبني عامر قبيلة ليبد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبَّس في بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط ليبد غضباً ، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز

والمعمر بن ص ٦٠ والخزاة ١/٣٣٤ وقد طبع الخالدي جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هو بر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعته في ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت في الكويت سنة ١٩٦٢ .

(١) انظر في ترجمة ليبد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ١/٢٣١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٥/٣٦١ وطبعة الساسي ١٥/١٣٠ وطبقات ابن سعد ٦/٢٠ وأسد الغابة ٤/٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأمان المرتضى (طبعة الحلبي) ١٨٩/١ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٦/٤

مقدع ، فأنصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامريين . وسواء
أصحَّ هذا الخبر أو لم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه
في الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتبه في أول
الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَمَت الديار محلُّها فقامها » أخذ يظهره .
وأخذ اسمه يطير في القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته
النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه^(١) ، فوقع الإيمان في قلبه ، إلا أنه لم
يُعلن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته ، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم في دين الله . وكان ابن عمه
عامر بن الطفيل وأخوه أربد وقدأ على الرسول قبل ذلك يريدان به شرّاً فعصمه
الله . ودعا عنهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله ؛ أما
أربد فتزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء
حاراً .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار
ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خبطَ عمر الكوفة فنزلها وأقام بها إلى أن توفاه
الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغل نفسه
حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلاً ، ويصورون ذلك فيقولون إن عمر
أرسل إلى المغيرة بن شُعْبَةَ واليه على الكوفة : أن استنشد من قبلك من شعراء
مصر ما قالوا في الإسلام . فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة
في صحيفة : ثم أتاه بها . وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ،
فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين .
ويعضى الرواة فيزعمون إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه^(٢) .
فن قائل هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سِرُّ بالاً

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٥/١٣١ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣٢ والأغاني

(طبعة دار الكتب) ١٥/٣٦٩ وانظر الاستيعاب

ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرءُ يُصلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً .

وهو في القسم الجاهلي لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمضي مفاخرأ فخراً عنيفاً بأبائه وفتوته معتدأ اعتداداً لا حدَّ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثمَّ وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن عُلثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطبة التزاري^(١) وأقرأ فيه فستجده دائماً في هذا القسم مفاخرأ بقومه وشجاعتهم وبلائهم في الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشُّمه لسرى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لِداته ، وكيف يقامر ليطلع الجائع المحروم . وكثيراً ما يهجم في قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع في معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الطاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل في الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعبها . وخرج من ذلك إلى تشبيهها لها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل في وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم بجوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه . ويفخر بقومه وكثرة ساداتهم وما سنَّه لهم آباؤهم ، يقول :

إنا إذا التقتِ المِجامعُ لم يزل منا ليزازُ عظيمةٌ جِشامُها^(٢)
ومقسَّمٌ يُعطى العسيرة حَقَّها ومُغذِّمٌ لحقوقها هَضامُها^(٣)
فَضلاً ، وذو كرمٍ يُعين على الندى سَمَحٌ كسوبٌ رغائبُ غَنامِها

(٣) مغذم : لا يعطى . هضام هنا . يعطى قوياً ويحرم آخرين .

(١) أغاني (ساسي) ٥٢/١٥ .

(٢) اللزاز : الملازم للشيء ، جشامها : من التجشم وهو ركوب الخطر .

من مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمُ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا
فَبِنَا لَنَا بَيْتًا رَفِيحًا سَمَكُهُ فَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا
فَأَقْنَعُ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقُ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

وشعره الجاهلي دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره
ووصف راحلته وتشبيهاه بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ،
وقد يتحدث عن المطر . وهو في ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد في لفظه ،
حتى ليس قارئه شيء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيتها .
واقراء ما لم نرّوه من المعلقة قبل هذه الأبيات التي أنشدناها فإنك ستجد مفرغاً في
ألفاظ متناهية في الإغراب ، ومن ثمّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال :
إنه رحي بزّر^(١) ، يريد أنه خشن لا يحسن في السمع ، وقال الأصمعي ، شعر
ليبد كأنه طيلسان طبراني أي أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامي وجدنا قراءته للقرآن الكريم
تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطلّوة ، ومن ثمّ يقول فيه ابن
سلاّم : « كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق »
ويتضح ذلك في مراثيه المشهورة لأخيه أربد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفي
معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجع إلى عينيته فستجد جمال السبك
والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها على شاكلة
قوله^(٢) :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ^(٣)
فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا وَكُلُّ فِتَى يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ نَحَلُّوْهَا ، وَغَدَوْا بِلَاقِعِ^(٤)

(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الأرض القفر .

وغدوا : غدا .

(١) الموشح للمرزبان ص ٧١ .

(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .

(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رَمَادًا بعد إذ هو ساطع^(١)
وما البر إلا مضمرات من التقى وما المال إلا عاريات ودائع

وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ
الحوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغلغل الإسلام في ضميره ، فاتجه في
أشعاره إلى ربه منيباً إليه . والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره ،
يقول في قصيدة له^(٢) :

إنما يحفظ التقى الأبرار وإلى الله يستقرُّ القرارُ
وإلى الله ترجعون وعند الله هـ وِرْدُ الأمور والإصدارُ
كلُّ شئٍ أحصى كتاباً وعِلماً ولديه تجلَّتِ الأسرارُ
إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أذُ ظرَّتْ لو كان ينفع الإنظارُ^(٣)
عشتُ دهرًا ولا يدوم على الأبدِ ام إلا يرمرم وتعارُ^(٤)

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس
معروضون على الله يوم القيامة وقد أحصى كل شئ في كتاب وأن الموت
حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره . ويمضى في
طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ من حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوفاً
من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا
ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى في لاميته التى تؤمن بأنه نظمها
في الإسلام ، وفيها يقول^(٥) :

ألا كلُّ شئٍ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ
وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهِيَّةٌ تصفرُّ منها الأنامل^(٦)

(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء .

١/٢٣٧ والعلبرى ٥/٢٨ .

(٦) يريد بالدويهة الموت .

(١) يحور : يصير .

(٢) ديوان ليلى ص ٤١ والحيوان ٧/١٦٣ .

(٣) الإنظار : التأخير .

(٤) يرمرم وتعار : جيلان في نجد .

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلُّ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ويستمد في البيت الثاني من مثل قوله جلَّ وعز : (كلُّ نفس ذائقة الموت) أما البيت الثالث فاستمدّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بعثنا ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور) . واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه^(١) وفي الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم ، ومن ثمَّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرّسِّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله^(٢) :

لله نافلةُ الأجلِّ الأفضليِّ وله العُلا وأثيْتُ كلِّ مُؤثِّل^(٣)
لا يستطيع الناسُ مَحْوَ كتابه أنيِّ وليس قضاؤه بمبدلِّ
وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجري في الكون بقضائه وأن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبین ، وأن كلا سيُجزى بما سجَّل عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلُّ شئٍ أحصيناه كتاباً) (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ويمضي ليبد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العمالق ولقمان ونسره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من ريب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته^(٤) :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إضْبَعاً بالخيرِ والشرِّ بآئٍ أولعاً^(٥)
بملاً له منه ذنوباً مُترَعاً وقد أباد إرمأ وتُبَعاً^(٦)
والحق أن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثرت في نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسبُ إليه منها يدل على أن

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧١ .
(٣) أثيْتُ : موطأ عظيم . مؤثِّل : مؤصل ، ويوصف به الملك والمجد .
(٤) الديوان ص ٣٢٧ .
(٥) الإصبع : الأثر الحسن .
(٦) ذنوباً مترعاً : دلوأ ملووا .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه ، فمضى يحيلها آياتاً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها^(١) :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلُ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَبِّي وَعَجَلُ^(٢)
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مِنْ هِدَاةِ سُبُلِ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمِنْ شَاءَ أَضَلُ
فَاكْذَبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا إِنَّ صَدَقَ النَّفْسَ يُزْرَى بِالْأَمَلِ
غَيْرَ أَنْ لَا تَكْذِبِنَهَا فِي التَّقَى وَاخْزُهَا بِالْبِرِّ ، اللَّهُ الْأَجَلُ^(٣)

وزاه يذكر في هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقدته لأربد وبيكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخذعها داعياً إلى أن يكف الإنسان عن سيئاته ومرغباً له في الباقيات الصالحات حتى يغتم بقية أجله بخير عمله .

٥

الخطيئة^(٤)

اسمه جرّول . ولُقّب بالخطيئة لقصره أولدمامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضراء ، كانت لأوس بن مالك العبّسي . ونشأ في حجره مغموراً في نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسّ الحياة من حوله ، وزاد في اضطرابه وقلقه ضعف جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تفتحمه العيون . ولم يكن فيه

والأغاني (طبع دار الكتب) ١٥٧/٢ والإصابة
٦٣/٢ والخزانة ٤٠٨/١ وحديث الأربعة
لله حسين (طبعة الحلبي) ١/٥٣ وما بعدها .
ونشر ديوانه في إستانبول ، ونشره جوند تسيهر
والشنيطلي ، وكذلك نشره نعمان أمين طه بمطبعة
الحلبي ، وسنتمتد على نشرته .

(١) الشعر والشعراء ٢٣٨/١ والديوان
ص ١٧٤ وما بعدها .
(٢) النفل :- العطية . الريث : البطء .
(٣) اخزها : سها واقهرها .
(٤) انظر في ترجمة الخطيئة ابن سلام
ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٨٠/١

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في « عبس » على نحو ما صنع
عنترة من قبله . ومن ثمّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة ، ولعل هذا هو السبب
في غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت في نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبي سُلمي يعلمه إحكام
صنعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الحطيئة كان يروى
شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوّه به ، حتى يلور على الألسنة
ذكره . ومعنى ذلك أن الحطيئة من مدرسة زهير التي كانت تُعنى بالتعبير وصقله
وتصنيفته من كل شائبة ، كما كانت تعنى بالمعاني ودقتها .

ويضبط الإسلام في الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة
هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة
كعب ، أو أنه تأخر في اعتناقه الإسلام ، حتى توفى الرسول الكريم . ونراه
يسارع إلى الردّة ، مُعينا بشعره المرتدّين ضد أبي بكر وخلافته ، حتى
ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فإِ لِعِبَادِ اللهِ مَا لِأَبِي بَكْرٍ
أَيُّورِثُهَا بَكْرًا ، إِذَا مَاتَ ، بَعْدَهُ فَتَلُكُ ، وَبَيْتِ اللهِ ، قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره^(١) . وقد عاد مع المرتدين
إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور في المديح والهجاء ، ويقول الأصمعي : « كان الحطيئة
جشعاً مسؤولاً ملحفاً دنيء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، قبيح المنظر ،
رثاً لهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شاعر من
عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك في شعره »^(٢) . وقد يكون الأصمعي بالغ
في نعتة بهذه الصفات ، وحقاً كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ في
الجاهلية من أمثال عيينة بن حصن الفزاري وزيد الخيل ، وكان يتورط فيما

(١) انظر الطبري ٤٧٧/٢ حيث نسب البيتين إلى أخيه (٢) أغاني (دار الكتب) ١٦٣/٢ .
الخطيل وقارن بالديوان ص ٣٢٩ والأغاني ١٥٧/٢ .

بينهم من خصومات و منافرات ، إذ نراه يقف في صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبَّان بن سيار ، كما نراه يقف في صف علقمة بن عُلَّثة حين نافر عامر بن الطفيل^(١) . وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعه ، فقد كان الأعشى وليد يقفان في صف عامر . وقد تكون حادثة مع الزَّبْرَقان بن بدر هي التي شوهته ، ذلك أنه لقيه في عهد عمر بن الخطاب يوم المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلَّه على داره حيث زوجته وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفرع بنو أنف الناقة – إذ كانوا ينافسون عشيرة الزَّبْرَقان – حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزَّبْرَقان ، وكانت قد تراخت في استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبني أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا في إكرامه ، وانطلق يُثنى عليهم ثناء رائعاً معروضاً بالزَّبْرَقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرَحَّلْ لُبُغَيْتِهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(٢)
ورفع الزَّبْرَقان أمره إلى عمر ، فحكَّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخِ بذي مَرخٍ زُغِبِ الحواصل لا ماء ولا شَجَرٍ^(٣)
أَلْقَيْتَ كاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ : فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمَرُ
ولان له قلب عمر ، فعفاه عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم^(٤) .

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التي عرض فيها للزَّبْرَقان وجدناه لا يُقنِّدع في هجائه ، إنما يمسُّه على نحو ما رأينا في بيته السالف برفق ، عامداً إلى التهكم والسخرية . ولا نشك في أن الإسلام هو الذي خفف من حدة لسانه ، ونراه يصرِّح بذلك إذ يقول^(٥) :

(١) لم يثبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ،
كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .
(٢) انظر في القصة الأغاني ١٧٩/٢ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٩٨ .

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) يريد المطموم المكسو .

(٣) ذومرخ : واد بالحجاز . الأفراخ :

سغار الطير شد بها أولاده . زغب الحواصل :

ولما أن مدحتُ القوم قلم هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ
 ألم أك مسلماً فيكون بيني وبينكم المودَّةُ والإخاءُ
 ولم أشتمُّ لكم حسبا ولكن حَدوثُ بحيث يُستَمعُ الحداءُ

فهو يذكر حرمة الإسلام ، ويتذم بها ، ويقول إنه حين مدح بنى أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبيرقان جعلوا ذلك ذمًّا لهم وهجاء ، لمدحه خصومهم . ونراه يولَّى وجهه نحو علقمة بن عُلانة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجزل له ابنه في العطاء . ويتجه نحو العراق في عهد عثمان . فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عند حين يطعن عليه أهلها . وقد حُملت عليه أبيات في ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية ، كما يمدحه في ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ - ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجمعون له من أموالهم خشية معرفة لسانه . والمظنون أنه توفي في ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعنى بشعره وتجويله عناية شديدة ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولى المحكك » فهو ممن كان يتأنون في شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطعات ، ونراه في مطولاته يشبب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشي والآيف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بنى أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجدُّ
 أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وكانوا يعيرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرضاً بالزبيرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنفُ والأذنانُ غيرهمُ ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتُرْوَى له أهاج في زوج أمه وفي أمه وفي
ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لى وجهها شوّه الله خلَقَهُ فُقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهُ
أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ،
وبقصيدته « وطاوى ثلاث »^(١) وفيها يصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف ، وعياله
من حوله يتصورون جوعاً ، فهم أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عنت له أتان
وحشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والتصيدة رائعة في وصف غريزة الكرم
العربية .

والحق أن الرواة بالغوا في اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا في
اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره في
المجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه في مديحه يكثر من ذكر جزاء الله للمدوحيه
على ما يقدم له من برّه على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِهِ اللهُ خَيْرًا منْ أَخِي ثَقِيَةً وَلِيَهْدِهِ بِهَدَى الخَيْرَاتِ هَادِيهَا
وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله :

الحمد لله إني في جوار فتى حامى الحقيقة نفاعٍ وضرارٍ
وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت
الخطيئة^(٢) :

من يفعل الخير لا يعامم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
ولعل في ذلك ما يدل على أنه حسن إسلامه ، وأبلغ في الدلالة على
ذلك قوله في وصف التقي والعدل الصالح^(٣) :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للاتقى مزيد .

(٣) أغاني ١٧٥/٢ والديوان ص ٢٩٢ .

(١) الديوان ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٧٢/٢ .

فالسعادة في رأيه ليست في الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هي في الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذي لا يئال إلا بالتقوى ، فهي السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الحطيثة ، بل أخذ يرسل فيها مثل هذه الإشاعات النيرة .

٦

النايغة^(١) الجعدى

هو عبد الله^(٢) بن قيس من بني جعدة العامريين ، ولد بالفأج جنوبى نجد ، ولما شب اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُدسى النايغة لنبوغته فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان في الإسلام .

والنايغة الجعدى في جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخاه في بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التى يؤبّنه فيها بقوله^(٣) :

فَتَى كَمَلْتُ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوؤُ الْأَعَادِيَا

ويقال إنه كان يفد شعره على اللخمين في الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنة إسلامها وقد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

نالينو أشعاره ونشرتها في روما سنة ١٩٥٣ .
(٢) اختلف المؤرخون في اسمه هل هو عبد الله ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس .
(٣) الشعر والشعراء ٢٥٢/١ والديوان ص ١٢٣ .

(١) انظر في ترجمة النايغة : الشعر والشعراء ٢٤٧/١ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) ١/٥ وما بعدها وأسد الغابة ٢/٥ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨ وأمال المرتضى ١/٢٦٣ والممريين ص ٦٤ والخزانة ١/٥١٢ والموشح ص ٦٤ . وقد جمعت ماريًا

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجَدُونَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . وعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لا يَفْضُضُ اللهُ فَاكَ (١) .

ويُظَنُّ أنه لم يرجع مع قومه إلى منازلهم ، بل أقام في المدينة مهاجراً ، حتى إذا كانت الفتوح خرج مع العرب ميمماً نحو الشرق والغرب مجاهداً في سبيل الله ونَشِرَ الدعوة المحمدية . وقد أخذ يضيف إلى رائعته التي أنشدها الرسول أبياتاً كثيرة ، تصور حياته في الإسلام وابتغائه رضوان الله بجهاده وتقواه جميعاً يقول (٢) :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيتلو كتاباً كالمجرة نَيْرًا (٣)
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحْسُ وَمَنْ مَعِيَ سُهَيْلاً إِذَا مَالِحَ ثُمَثَ غَوْرًا (٤)
أَقِمْ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضِي بِفِعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَوْجَرًا (٥)

وعاد إلى المدينة وتشوَّق إلى منازل قومه في البادية ، فاستأذن عثمان في الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين علي ومعاوية وجدناه في صفوف علي بصيفين ، يَرُجُزُ بخصومه وينظم الأشعار في مديحه وهجاء معاوية من مثل قوله (٦) :

قَدْ عَلِمَ الْمِصْرَانِ وَالْعِرَاقُ أَنْ عَلِيًّا فَحَلَّهَا الْعُتَاقُ (٧)
إِنَّ الْأَلَى جَارُوكَ لَا أَفَاقُوا لَهُمْ سِيَاقٌ وَلَكُمْ سِيَاقٌ
قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَمُ الرَّفَاقُ سُقْتُمْ إِلَى نَهْجِ الْهُدَى وَسَاقُوا
إِلَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ فِي مِلَّةٍ عَادَتْهَا النُّفْسَاقُ (٨)

(٥) أوجر : خائف .

(٦) أغاني ٣١/٥ والديوان ص ١٣٣ .

(٧) المصران : الكوفة والبصرة . العتاق : الكرم .

(٨) التي ليس لها عراق : التي لا تعرف لها غاية .

(١) أغاني ٨/٥

(٢) أغاني ٩/٥ والديوان ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) المجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر

ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء .

(٤) غور النجم : غاب .

ولعل هذا هو الذى جعله بصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية .
ويُرْوَى أنه لما قُتِل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان عامله على
المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه .

ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيُضْطَرَّ أبو موسى الأشعري
والى البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأنما كانت فيه بقية من عصبية
الجاهلية . ولا نشك في أن هذه البقية فيه هى التى دفعته إلى الاصطدام بأوس
ابن مغيرة ، ويقول ابن سلام إنه غلب عليه ولم يكن إليه فى الشعر ولا قريباً .
ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سوار بن أوفى القشيري ،
وتتصدى له زوجه ليلي الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا
إليه فى الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام فى نفسه أثر فى تلك الهزائم ،
إذ كان يتحرج من المضى فى الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل
هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه فى أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم
عليه فى مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها^(١) :

حَكَيْتَ لَنَا الصَّدِيقَ مَا وَلَيْتِنَا وَعِمَّانَ وَالْفَارُوقَ فَارِتَاحَ مَعْدَمُ
وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَدْلِ فَاسْتَوَوْا فَعَادَ صَبَاحًا حَالِكُ اللَّيْلِ مُظْلِمُ
وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلاً . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن
توفى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن
الرواة بالغوا فى ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبياني وأنه عُمرَ مائة وثمانين
سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله^(٢) :

تَذَكَّرْتُ شَيْئاً قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَمِنْ عَادَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مُحَرَّقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفَرَا
والمُنْذِرُ بن مُحَرَّقٍ هو المُنْذِرُ بن مَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي قُتِلَ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ مَعَ
الغساسنة سنة ٥٥٦ للميلاد ، ولا شك فى أن هذا الشعر مصنوع عليه .

(٢) أغاني ٦/٥

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٠٤

والديوان ص ١٣٧ .

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه في شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام في شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبّر في غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله (١) :

منع الغدر فلم أهمم به وأخو الغدر إذا هم فعل
خشية الله وأنى رجل إنما ذكرى كنسار بقبيل (٢)

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول (٣) :

عمرت حتى جاء أحمد بالهدى وقوارع تلتى من القرآن
ولبست مل الإسلام ثوباً واسعاً من سيب لا حريم ولا منان (٤)
وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام آياتاً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهي تطرد على هذا النمط (٥) :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل في النهار وفي اللئ لي نهاراً يفرج الظلما
الخافض الرافع السماء على أرض ولم يبن تحتها دعماً (٦)
الخالق البارئ المصور في أرحام ماء حتى يصير دماً
من نطفة قدما مقدرها يخلق منها الأبخار والنسا
ثم عظاماً أقامها عصب ثم عظاماً أقامها عصب
ثم كسا الرأس والعواتق أب شاراً وجلداً تخاله أدماً (٧)

عطاء . حرم : منع .

(٥) الشعر والشعراء ٢٥٣/١ وانظر الديوان ص ١٠٢ .

(٦) دعم : دعائم وعمد .

(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣/٥٠٤ .

(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .

(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمال المرتضى ١/٢٦٦ .

(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب :

وَالصُّوْتِ وَاللَّوْنِ وَالْمَعَايِشِ وَالْأَخْلَاقِ شَتَّى وَفَرَّقَ الْكَلِمَا
 تُمَّتَ لَا بُدَّ أَنْ سَيَجْمَعُكُمْ وَاللَّهِ ، جَهْرًا ، شَهَادَةً قَسَمًا
 فَاتْتَمَرُوا الْآنَ مَا بَدَأَ لَكُمْ وَاعْتَصِمُوا إِنْ وَجَدْتُمْ عِصْمًا
 فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَا عِصْمَةَ مِنْهُ إِلَّا مَنْ رَحِمَا
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى فَارَسٍ بَادَتْ ، وَخَدُّهَا رَغِمَا^(١)
 أَمْسُوا عَبِيدًا يَرْعَوْنَ شَاءَ كُمْ كَأَنَّمَا كَانَ مُلْكُهُمْ حُلْمًا
 أَوْ سَبِيًّا الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَبِيلِهِ الْعَرِمَا
 فَمُزُّقُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَفُوا الْهُونَ وَذَاقُوا الْبِئْسَاءَ وَالْعَدَمَا^(٢)
 وَبَدَّلُوا السُّدْرَ وَالْأَرَكَ بِهِ الْخَمَطَ وَأَضْحَى الْبُنْيَانَ مُنْهَدِمَا^(٣)

والنابعة في مطلع هذه العظة يُثني على الله بما هو أهله ، مقررًا إيمانه بوحدهانيته وأنه لا شريك له ، ونحس أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث في البيت الثاني عن نظام الكون المنبج عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ، مستعيراً من القرآن نفس لفظه في قوله جلَّ وعز : (قل اللهم مالك الملك . . . بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تواجب الليل في النهار وتولج النهار في الليل) . وفي البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها) . وخرج في البيت الرابع من خلقه للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم مثل قوله جلَّ وعز : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . وهو يمضي فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

(١) رغم الخد : كناية عن الذل .

(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .

(٣) السدر والأراك : شجر لا ينتفع بثمره . الخمط :

ثمر الأراك أو هو نبت مر .

القرون والأمم البائدة مكملًا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ في القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ وأقرأ قوله تعالى: (لقد كان لسبأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا .. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة في أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبادية كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تمثلوه وتألقت أضواءه في صدورهم وفي أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواضع خالصة ينفرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفاني ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

الفصل الخامس

النثر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامى ، مبيناً لهم معانى الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قدمت يداه ولو كان مثقال ذرة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حُلَّت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام مثممة للذكر الحكيم ،
ومن ثمَّ كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمعة والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحفظ
كتب الحديث بما اتخذته فيها من سنن وتقاليد^(١) ثبتت إلى اليوم . وبينما
كانت تسبق الخطابة الصلاة في الجمع كانت الصلاة تسبقها في الأعياد ،
وهي تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نشز من الأرض ،
وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا . ويُقبل على الناس مسلماً . وتبدأ الخطبة
الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ،
ويؤثر عن الرسول أنه كان يقول في فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ،
ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من
شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل
الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »^(٢) . وعادة يتلو
الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم ، حتى
يستلهمها في موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها
يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية :
« اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقاك »
وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعنى في غمرة ، ولا تأخذنى في غيرة ،
ولا تجعلنى مع الغافلين »^(٣) . ولا تُفستحُ خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح
بالتكبير ، فيكبر الخطيب في أولهما سبع تكبيرات وفي ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية
لا يتفق وروح الإسلام ، ولا تقصد سجع الكهَّان الذى كان يرتبط بدينهم
الوثنى فحسب ، بل تقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن
التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول
صلى الله عليه وسلم حين كانت تفتدُ عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن
وفد تميم وقيام خطيبهم عطارد بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخرأ بقومه ،

(١) انظر في صلاة الجمع والعيدين كتب
(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .
(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

الحديث مثل صحيح البخارى ومسلم .

وقد نددب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس ، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله^(١) .

ونمضي في عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء ، كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة ، فقد درأ في الموقفين جميعاً الشعث الذي كاد يودي بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتد كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكم من خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعد منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قد منافراً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحلونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونشر الدين الخفيف في أطباق الأرض . وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاشين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده بيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بخدافيرها . ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتتح إلا بعد أن فتحت خطبة أحد هؤلاء القواد ، كخطبة المغيرة بن شعبة في القادسية^(٢) وخالد بن الوليد في اليرموك^(٣) ، وعمتة بن غزوان في فتح الأبلهة ، ونحن نكتفي بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول^(٤) :

« أما بعد فإن الدنيا قد تولت حذاء^(٥) مدبرة ، وقد آذنت أهلها بصُرم ، وإنما بقي منها صباية كصباية الإناء يصطبها^(٦) أصحابها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم » .

ويتولى عمر ، فيكثر من الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خبر يأتيه بفتح . وقد سار على هدى أبي بكر

(١) تاريخ الطبري ٣٧٨/٢ .

(٢) الطبري ٣٧/٣ .

(٣) الطبري ٥٩٢/٢ .

(٤) البيان والتبيين ٥٧/٢ .

(٥) حذاء : سريعة الإديار .

(٦) يصطبها : يشر بها . والصباية : بقية الماء .

في استشارة أصحابه في كل مهمٍّ ، وكل ما يجد من تشريع ، وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملاً من عوامل نمو الخطابة في العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطياً ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوراً وجهة نظره ، وفَسَحَ عمر لخطابة الوفود في مجالسه ، تَسْتَمِيع لأقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتح بغير خطبة ألقاها بين يديه (١) .

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحل مع المسمين في كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل نموها ، إذ تكاثر من يردِّدونها ومن يحسنون حَوَكمها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود في إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة (٢) :

« أصدقُ الحديثُ كتابُ الله ، وأوثقُ العُرَى كلمة التقوى ، وخيرُ المثل ملَّة إبراهيم ، وأحسنُ السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحدثاتها ، وخيرُ الأمور عزائمها ، ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى . . . خير الغنى غنى النفس . الحمر جُماع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عني عنه . السعيد من وعظ بغيره . . . أحسن الهدى هدى الأنبياء » .

وفي هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه في الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الاشر النخعي في الكوفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقتل عثمان ، ويتولَّى علي بن أبي طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيضطَّرُّ علي إلى أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

(١) انظر البيان والتبيين ٢/١٤٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٥٦ .

المشهورة ، وفيها ينتصر علي[ؑ] ، وتم له بيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الواقعة وفي أثناءها تكثر الخطب بين أنصار علي وخصومه ، فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفي تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، ومن يذكرهم بين من ثبّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعري^(١) ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعي وزيد بن صوحان وأخوه سيّحان .

وانتدب علي[ؑ] أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صيفين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة في صفوف علي وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفوهاً . وكان يجيشه غير خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى بن حاتم الطائي وعمرو بن الحمق وشبث بن ربعي . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل علي ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثاً تحاول الوفود لمّ الشعث ، ويُنقِضَى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابه . ومن رؤوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستعر المعركة وترجع كفة علي وجيشه رجحاناً واضحاً ، فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنّة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكّمين يستهدون بآيه . ويُنغمِد القُرّاء في جيش علي سيوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمانعهم علي : فيهددونه بأن يُصبح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُسختار أبو موسى الأشعري عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفي أثناء رجوع علي بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ، ويتأومون علياً لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين مجبّد للتحكيم ومنفّر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصاً بهم في حرّ وراء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذي جمعهم فهو الحوارج .

(١) الطبرى ٥٠١/٢ .

ويحاول عليٌّ وعبد الله بن العباس أن يردَّ أهمَّ إلى سواء السبيل ، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات في مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن والحديث ، وبذلك يَعْرِف هذا العصر المناظرة الشفوية ، بل إنها لتتفجَّر تفجراً . ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبري ، وهو يجري على هذه الصورة (١) :

« راجعهم ابن عباس ، فقال : ما نقيم من الحكيمين ، وقد قال الله عزَّ وجل : (إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) (٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ . فقالت الخوارج : قلنا أمّا ما جعل حُكْمَهُ إلى الناس وأمرَ بالنظريه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني بمائة جلدة وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) (٣) . فقالوا له : أو تجعل الحكم في الصيد والحدوث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟! . وقالت الخوارج : قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلنا فلستنا بعدول ونحن أهل حرِّبه ، وقد حكمت في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عزَّ وجلَّ حُكْمَهُ في معاوية وحزبه أن يُقْتَلُوا أو يرجعوا (٤) . وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزَّ وجل فأبوه . ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً ، وجعلتم بينكم وبينه المودعة والاستفاضة (٥) . وقد قطع عزَّ وجلَّ الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الإمن أقرَّ بالجزية . ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضطُرَّ عليٌّ إلى حربهم ، وفتك بهم فتكاً ذريعاً في موقعة النهروان . وكانوا يظهر ون استبسالا شديداً ، يدفعهم إلى ذلك

(١) الطبري ٤٧/٤ .

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين وتامها : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) .
(٣) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرم ، وتامها : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء ما

قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) .

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تفسى حتى تنى إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) .
(٥) الاستفاضة : المودعة .

خطبائهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي : وحتر قوص بن زهير السعدى والمُسْتورد بن علففة، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تنقد حماسية وحمية من مثل قول ابن وهب في بعض خطبه (١) :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتبار (٢) - أثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق وإن من (٣) وضراً ، فإنه من يُمنّ ويُضسرّ في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عز وجل والخلود في جناته . »

وينهى التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أيدي الخوارج إليه في الظلام ، فتطعنه طعنة تجلاء ، ويُسلم الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة في هذا العصر نمواً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معاني القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهي معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معاني هذا الدين الخفيف الذي بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذي مرتها وذلّلها لكي تؤدي الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضيء به في كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التي تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنة في كل خطبة . حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسمّون كل خطبة تخلو منه بـتراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهاً (٤) .

(٣) من : قطع ومجر .

(٤) البيان والتبيين ١/٢ .

(١) الطبرى ٤/٥٤ .

(٢) تبار : هلاك .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويُعدونه على أنفسهم إعداداً طويلاً ، ثم يُلْقُونَهُ على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب (١) . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذي يريد أن يصبته في نفوس سامعيه صبياً ، على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الأنصار (٢) .

وإذا كنا قد لاحظنا في الجزء الأول من هذا التاريخ للأدب العربي غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تتقدمُ على الخلفاء . يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة » (٣) ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبيّة في حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامة ، ويقول الجاحظ إنه « عدّأ على القرآن قلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه » (٤) . وما يُروى له - إن صحَّ - قوله (٥) :

« سمع الله لمن سمع ، وأطسعه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحياًكم ، ومن وحشة ختلاًكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكُبار ، رب الغيوم والأمطار » .

ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع في خطابته ، وكان ينسفر منه حين يلهج به أحد محدثيه (٦) ، كراهية للتشبه بالكهّان في سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلّة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العبدي حين قدم عليه من غزوة مكران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابه : « أرضٌ سهّلها جبل ، وماؤها وشل (٧) »

(١) الطبري ٤٥٦/٢ وقارن بكلمة لعثمان
ابن عفان في البيان والتبيين ٣٤٥/١ وعيون
الأخبار ٢٣٥/٢ .
(٢) زهر الآداب ٣٢/١
(٣) البيان والتبيين ٢٩٠/١ .
(٤) الحيوان ٨٩/٤
(٥) الطبري ٤٩٨/٢ .
(٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ١١١/٥
وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ .
(٧) وشل : قليل .

ومرّها دَقَل (١) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل .
 إن كثُر الجند بها جاعوا ، وإن قَلتْوا بها ضاعوا . وقد أنكر عمر عليه هذا السجع
 فقال له : أسجّاع أنت أم مخبر (٢) . وكان الخلفاء بعد عمر يُنكرون السجع
 على محدّثيهم . وأمامنا خطب القوم ، وهي تخلو خلواً تاماً من السجع إلا ما جاء
 عفواً في الحين البعيد بعد الحين . ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم
 يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله
 وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحظُ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ،
 فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل
 أقوال متناثرة لا رابط بينها ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع
 واضح يجول فيه الخطيب ويصوّل ، إذ يحدث الناس واعظاً ، أو يعرض
 عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة
 أصبحت ذات موضوع ، تلمُّ بأطرافه وتفصيله . وبذلك كله نهضت الخطابة
 ونهض معها النثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسعون طاقته بما يحملونه من
 معاني الإسلام وما يبسطون في هذه المعاني ويولّدون ويفرّعون . ونحن نقف
 قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التي
 وسّعت جنبات النثر وزادت في معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب
 البلاغة الوافرة .

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب في العرب
 ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتي من اللسانِ

والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥ .

(١) دقل : ردى .

(٢) انظر في هذا الخبر الطبرى ٢ / ٢٥٧

والفصاحة ما ملك به أزمّة القلوب ، وكأنما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصنّغى له الأفتدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس في أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ، ليجزى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة - كما قدمنا - في صلاة الجمع والأعياد ثم في مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تُلِمّ . وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات^(١) غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبته وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثر هذه البقايا مما خُطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً ، وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة ، وهي تمضي على هذه الشاكلة^(٢) :

« الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره وأستهد به وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلّة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودُنُوّ من الساعة وقُرْب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه ، عَوْنٌ صِدْقٌ على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٣ .

(٢) الطبري ١١٥/٢ .

أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره
 وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك
 يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد .
 والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خائف لذلك ، فإنه يقول عز وجل :
 (ما يُبدّل القول لدىّ وما أنا بظلامٍ للعبيد) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ،
 في السر والعلانية (ومن يتق الله يكفرّ عنه سيئاته ويُعظم له أجراً) . ومن
 يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقتته ويوقى عقوبته ويوقى
 سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا
 بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله
 ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا
 أعداءه ، (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم)^(١) وسماكم المسلمين
 (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكثروا
 ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله
 ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ،
 ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

والخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه
 أتم نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة
 ويدخلوا في رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة
 والوسط المشقى على الهلاك ويجتمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه في السر
 والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكنّ في الصدور ، وليقدّموا من خشيته
 وطاعته ما يكفرون به عن سيئاتهم وتبيضّ به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا
 في جنّاته . إنه يوم ما بعده مستعجب ، فلما الجنة وشفيعها العمل الصالح ،
 وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دعوة
 الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها
 في أطراف الأرض . والرسول في كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهي تقف

(١) اجتباكم : اختاركم .

منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضيء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التي تفجرت منها ، إذ كانت تسيل في نفسه ، بل كانت تشع بمعاني نورها ، كما يشع نور الشمس في السماء . وكان أحياناً ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً في سبيل الخير . وهو خير تطبيع عليه اللجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام في حجة الوداع ، وهي تجرى على هذا النمط (١) :

➔ « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أيين لكم ، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع (٢) ، وإن أول رباً أبدأه ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة (٣) والسقاية (٤) . والعمد قود (٥) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون

(١) البيان والتبين ٣١/٢ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٢٥٠/٤
والعقد الفريد ٥٧/٤ .
(٢) موضوع : ساقط ومحرم .
(٣) السدانة : خدمة الكعبة .
(٤) السقاية : سقاية الحجاج .
(٥) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل القتال بمن قتل .

من أعمالكم . أيها الناس ! (إنما النسيء ^(١) زيادة في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يجلونهُ عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلِّدوا ما حرم الله) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فرِّدٌ . ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطئُنَّ فرشكم غيركم ، ولا يُدْخِلُنَّ أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم . ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن ^(٢) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ^(٣) . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان ^(٤) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد : أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . ولا يحل لامرئٍ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرهكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ^(٥) ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولَّى غير مؤاليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

(٤) عوان : جمع عانية وهي الأسيرة ، أي هن عندكم بمنزلة الأسيرات .
(٥) للفراش : أي لصاحبه ، وللعاهر الحجر : أي أن هذا مقضى به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجمها .

(١) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه .
(٢) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .
(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ (١) وَلَا عَدْلٌ (٢). وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .
 وَوَضَّحَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكِدْ يُلِمُّ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ وَالشَّهَادَةِ
 وَالْوَصِيَّةِ بِالتَّقْوَى حَتَّى انْتَقَلَ بَيِّنٌ طَائِفَةٌ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي أَقَامَهَا
 الدِّينَ الحَنِيفَ حَدُوداً بَيْنَ حَيَاةِ الْعَرَبِ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَحَيَاتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ ، فَقَدْ
 كَانُوا مَفْكَكِينَ مُتَنَافِرِينَ يَتَحَارِبُونَ دَائِماً طَلَباً لِالأَخْذِ بِالنَّارِ وَنَهياً لِلْأَمْوَالِ .
 وَجَمَعَهُمُ الْإِسْلَامَ تَحْتَ لَوَائِهِ فِي جَمَاعَةٍ كَبْرَى مُتَأَخِيَةً مُتَنَاصِرَةً لَا يَبْتَغِي بَعْضُهَا
 عَلَى بَعْضٍ . وَلَكِنِّي يَقْضَى عَلَى كُلِّ سَبَبٍ لِلْحَرْبِ بَيْنَهُمْ رَدٌّ دَمَ القَتِيلِ إِلَى الدَّوْلَةِ
 فَهِيَ الَّتِي تَعَاقَبُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنِّي يَسْتَأْصِلُ هَذَا الدَّاءُ دَعَا إِلَى التَّنَازُلِ عَنِ حَقِّ الأَخْذِ
 بِالنَّارِ القَدِيمِ ، وَحَرَّمَ النِّهْبَ وَالسَّلْبَ تَحْرِيماً قَاطِعاً مُشَدِّداً فِيهِ العَقُوبَةُ .

وَالرَّسُولُ يَفْتَتِحُ فِي الخُطْبَةِ أَمْرَ الْإِسْلَامِ وَنَوَاهِيهِ بِإِعْلَانِ أَنَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ
 وَأَمْوَالَهُمْ حَرَامٌ ، وَأَنَّ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ أَنْ يَرُدَّهَا عَلَى صَاحِبِهَا ، وَأَنَّ عَلَى
 كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَرَعَّى أَخَاهُ فِي مَالِهِ . فَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئاً إِلَّا بِالحَقِّ ، وَمَنْ تَمَّ حَرَمُ
 الرِّبَا ، وَبَدَأَ بِعَشِيرَتِهِ وَتَاجَرَهَا المَوْسِرُ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المَطْلَبِ فَاسْقَطَ عَنِ رِقَابِ
 المَدِينِيِّينَ لَهُ رِبَاهُ . وَعَلَى نَحْوِ مَا اسْقَطَ الرِّبَا اسْقَطَ دِمَاءَ الجَاهِلِيَّةِ ، فَلَيْسَ لِمُسْلِمٍ
 أَنْ يَثَارَ لِقَتِيلٍ لَهُ ، وَبَدَأَ بِعَشِيرَتِهِ فَاسْقَطَ دَمَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ
 عَبْدِ المَطْلَبِ . وَلَمْ يُبْقِ مِنْ مَآثِرِ الجَاهِلِيَّةِ شَيْئاً سِوَى خِدْمَةِ الكَعْبَةِ وَسِقَايَةِ الحَجِيجِ .
 وَأَوْجِبَ فِي قَتْلِ العَمْدِ القَوْدَ ، وَلَكِنِ الدَّوْلَةُ هِيَ الَّتِي تَقُومُ بِهِ ، وَبِذَلِكَ قَضَى
 الْإِسْلَامُ عَلَى حُرُوبِهِمُ الدَّاخِلِيَّةِ . وَقَدْ جَعَلَ فِي القَتْلِ شِبْهَ العَمْدِ مِائَةَ بَعِيرٍ .
 كُلِّ ذَلِكَ لِيَحْفَظَ لِلجَمَاعَةِ وَحِدَتَهَا وَيَسُودَ بَيْنَ أَفْرَادِهَا السَّلَامُ وَالوُثَامُ .

وَيَحذِّرُ الرَّسُولُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَغَوَايَاتِهِ ، مُحَرِّمًا لِلتَّلَاعِبِ بِالأَشْهُرِ الحَرَامِ ،
 وَاضِعًا تَقْوِيماً قَمَرِيّاً يَتَأَلَّفُ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرُمٌ : ذُو القَعْدَةِ
 وَذُو الحِجَّةِ وَالْمَحْرَمِ وَرَجَبٍ . وَيَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ المَرْأَةِ وَمَعَانِي عِلَاقَاتِهَا بِزَوْجِهَا ،
 فَيَجْعَلُ لَهَا حَقُوقاً وَعَلَيْهَا وَاجِبَاتٌ ، وَفِي الطَّرْفَيْنِ جَمِيعاً يَحْتَضِرُ لَهَا كِرَامَتَهَا كَمَا
 يَحْفَظُ لَزَوْجِهَا نَفْسَ الكِرَامَةِ . دَاعِيّاً إِلَى التَّعَاطُفِ بَيْنَهُمَا وَالتَّرَاحُمِ وَالتَّعَامُلِ بِرَفْقٍ
 وَإِحْسَانٍ .

(١) صرف : توبة .

(٢) العدل : الفدية .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهد " من نمتضه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابد وتفاجر ، فالناس جميعاً لآدم ، ولا عربي عدناني ولا عربي قحطاني ، بل لا عربي ولا أعجمي ، فقد وضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهي معيار التفاضل . ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرره القرآن في الميراث وأنصبتة ، وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله . ويرسي قاعدة مهمة في شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر : فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرّم ذلك تحريماً باتاً . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخثولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبين في خطابته حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه في علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصخرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، في سلوكهم حتى تزكو نفوسهم ، وفي عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا في مراقي الكمال الإنساني .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران في دقة حسن منطق الرسول في خطابته ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا يلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برّاه الله منه إذ يقول في كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلمين) . والذي لا شك فيه أنه كان يبلغ بعنفه وقوى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء ، وقد وصف الجاحظ بلاغته في خطابته أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التعميب ^(١) ، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصّر ، وهجر الغريب الوحشي ،

(١) التعميب : التعمير وهو التكلم بأنقى

ورغب عن المهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسَّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغناؤه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يتقَّم له خصم ، ولا أفحجه خطيب ، بل يبدؤ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتاج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفسَّاج^(١) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فتحوى^(٢) ، من كلامه صلى الله عليه وسلم^(٣) . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذي فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذي رَسَمها ، وفجرَ يناييعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه في الدلالة ، يسعه في ذلك ذوق مرهف وحسٌ دقيق تبيينهما فيما رُوِيَ عنه من قوله : « لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل : لقيت نفسي »^(٤) كراهية أن يضيف المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البريء من كل ما يُستكره ، اللفظ الذي يجيب إلى النفوس لحلاوته وعلوته وصفائه ونقاته .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي في الذروة من الفصاحة والبلاغة ، إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

(١) الفلج : الفوز .
(٢) فحوى : دلالة .
(٣) البيان والتبيين ١٧/٢ .
(٤) الحيوان ١/٣٣٥ ولقيت النفس : غشت .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحب رفيق إلى الرسول وألصق أصحابه به ، وقد نوّه القرآن بذكره . فقال جلّ شأنه : (فأما من أعطى واتى وصدّق بالحسنى فسنيسره اليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية . وقد أثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسنه ، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فن ذلك أنه لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمت - أقبل فكشف عن وجهه ، فقبله ، وقال : بأبي أنت وأمي طيبت حياً وطبت ميتاً . وخرج من عنده فيسدر الصحابة بخطبته المشهورة^(١) التي قال فيها : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت » ثم أخذ في بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميتٌ وإنهم ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كل نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كل شيء هالك إلا وجهه) . فتاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبادة في سقيفة^(٢) بني ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراعته ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر . وتبعه عمر وأبو عبيدة في نفر من المهاجرين . وهناك خطب في الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب في الناس بعد أن حمّد الله وأثنى عليه وقال^(٣) :

« أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حق فاعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل فسدّ دوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ

(١) الطبري ٢/٤٤٤ وزهر الآداب ١/٣٠ . (٢) عيون الأخبار ٢/٢٣٤ والطبري ٢/٤٥٠ .

(٣) الطبري ٢/٤٤٥ وما بعدها .

الحق له ، وأضعفكم عند القوى حتى أخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .»

وأخذت تتجلى مواقف العظيمة وما ثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قبيل لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم واترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منعوني عقالاً^(١) مما أعطوه النبي لجاهدتهم عليه ، وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم . وإذا أخذنا قرأ في خطبه وجدنا جمهورها وعظماً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكاة قوله في خطبة له^(٢) :

« إن الله عز وجل لا يتقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم الله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدتدوها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ . . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً^(٣) . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة .»

واستن بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو في وصاياها يتهدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا، إلا

(٣) الرکز : الصوت الخفى .

(١) العقال هنا : كناية عن البير .

(٢) الطبرى ٢/٤٦٠ .

لأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصور ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول^(١) :

« أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تسفلوا^(٢) ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تنقروا^(٣) نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكلة . وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وواضح مما تمثلنا به من خطابة أبي بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يُظنُّ أن النبي مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله^(٤) .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفة من بعده ، وكان على شاكلته تفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صفي رسول الله . وقد أعزَّ الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاه ارسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرب به منه ويتخذ موضع مشورته ، حتى توفى وخلفه أبو بكر ، فكان له نعم الظهير والمعين . ولا أسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يرد عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً ، وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدّة عزم ، مجتهداً للأجناد ، حتى فتحت فارس وتسم فتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكاليء والحافظ لرعيته . وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسداداً ، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أي شدقيه شاء^(٥) ، فما هو إلا

(٤) البيان والتبيين ١/٢٦١ .

(٥) البيان والتبيين ١/٦٢ .

(١) الطبري ٢/٤٦٣ .

(٢) تغلوا : تخونوا في النوى .

(٣) تقمروا : تستأصلوا وتقطعوا .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يتهدر بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفي بقوله في إحدى مواعظه (١) :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، وزرركم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نِعَمٌ عَمَّ بها نبي آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصةً إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كالماء أتعبهم أشكرها ، وقدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسْتَخْلِفُونَ في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . . والله المحمودُ مع الفتح العظام في كل بلد . . . فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمشاركة إلى مرضاته . »

وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الخنيف في أقطار الأرض ، وهو ان ينتشر إلا بالقوة التي تُعزِّز الحق وتُعلى سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التي وعدّها الله أن ترث الأرضَ ومن عليها . وما زال عمر يُبْرز هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخلوق ، ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب (٢) :

« أين الطُّرَّاء (٣) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (لِيُظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) والله مظهرُ دينه ، ومعرّضُ ناصره ، ومُؤَلِّ أهلكه موارِيثَ الأُمَمِ ، أين عباد الله الصالحون ؟ . ولما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

(١) الطبرى ٢٨٣/٣ .

(٢) الطبرى ٦٣١/٢ .

في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يُصلحها إلا الرجل المكث (١) الذي يعرف الفرصة والكف .

وتوفى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان . ويروى أنه أرتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعبدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرتجج عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملاً النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس (٢) :

« إنكم في دار قُلعة (٣) وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتيتُم ، صُبَّحْتُم أو مُسِّتُم . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغفلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمروها ومُتَعَمروا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عز وجل : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هَشِيماً تَذَرُوهُ الرِّيحَ وكان الله على كل شيء مُقْتَدِراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحاتُ خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً) . »

وامتحن في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحْدِثُوا فَتَنَ هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطِطَهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقي على ما يقنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصحبوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحار بهم .

(١) المكث : الرزين المتبصر في الأمور . (٢) قلمة : انقلاع أي أنها لا تدوم .

(٣) الطبرى ٣/٣٠٥ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صيفين . ثم كانت خُدعة التحكيم ، وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربيه ، وهو في كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً مفوهاً لا يُشَقُّ غُبارُه ، ومن مواعظه قوله (١) :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وأذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضممار (٢) اليوم والسباق غداً . ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أملة قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يتضرره أملة ، ومن قصر في أيام أملة قبل حضور أجله خسر عمله ، وضرَّه أملة ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعي أن تكثر خطبه في حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب في أصحابه حاثاً لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة (٣) له بأخيرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق .

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الحسف ، ومنع النصف (٤) . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزؤهم قبل أن يغزؤكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عُقر دارهم إلا ذلوا ، فتوا كلمت وتخاذلتهم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهيرياً ، حتى شنت عليكم الغارات ... فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ... حتى صرتم هدفاً يُرمى وفيئاً ينتهب ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزؤون ولا تغزؤون .. قد ورَّيتم (٥) صدرى غيظاً ، وجرت عتموني الموت أنفاساً (٦) ، وأفسدتم على رأبي بالعصيان والحذلان . »

(٥) ورَّيتم : ملائم ، وأصله من وري القبيح جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك وهو الجرعة من الماء ونحوه .

(١) البيان والتبيين ٥٢/٢ .

(٢) المضممار : الزمن الذي تضر فيه الخيل لسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(٤) النصف : الإنصاف .

وقد خَلَّفَ على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغي أن تقف موقف الحذر مما يُنسَبُ إليه من خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرتهُ وُضعت عليه وضعباً . وقد تنبَّه إلى ذلك السابقون^(١) ، واختلفوا في واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثاني سنة ٤٠٦ . ومن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبي في ميزان^(٢) الاعتدال وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان^(٣) . وذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى^(٤) ، وأقرَّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسَّمه باسمه : نهج البلاغة^(٥) ، وذكر ذلك أيضاً في كتابه « مجازات^(٦) الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على عليٍّ قديم . فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن له أربعمئة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس^(٧) .

ولعل في ذلك ما يدلُّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعول على شيء منها إلا إذا جاء في المصادر القديمة التي أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف في تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، وقد أخذت مياديها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

(٤) كتاب الرجال (طبعة يرمبای)

ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف

الرضي (طبعة النجف) ص ١٦٧ .

(٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد)

ص ٢٢ ، ٤١ .

(٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤٤١/٤ .

(١) انظر ترجمة الشريف المرتضى في ابن

خلكان ، وراجع مرآة الجنان للياقبي ٥٥/٣

وشذرات الذهب لابن العماد ٢٥٧/٣ .

(٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو)

٢٠١/٢ .

(٣) لسان الميزان (طبعة حيدرآباد)

٢٢٢/٤ .

تشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين علي وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهي في كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعاني وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

٤

الكتابة

نوه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلّ شأنه : (اقرأ باسم ربك الذي خلق : خلقت الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القسم بالقلم في قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وبالكتاب في قوله سبحانه : (والطور وكتاب مسطور في رق منشور) . وتردد في القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف في مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) ، وقوله : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس) وقوله : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة^(١) ، وقد حثّ القرآن على استخدامها في المعاملات ، يقول عزّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تدّأيتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق) . ومن غير شك كانت هي الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقد كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفظوه .

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤ .

وكان هناك جماعة من الكتّاب يكتبون آياته - كما قدّمنا - بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم ومياهم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحضرمي . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقبُ الكاتب^(١) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُستخدَم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع موثيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والموثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادي أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » وقد قدم لها يبحث عن مقدار الثقة بها، وجمهورها مما لا يرتقى إليه الشك . وهي تفتح بالكتاب الذي كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لتبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطورها للنثر الكتابي عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطوّر فيهِ من تعاليم الدين الخفيف وحلوده وفرائضه وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغي عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهي أمة

(١) الوزراء والكتّاب للجيشياري (طبعة الحلبي)

يعلوها سلطان الله الذي يُردُّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شره .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التي تربط بين أفرادها ، وهو يوضح هذه العلاقات في داخل العشائر كدفع الدية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التي يُشرف عليها الله ورسوله ، وهي علاقات وثقتها روابط الدين توثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردّه إلى هذا الدستور الديني الحديد ، الذي يلغى الفوارق القبلية ، ويقوم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا ثأر يجز ثأراً بل عقاب عادل بالمثل في القتل وغير القتل .

ونمضي في تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التي كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحديبية^(١) والتي نصّت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، ومن دعاه النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمراءها وولاية شرق الجزيرة من قبيل كسرى ، وكذلك جنوبها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا بمعاهدته مع أهل نجران^(٢) ، وفيها يبيّن ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيّر أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية .. . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبي بكر وعمر التي كتبها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم في

(١) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٣ .
(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفي اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرسل بهم لتعليم الناس في آفاق الجزيرة شئون دينهم ، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمراءهم . ومن خير ما يصور هذه العهود كتابه^(١) إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما يُفرض عليهم من الحج إلى بيته المقدس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحت تؤدي تعاليم الدين الحنيف ، وكل ما أقامه لصالح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعقده .

ويتولى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول ، ويرتد كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعين عليه ، ومن أبي فلن يُعجز الله وقوتل حتى يُقر بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمراء الأجناد ضمته نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول . وما زال يتراسل معهم حتى رُئِب الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد^(٢) . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر ، وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّ وعدّال فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار وبدّال فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » .

وولّى عمر ، فتمت في عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفتَح كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا يني

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ .

عن مراسلتهم في كل ما يهم من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضع مشهور، وفيه يقول (١) :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها : أنه لا تُسكَنُ كنائسهم ولا تُهدَم ولا يُنتَقَصُ منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكْرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسّم في هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نَجْران . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياه لولائه في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُثر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة ، وهي تمضي في البيان والتبيين على هذا النحو (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أُدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البيئنة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حراماً حلالاً أو أحلّ حراماً . ولا يمنعتك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشياء ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبتها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهي إليه ، فإن أحضر بيئته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنقذ للشك

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٦٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٤٨ وما بعدها .

وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عُدولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حَمدٍ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظَنِيناً^(١) في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبيِّنات والأيمان . ثم إياك والقلق والضجر والتأذّي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق ، التي يُوجب الله بها الأجر ، ويُحسن بها الذُّخْر ، فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يكفِّه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله سِتْرَهُ وأبدى فعله . والسلام عليك .

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضاائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه ، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُنير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس . ويجعل للمدعى أمداً ينتهي إليه . ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً ، إلا أن تستنفي عدالته فلا تصح شهادته . ويوضح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذّي بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية^(٢) للخليفة من بعده تُعدّ دستوراً رفيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يؤخذوا به من الرفق .

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة . وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويتدع ، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقياً بعيداً لم نكن مغالين . إذ وسَّعت كل الحاجات السياسية التي جدّت ،

(١) ظنينا : متبماً .

(٢) البيان والتبيين ٤٦/٢ .

وكل ما أُعطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بما رسمت اليهود في عهد عمر وأبي بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلام . وخلفه عليٌّ فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة^(١) التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموعَ النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيدة . وكان الرسول عليه السلام هو الذي تُدلُّها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غلبوا عليهم من جهة أخرى ، ولعمر من بينهم في ذلك القيدُ المعلى إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .

الكتاب الثاني
في عصر بني أمية

الفصل الأول

مراكز الشعر الأموي

١

المدينة ومكة

لا نصل إلى عصر بني أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضر تحضراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت في هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة في عهد علي^١ ثم إلى دمشق منذ معاوية فإنها ظلت تحتفظ بالتراث الديني ، كما ظلت مستقراً لأكثر طوائف المجتمع العربي رقة ودمائة . وهيات لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع وما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالغوا في تجميلها وزخرفها^(١) ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيق الأجنبي الذي اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليروى عن الزبير بن العوام مثلاً أنه خلف وحده ألف عبد وأمة^(٢) . ومنذ أن دون عمر الدواوين كان يُفرض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغدقون عليهم إغداقاً^(٣) ، استرضاء لهم ، حتى يصرفوهم عن التفكير في الخلافة .

كل ذلك أعد لأن تعيش المدينة في هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هي الفترة التي انتقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي (طبعة . (٣) الفخرى ص ١٢٧ واليعقوبي ٣٥٨/٢ باريس) ٢٥٤/٤ .
والأغاني ٢٢/٧ .

(٢) نفس المصدر ٢٥٤/٤ .

الانتقاض باهظاً في موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكان ذلك كان سحابة عارضة في سماءها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكّر عليها هذا الصفو والنعيم شيء ، فقد تجنبت السياسة ، وقرأ في أخبار أهلها فنجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة^(١) رافلين رجالاً ونساء في الثياب الحريرية^(٢) وأنواع الطيب والعطور^(٣) ، وبالغ النساء خاصة في اتخاذ صنوف الحلوى والجواهر^(٤) .

وطبيعي أن يكثُر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشبابُ العاطل الذي يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في هو برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبي ما يريد من هذا اللهو ، إذ عُنِيَ بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدثت في أثنائها نظرية الغناء العربية التي تقرأ رُقمها في كتاب الأغاني تالية للأصوات أو كما تقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هي الثقيل الأول والثقل الثاني وخفيف الثقيل والرّمّل وخفيف الرمل والمزج ، وميّزوا مسجّري الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلاً : ثقيل أول بالوسطى وخفيف ثقيل بالسبابة وخفيف رمل بالبسنصر .

واكتمالُ هذه النظرية على أيدي الرقيق الأجنبي يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة افتراض فإن كبار المغنين الأولين في المدينة يُؤثّرُ عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسي بجانب غنائهم العربي^(٥) ، وكان هناك من يشخصّصُ إلى الشام فيتعلم ألحان الروم^(٦) . على أنه ينبغي أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربي نُقلت نقلاً عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوت في صورة عربية مستقلة . وما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبي وُلدوا في بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسي . وكانت العادة أن يبدأوا

(١) ابن سعد (طبعة أوربا) ١٢٦/٤ .
 (٢) ابن سعد ٣٥٢/٨ والأغاني ١٣/٦ .
 والمعارف ص ٢٧٤ والأغاني ٣١٠/١ .
 (٣) أغاني ٢٦٢/٩ .
 (٤) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٣/٨ ،
 ٢٧٨ .
 (٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/١ ،
 ٣٢١/٨ .
 (٦) أغاني ٣٧٨/١ .

بالغناء العربي ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدخلوا ألحانه في غناء العرب . وما يدل على ما نزع من أكثر الآلات الموسيقية التي يتردد ذكرها في هذا العصر تديم مثل الصنّج والميزهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والطمبور عُرفت في العصر الجاهلي .

على كل حال نهضت المدينة في هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها في ذلك مكة كما سرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدتين جميعاً لم تُبقيا إلا قليلاً للعصور التالية كي تضيفه إلى نظريته التي استحدثتها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالا شديداً ، يشترك في ذلك عامتهم وخاصتهم وعبيّادهم وزهادهم^(١) وقضاتهم^(٢) ، حتى لتؤثر عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنى بها في إمارته لهم^(٣) . وكان من أشرافهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقصد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء^(٤) ، وقد تخرج في هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة في هذا العصر طويّس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن^(٥) وأول من صنع الهزج والرمل في الإسلام^(٦) ، وسائب خاثر مولى ابن جعفر وهو من نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربي^(٧) ومعبّد وهو إمامهم في الغناء غير منازع ، وابن عائشة ومالك الطائي وعطرّد ويونس الكاتب ويُنسب إليه أول كتاب في الغناء والأغاني ونسبها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة الميلاء وجميلة وسلامة القسّ وحبابة وسلامة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسمع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

(١) أغاني ٢/٤٠٢٣٨/٤٠٢٢٢/٨٠٢٢٤ . (٥) أغاني ٣/٢٩ .
 (٢) أغاني ٨/٢٧٧ . (٦) أغاني ٤/٢١٩ .
 (٣) أغاني ٩/٢٥٠ . (٧) أغاني ٨/٣٢١ .
 (٤) المسردى ٥/٣٨٥ .

بالمغنين والمغنيات ، وَيَعُدُّ أبو الفرج منهم في أغانيه عشرات^(١) ، ويقص علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء في المدينة من رقي وازدهار، إذ كانوا يتغنون الغناء المصحوب بالجوقة الكبيرة^(٢) والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة^(٣) . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا في المدينة فقط ، بل أيضاً في مكة^(٤) ، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت في مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمَّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة^(٥) .

وعلى هذا النحو عاشت المدينة في هذا العصر لفن الغناء تنميته وترقيه ، ورقية إنما هو رمز لما أصاب مجتمعها من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرفه والنعيم . وكان يلتقى في هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشعب ، وكان ماهراً في إضحاك معاصريه لابنكته ونواده فحسب ، بل أيضاً بإشاراته وحركاته . وتطّفق كتب الأدب بدعاياته وفكاهاته^(٦) .

ولع في هذا المجتمع كثيرات من النساء قدنَ المرح فيه والظرف وعملن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سُكَيْنَةُ بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج في أغانيه ترجمة^(٧) ، صور فيها جمالها وبهاءها ووقارها وأخذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرِفَتْ بتصنيف بلُحْمَةِ شعرها كانت النساء يقلدنَّها فيه ، بل كان من الرجال من يحاكيها في جُمَّتِها . وكانت ظريفة مزاحمة ، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تنفّس في مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذن بإزاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كي يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقى المهذب . ولعلنا الآن نفهم

(١) أغاني ١٨٦/٨ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢٢٧/٨ ، ٢١٨/٨ .

(٣) أغاني ٢٢٦/٨ .

(٤) أغاني ٢١١/٨ ، ١٨٨/٨ .

(٥) وما بعدها .

(٦) أغاني ٢٠٩/٨ .

(٧) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة الساسي)

حزن أبي قَتَيْفَةَ الأُموي على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثّر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولا تقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضي ، يقول (١) :

القَصْرُ فالنَّخْلُ فالجَمَاءُ بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جَيْرُونِ
ويقول (٢) :

أَقطعُ الليلَ كُلَّهُ باكتئابٍ وزَفِيرٍ فما أكاد أنامُ

إلى أشعار كثيرة (٣) تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة في مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع .
وفي هذا الجو الرقيق الذي زخر بالغناء والمرح نهض الشعر في المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم وممن تعرّب في بلدتهم من الموالى وأبنائهم تعرباً تاماً . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغاني حيث يجد با الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسري بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقيهين المشهورين عروة ابن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أرتاة وابن هرمة .
وممن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النسائي ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١ ،
والقصر الذي عناه قصر سعيد بن العاص بالمدينة ،
الجماء : أرض بها . جيرون : دمشق .
(٢) أغاني ٢٩/١ .
(٣) انظر ترجمته في الأغاني ١٢/١ وما بعدها .

وإذا أخذنا نقرأ في شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يَجْرَى في الحب والغزل ، وهو شيء طبيعي ، دفعت إليه حياة الشباب المترف في المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقاً بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة^(١) ، ولكن هذه المعركة تنهى هما ، ولا تَبْقَى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بني أمية طلباً لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحموس^(٢) وموسى شهوات^(٣) ، وأخيه إسماعيل بن يسار^(٤) . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفي الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغي أن يتجه بصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما في المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذي كان يتفق وزف البيئة والذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثمَّ طبع هذا الغزل بطوايع غنائية قوية ، إذ كان في حقيقته أغاني تُصَحَّبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوايع في جوانب كثيرة من حيث الكمِّ ومن حيث الكيف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو في مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا - تحت تأثير الغناء - إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحملوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعرٍ أغنيةً يوقِّعها عليه^(٥) ، وكان بين الشعراء من يُحَسِّنُ وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذينة^(٦) ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبي سعيد مولى فائد وسلامة القس ، وقد ترجم لهما صاحب الأغاني .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها في كل ما وصفناه من

(١) أغاني (ساسي) ١٣/١٤٤ .
 (٢) أغاني (دار الكتب) ١/٢٩٧ و ٤/٢٤٨ . (٥) أغاني ٢/٢٣٨ وطبعة الساسي ٢١/١٠٧ .
 (٣) أغاني ٣/٣٦٥ . (٦) أغاني (ساسي) ٢١/١٠٩ .
 (٤) أغاني ٤/٤٠٨ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء بالحديد وما اتصل بذلك من شيوخ شعر الحب والغزل . وكانت مثلها تغرق في ثراء واسع ورثة الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان في حجورهم من أموال التجارة في العصر الجاهلي ، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس في عصرنا ، إذ كانت تنقل السلع بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فرض لأهلها من أعطيات ورواتب في دواوين الخلافة وما قسم فيهم الأمويون دائماً من أموال ، وكان الحج يُتقى عليهم كل سنة بما يسدُّ خِلَّة كل محتاج .

فمكة لم تكن تقلُّ في هذا العصر ثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التي تختلف جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبَتْ « بالرقط » لاختلاف ألوانها أحضر لها بنائين من الفرس^(١) ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوتاً لزاء بعض قصورها الأخرى^(٢) . ومعروف أنه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقراً لخلافته^(٣) . وقد عني كثير من الخلفاء ومن ولاتها الذين أشرُوا في الفتوح باستتياط العيون فيها وغرس النخيل والأشجار في ضواحيها^(٤) من ذلك ما يروى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسري عامله عليها أن يُجسرى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة في أصل « ثبير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام في قصب من رصاص انتهى بفوارة تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم^(٥) .

ولم تغرق مكة في دور وقصور وعيون فحسب ، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها في الترف والنعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة^(٦) ، ونفر يلبسون مقطعات الخرز والسندس والديباج والحلل المشاة

ص ١٦٤ و الأزرق ١/٤٤١ وما بعدها .

(٥) يعقوبي (طبعة أوربا) ٢/٣٥١ .

(٦) أغاني ٥/٦٦ .

(١) أغاني ٣/٢٨١ .

(٢) أغاني ١/٢١١ .

(٣) الأزرق ١/٣٩٢ .

(٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن)

على كل لون^(١) ، والطيبُ وأنواع العطور تفوح منهم^(٢) . وبالغ النساء في ذلك كله وفي اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر^(٣) .

واكتظت مكة - كما اكتظت المدينة - بالرقيق الأجنبي الذى نهض بحاجات أهلها في مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم . وكان من أهم ما نهض به الرقيق فن الغناء ، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن في مكة وأصحابه في المدينة ، فهم دائماً يلتقون ، حتى ليخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلديتين ضاحية للأخرى . وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم ، ومن مقدميهم وكبارهم في مكة ابن مسجج الذى اشتهر بأنه أول من غنى الغناء المتقن ، وأنه « نقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحة من النبرات التى هى موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعد^(٤) . وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات في مكة ، ومن أنبهم وأشهرهم ابن محرز ، وهو أول من غنى الرمل^(٥) ، وابن سريج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طويس وغيره من مغنيها^(٦) ، وكان أول من ضرب على العود الفارسى بالغناء العربى ، والغريص وكان لا يُلحَقُ في الندب والنياحة ، والأبجر ، والمندلى . ومن مغنيات مكة سميية ، وبغوم وأسماء وكانتامولتين لابن أبي ربيعة . ومكة إن لم تُعرف بدار كبيرة كدار جميلة في المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعدُّ نادياً من نوادى الغناء .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُشغفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

(٤) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٥) أغاني ٣٧٩/١ .

(٦) أغاني ٣٢١/٨ .

(١) أغاني ٦٥/٥ .

(٢) أغاني ٣٩٩/٢ ، ٤٧/٣ .

(٣) أغاني ٢٧٣/٨ ، ٢٧٨/٨ وانظر ابن

سعد (طبعة أوربا) ٣٤٣/٨ .

مكة جميعاً حتى فقهاؤهم من مثل عطاء^(١) بن أبي رباح وابن^(٢) جريرج وقضاتهم من مثل الأوقص^(٣) المخزومي . وتبع ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمي . كان خفيف الروح . وفي كتاب الأغاني ترجمة^(٤) طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات كان لهن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل الثريّا^(٥) بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعقدُ فيه ندوات يؤمّها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلاً ، إذ كانت الثريا مولاةً للغريص ويحيى قبيل وسميّة .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غيرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كل ليلة على أوتار العيوان والطناير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعدّ هذا كله شعراء مكة لأن يجري جمهور شعرهم في الغزل والحب ، وربما كان أهم شاعر مكّي تعلق بالهجاء والمديح عبيد الله ابن قيس الرقيات ، إذ اتخذ مصعب بن الزبير في أثناء ولايته على العراق شاعره الذي ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بني أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدّأحيه ومدّأحي أخيه عبد العزيز وإلى مصر . ولكن حتى ابن قيس أكثر شعره في الغزل ، وعلى غراره العرجي . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبي ربيعة . ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرقصه^(٦) » .

وكل ما قلناه عن تأثر غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصب انصباباً على غزل أهل مكة . وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً في هذا العصر غلب عليه الطابع المادي الصريح ، بل لقد

(٥) أغاني ١٢٢/١ . ٢٠٩/١ وما بعدها

وفي مواضع متفرقة .

(٦) أغاني ٢٨٤/١ .

(١) أغاني ٢٥٧/١ .

(٢) أغاني ٤٠٨/١ .

(٣) أغاني ٣٦٧/٢ .

(٤) أغاني ٤٥/٣ .

استولى عليه استيلاءً بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تبادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونظرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

وما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يروى عن العسرجي الشاعر المكي من أنه كان ينزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفيند^(١) . ويلقانا هناك شاعران كلفا بالغزل هما محمد بن عبد الله النميري ويزيد بن ضببة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يقدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر^(٢) الوادي .

٢

نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجدًا وبوادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرعي وطلب الكلاء، فهي تعيش - كأسلافها في الجاهلية - معيشة متبدية فيها غير قليل من الشظف .

وفي هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعي ، وظل تربص القبائل

(٢) أغاني ٧/٨٥ .

(١) أغاني ١/٣٩٣ .

بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحاد الذي كان عليه القوم في الجاهلية ، بسبب نهى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحوّل حقه من أيدي الأفراد إلى أيدي الدولة ، وكان ولاية بني أمية في نجد وبادي الحجاز يقظين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زجّوا به في السجون . غير أن بقية من الشر والشجار بقيت ، وهي بقية استتبع ظهور بعض قطّاع الطرق من أمثال طهّمان^(١) بن عمرو الكلابي الشاعر ، كما استتبع غير قليل من شعر الفخر والهجاء ، على نحو ما نجد في مهاجاة^(٢) شبيب بن البرصاء الذي بيّنا لعقيل بن علفّة وأرطاة بين سُهَيْبَة ، ومهاجاة^(٣) ابن مَيّادة الذي بيّنا للحكم الحضري .

ودفع شظف المعيشة في هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء في دمشق والولاية في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثمّ كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُسعد إذا قلنا إن شعراء شرقي الجزيرة من ربيعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاية والقواد والأجواد وكان منهم من تسقذف به رحلاته إلى خراسان .

ومرّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرّدّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الديني راضية مرضية . ويظهر أن بعض عمّال الصدقات كان يقسو في جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثم ارتفعت أصوات في هذا العصر الأموي تشكو منهم شكوى مرة^(٤) .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر في نجد وبادي الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه في الجاهلية ، بسبب ما قلّمنا من إمامة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التي سعتت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبية ، وحقاً هو لم يُمت ذلك نهائياً ولكنه قلل من حدّته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجر وا في الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

(١) انظره في أخبار اللصوص للسكري ١٠٠ . (٢) أغاني ٢٩٨/٢ .
 (٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧١/١٢ . (٤) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة
 وما بعدها . الرحمانية) ص ٣٠٥ .

بِإِسْمِهَا . على أن هذا أحدث حزناً في نفوس كثيرين سبق أن وصفناه في عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن في هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعيفاً في مجال الفخر والهجاء فإنه قوى قوة واسعة في مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة في بني عُدْرَةَ وبني عامر . وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُروَةَ بن حزام وقيس ابن ذريح ، ووقف طويلاً عند مجنون ليلى وشكَّ في حقيقته ، وهو بصورٍ بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبيّاً ، وكان عرب نجد وبوادي الحجاز أفرغوا فيه وفي أفرادهم صور البطولة التي فقدوها في حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربي ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسب الأديباء والمؤرخون إلى بني عُدْرَةَ ، لكثرة ما أنتجت فيه ، فيقولون غزل عُدْرِي وهو غزل يمسح عليه الإسلام وما أحاط به المرأة من جلال ووقار وما حرّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذي وصفناه في غير هذا الموضع والذي كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائرتهم وأهلهم ، ودائماً يُصنق الحزن النفس وينقيها ويعدّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجِي حَقّاً وأن تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبوادي الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعمار وسُلَيْمٍ تنزح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها اليمنية في الشام وقبيلة تغلب في الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلي واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية في الرعي وغير الرعي كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها اليمنية مواليةً لبني أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعياً أن تقف قيس في الصفوف المعادية حين تواتها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سَنَحَتْ حين بدا انهيار بني أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حطَّبت قيس في حبَّله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس في الشام وزُفر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا بالجزيرة . وتوالت الأحداث واتفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامه ابن بحدل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثار قيسُ الشام ، وأوقعتُ بها كلب وقبائل قضاة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة في مَرَجِ راهط ، نُتِل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان في الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرة ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُميير بن الحباب السلمي ، وأخذ عمير يغير غارات كثيرة على كلب في أيام متعاقبة مثل : يوم الغُوَيْر ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان^(١) . ووالد قيس غاراتها على تغلب ، ونكَل بها عمير في غير موقعة ، وخاصة يوم ماكسين^(٢) وكان بين من أسرتَه قيس فيه القطامي ، فلما عرفه زفر خلى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامي ينوه بمأثرته عليه طويلاً^(٣) ، ونمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ في إحدى غاراته عليها بالحشاك إلى جانب نهر الثرار . ويثار له زفر في موقعة مَرَجِ الكُحَيْيل حيث فتك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك في هذه الأثناء يده عن قيسِ الجزيرة رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفي ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبد الملك أن ينتظر رجاء أن يُفنى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح في جذب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمناً اقتحم بجيشه العراق وقتل مصعباً سنة ٧١ للهجرة وأرسل الحجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة فقتل عليه . وبذلك أنقذت تغلب من مخالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمي فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذي أقول فيه :

ألا سائلِ الجحافَ هل هو ثائرٌ بقتلى أصيبت من سليمٍ وعامرٍ^(٤)

(١) انظر الأغاني (طبعة السامى) ١٢١/٢٠ (٣) أغاني ١٢٨/٢٠ .
وما بعدها .
(٤) يريد الأخطل اليوم الذى قتلت فيه بنو تغلب عمير بن الحباب السلمي .
(٢) أغاني ١٢٧/٢٠ .

وكان الجحاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الحباب . وقد ظل
يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سَوْفَ نَبْكِيهِمْ بِكُلِّ مَهْنِدٍ وَنَبْكِي عُمَيْرًا بِالرِّمَاحِ الْخَوَاطِرِ^(١)

ومضى الجحاف، فأغار بقومه بني سُلَيْم سنة ٧٣ على تغلب عند موضع
يسمى البِشْر، فنكّل بها تنكيلاً قظيماً، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبتقر بطون
حواملهم ، وكان ممن قتله ابن للأخطل : أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً ، غير
أنه موّه على بني سليم حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب ، فأطلقوه وهم لا يعرفونه .
ولما رأى الجحاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم
خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمّنه ،
غير أنه ألزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْر فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألّه
الجحاف بعد ذلك ونَسَكَ^(٢) .

وإنما سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جذّة بين
قيس من جهة وكتب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر ، حتى أصبح
فوق كل شيء ، وحتى أصبحنا نسمع في كل مكان النار ولا العار ، واشتطوا
في القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودةُ العصبية القبلية على هذا النحو هيأت في قوة لعودة أشعار الفخر
والهجاء ، ففي كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالوَيْل والثبور ،
ويفيض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري بأشعارهم ، ونجد
من ذلك آثاراً في الطبري ينسجدها مع الأحداث في موقعة مرج راهط^(٣) وغيرها ،
وآثاراً أخرى كثيرة في كتاب الأغاني^(٤) . فقد تراص شعراء كلب من أمثال جئوأس
ابن القسطل وعمرو بن المختلة ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل ،
كما تراص شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجيهم

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢ / ١٩٨

وما بعدها و (طبعة الساسي) ١٧ / ١١١

وما بعدها ، ٢٠ / ١٢١ وما بعدها .

(١) خطر الرمح : اختز في يد قاربه .

(٢) أغاني ١٢ / ١٩٨ وما بعدها .

(٣) الطبري ٤ / ٤١٨ .

القشيري وابن الصنفار المحاربي ، وأخذ كل فريق يريش سهامه من الوعيد والتهديد والتخويف الشديد ، فالتهب المهجاء والفخر التهايبا .

ومضى كثير من شعراء القبائل في هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال ، يتقدمهم في ذلك الأخطل والقطامي وأعشى تغلب وأعشى بنى شيبان ونابعهم ، وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بثاقب بصيرته أن يبني لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية ، حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي جميعاً سواء في فارس أو في خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد خُطّطت الكوفة في سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية في شريقها والعدنانية في غربها ، ولم تلبث أن حُشدت حسب أنسابها في سبع خطط ، خطة أو سبع لكثانة وحلفائها وجديلة ، وخطة أو سبع لقضاة وغسان وبنجيلة ونخشم وكيندة وحضرموت والأزد ، وخطة أو سبع لمدحج وحمير وهمدان وحلفائهم ، وخطة أو سبع لتميم وسائر الرّباب وهوازن ، وخطة أو سبع لأسد وغطفان ومحارب والنّسير وضيعة وتغلب ، وخطة أو سبع لإياد وعكّ وعبد القيس وأهل هجر الحمراء . ولم يذكر الطبري السبع السابع^(١)

(١) طبري ١٥٢/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون في كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طيء ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هي الأخرى ذكراً في الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليُدخل القبائل بعضها في بعض .

وكان يَكْتَسِف الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان في ظاهرها من الغرب الحيرة والتجف والخورنق والسدير والغريتان ومنتزهات وديرة كثيرة^(١) . وبمجرد أن نزلها العرب نزلتها معهم بقايا الجيوش الساسانية التي انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان تقيهم يسمى ديلم ، فنسبوا إليه ، وُسِّمُوا حمراء ديلم^(٢) ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التي خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ علي بن أبي طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ، بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير في البصرة ، وقعت بين البلدين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة علي والكوفة . ويدخل أهل البصرة في طاعة علي ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ في صدورهم إحنٌ لأهل الكوفة . ويخرج علي بجيوشه إلى لقاء معاوية في صفين ، وتحدثت المعركة بينهما ويشتد أوارها كما يشتد أوار الشعر بين الفئتين المتحاربتين . ويكون التحكيم . ويخلص الأمر لمعاوية فيولّي علي الكوفة المغيرة بن شعبة . ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرون فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المُسْتورد ابن عُدَّة الخارجي حين ثار عليه ، فأنبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونهم وجماعته^(٣) به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلفه علي الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضيق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطُرَّ حُجْر وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، ف وقعت مناقشات بينه وبين أصحاب زياد ،

(١) انظر مادة كوفة في معجم البلدان لياقوت .
 (٢) فتوح البلدان للبلاذري (طبعة المطبعة
 المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .
 (٣) طبري ٤/١٤٣ وما بعدها .

ارتفع فيها صوت الشعر^(١) ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله في نفر منهم إلى معاوية ، فقتله في ستة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس في الكوفة ضد الحكم الأموي ، واعتبر الشيعة حُجراً وأصحابه شهداء ، وأخذوا يتفجعون عليهم^(٢) . وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضةً شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها بصطبغ بصبغة التشيع ليعلى وبنيه . ويتوفى زياد في سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحاك بن قيس الفهري ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ثم النعمان بن بشير ، ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمها إلى عبيد الله بن زياد وإلى البصرة . ويأبى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بابن عمه مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم في الطريق أن ابن عمه اضطر إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تحذوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتيل لبني هاشم صُلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضي إلى غايته فيقتل وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكرّ بلاء على نهر الفرات في العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفى يزيد بن معاوية ويضطر عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم في حق الحسين ونفورهم عن نصرتهم ، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حرب من قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسُموا التوابين ، وولّوا أمرهم سليمان ابن صرد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا في عين الورد (رأس العين) في وسط الجزيرة بجيش أموي على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان في المعركة ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعي إلى الكوفة ، وانتهز المختار الثقفي الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من وإلى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

(١) طبري ٤/١٩٣ .

(٢) طبري ٤/٢٠٩ .

ينكّل بمن كان هواهم مع بني أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همام السّلولي^(١) :

دَعَا يَا لثارات الحسين فَأَقْبَلْتُ كَتَابُ مِنْ هَمْدَانٍ بَعْدَ هَزْبِيعِ^(٢)
وَأَبِ الْهُدَى حَقًّا إِلَى مَسْتَقَرِّهِ بِخَيْرِ إِيَابِ آبِهِ وَرَجُوعِ
إِلَى الْهَاشِمِيِّ الْمَهْتَدِيِّ الْمَهْتَدِيِّ بِهِ فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ وَمَطْبِيعِ
وَمَا اسْتَجْمَعُ الْأَمْرُ لِلْمَخْتَارِ أَعْدَاءَ جَيْشًا بِقِيَادَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْثَرِ لِحَرْبِ أَهْلِ
الشَّامِ ، فَالْتَقَى فِي سَنَةِ ٦٦ بِجَيْشٍ عَلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فِي «خَازِرٍ» بَيْنَ الْمَوْصِلِ
وَالرَّبْلِ ، وَدَارَتْ الدَّوَائِرُ عَلَى جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَقَطَ فِي الْمَعْرَكَةِ . وَيَوْلِي ابْنَ
الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَصْرَةِ أَخَاهُ مَصْعَبًا سَنَةَ ٦٧ وَتَنَشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخْتَارِ ،
وَتَعَلَوْا كَفَّةَ مَصْعَبٍ ، فَيُقْتَلُ الْمُخْتَارُ وَتَدْخُلُ الْكُوفَةَ فِي طَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ .

ونمضي بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك في ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج
وهي ليست ثورة شيعة ، وإنما هي ثورة أهل السيادة والشرف في الكوفة على
بني أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية^(٣) . وكان سادة هذه
البيوتات وأشرفها يمتعضون من ظلم ولاية بني أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة
وخاصة الحجاج ، وأتيحت الظروف لواحد منهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة
على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه
كثير من الموالى والقراء . وتنازل الحجاج في وقائع كثيرة أهمها وقعة دير الجماجم
وانتصر عليه ، وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل في هروبه ، حتى وصل
إلى ملك الترك مستجيراً ، وقتل أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوي الذي يخلصهم من الأمويين
وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن علي بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة
منشأً نظرية شيعة جديدة تُسبب إليه ، هي نظرية الزيدية . وما زال به شيعته
يستعدونه على بني أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج في سنة ١٢١ وما كاد

زرارة بن عدس التميمي وبيت الأشعث بن قيس
الكندي وبيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت
ذو الجدين الشيباني .

(١) طبري ٤/٥١٠ .

(٢) المزيع : نحو ثلث الليل .

(٣) من بيوت الشرف العريقة في الكوفة بيت

القتال يستحضرُ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضوا عنه إلا قليلا منهم ثبتوا معه حتى قُتلوا عن آخرهم ، وقُتل زيد، وصُلب بسوق الكُناسة في الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى في سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

ولعل في كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة في هذا العصر وأن سادتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكتنون بغضاً لبني أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور في الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطرّمّاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله ، وكان بجوارهم من يُقبّلون على اللهو والخمر ، أمثال الأقيشير الأسدى ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إلياس وحلبته .

ولم تتورط الكوفة في العصبية القبلية ، ولذلك كان حظها في شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر الهجائين في العصر هو الحكم بن عُبَيدل . وقد مضى كثير من شعرائها يُعنى بمديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد، وكان منهم من يتعصب لبني أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزبير الأسدى .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطّط حوالي سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيوش المقاتلة في الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذي تكثرت مستنقعاته وشاطئ خليج العرب، وقد روعى فيها كما روعى في الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعت القبائل خبطاً ، خمساً كبيرة : خطة لتميم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد ، وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر ، ولاذ أهل هجر بخطة عبد القيس ، ولاذت ضبة والرباب بخطة تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة ، هي سوق المربد، وقد تحولات في هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقتة .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسي الذي جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزيد جرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل في حلف تميم ، ودخل أيضاً في حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الزط والسيابجة والإندغار . ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصبهانيين وأخرى من الحبش^(١) . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهيباً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهيباً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هي الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل النهرات الكثيرة التي اشتقت من دجلة ، وخاصة نهري الأبلّة ومعدل .

وأخذ نزلتها من العرب المجاهدين في سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشخون بقيادة الأحنف بن قيس التيمي لعهد عمر بن الخطاب في أرض فارس وتغلغلوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان^(٢) . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان^(٣) . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم^(٤) ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلي ، يتقدم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بصفتين ، وظلت والية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة في العصر الأموي ، ونراها تُذعن لمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ في اجترار العصبية القبلية القديمة ، وكان مماهياً لذلك قيام حلفين كبيرين بها : هما حلف تميم وقيس وحلف الأزدي وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها في حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزد عثمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغل هذه العصبية في توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض .

ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشغَلْ بخصومة شيعية على نحو ما شُغلت الكوفة ،

(١) انظر في تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٤١ وما بعدها والطبري ٤/٢٦٥ ، ٤٧٨ ، ٤٥٩ ، ونقائض جرير والفرزدق ٧٣٧ .

(٢) طبري ٣/١٨٩ - ٢٢١ - ٢٤٤ .

(٣) طبري ٣/٣٥٨ وما بعدها .

(٤) طبري ٣/٥١٠ - ٥١١ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانية الهوى ، إنما الذى شغلها حقاً هو الحصومة القبلية وما طوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن في الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخْرِجهم بِأُسْرِهِمْ إلى غزو خراسان^(١) ، حتى يتخلص من عناصر الشغب في البلدين .

وتبعه ابنه عبيد الله في سياسته من ضَرْب القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج . ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتضطرب البصرة ، ويباع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضْطَرُّ عبيد الله أن يرحلها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزدي على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أزره قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب في الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُنزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزدي و تميم طلباً للثأر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُسنكته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير دية كبيرة يؤديها للأزدي هو وقبيلته ، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتتبعُ البصرة ابن الزبير ، ويولّى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفي في الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً ، ويحارب الأزارقة ، ويوجهُ إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجهز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبني أمية عقب مقتل مصعب ، وهي تغلّى بالعصبيات القبلية . ووكيلها الحجاج الثقفي لأكثر من عشرين عاماً ، وفي عهده عملاً شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبناءها . فجنحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له في الثورات الصغيرة التي كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الحارود وثورة الزنج . وكان طبيعياً أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يعزل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

ابن مسلم الباهلي . ونراه يولّى على الجيوش الغازية في الهند محمد بن القاسم الثقفي .
ومعروف أنه كان يُنيب عنه في حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفي . وولّى
على أصبهان ختنه مالك بن أسماء الفزاري . ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها في
البصرة لعهد الحجاج . ويتوفى سنة ٩٥ ويتوفى بعده الوليد بن عبد الملك ، ويخلفه
سليمان أخوه ، فيولّى على العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب ، فيعظم شأن قبيلة
الأزد .

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة في البصرة حين يتولاها شخص
منها ، وكان ذلك يزيد في تنافس قبائلها واشتعال العصبية بينها ، بلا يستتبع
من المغام السياسية في تولي الوظائف وغيرها . وولى الخلافة عمر بن
عبد العزيز ، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب ، وولّى عليها عدى بن أرطاة
الفزاري ، فعادت إلى قيس مكانتها . ويتوفى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك ،
فيثور عليه يزيد بن المهلب ، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعه بينما تقف
تميم وقيس بجانب ابن أرطاة . ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش
الشام على المسرح ، ويقضى على ابن المهلب ، ويتبع فلول جيشه هلال بن
أحوز المازني التميمي فيقضى عليها وعلى من بقي من المهالبة قضاء مبرماً . ويولّى يزيد بن
عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة ، إذ سرعان ما ولّى عليه عمر بن هبيرة
الفزاري ، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً ، ولم يُثر عليه الأزد وربيعه
وحدهما ، فقد أثار عليه أيضاً تميمًا وشاعرها الفرزدق . ويلى الخلافة هشام
ابن عبد الملك ، فيعزل ابن هبيرة ، ويولّى خالداً القسري لنحو خمسة عشر
عاماً ، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً ، فاضطر الخليفة آخر الأمر أن
يعزله ويولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي ، وبذلك رفعت قيس رأسها ،
وعادت إلى سابق مكانتها . وممن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
وكان آخر ولايتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسي .

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبية القبلية ،
ومن ثم كانت المحور الذي دار عليه شعرها ، إذ تحول كل شاعر يفخر بقبيلته
مصوباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل . ولم يقف الشعراء عند الحصومات

بين الحليّفين اللذين تحدّثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربيعة ومن انضم إليهما من القبائل اليمنية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكوّن من حزازات حديثة ، بحيث لم تبق عشيرة إلا ولها شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تُنمَّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نَمَّت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد يمدحونهم ويأخذون جوائزهم . وقلنا آنفاً إن الحوارج في البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حِطّان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كي تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوي وبيان حقّه في الخلافة . وإذا كنا لاحظنا في الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون في صفوف بني أمية ضد معارضتهم من الشيعة فإن البصرة هي الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموي وعلى رأسهم جرير . ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعي أن ينتظموا في صورة الشعر البصري العامة من الفخر والهجاء والمديح ، ومن اشتهروا منهم يزيد بن مفرغ الحميري . ويلقانا أيضاً شعراء يتغنون بالبحر مثل حارثة بن بدر الغُدّاني التيمي ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع في البصرة اتساعها في الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمّ فسحت للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي .

خراسان

مرّ بنا أن جنّء البصرة هم اللذين مضوا شرقاً في عهد عمر بن الخطاب حتى فتحوا خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان : فكان طبيعياً أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبية القديمة . وكان مما زادها

ضراوة في نفوسهم أن قواد الجيوش المحاربة كانوا يكافأون على انتصاراتهم بإسناد إدارة الجهات التي يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسند إليه ولاية ينحصر قبيلته بالغنم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهي موجدة أدت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تعلق فيها القبيلة كما كان يعلو الثأر على كل شيء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان في نفس الموقف الذي كان عليه أسلافهم في الجاهلية ، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقاً كانوا يُشغَلون أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدءون وينصرفون قليلاً عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريرة ، وهي حرب عادت فيها العصبية جَدَّةً .

وقد بدأت هذه العصبية تستتعر هناك في نفس الوقت الذي بدأ استعارها فيه بالبصرة ، أي بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزدي وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لهم قيس وتميم بزعاذة عبد الله ابن خازم السلمي القيسي . واستطاع أن يجمع السلطان في يده هناك معلناً ولاءه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يَدْخُل في طاعته على أن يُطعمه خراسان سبع سنين ، وأبى ابن خازم ، غير أن نائبه في مرو : بكير بن وشاح التيمي ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتل . ودخلت خراسان ثانية في طاعة بني أمية ، وولّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولي أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي . وضمَّها إلى الحجاج ، فولّى عليها في سنة ٧٨ المهلب الأزدي بعد قضائه على الأزارقة ، فقدمها يصحبه شاعره كعب الأشقري الذي طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن حَبِيب التيمي ونهار بن تَوْسعة اليشكري البكري وزياد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفى المهلب سنة ٨٢ ، فيولّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان شجاعاً مقداماً كما كان بحراً فياضاً ، وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه في فرغانة وخوارزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويعزله الحجاج لعصبية الشديدة للأزدي

وأحلافها من اليمن وربيعة ويولّى أخاه المفضل ، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولي قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغواراً ، فمضى يفتح في طخارستان وأرض السُغند وخوازرزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو في أوج مجده ، وذلك أن سليمان ابن عبد الملك وليّ الخلافة بعد أخيه الوليد ، وكان حانقاً على الحجاج وعمّاله ، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انفضت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعهم تميم ، لأنه كان قتل منها نفرأ من آل الأهم ، وأساء معاملته بطلها وكيع بن أبي سُود . وتزعّم وكيع حربته ، وانضمت إليه الأزد ، وكانت مغيظة منذ عزّل المهالبة وانضمت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالي بقيادة حسيان النبطي ، وأخيراً خذلته قيس إلا نفرأ من عشيرته باهلة ، فلقى حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولّى سليمان مكانه وكيع بن أبي سُود ، فأخذ الناس بالعنف ، فعزله ، وولّى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق ، وقد مضى يتبع سياسةً قبليةً جامحة ، إذ رفع من شأن الأزد ، وملأها الوظائف ، وجعل لها القسط الأكبر في الغنائم . وتوفى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وحجسه لتأخره في أداء الفسء ، وكان قد بالغ لسليمان في بعض كتبه ، فقال إن الفسء في بعض حروبه كان قناطير من الذهب ، وزعم أن خمسه بعد أن أخذ كل محارب حقه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفي رواية ستة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أداءه حجسه حتى يؤدي ما عليه للدولة ، ولم يكتف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولاته الأزديين ، وبذلك سقط أو هوى نجم الأزد ، وقد ولي عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي . ودخلت في عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسي ، ولا يلبث أن يُظلمها عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبح تابعة لخالد القسري والي العراق ، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن ، فارتفع شأن الأزد . ونراه ينسب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه في سياسته ، فالتهمت العصبية القبلية التهاباً ، وامتشتت الحسام الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة والأزد وأحلافها

من جهة أخرى ووقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وعُزلت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليها الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليها أشرس بن عبد الله السُلَيمي القيسي ، وخلفه عليها الجعيد بن عبد الرحمن المُرّي سنة ١١٢ وعُزل عنها في سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالي. وفي عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالي ، واتخذ جهم بن صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمي هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذ انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالي . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل في سنة ١١٧ وولى مكانه أسد القَسَري للمرة الثانية فضيَّق الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد في العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفي ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفي عهده اشتدت العصبية اشتداداً مروّعاً واشتد معها الشجار والقتال في كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقُتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراساني . وعبثاً يصيح نصر بن سيار مجنوده أن يتداركوا الأمر^(١) وتكون نهاية بني أمية .

ويفيض تاريخ الطبري بأشعار الشعراء في هذه العصبية التي احتدمت هناك وفي وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط في خراسان نشاطاً عظيماً ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مضرية ، وحيثما وجدت المضرين وجدت الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فألهمت غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن معبدان الأشقري ونهار بن توسعة وثابت قُطَنة والمغيرة بن حَبِئَاء . ولعل من الطريف أن نعرف أن من هؤلاء الشعراء من كان فارساً مقداماً مثل ثابت قُطَنة وكعب بن معبدان ، وكان من هؤلاء الشعراء الفرسان من يقع في حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ، فيتغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبي جليدة اليشكري^(٢) ، وأعشى همدان^(٣) . وكان بين المحاربين كثيرون يحنون إلى ديار

(١) طبري ٣٦/٦ وما بعدها والأخبار الطوال (٢) أغاني (دار الكتب) ١١/٣١٩، ٣٢٥ .

(٣) أغاني ٣٤/٦ وما بعدها .

للدينوري ص ٣٦٠ .

قومهم في الجزيرة، وخاصة حين يُلم بهم وهن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الرب في مرضه مشهورة^(١). وكان يحدث أحياناً أن يُخفق بعض البدو بالجزيرة العربية في حبسهم، فيرحلوا إلى الثغور، وينظموا شعراً يفمنونه حبهم اليائس، وهو شعر يفيض باللوعة الممضّة على نحو ما نجد عند الصمّة القشيري^(٢) الذي مات غازياً بطبرستان .

٥

الشام

لا يكاد يُقاس الشعر في الشام لهذا العصر إلى ما انبث منه في خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت في جمهورها قبائل يمنية ، وهي لا تبلغ في الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبته بيئة الشام في هذا العصر هو عدى بن الرقاع العاملي ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح، واصطدمت مصالحه كما قلنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء في موقعة مَرَج رَاهط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعه طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

ومما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين بمدحهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابن قيس الرقيّات ونصيب والأحوص وكبير وإسماعيل

(١) أغاني (ساسي) ١٦٢/١٩ وذيل الأمالى (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/٦ وما

ابن يسار النسائي وطُريح الثقفي ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعمى، ومن النجديين الرَّاعى والعُجَيْر السَّلولى وأرطاة بن سُهَيْبَة وعقيل بن عُلْفَة وابن مِيَّادَة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمي وعبد الله بن الزَّبِير الأَسدى وأعشى شيبان ونابغتهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا في الشام ، إنما كانوا يُلبثون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهلهم بُجَرَ الحقائب . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر في هذه البيئة هي العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره في موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثمَّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة في حروب الروم ، وكانت أكثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر في هذه الحروب ، غير أن نقرأ من المصريين شاركوا فيها ، فجرى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به في بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبي العيال الهذلي حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم^(١) واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاء حاراً^(٢) .

وعلى هذا النحو كان الشعر في الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان في جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموي القرشي نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

٦

مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصى مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر اليمنية

تغلب عليها ، وهى من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المصرية وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تقدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر فى تلك الديار ، فكان طبيعياً أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة فى الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسة الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارة للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذي لا ريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تنفس فى جواء الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تنهض فى هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقاً نجد فيها أشعاراً كانت تُنظَّم من حين إلى حين فى الأحداث التاريخية واليومية ، وهى مبنوثة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبى زمزومة الذى عاصر عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر (٦٥ - ٨٥ هـ) وأشعاره المنسوبة إليه لا تترقى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى فى الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه فى جملته شعر وافد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان يمدحونه لأخذ نواله ، وكان بجزاً فياضاً ، وغيثاً مدراراً ، فقصده الشعراء من كل صوب أمثال كثير وابن قيس الرقيات ونصيب وجميل وأيمن بن خريم وعبد الله بن الحجاج الثعلبي . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فصراً لم يكن بها نشاط قوى للشعر فى هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسي ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها
وال على شاكلة عبد العزيز بن مروان ، يترحل إليه الشعراء ويمدحونه . وكذلك
الشأن في الأندلس المفتوحة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحتها قبائل
يمنية ، ومن ثم لم يزدهر الشعر بها ، بل ظل ذاوياً ذابلاً إلى نهاية العصر .

وطبيعي أن يكون النشاط الشعري في اليمن خامداً ، لأنها لم تُجَلِّ فيه من
قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبية والثورات التي تدلح ألسنة الشعراء على نحو
ما مرَّ بنا في البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان يتزها بعض الشعراء
لمديح ولاتها على شاكلة أبي دهميل الجمعي الذي اشتهر بمدحيه ابن الأزرق
المخزومي والى ابن الزبير^(١) . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر
هذا العصر أخذ الشعري يجري على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر
مناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدي الذي ترجم له ياقوت
في معجمه^(٢) .

(٢) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢١ / ١١ .

(١) أغاني (دار الكتب) ١٢٨ / ٧ .

الفصل الثاني

مؤثرات عامة في الشعر والشعراء

١

الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعرُّبها وأثر ذلك في اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة في أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة في جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها في الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه في العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرُّب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرَّب الأقطار الأخرى التي لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يعبُد اللسان العربي خاصاً بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيع في شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هيا لتعرُّبها نظام الولاء الذي أخذ به العرب أنفسهم في فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب في ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كي يدخلوا في هذا الولاء ويتسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن تمت الفتوح أخذ العرب والموالي جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى في المدن التي اختطها الفاتحون لمعسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط ؛ فإن العرب اختلطوا فيها وفي غيرها من المدن بالأجانب الذين قدّموا لهم خدماتهم في الحرف والزراعة والتجارة ، وغنصت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم في حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إماءهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسراري والحواري . وظهر أثر ذلك في أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأمهات أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالي زواجاً وولاء لم يكن تأثر الموالي به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا في التعرّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة في المغرب والأندلس اللاتينية وفي مصر والشام اليونانية والسريانية وفي العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من السنة أصحابها لتحل محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عشية وضحاها ، فقد أخذ التعرّب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفي أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن نُحيت إلى حد كبير - بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية - فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هي اللغة العامة التي يتخاطب بها العرب مضرين ويمنيين في كل مكان ، وإن ظلت من الماضي آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالي تطور ثان في لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسطة ، حتى يفهم عنهم الموالي ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفي أثناء ذلك كانوا يستعيرون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة في الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعربونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويتعرض علينا الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التي جرت على السنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فن ذلك أنهم كانوا يسمون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتقى أربع طرق

«جهارسوك»، وكانوا يسمون السوق «وازار» والقشَاء «خياراً» والمجدوم «ويئذى»^(١) وكانت الفارسية شائعة في البصرة ويتضح ذلك في دخول مقطع «آن» الفارسي على كثير من أسماء القطائع مثل «عمران»^(٢) لعمر بن عبيد الله بن معمر و«سُوَيْدَان» لسويد بن منجوف السَّدُوسِي و«خالدان» لخالد بن أسيد و«مهلبان» لآل المهلب. ومما يدل على شيوع الفارسية في البصرة ما يُروى من أن يزيد بن مفرغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد في ولايته عليها سقاه نبيذاً وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مقروناً إلى هرة وخنزير، وأمر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المزرية، فتجمع حوله الصغار يسألونه بالفارسية أين جيست؟ أي ما هذا، فكان يجيبهم بلسانهم^(٣) :

آبَ اسْتِ نَبِيدِ اسْتِ عَصَارَاتِ زَبِيبِ اسْتِ
سُمِيَّةُ رُوسِي اسْتِ

واست : من أفعال الكينونة ، وآب : ماء . وسمية : أم زياد . وروسبي : الخنزيرة . أي هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية الخنزيرة ، ويريد البغبي . ويلاحظ الجاحظ أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة في المدينة مع من نزلها من الفرس ، ولذلك سمو البطيخ «الخرَّبز» والسميط «الرزق» ، وطعام المصوص وهو لحم ينقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء^(٤) .

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية ، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجريير اللذين عاشا في البصرة ، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة «البيدق والبياذق» المعروفة في لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البيدق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً ، يقول مخاطباً جريراً^(٥) :

(١) البيان والتبيين ١٩/١ وما بعدها .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥٣ وما بعدها .
(٣) البيان والتبيين ١٤٣/١ .
(٤) البيان والتبيين ١٩/١ .
(٥) نقائض جريير والفرزدق (طبعة بيثن) ص ٧٨٧ .

ونحن إذا عدت تميمٌ قديمها مكانُ النواصي من وجوه السوابق
 منعتك ميراث الملوك وتاجهم وأنت لدرعي بيذق في البياذق
 فهو يجعله بيذقاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم في إحدى أهاجيه
 للفرزدق كلمة « الروذق » الفارسية بمعنى الحمل المتوف وبره بعد سلقه ،
 ويستخدم معها كلمة « البيذق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول في
 جعثنٍ أخت الفرزدق^(١) :-

لا خير في غضب الفرزدق بعدما سلخوا عجانك سلخ جلد الروذق
 سبعون والوصفاه مهر بناتنا إذ مهر جعثنٍ مثل حر البيذق

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا
 كان ابن مفرغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه
 شعراء من الزنج مثل رباح^(٢) ومن الهند مثل أبي عطاء السندی .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكنات هؤلاء الموالى ، فإن
 كثيرين منهم كانوا يجدون عسراً في نطق بعض حروف العربية التي لا توجد
 في لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ في البيان والتبيين صوراً مما كان يجري على
 ألسنة عامتهم من هذه اللُكنات ، حتى لتُفسد العبارة العربية إفساداً ، فن
 ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جنس السلطان؟ فأجابه :
 « شر يكاننا في هواها وشر يكاننا في مداينها ، وكما تجيء تكون » . ولم يفهم
 الحجاج ما يقول فقال له ويلك ما تعنى؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع
 الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شركاؤنا
 بالأهواز وبالمداين يبعثون إلينا بهذه الدواب ، فنحن نبيعها على وجوهها^(٣) »
 ومن ذلك أن أم ولدٍ لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجردان في عجان أمكم »

رياح أو سنيح بن رباح . انظر العربية ليوهان

فك هامش ص ٣٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٦١ .

(١) النقائض ص ٨٤٥ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضان

للجاحظ وأمالى ابن الشجرى (طبعة كرنكو)

١/١٩٤ وقد اختلف في اسمه هل هو رباح أو

فأبدلت الذال من الجرذان دالاً ونطقت العجين عجاناً . وقال بعض الشعراء
في أم ولد له يذكر لُكُنْتِهَا :

أولُ ما أسمع منها في السَّحَرِ تذكيرُها الأنثى وتأنيث الذكر
والسوءة السوءاء في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر^(١) . وكانت آثار من هذه اللكنات تجرى على
ألسنة فصحاء الموالى ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربي ، حتى
أصبحوا لا يقلون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلص ، نذكر من
بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكُنْتِ فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين
همزة والطاء تاء والسين شيناً^(٢) ، ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فَتَى زاده السُّلطان في الوُدِّ رفعةٌ إذا غَيْرَ السُّلطانُ كلَّ خليلِ
فقال : « زاده الشلتان^(٣) » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً
ينشد شعره^(٤) . وكان أبو عطاء السندی وهو ممن عاشوا في العصرين :
الأموي والعباسي يبدل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب
ممدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبي غلاماً ينشد شعره^(٥) .

ولم تجر هذه اللكنات على ألسنة الموالى وحدهم ، فقد تسربت منها بعض
الآثار إلى ألسنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ،
على نحو ما يحدثنا الرواة عن عبيد الله بن زياد والى العراق ، إذ استبقاه
أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبدل الحاء هاء
والقاف كافاً ، فإذا قال : أَحَرَّورِي أنت ؟ قال : أهروري أنت ؟ وإذا قال
قلت لك قال : قلت لك^(٦) . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سلُّوا
سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجو بقوله^(٧) :

(١) البيان والتبيين ٧٣/١ .
(٢) البيان والتبيين ٧١/١ والأغاني (طبعة الساسي) ٩٩/١٤ .
(٣) البيان والتبيين ٧١/١ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٣٦٦ .
(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٩/١٣ .
(٥) الشعر والشعراء ٢/٢٠٧ وراجع الأغاني (طبعة الساسي) ٧٩/١٦ .
(٦) البيان والتبيين ٢/١ .
(٧) البيان والتبيين ٢/٢١٠ .

ويوم فتحت سيفك من بعيدٍ أضعفت وكلُّ أمرِك للضَّياع
ويُرَوَى أن أباه زياداً أو فده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكنته:
« إن ابنك كما وصفت ولكن قوم من لسانه»^(١)

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك في مراكز الشعر
الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث في العراق من هذه
اللكنات كان يحدث في المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقرنَ بهذه اللكنات
لحنٌ كثيرٌ بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلتُ أدبرتُ كمن ليس غادٍ ولا رائجُ

وكان القياس أن يقول: « ليس غادياً ولا رائجاً»^(٢) . ويظهر أن اللحن شاع
على السنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عني خلفاء بني أمية بتأديب أولادهم
ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، وما
يروون من لحنه أنه نطق يوماً بكلمة « لص » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين
قتل أبو فديك الخارجي : « يا أمير المؤمنين قُتل أبي فديك » وقال مرة :
« يا غلام رُدَّ الفرسان الصادَّان عن الميدان»^(٣).

واتسع هذا اللحن في الكوفة والبصرة حتى لرى الحجاج المعروف بفصاحته
ولسنه ونشأته في البادية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يعمر : أسمعني
الحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الحجاج : عزمتُ عليك أسمعني
الحن ؟ قال : حرفاً ، فقال الحجاج : أين ؟ قال : في القرآن ، فقال : ذلك
أشنعُ له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : تقول : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ
ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب .
وكانه لما طال عليه الكلام نسي ما ابتداء به . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع
لي لحناً أبداً^(٤) . وكان خالد القسري مع ما اشتهر به من فصاحته لحناناً ، ويُرَوَى

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢٠٤ وما بعدها .

(٤) ابن سلام ص ١٣ .

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٣٩٨ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبينون فإننا رمضانينون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل^(١) :
 وألحنُ الناسُ كلَّ الناسِ قاطبةً وكان يُولَعُ بالتَّشْدِيقِ في الخُطْبِ
 ويَروى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلاً إلى بلال بن
 أبى بَرْدَةَ وإلى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتتبع الإعراب وجعل
 الرجل ينظر إليه، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقِّ هذا أحبُّ إليه
 من ترك الإعراب فلا تتشاغلُ به واقصد لحجتك^(٢) ، ومن عُرِف في خراسان
 باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم^(٣) ، وكان سليمان بن عبد الملك
 في دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخّم اللحن كما يفخّم
 نافع بن جبير الإعراب^(٤) .

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة
 منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرّد جماعة من العلماء وخاصة في
 البصرة لتنقية العربية مما دخلها من فساد . وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض
 لفصحاء الشعراء ينقدّهم نقداً نحويّاً ، حتى لو اضطرتهم إلى ذلك القافية ،
 واشتهر في هذا الجانب عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق
 فيما كان يُحمّده أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجع حتى قال فيه
 بيته المأثور :

فلو كان عبد الله مولى هجوتَه ولكنَّ عبد الله مولى مواليا

فتعرض له ابن أبى إسحق قائلاً : كان يحسن أن تقول : مولى موال^(٥) .
 على أن الفرزدق لم يُعرَف بضعف في الحيس اللغوى لأنه نشأ في البادية ، إنما الذى
 عُرِف بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا في المدن مثل الطرمّاح والكُمَيْت . ويسجل
 الرواة على الطرمّاح أنه كان يَسْتخدِم الألفاظ البدوية الغريبة في شعره استخداماً
 غير دقيق^(٦) وأنه كان يَكَلِّف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين في شعره^(٧) . ولم

(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .
 (٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغاني (طبعة دار
 الكتب) ٣٦/١٢ .
 (٧) الموشح ص ٢٠٨ .

(١) البيان والتبيين ٢/٢١٦ .
 (٢) البيان والتبيين ٢/٢١٨ .
 (٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .
 (٤) البيان والتبيين ٢/٢١٧ .

يكن الكميّ يسلك في أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يتشركُ الطرماح في ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية^(١) ، ويروى أنه أنشد ذا الرثمة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولاً ما تقدر إنسان أن يقول لك فيه أصبت أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميّ بوجهة نظره واعتلّ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له^(٢) ، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح في اللغة^(٣) .

وعلى هذا النحو أخذت السلائق تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم في الحضرة ولم يتغذوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسي حتى يضع اللغويون خطأً فاصلاً بين الشعر القديم الجاهلي والإسلامي والشعر العباسي الحديث الذي سموه شعر المولدين وهو خط فصلوا به فصلاً تاماً بين الشعر الفصيح الذي يمكن الاستشهاد به في اللغة والشعر الذي لا يُعتد به في هذا الاستشهاد . وقد اعتدوا بشعر الجاهليين والمخضرمين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نقرأ من العرب أمثال الطرماح والكمي متخذين النشأة في الحضرة مقياساً لمعرفة المشوب والمصنفي والمعيب والسليم .

٢

الإسلام وأثره في موضوعات الشعر

طبيعي أن يؤثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون في مختلف الأجواء عبيير وعظهم ونُسكهم ، سواء في المساجد الجامعة أو في مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغانى (داوانكتب) (٢) أغاني (ساسى) ١٢٠/١٥ .

(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ . ٣٦/١٢

والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد في متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى ما أصاب الغزل بتأثير الإسلام من براءة وطُهر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبادي الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة . مما هياً لظهور الغزل العذري بل لشيوعه ، وكأنما أضفت الإسلام على المرأة وعلاقتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الجلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا في احتياط ، بل إذا هو يرى دنوها صعاباً أي صعاب ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشف عن ألمه وعذابه في حبه ، وهي شكوى يتضرع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جميل^(١) :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبها ولا بد من شكوى حبيبٍ يروغُ
ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسي إليكم خاشعاً يتضرعُ
فيارب حَبِّبْنِي إِلَيْهَا وَأَعْطِنِي الـ مودّةً منها أنت تعطي وتمنع
وزرى الغزلين جميعاً عذريين وغير عذريين يستلهمون في غزلهم بعض
الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران ، يقول عمر بن أبي ربيعة^(٢) :

فديتكِ أطلقي حَبلي وجودي فإن الله ذو عفوٍ عفورُ

وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم في القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ، وزرى الفرزدق يفصل هذه الفكرة تفصيلاً في إحدى مقطوعاته ، فيقول^(٣) :

يا أختَ ناجيةَ بن سامةَ إنني أخشى عليك بنى إن طلبوا دمي
فإذا حلفتِ هناك أنك من دمي لبريئة فتحللي لا تَأْثَمِي^(٤)
فلئن سفكتِ دما بغير جريرةٍ لتُخلدِنَّ مع العذاب الألامِ

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار

ص ١١٧ .

(٢) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ٧٧٨/٢ .

(٤) تتحلل من اليمين : تستثنى .

(٢) ديوان عمر (نشر شوارتز) رقم ٤٠

ولئن حملتِ دمي عليك لتَحْمِلِنُ ثِقْلاً يكون عليك مثل يَلْمَمٍ (١)

وإذا كان الفرزدق توسّع في فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليمين وما ينتظر القاتل في غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمين يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخّص في اللّمَم ، يقول (٢) :

إذا قلت يوماً نَوَّلِنِي تَبَسَّمْتُ وقالتُ معاذَ الله من فعل ما حَرُمُ
فما نَوَّلْتُ حتى تَضَرَّعْتُ عندها وأعلمتُها مارخَصَ الله في اللّمَم

وواضح أنه يقصد باللمم النظرة وما يماثلها . وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذي كان يخاطب قلوبهم ، فإذا ألفاظه وأفكاره تترج بمعاني الحب والفاظه .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدناه يتحول في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح ، ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنقسم عنهما ، فمضى الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية في الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغي أن يتحلّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بني أمية أن تفنّدوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار ديني لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثلاً حقاً للحاكم الأموي التقى ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يُطيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كُشَيْرٍ (٣) :

وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَعَ الَّذِي أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِياً كُلُّ مُسْلِمٍ
وَقَدْ لَبَسْتَ لِبَسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا تَرَاءَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمِعْصَمٍ
وتومض أحياناً بعينٍ مريضةٍ وتَبَسَّمُ عن مثل الجُمان المنظَّم

(٣) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ١٢٣/٢ .

(١) يللم : جبل على مرحلتين من مكة .

(٢) أغان ٣٢٨/٦ .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مَشْمُزًا كَأَنَّهَا سَقَّتْكَ مَدُوفًا مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمَ (١)
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مَوْنِقًا وَآثَرْتَ مَا يَبْقَى بِرَأْيٍ مَصْمَمٍ
 وَأَضْرَرْتَ بِالْفَنَاءِ وَشَمَّرْتَ لِلذِّى أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٍ
 وهو لا يَصور في عمر التقوى فحسب ، بل يَصور فيه أيضاً الزهد
 والإعراض عن الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل الذى يَغُرُّ الناس من حوله . وتوسع
 هذه الصورة في مديح الشيعة لأئمتهم على نحو ما نجد في هاشميات الكُـمَيْتِ
 وفي شعر أيمن بن خُرَيْمٍ إذ يقول في بنى هاشم (٢) :

نَهَارَكُمْ مَكَابِدَةً وَصَوْمٌ وَلِيْلَكُمْ صَلَاةٌ وَاقْتِرَاءُ
 وَلَيْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّرَكُّى فَاسْرِعْ فِيكُمْ ذَاكَ الْبَلَاءُ

وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ومثاليته الروحية تأثر الهجاء ، إذ أخذ
 الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا في وصفهم بالفسوق
 والبغى والطغيان كقول جرير في آل المهلب (٣) :

آلُ الْمَهْلَبِ فَرَطُوا فِي دِينِهِمْ وَطَغَرُوا كَمَا فَعَلَتْ ثُمُودُ فَبَارُوا

ودائماً يرى شعراء الشيعة الأمويين بالظلم وانتهاك الحرمات وتعطيل أحكام
 الدين وابتداع ما لم يأت به كتاب ولا سنة من مثل قول الكُمَيْتِ (٤) :

لَهُمْ كُلٌّ عَامٍ بَدْعَةٌ يَحْدِثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
 كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِءْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٌ
 تَحِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلِ

واشتد لُـب الهجاء - كما قدمنا في غير هذا الموضع - بتأثير العصبية ،
 ولم يكده يَسْجُ منه خليفة ولا وال ولا شريف ، بل حتى القُرَّاء كان يتعرض لهم
 الشعراء ، وخاصة إذا رأوهم يداجون أولى الأمر ، فكانوا يرمونهم بالنفاق وأنهم

(٣) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٢١٩ .

(٤) الهاشميات ص ١٢٣ .

(١) مدوفاً : مزيجاً .

(٢) أغاني (ساسي) ٦/٢١ .

ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة
ساخراً من إحدى طوائفهم^(١) :

أما النبيذ فلا يذعرك شاربُهُ واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قومٌ يوارونَ عما في صدورهم حتى إذا استمكنوا كانوا همُ الداءِ
مشمِّرين إلى أنصافِ سوقهم همُ اللصوص وهم يُدعونُ قراءِ

ولعلنا لا نبتعد إذا قلنا إن شعر الحماسة كان أقوى في تأثيره بالإسلام من
شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنظَّمُ أكثره في الجهاد ، ومعروف أنه كان
دائماً في صفوف المحاربين قصاصاً ووعاظ يحثونهم على الاستشهاد في سبيل
الله ، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثمَّ تحولت بعض القطع الحماسية التي نُظمت
في خراسان إلى مواعظ خالصة ، كقول نصرين سيَّار^(٢) :

دَع عَنْكَ دُنْيَا وَأَهْلًا أَنْتَ تَارِكُهُمْ مَا خَيْرُ دُنْيَا وَأَهْلٍ لَا يَدُومُونَا
وَأَكْثَرُ تَقَى اللَّهِ فِي الْأَسْرَارِ مَجْتَهِدَا إِنْ التَّقَى خَيْرُهُ مَا كَانَ مَكْنُونَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بِالْأَعْمَالِ مُرْتَهَنٌ فَكُنْ لِذَلِكَ كَثِيرَ الْهَمِّ مَحْزُونَا
وَأَمْنُ جِهَادِكَ مِنْ لَمْ يَرْجُ آخِرَةً وَكُنْ عَدُوًّا لِقَوْمٍ لَا يَصِلُونَا
فَاقْتَلَهُمْ غَضَبًا لِلَّهِ مُنْتَصِرَا مِنْهُمْ بِهِ ، وَدَعِ الْمُرْتَابَ مَفْتُونَا

وواضح أن نصراً يزهد في الدنيا ومتاعها الفاني بما يذكر من هلاك الأهل ، ويدعو
إلى التقوى في السر والخفاء مذكراً باليوم الآخر وما ينبغي أن يُستخذ له من ذخِر
الجهاد والذب عن دين الله ، وبيع النفس في محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة ، أما هم فآمنوا بأنهم على
الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغي جهادهم حتى
يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم
ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تُغمَسُ غمساً

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) (٢) طبرى ٤٣٣/٥ .

في العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفي سبيلها ، ونحس كأنما غاية كل خارجي أن يُقتَلَ حتى يُكْتَبَ في سجل المستشهدين .

وكان شعر من حاربهم يسيل بالدعوة للاستبسال في الحرب وجهاد هذه الفرقة التي زاغت في رأيهم عن طريق الهدى ، ومن خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقرى في ملحمة الطويلة التي وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم (١) :

إنا اعتصمنا بجبلي الله إذ جحدوا بالمُحَكَّمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا ديننا يخالف ما جاءت به النذر
وكان كثيرون يُقتَلون في هذه الحروب ؛ فكان الشعراء يندبونهم ندباً حاراً ،
مازجين ندبهم بما ينتظرهم من نعيم الخلد ؛ كقول الضحالك بن قيس يرثى بهلولاً
الصفري الذي خرج لعهد هشام بن عبد الملك وقتل (٢) :

يا عَيْنُ أَذْرِي دموعاً منك تهتانا وابكى لنا صُحْبَةً بانوا وإخوانا
خلوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا

وتعمُّ هذه الروح الدينية في مرثي من قتلوا من العلويين منذ علي بن أبي طالب ، وقد تحوّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح في مرثيهم ، كقول جرير في عمر بن عبد العزيز (٣) :

حُمِلتَ أمراً عظيماً فاصطبرت له وقمتَ فيه بأمر الله يا عمرا
حبل لقد طُبع الرثاء عامة بطوابع هذه الروح وما يُطَوَى فيها من التسليم لله
والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت ؛ وهو حتمٌ في رقاب العباد . وعليهم
أن يتذرعوا إزاءه بالصبر الجميل .

(٢) الديوان ص ٣٠٤ .

(١) طبري ١٢٥/٥ .

(٢) طبري ٤٦٠/٥ .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر في نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التي نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذي الرمة أحسنا أن قلبه يمتلئ بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثار به الإسلام في الشعر الأدي ، فإنه فجر ينبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على السنة بعض الشعراء ، ولكن سيله لم يبلغ ما بلغه في هذا العصر ، وتقصد ينبوع الزهد وما يُطوى فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسرى في غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تدفق على لسانهم هذا ينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يُعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة في شعرهم ، بل حتى نجد الفرزدق المسهر ينظم قصيدة في إبليس الرجيم^(١) . ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جراه الرجز في هذا الاصطباغ حتى لنجد رجازاً كثيرين يبدؤون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يمضون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وابتهالات لربهم .

والحق أن الإسلام أثار أثراً واسعاً في نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى انقلبوا وعاظلاً يعظون الناس ويذكرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ، وهم في أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تخرم من قرون بعد قرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصورين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق رديء من مثل الكبر والبخل والحياة ، والتحلى بكل خلق كريم من مثل التواضع والجود والأمانة .

قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدينية سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر . وبذلك فرض الإسلام على كل مسلم أن يشترك في الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسي ، وهو نشاط ينبغى أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا - في غير هذا الموضع - كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فتولى عليٌّ ، ونشبت بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نشبت معركة صفين بينه وبين معاوية . وكان التحكيم ، فخرج جمع كبير من جيشه ثائرين ضده ، ولم يلبث أن قُتل ، فتحولت الخلافة إلى معاوية وبيته الأموي وأصبحت وراثية في هذا البيت . وكان الأمويون في نظر كثيرين لا يمثلون الحكام الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عادوا الإسلام في أول ظهوره ، وبذلك كانوا يُعدّون مغتصبين للخلافة . وزاد في الحُنى عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن عمّالهم ظلموا الناس . ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القُرّاء أهل التقوى والورع ، غير أن هذا الجمهور لم يكون حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط في الناس ، واشترك منه نفر في بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقم بثورة منظمة . على أنه ينبغى أن نشير إلى ثورة المرجئة في خراسان بقيادة الحارث بن سُرَيْج ، وسنعرض لها في حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التي نشأت فيها المعارضة لبني أمية ، وقد بدأت معارضة الحجاز لهم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذ البيعة على ذلك من أهل الأمصار ، فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر أبوا أن يبايعوا ليزيد . فلما ولي الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشدّ دعلى هؤلاء الثلاثة في أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رُخصة ، فبايع عبد الله بن عمر ، وفرّ الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة . ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته ، فخرج وقتل بكر بلاء على حدود العراق . أما ابن الزبير فعاد بالبلد الحرام الذي لا يحمل فيه القتل وسفك الدم ، ولما يش يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً ، فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبير على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلح هذا الجيش في مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفي هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرفها، ولما مثلوا بين يديه أكرمهم وأعظم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يثيرون عليه الناس ويقولون : « إنا قلدنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطناير وتضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخُرَّاب والفتيان^(١) . وثار أهل المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّي ونشبت بين الفريقين معركة الحَرَّة المشهورة التي استُبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، وقد بكأها من الشعراء كثيرون^(٢) . وولَّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الخوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفِّي مسلم في طريقه ، فخلفه الحصين بن نُمَيْر السَّكُونِي ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءت بوفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، ففكَّ الحصار وعاد إلى الشام .

وهيَّا ذلك لأن تتسع دعوة ابن الزبير : فإن الأمصار اضطربت على ولاية بني أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولائها ابن الزبير ودعمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت في طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفي دعا لابن الحنفية (أحد أبناء علي من سيدة من بني حنيفة) في الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذي انتقم منه بحبس ابن الحنفية في سجن عارم بمكة ، وولَّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقُباع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفي وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول في طاعة ابن الزبير . وتلقانا في هذه الأحداث أشعار كثيرة مبثوثة في الطبرى .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس في موقعة مَرَج رَاهَط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لمروان بن الحكم ، وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلفه ابنه

معجم البلدان لياقوت .

(١) طبرى ٤ / ٣٦٨ .

(٢) طبرى ٤ / ٢٧٠ . وراجع كلمة حرة في

عبد الملك . فترث في القدوم على مصعب بجيوشه ، حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفي . ويُسْتَعْلَمُ مصعب بعد المختار بالحوارج ، ويقدمُ عبد الملك فيقضى عليه ، ويُرسَلُ الحجاج إلى ابن الزبير بمكة ، فيهزمه ويقتله في سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شحيحاً ، ومن ثم هجاه فضالة بن شريك هجاء مرأياً^(١) . أما مصعب فكان جواداً ممدحاً ، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر^(٢) :

و بمجرد القضاء على ابن الزبير في مكة دخل الحجاز في طاعة بني أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الحوارج وخاصة في البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة في الكوفة ، وكان فيه كثير من أشراف العرب الذين كانوا يعدون بني أمية غاصبين للخلافة . وسرّ بنا في غير هذا الموضع انتقاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتقاض يزيد بن المهلب . وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية ، مما جعلهم يثورون مراراً ، مرة في عهد المغيرة بن شعبة وإلى الكوفة^(٣) ، ومرة ثانية في عهد مصعب ، ومرة ثالثة في عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجل ذلك بعض الشعراء في أشعارهم^(٤) .

على أن هذه الثورات الجائبة لا تقاس في شيء إلى ثورات الحوارج التي امتدّ لها إلى أركان كثيرة في العراق والموصل وإيران والجمامة وحضرموت وعمان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين علي ومعاوية وما كان من رضا علي به ، فقد تنادى فريق من جيشه : لا حكم إلا لله . وبذلك شقوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلاً هاجروا إلى حتر وراء بالقرب من الكوفة ، ولذلك سمو الحرورية . وسموا أيضاً الحوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لعلهم هم الذين سموا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

(١) أغاني ١٥/١ وانظر ٧١/١٢ وما بعدها . (٣) اليعقوبي ٢/٢٦٢ .
 (٢) انظر الأغاني ٣٣/٦ وابن سلام ٥٣٠ (٤) طبري ٥/٣٣٨ وما بعدها .
 والطبري ٤/٥٩٢ ، ٩/٥ وما بعدها .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله). وَسَمَّوْا أَنْفُسَهُمُ الشُّرَآةَ أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ : (ومن الناس من يَشْرِي نفسه ابتغاءَ مرضاة الله). وكان الذي أثارهم أنهم رأوا علياً ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فثاروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً في سبيل الله وسبيل دينه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا علياً ، ولكنه نكّل بهم في موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُلْجَم المرادى أن قتله لينال رضا امرأة منهم^(١) . وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فأرأوا فيه إماماً زائفاً ، وأخذت تتكوّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغي أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهي ليست حقاً لقريش ، إنما هي حق لله وينبغي أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشياً . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبهم أن يجاهدوا الجماعة التي ارتضت الأمويين وما ثبتوه من نظام الوراثة للخلافة في بيتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السحّر في كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالي والأتقياء . وزياد بن سفيان سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج في الكوفة بقيادة المستورد بن علفة سنة ٤٣ وصرعان ما يُقضى عليهم . وتهدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن ظُبَيَّان وينتظروهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور في الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان في البصرة ، وهي لذلك تُعدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عنيفاً اضطروا معه إلى الاستتار . وخلفه ابنه عبيد الله ففضى في سياسته ، وعنف بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أَدِيَّة ومن نساءهم البتّاجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمي عِداده ألفان ، غير أن الجيش هُزم هزيمة نكراء عند « آسك » فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة^(٢) :

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٥٤٩ . (٢) طبري ٤/٢٢٢ وانظر الكامل ص ٥٨٨ .

ألفا مؤمنٍ منكم زعمتم ويقتلهم بأسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنصروننا

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرعة بن أسلم العامري ، فلم يكن
حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عباد بن علقمة
فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركة أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبيدة بن هلال الخارجي ونفر معه لقائده
فقتلوه غيلةً ، وأخذ كثير من الخوارج يدعو للاقتداء بأبي بلال في خروجه
شعراً^(١) وغير شعر . وسمع فريق منهم بأن جيشاً سيُسَيَّر لابن الزبير
في مكة ، فخرجوا إليه ليعينوه ضدَّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام .
وتوفى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانقضَّ الخوارج من حول ابن الزبير ،
إذ رأوه لا يرى رأيهم ، وفي مقدمتهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق
وعبد الله بن الصنفار وعبد الله بن إياض . وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا يدعون
لمحاربة السلطان ، وساعدتهم في شغبهم فرار عبيد الله بن زياد عقب وفاة يزيد
إلى الشام وانتقاض تميم وحلفائها على الأزدي ومن آزرها . وانتهز نافع بن الأزرق
الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمال ابن زياد ،
وتخلف عنه نجدة بن عامر وابن الصنفار وابن إياض ، إذ رأوه يغلو في آرائه ،
وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب
تحريم ذبائحهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نساءهم وأطفالهم ،
وسلك ابن الأزرق معهم القعدة من الخوارج . وخالفه في كل ذلك الثلاثة
الذين سميناهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفار دينٍ لتمسكهم بالتوحيد
والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثمَّ يحل التزوج منهم كما يحل التوارث
بينهم وبين الخوارج ، وحقاً يجب جهادهم ولكن لا يصحُّ قتل أطفالهم ، وأجمعوا

(١) الكامل ص ٥٩٠ ، ٥٩٥ .

على أن القَعْدَة منهم ليسوا كفاراً^(١). ومضى نجدة بأصحابه الذين يسمون بالنَّجْدَات نسبةً إليه فنزل اليمامة، وأعلن هناك الجهاد، أما عبد الله بن الصَّفَّار الذي تنسب إليه الصُّنْثَرِيَّة، لصفرة وجوههم من أثر العبادة^(٢) فإنه لم يُعَلَّن الخروج، ومن أجل ذلك شاع القعود عن الجهاد بين أنصاره^(٣).

وقد انضمَّ إلى نافع بن الأزرق كثيرٌ من جموع الخوارج الذين دانوا برأيه، وهم يسمون الأزارقة نسبةً إليه، وكان من بني حنيفة، إلا أن أكثر أنصاره كانوا من بني تميم، ولم يلبث أن جهَّز جيشاً كبيراً اتجه به إلى البصرة فخرج إليه مسلم بن عُبَيْس في جيش ضخم، وما زال يدافعه حتى كانت وقعة دولا ب على نهر دُجَيْل في الأهواز وفيها قُتل نافع ومسلم معاً، وتوالت وقائع أخرى قُتل فيها عبد الله بن الماحوز خليفة نافع. وتصدَّى لهم المهلب في سولاف ثم في سِلِّي وسلَبْرِي، وانسحب الخوارج إلى الجبال بقيادة الزبير بن الماحوز، وهزمهم عمر بن عبيد الله بن معمر عند سابور، فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان وتعقبهم هناك عتاب بن رقاء وقتل أميرهم الزبير فولَّوا عليهم قَطْرِي بن الفُجْاعة وتقدَّم بهم إلى العراق، فوجَّه إليهم مصعب المهلب، فصدَّهم وما زال يناوشهم حتى قُتل مصعب، وتحوَّل الأمر إلى بني أمية، فأرسلوا إليهم قواداً حالفهم الهزائم، حيثنذ وجَّه إليهم بشر بن مروان المهلب عدوهم اللدود، وما زال يخضد من شوكتهم في رامهرمز وسابور وكرمان، وتعقبهم إلى جيرفت، ولم يلبث أن دبَّ الخلاف بينهم، وتحاربوا، إذ خرج على قطري جماعةٌ كبيرة من صفوفه بزعامته ابن عبد رب، وكان أكثرهم من الموالي. ورأى قطري أن ينسحب بجموعه إلى طبرستان، وبذلك قضى المهلب سنة ٧٨ على عبد رب وأصحابه قضاءً مبرماً، وتعقبت جيوش أخرى قطر ياً وصاحبه عبيدة بن هلال، وكُلت جهودها بالنجاح،

(١) الكامل ص ٦١٠ - ٦١٥ وانظر الفرق

بين الفرق للبغدادى ٦٢ وما بعدها والشهرستاني

(طبعة لندن) ص ٩٠، ٩٣، ١٠٠ - ١٠٢

(٢) الكامل ص ٦١٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٦١٥ والشهرستاني

ص ١٠٢ .

وما بعدها حيث تحد تفصيلاً لآراء هذه الفرق .

وبذلك انتهت حروب الأزارقة التي استمرت نحو أربعة عشر عاماً ، وقد تطاير فيها شعر كثير (١) .

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى اليمامة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وُعمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة في عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه في اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره ، فولّوا عليهم أبا فُدَيْك سنة ٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً ، غير أنه هُزم في سنة ٧٣ هزيمة ساحقة قَضَتْ على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُفْرىة في الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرّح ، وكان من وعظّاهم ، فما زال يدبر للأمر حتى اجتمع حوله كثيرون ، فخرج بهم في سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، غير أنه لم يلبث أن قُتل في إحدى الوقائع ، فهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غزّالة وأمه جَسْمِيَّة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسة قواد أرسلهم إليه واحداً بعد واحد . ودخل في بعض غاراته مع زوجته غزّالة على الحجاج في الكوفة ، فهُرِعَ إلى قصره ، وتحصّن به منه ، وبذلك جعله بالعار . وفي إحدى حروبه نفرّ به فرسه فغرق في نهر دُجَيْبِل سنة ٧٧ غير أن ذكره بقيت خالدة في ذاكرة الخوارج . وظل صُفْرىة الموصل بعده لا يهدعون فقد تجدد خروجهم في عهد يزيد بن عبد الملك بقيادة شوذب ، وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده في عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسري ، وكان آخر ثُوَّارهم الضحّاك بن قيس الذي استولى على العراق في سنة ١٢٧ وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلّيّا خلفه فقال شُبَيْبِل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِي (٢) :

ألم تر أن الله أظهر دينه وصلّت قريش خلف بكر بن وائل

وأرسل إليه مروان بن محمد ابنه عبد الله ثم نازله بنفسه فقضى على ثورته .

(١) انظر الكامل للمبرد ص ٦١٧ - ٧٠٣ . في مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك

(٢) البيان والتبيين ١/٣٤٣ وانظر في الأحداث الطبري الكامل للمبرد .

وظل أنصار عبد الله بن إباح المسمون بالإباضية نسبة إليه لا يتحركون ، حتى ظهر من أتباعه في سنة ١٢٩ عبيد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق في حضرموت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجهز جيشاً بقيادة أبي حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أمويّاً لقيه في وادي القُرى وهزّمه هزيمة ماحقة فرّ على إثرها إلى مكة ، وهناك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش فقضى على عبيد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بني أمية جهراً وسراً ، وكان مركزهم الكوفة كما قدمنا ، ويضطّرّ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرّ بنا في غير هذا الموضع حتى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين ليذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقبل الحسين فلا يخفوا إلى نجدته ، ويقتتل في كربلاء ، ويتحوّل قتله في نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلاً وحرّاً لا ذعة^(١). ثم تكون حركة التوآبين بزعامة سليمان بن صرّاد ، ويُقتضى عليها ، ويبكيهم أعشى همدان في قصيدة طويلة كانت من المكتّمات في أيام بني أمية^(٢) .

ويتولى المختار بعد سليمان بن صرّاد قيادة الشيعة في الكوفة ، فيخرج عنها إلى ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية ، وهو — كما أسلفنا — ابن لعلي بن أبي طالب من امرأة من بني حنيفة . وسرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كيسان ، وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية في الأسس التي قام عليها التشيع ، وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلي ، فهي ليست مفوضة للأمة ، بل هي تنتقل بالوصية في علي وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالاً طريقه النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ ، وكان

(١) انظر الطبري في حوادث سنة ٦١ ومقاتل ص ١٢٦ .

(٢) طبري ٤/٤٧٢ .

ص ١٠٤ وما بعدها ومعجم الشعراء للمرزباني

يغلو في تصور عليّ، حتى لقد زعم أن به قبساً إلهياً ورثه عن الرسول، وهو ينتقل من بعده في الأئمة واحداً تلو الآخر، وبذلك أشاع فكرتي الحلول والتناسخ، وأيضاً فقد زعم أن علياً سيعود فيملاً الأرض عدلاً وعلماً ونوراً، وبذلك وضع أسس فكرة الرجعة. ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات.

وكل هذه الأفكار انزلت إلى الكيسانية^(١) وزاد المختار عليها شعوذات^(٢) كثيرة، من ذلك أنه كان يقول بالبداء على الله أي أن له أن يعدل في الأحكام كلما بدا له التعديل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإنما اعتنق هذا القول لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحى إليه، فكان إذا وعد أصحابه بحدث شيء، فإن حدث جعله دليلاً على صدق دعواه، وإن لم يحدث يقول: قد بدأ لربكم. وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر الذي يخلص العالم من شروره، وكان يتكهن بالأسجاع، واتخذ لأشياعه كرسيّاً غشاه بالديباج وقال لهم: إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبي طالب، وهو منكم بمنزلة التابوت في بني إسرائيل. وكان يُكثّر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء، وفي ذلك يقول سُراقة^(٣) البارقي وقد فرّ عنه^(٤):

ألا أبلغ أبا إسحاق أني رأيت البلق دُهْمًا مصمتات^(٥)
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً على قتالكم حتى الممات

الطوال للدينوري ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه في القاهرة بتحقيق حسين نصار .
(٤) طبرى ٥٢٧/٤ وأغانى ١٣/٩ .
(٥) البلق : الحمامات. مصمتات : لا يتخالط دهمها لون آخر .

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤ والملل والنحل للشهرستاني ص ١٠٩ .
(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ - ١١١ .
(٣) انظر في ترجمة سراقه الطبرى ٥٢٦/٤ وما بعدها والأغانى (طبع دارالكتب) ١٣/٨ ، ٦٨ ، ١٣/٩ وابن عساكر ٦٩/٦ والأخبار

ويقول أعشى همدان (١) .

شهدتُ عليكم أنكم سَبِيَّةٌ وأنى بكم يا شُرطةَ الكُفر عارفُ
وأقسم ما كرببكم بسكينةٍ وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللفائفُ (٢)
وإن لُبسَ الثابوتِ فُتناً وإن سميتُ حمامُ حوَاليه وفيكم زخارفُ (٣)

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية لهذا العصر هي فرقة الزيدية أتباع زيد بن علي الذي ثار في الكوفة سنة ١٢١ لعهد هشام بن عبد الملك ، وقُتل كما مرَّ في غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته في الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص في الإمامة ولا ببقية الآراء الغالبة عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جتوز إمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، وذهب إلى أن كل فاطمي عالم زاهد سخي شجاع قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية في نشأتها - من أكثر فرق الشيعة اعتدالاً (٤) ، وشاعرها الأول الذي عاش - يردُّ نظريتها الكُسيَّت ، وهاشمياته مطبوعة ومشهورة . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتل سنة ١٢٥ دون غايته . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقتله . غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تتقدم من خراسان ، وتكون نهاية بني أمية .

ومن المحقق أن هذه الانقسامات العنيفة في صفوف الأمة العربية لعصر بني أمية وما جرَّت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنتكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بفتن وحروب داخلية لو لم تُشغَلْ بها لفتحت أكثر العالم ولتغيَّر وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصفوفاً تتحارب وتتناحر في سبيل

(١) الحيوان ٢/٢٧١ .

ربكم) .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة التي كان يقصدها

(٣) فن : جمع فتان وهو الغشاء .

المختار في اتخاذ كرسيه : (وقال لم نبيهم إن

(٤) انظر في الزيدية وعقيدتهم الملل والنحل

أن آية ملكه أن يأتيكم الثابوت فيد سكينته من

ص ١١٥ .

الحكم ومطامعه ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقُّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمي أو من البيت الأموي أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حنّاداً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهملوا التفكير في المصلحة العامة للشعب وما ينبغى أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون في الخلافة ومن أحقُّ بها من سواد ، وكأنما انقلبت الوسيلة غاية ، تُسْفَك من أجلها الدماء .

وفي كل الأحداث التي قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعة والخوارج وثوراتهما وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين تروى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجري على كل لسان ، وانخذل الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

٤

الحضارة

رأينا في الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا في نعيم الحضارة ، بما صبَّ فيهما من أموال ورقيق أجنبي وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومصر والأمصار ونزلوا في بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون وتأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلئ بأموال الفسيّ وغنائم الحرب وما رُسم لهم في دواوين الدولة من رواتب ثابتة . وسرعان ما تحضروا ، بل سرعان ما أتُرفوا ، إذ ابتنوا القصور ، وطعموا في أواني الذهب والفضة مختلف الأطعمة ، ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة ، وتعطروا بالمسك وغيره من أنواع الطيب . وكان الموالي من ورأهم يهيمون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف : إذ اكتظت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة . فقد حكى أنه قدّم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رِقاعاً ، وعثروا

على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المتهرة في أمثال ذلك والقسومة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخزائن^(١) فأتوا من ذلك وراء الغاية^(٢) .

وقد ورث العرب في الشام المدن هناك ولم يمضروا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا في نفس المدن والدور والقصور التي كانت قبل الفتوح تتنفس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً في سرعة تحضرهم ، إلا من آثر منهم العيش في البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التي أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قطر ، ثم توزعت في الناس من أهل الشام أولاً ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنَّ لهم ذلك معاوية الذي كان يبرِّدُ بالناس على أرجاء وادي رَحْب^(٣) ، ويؤثر عنه أنه كان يقول إننا تمرغنا في نعيم الدنيا تمرغاً^(٤) . ويظهر إثم هذا النعيم في ابنه يزيد الذي عُرِف عنه كما قدمنا أنه كان « يشرب الخمر ويعتزف بالطناير وتضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك لا في قصورهم التي كانت تزدان بالطنافس وتلمع على حيطانها الفُسَيْفَسَاء وصفائح الذهب وتراعى في أفنيها النافورات فحسب ، بل أيضاً في بيوت الله ، وعناية عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبته التي تُعدّ إحدى عجائب الدنيا مشهورة ، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموي في دمشق وزخرفته بالرخام والفُسَيْفَسَاء والزجاج الملون أشهر من أن تقف عندها^(٥) ، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسط هذه العناية على المسجد الحرام في مكة ، فأحاله تحفة رائعة^(٦) . وما يُذكر له من مآثر أنه عمَّ بعطائه المجدِّمين وقال لهم : لا تسألوا

(١) الخزائن : أثاث البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية

بمصر) ص ١٢١ .

(٣) طبرى ٢٩٨/٤ .

(٤) طبرى ٢٤٧/٤

(٥) الحيوان للجاحظ ٥٦/١ .

(٦) اليعقوبي ٣٤٠/١ .

الناس، وأعطى كل مُتَعَمِّدٍ خادماً وكل ضريبر قائداً^(١). وتفنن الناس لعهدده فى بناء الدور والقصور، وخلفه سليمان فصبَّ عنايةً على الملابس والمطاعم وتأثَّره الناس لعهدده تأثراً واسعاً^(٢). وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإباضى، فقال: إنه « يشرب الخمر ويلبس الحُلَّةَ قُومَتِ بِأَلْفِ دِينَارٍ... حَبَابَةَ عَن يَمِينِهِ وَسَلَامَةً عَن يَسَارِهِ تَغْنِيَانِهِ حَتَّى إِذَا أَخَذَ الشَّرَابَ مِنْهُ كُلِّ مَأْخُذٍ قَدَّ ثُوبَهُ، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَ: أَلَا أُطِيرُ؟^(٣) وقد أرسل فى طلب مغنى الحجاز، فجاءه منهم كثيرون.

ولم تكن حمل الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمل الجواهر والآلىء كما يحدثنا الجهمشيارى^(٤)، ويتروى الطبرى أن يوسف بن عمر حمل إلى هشام بن عبد الملك لآلى حَبَّهَا أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف، قُومٌ بثلاثة وسبعين ألف دينار^(٥). وقد بلغ الترف أقصاه فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء، حتى تحول قصر الخلافة فى عهدده إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو، ويقولون إنه « كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة، ويغيرها فى اليوم مراراً كما تغير الثياب شغفاً^(٦) ».

ومن المؤكد أن أفراد العرب فى الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه فى هذا الترف الآثم، إنما المؤكد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أُتُرفوا، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية. وبالمثل تحضر من نزلوا فى الفسطاط والقَيْرَوان والأندلس، وكانت كثرتهم من عرب الشام، الذين أصابوا حظاً من الحضارة قبل الفتوح لتزولهم قديماً فى تلك البيئة المتحضرة.

ص ٢٧ ، ٢٤ .

(٥) طبرى ٥/٥١٩ .

(٦) أغاني ٧/٥٩ .

(١) طبرى ٥/٢٦٥ .

(٢) طبرى ٥/٢٦٦ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٢٣ .

(٤) نظر الوزراء والكتاب للجهمشيارى

وإذا ولّينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرون تحضراً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبياتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحولت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقسّم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب^(١) ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذري في فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة تهوله كثرة القطائع التي تملكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وفيروز حصين وحسان النبطي . وكانت الحمامات تدرّ في البصرة لهذا العصر أموالاً كثيرة ، حتى ليُروى أن بعضها كان يُغلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يملكها العرب وحدهم ، بل كان يملكها أيضاً الموالى . وما يذكره البلاذري من حماماتهم حمام آعّين مولى سعد بن أبي وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسواري .

ونرى العرب والموالى جميعاً يتنافسون بالبصرة في بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذري منها قصر زربي مولى عبد الله بن عامر وقصر أبي نافع مولى عبد الرحمن بن أبي بكر وقصر ابن الأصهباني وقصر شيرويه الأسواري الذي سُمّي «هزارد» لأنه اتخذ فيه ألف باب . وما يدلُّ على مبلغ التأنق في بناء هذه القصور ما يُروى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طلب إلى معاوية أن يُعيّنه في بناء داره باثني عشر ألف جِذْع^(٢) ، وكذلك ما يُروى من أن عبيد الله بن زياد أنفق على داره هناك التي سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتصاوير الحيوانات^(٣) ، وفي نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدائق والبساتين^(٤) .

وتبع ذلك كله الرّفّه والترّف في المطعم والملبس ، حتى ليرى نفرأ من الأتقياء يلبس الديباج والقلائس^(٥) ، ونراهم يَكْنُون عن هذا التحول في حياتهم بأنهم

(٤) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان

والتبيين ٨٢/٢ .

(٥) ابن سعد ١٣٩/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٧ ق

١٥٣/١ .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ .

(٢) طبري ٢٤٦/٤ .

(٣) راجع ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة

البيضاء وانظر الطبري ٤٠٢/٤ .

طعموا الجَرْدُقَ ولبسوا التَّمْرُقَ^(١). وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَلُ إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُروى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس وابعث إلى بعسل من عسل خلّار^(٢) ، من النَّحْلِ الأَبْكَارِ ، من الدَّسْتَفْشَارِ^(٣) ، الذى لم تَمْسَهُ النار^(٤) . وما يصور هذا الرفه في العيش والتنعم ما يُروى من أن عبيد الله بن زياد هياً لأبيه حين توفى ستين ثوباً ليكفنه فيها^(٥) ، فلم يعد الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكفى الكفن الواحد .

وطبيعي أن يُعْتَنُوا في ثيابها هذه الحياة الرغيدة بكثير من أسباب اللهو كسباق الخيل^(٦) والصيد^(٧) والقنص ولعبي^(٨) الشطرنج والردوسرى أن كثيرين تورطوا في إثم الخمر . وقد أخذت الكوفة تُعْتَنى بالغناء ولم تكتف بمن نشأوا فيها من أمثال حنين^(٩) الحيرى وأحمد^(١٠) النَّصْبِي ، فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لهم دوراً يختلف إليها الناس كدار^(١١) ابن رامين . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربى ، إذ نجد في الفسطاط ابن أبجر^(١٢) مغنى المدينة .

وتنعم العرب في خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وقتي الغنائم ، وفي كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذى ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِلَ في أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إني قدّرت ما عندي لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ في كل يوم ألف درهم^(١٣) ، ويُروى أن مصعب بن الزبير في ولايته على العراق جاءه من هناك نخلة مصنوعة من الذهب ، عتاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

- | | |
|--|--|
| (١) طبرى ٢٨٠/٥ . والنمى : مفرد تمارق وهي الطنافس | (٧) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ والشعر والشعراء ٥٨٨/٢ . |
| (٢) خلار : موضع بفارس مشهور بعسل النحل . | (٨) نقائص جرير والفرزدق ص ٧٨٧ . |
| (٣) الدستفشار : كلمة فارسية معناها المعصور باليد . | (٩) أغاني (دار الكتب) ٣٤١/٢ . |
| (٤) البيان والتبيين ١٠٢/٢ . | (١٠) أغاني ٣٣/٦ . |
| (٥) طبرى ٤١٥/٤ . | (١١) أغاني (دار الكتب) ٦٠/١٥ . |
| (٦) البيان والتبيين ٢٥٧/٣ . | (١٢) أغاني ٣٤٦/٣ . |
| | (١٣) الجهشيارى ص ٢٩ . |

وأخضر ، وقد قومت بألف دينار^(١) . ويُروى أن الإصبهيد في طبرستان صالح يزيد بن المهلب في بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتي ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرْنَس ، وعلى البرنس طيلسان وبلخام من فضة وسرقة (شُقَّة) من حرير^(٢) . ويُقال إن الجراح الحكيم واليه لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقْرًا يملؤها ذهباً وفضة ويوزعها على من يدخل عليه من أصحابه^(٣) . وكان الأمراء والدهاقين يتقدمون على ولاية خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قومت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسري بألف ألف ، وكانت قصرين : قصرًا من فضة وقصرًا من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة^(٤) . وكان الولاية بيد ورهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء ، ويُروى أن نصر بن سيار أعدَّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارحة وأباريق الذهب والفضة وتمائيل الطباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب^(٥) .

ووسط هذه الأمواج من الأموال تحضر العرب في خراسان ، بل أترفوا ترفاً شديداً ، حتى لرى بعض الولاية يقول إن فيسيء خراسان لا يني بمطبخي^(٦) ! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خيوان يُطعم عليها الناس^(٧) . وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلموا هناك ، فلبسوا السراويل والطيالسة والقلائس القصيرة والطويلة^(٨) ، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلّفوا إلى سماع الطبول والمزامير^(٩) ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضطّر بعض الولاية لتفشيهِ في الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل^(١٠) .

وفي كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفي كتاب الأغاني تراجم كثيرة لمن كانوا يُسرفون على أنفسهم في شراب الخمر لا في خراسان فقط ، بل أيضاً

- | | |
|------------------------------|--|
| (١) الجهشيارى ص ٤٤ . | (٧) طبرى ٢٨٨/٥ . |
| (٢) طبرى ٢٩٥/٥ . | (٨) لم يقف هذا اللبس عند عرب خراسان ، |
| (٣) بلاذرى ص ٤١٥ . | فقد شاع بين عرب العراق وزهادهم . انظر ابن |
| (٤) طبرى ٤٦٥/٥ . | سعد ١٣٩/٥ ، ١٣٩٢/٥ ، ٦٤٣٩٢/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٢٥٥/٦ . |
| (٥) طبرى ٥٣٣/٥ . | (٩) طبرى ٤٣٧/٥ . |
| (٦) أغاني (دار الكتب) ٢٨١/١٤ | (١٠) طبرى ٢٨٣/٥ . |
| وطبرى ١٣٢/٥ . | |

في العراق وفي الحجاز ، ولم تكن الحمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت في المدينة طائفة من الخنثين ، كانوا يتشبهون بالنساء في ثيابهن وعاداتهن من مثل تصفير الشعر وتصفيفه وصبغ الأظافر بالحناء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن يُنزل بهم عقاباً صارماً^(١).

وطبيعي أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزاحمنهن في قلوب الرجال ، فتفنن في زينهن تفنناً واسعاً ، على نحو ما حكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سَكينة بنت الحسين. ويروى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حَبَّات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولا دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة: لقد كان النوم أحبَّ إليَّ^(٢). ويروى الأغاني أن عاتكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته في الحج فقال لها : ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة تحجُّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرَّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا : هذه ماشطتها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سَنَنِهَا ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهواج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى^(٣).

٥

الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية في هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلي وجدول إسلامي وجدول أجنبي . فأما الجدول الجاهلي فيبدو في الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية ، وقد

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٧١/٤ وما بعدها . (٣) أغاني ١١/١٨٨ .

(٢) أغاني ١١/١٨٢ .

أقبل العرب يعبئون من هذا الجدول عباءً ، وكأنما صُنِفُوا عليه صفوفاً ، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةٍ راوية الأخبار الثمينة ، ودَغْفَلِ بْنِ حَنْظَلَةَ النَّسَّابِ والنَّخَّارِ بْنِ أَوْسِ الْعُدْرِيِّ وزيد بن الكيس النخري وشهاب بن مذعور وبنو الكواء وغيرهم كثيرون . وفي أهل هذه الطبقة يقول مسكين الدارمي (١) :

وَحَكْمٌ دَغْفَلًا وَارْحَلٌ إِلَيْهِ وَلَا تُرِحِ الْمَطِيُّ مِنَ الْكَلَالِ
تَعَالَ إِلَى بَنِي الْكَوَاءِ يَقْضُوا يَعْلَمُهُمْ بِأَنْسَابِ الرِّجَالِ
هَلُمَّ إِلَى ابْنِ مَذْعُورٍ شِهَابٍ يُنَبِّئُ بِالْمَوَاقِلِ وَالْعَوَالِي
وَعِنْدَ الْكَيْسِ النَّمِرِيُّ عِلْمٌ وَلَوْ أَضْحَى بِمُنْخَرَقِ الشَّمَالِ

وأما الجدول الإسلامي فيبدو في القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزواته ، ثم في الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب علي وخصومه . وقد أخذ هذا الجدول يتشعب شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تُعنى بتاريخ الإسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير في اهتمامهما بمغازي الرسول ، وكان هناك من عُنوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبه . وشعبة دينية تُعنى بقراءات القرآن وبالحدِيث النبوي وما يتصل بهما من تشريع وفقه . وقد ألفت أصحاب هذه الشعبة في كل بلد إسلامي مدرسة كبيرة يأخذ فيها الخلف عن السلف ، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس وعلي رأسهم عطاء وعكرمة وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن أذينة والزُّهري وباليمن طاووس وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلي رأسهم الشعبي وسعيد بن جبَّير وشُرَيْح بن الحارث القاضي وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصري وقتادة وإياس بن معاوية ومالك بن دينار وبخراسان الضحاح بن مزاحم وبالشام شهر بن حوشب ومكحول والأوزاعي وبمصر الصابحي ويزيد بن عبد الله البرقي .

(١) البيان والتبيين ١/٣٥١ .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى أخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين العامين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما . وكان منهم معلمون لأولاد الخاصة^(١) من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبدالصمد ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتاتيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج الثقفى بأنه هو وأباه كانا معلمين بالطائف . ومن هؤلاء المعلمين الكُـمَيْت بن زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة ، وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى خراسان الضحاك بن مزاحم وفى الرى الطرماح ، وفيه يقول بعض من شاهدوه هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء^(٢) » .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبي جاء العرب من ملبستهم للأمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرفوا على تخطيط المدن وعمارة المباني وطريقة استغلال الأرض وشق الترع والقنوات ، كما تعرفوا على طرق جباية الخراج وضبط الدواوين ، ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر يستعينون بالأولين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالأخيرين فى دواوين مصر والشام ، وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك ، إذ عُرِبَت تلك الدواوين . وقد دفعهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة ، فقد تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى فتحوها الثقافة الهيلينية ، وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية . وكانت تُعنى بهذه الثقافة مدرسة جُـنُـدَـيَسَابُور فى إيران ومدارس أخرى فى الرها ونصيبين وأنطاكية وقنسرين وحران والإسكندرية كما كانت تعنى بها بعض الأديرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

(١) انظر فى هؤلاء المعلمين للخاصة ومن يليهم والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنغن) ص ٢٧١ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢٢٣ . من معلمى الكتاتيب : البيان والتبيين ١ / ٢٥١

في هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، ومن اشتهر منهم في هذا العصر «سويرس سيبوخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوي وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعَنَوْنَ بالمنطق الأرسططاليسي والفلسفة اليونانية^(١).

وطبيعي أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقي الذي كان يشرف على الشؤون المالية لغير خليفة أموي بأنهم كانوا يكثرون من جداله ، وله مصنفات مختلفة ، منها محاوره مع بعض المسلمين في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة^(٢). وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ما عند القوم من وجوه الاستدلال المنطقي ، حتى يستعينوا على دحض الشبهة ، ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغي أن نلاحظ أن كثيرين من حملة هذه الثقافة الهيلينية المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه. وبذلك لم تنتظر طويلاً هذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تُترجم ، فقد كان أهلها يعرّبون تعريباً تاماً ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية. وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك ما يُروى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومي يسمى ماريانس ليعلّمه الكيمياء^(٣) ، كما استعان بأصطفن القديم ، ويقول الجاحظ : « هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء^(٤) » ويذكر ابن النديم بعض كتبه في ذلك^(٥). وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصري أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً في الطب للقس أهْرَن بن أعين^(٦) ، وقد ذكر الحكم بن

(١) انظر مقالة مايرهوف « من الإسكندرية إلى بغداد » في التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الطبعة العربية) ٣١٤/٢ .

(٣) وفيات الأعيان (طبعة ديسلان) ٢٤٦/١ .

(٤) البيان والتبيين ٣٢٨/١ .

(٥) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ١٦٣/١ وتاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) طبع ليبزج ص ٣٢٤ وانظر نقولاً عن ماسرجويه في الحيوان ٢٧٥/٣ ، ٣٦٤/٥ .

عبدل الكوفي أهرن وطبّه في بعض شعره^(١). ويُرَوَى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل لأرسطاليس^(٢). كما يُرَوَى أنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية^(٣).

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة في عصر بني أمية إنما هي رمز للحقيقة الكبيرة ، حقيقة تحول الثقافة الهيلينية إلى حجور العرب بكل ما كان فيها من منطق يوناني ومعارف مختلفة ، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسي كي يتم ، أو كي تم دورته ، فقد كان كل شيء في هذا العصر الأموي يدفع إلى تمامه ، لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضاً كما قلنا آنفاً عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية .

ومعنى هذا كله أن العقل العربي دُعم في هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دَعَم نجد آثاره في ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم الفقه والتفسير والحديث ، كما نجد هذه الآثار في كثرة المناظرات التي نشبت بين الآراء المختلفة في السياسة والدين وغير السياسة والدين . وارجع إلى أخبار الخوارج فستجدهم يثيرون الجدل في كل مكان ، وجدالم مع علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس مشهور ، ويُرَوَى أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم ، فجعل يبسط له من قوهم ويزين له من مذهبهم بلسان طَلَّق وألفاظ بيّنة ومعان قريبة ، حتى قال عبد الملك : لقد كاد يوقع في خاطرِي أن اللجنة خلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبتت الله على من الحجّة وقرّر في قلبي من الحق^(٤). وهذا رجل من عامتهم فما بالنّا بزعمائهم ، ويُسَيِّد المبرد في كتابه «الكامل» بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين^(٥)، وقد جعلهم

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وعيون الأخبار ٤/٦٢ . ص ٨١ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ . (٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧٣ .

(٣) راجع صفحات عن إيران لصادق نشأت . (٥) الكامل ص ٥٦١ .

ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو المصرية)

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونجدية وصفورية وإباضية، وشكازيد بن جندب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال (١) :

كُنَّا أَنَسَاءَ عَلَى دِينِ ففَرَّقْنَا طَوَّلُ الْجِدَالِ وَخَلَطُ الْجِدِّ بِاللَّعِبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجَالًا ضَلَّ سَعِيَهُمْ عَنِ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُطْبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التي عاصرتهم ، ومن اشتهر بإحسانه للجدال منهم زيد بن علي بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعي ، وقد تحول شاعره الكمييت بأشعاره الملقبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة في المذهب الزيدي تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

وإذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلا في مسائلهم الفقهية بين أيدي الخلفاء وفي مجالسهم العامة والخاصة ، وتروى من ذلك مناظرة (٢) بين قتادة والزُّهري في مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى (٣) بين ابن شبرمة وإياس بن معاوية ، تناولا فيها نحو سبعين مسألة . ويروى أن الشعبي الكوفي كان يجلس في مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه (٤) . وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أي اختلاف الفقهاء . وكان أيوب السخيتاني يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف (٥) » ، وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل في آرائهم والتدقيق في مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سُموا أهل الرأي لغلبة القياس على فقههم (٦) .

وقد تجادلوا طويلا في مسائل العقيدة ، وسرعان ما أخذ علم الكلام في الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والجبورية والمرجئة والمعتزلة ، وكان من أهم المسائل التي أثرت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار في أفعاله أو هو

(١) البيان والتبيين ٤٢/١ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤٣/١ .

(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .

(٤) البيان والتبيين ٣٢٢/٢ .

(٥) البيان والتبيين ٩٨/٢ .

(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .

مُجْبِرٌ مَسِيرٌ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصرى يدافعون عن الرأى الأول، إذ لو كان الإنسان مسيراً بقضاء لازم وقدر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسقط وَعَدُّ الله ووعيده.

واصطفَّ أمام القدرية أصحاب مذهب الجبَّريتناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر. وكان هذا المذهب يُرضى الأمويين، لأنه يتصرف الناس عن التفكير في ولايتهم وتديبرهم لشؤونهم، مؤمنين بأن خلافهم قدرٌ مقدور يجب عليهم التسليم به، ومن ثم نرى شعراءهم يردُّون هذه الفكرة طويلاً على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان^(١):

الله طَوْقُكَ الْخِلاَفَةُ وَالْهُدَى وَاللهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرَجَّثة فكان هناك جبرية مرجثة وقدرية مرجثة، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل، فالمؤمن مسلم وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية، إذ المعول في الإيمان على التصديق بالقلب. وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أعمال الناس وتركه إلى الله جلَّ جلاله، ومن ثم رأوا إرجاء الحكم في أمر على وعثمان ومعاوية حتى يحكم الله بينهم. وجعلهم ذلك يصطدمون بالدولة، لما انتهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيها، ويلقانا منهم أبو رؤبة سنة ١٠٢ في نفر من أصحابه يحارب مع يزيد ابن المهلب في ثورته على الأمويين^(٢). وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم في الكوفة من أمثال عَوْن بن عبد الله بن عتبة الهذلي، وناظرهم في آرائهم^(٣). ونرى عَوْناً يرجع من عنده، فيبرأ منهم، وينضم إلى الشيعة، مصوراً ذلك في أبيات تُنسب إليه تجرى على هذا النمط^(٤):

وَأَوْلَ مَا نَفَارِقُ غَيْرَ شَكِّ نَفَارِقُ مَا يَقُولُ الْمُرَجِّثُونَ
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ جَوْرِ وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ بِجَائِرِينَ
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ دَمُهُ حَلَالٌ وَقَدْ حَرَّمَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ

(١) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٤٧٤ . (٢) ابن سعد ٢١٨/٦ .

(٣) طبرى ٣٤٠/٥ . (٤) البيان والتبيين ٢٢٨/١ .

وواضح أنه يصف المرجئة بأنهم يستحلون دماء المسلمين مما كان سبياً في تعقب الأمويين لهم ، وقتلهم أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لغسيلان^(١) الدمشقي.

ولم يُعرف هذا المذهب في العراق والشام فحسب ، فقد كان له أنصار في خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قطننة وهو من مرجئة الجبيرة ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول في تضاعيفها^(٢) :

المسلمون على الإسلام كلهم والمشركون أشتوا دينهم قَدَدَا^(٣)
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا م النابس شركا إذا ما وحدوا الصمدا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له رد وما يقض من شيء يكن رَشَدَا
كلُّ الخوارج مُخطئ في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما عليٌّ وعثمانُ فإنهما عبدان لم يُشركا بالله مُدَّ عبدا
ويتوقى ثابت ، ويظهر هناك جهنم بن صفوان أحد رؤس الإرجاء^(٤) ،
ويضع يده في يد الحارث بن سريج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ،
ويُقضى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدرية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التي انبثق عنها هذا المذهب هي مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصرى ومن تابعوه من القدرية يرون أنه مؤمن فاسق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالا عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدرية ، ودفع الحسن عمرو بن عبَّيد ليجادله فيه ، فأقنعه واصل برأيه^(٥) ، وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن ، وسُميا هما ومن

(١) انظر في ترجمته لسان الميزان ٤/٢٤٤ :
والمعارف ص ٢٤٤ وفي هذين الكتابين أنه كان
قدريا ولكن في الفهرست ص ١٧١ والملل والنحل
(طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً، ومن ثم
فعداده في مرجئة القدرية. وراجع فيه المنية والأمل
لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

(٢) أغاني ١٤/٢٧٠ .

(٣) أشتوا : فرقوا . قَدَدَا : طرائق وقرقا .

(٤) انظر الملل والنحل ص ٦٠ حيث يوضح
كيف أصبح رئيساً لفرقة تسمى الجهمية نبيناً
بعض أصول مقالاتها .

(٥) انظر في ذلك أمالي المرتضى ١/١٦٥ .

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ،
تسندهما في ذلك دراسة مستفيضة لآي القرآن الكريم وعقل دعماه بالمنطق وأدلته
الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكلتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ، فازدهر
الاعتزال وأصبح في العصر العباسي الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

وإنما أطلنا في هذا الجانب لندل على أن العقل العربي في عصر بني أمية أمدّته ووافد
كثيرة ، دعمته دعماً ، مما كان له آثار بعيدة في أشعار الشعراء ، إذ كانوا مندمجين
في الفرق السياسية والعقيدية وما نشب بينها من مجادلات ، ويسوق الرواة من ذلك
مجادلة بين ذى الرمة ورؤبة في القدر، وكان أولهما قدرياً وثانيهما جبرياً^(١) . وتأثير
هذه المجادلات تحوّل جرير والفرزدق يتجادلان جدالاً عنيفاً في عشيرتهما
من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف في نقائضهما ،
وكأنهما يتحولان بشعر الهجاء والعصبيات القديم إلى ما يشبه مقالات أهل
النحل . وكل ذلك من آثار هذا التطور الذي أصاب العقل العربي ، والذي
جعلته يندفع في البحث والمناظرة والتدرب على جسع البراهين والأدلة في أي
موضوع يعرض له .

وكان من ثمار هذا التطور أيضاً أن رأينا بعض الشعراء يسعى بشعره إلى غاية
تعليمية ، إذ أخذ بعض الشعراء المعلمين من أمثال الكُمَيْتِ والطَّرِمَاحِ يحشدون
في أشعارهم أوابد اللغة وشواردها ، ليعينوا الناشئة على معرفتها . ولم يلبث الرُّجَّازُ
وعلى رأسهم العَجَّاجُ ورؤبة أن قدّموا من ذلك مادة وفيرة للناشئة ولعلماء اللغة .

٦

الاقتصاد وموقف العرب من الموالى

لا ريب في أن للمؤثرات الاقتصادية أثراً كبيراً في حياة الإنسان ، وبالتالي
في كل ما ينتج من أعمال وآثار . وإذا أخذنا ننظر في حياة الشعراء لهذا العصر
وجدنا للاقتصاد أثره العميق في اتجاهاتهم ، وهل نستطيع تفسير شيوع الغزل

(١) أمال المرتضى ١/١٩ .

المادى الصريح في مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف في نجد وبيئات
البادى إلا برد ذلك إلى نعومة العيش وما كان يستعصم به سكان تلك المدن من ثراء
عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والبادى من شطف العيش وخشونته ، ولا
ننكر أثر الإسلام في نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة
الاقتصادى ومدى عمله في النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع
المدنيح في العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا برد ذلك إلى ظهور
طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاطاً من الحكام الذين أداروا شئون الدولة
في الحجاج وغير الحجاج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم
جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدم لهم من
مديح ، يقول ذو الرمة (١) :

وما كان مالى من تراثٍ ورثتهُ ولا ديةٍ كانت ولا كسبٍ مأثمٍ -
ولكن عطاء الله من كل رحلتهِ إلى كل محجوب السرادق خضرم (٢)

وقد مضى كثيرون من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو
إليه نفوسهم من صور الترف مما أدت ، وخاصة في أواخر العصر ، إلى ذبوع
شعر الحمر والحجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتعمق النزاع السياسى الحاد الذى نشب طوال العصر وتكونت بسببه
فرق الزبيريين والشيعة والخوارج رأينا يعود في كثير من جوانبه إلى بواعث
اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة
ينثرونها على أنصارهم ومن يلوذون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب
الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق
إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل اليمنية التى جعل لها الأمويون
معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق
إلا على يد علوية تحمل الناس على الجادة ، بينما ذهب الخوارج إلى أنه لا يمكن
أن تتحقق إلا برد الأمر إلى الأمة لتختار أولياءه الصالحين ، ومضوا يجاهدون
الأمويين جهاداً عنيفاً .

(٢) الخضرم : كثير الخير والجرود .

(١) الديوان ص ٦٢٢ .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاية بنى أمية ومن كانوا يتيمومهم على شئون الحراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم في جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين في ذلك إلاً ولا ذمة ، فاللهيب مثلاً حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجج لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم^(١) ، بينما احتجج ابنه يزيد حين صُرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم^(٢) ، ويقال إن راتب خالد القسري في ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان يستصفي لنفسه - بوسائل غير مشروعة - ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرج منه ومن موظفيه يوسف الثقفى حين ولي بعده العراق سبعين ألف ألف^(٣) . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لرى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة بن بدر الغمداني التميمي حين ولي على سُرَق إحدى كور الأهواز^(٤) :

أحارِبَ بِنَ بَدْرِ قَدَ وِلِيَتَ إِمَارَةً فَكُنْ جُرْدًا فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ

وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمَّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة في نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوّر ذلك شكوى الراعى التي وجه بها إلى عبد الملك بن مروان ، وفيها يصف سنة مجذبة أصابت قومه بنى نُمَيْر . ومع ذلك فَرَضَ عليهم السعاة فروضاً ثقيلة ، فلما لم يؤدوها صَبَّوْا عليهم السَّيَاطَ وأرهمقوهم من أمرهم عُسْرًا ، ومن قوله في تلك الشكوى المريرة^(٥) :

أَخْلِيْفَةَ الرَّحْمَنِ إِنَا مَعَشْرُ حُنْفَاءٍ نَسَجْدُ بَكْرَةً وَأَصِيْلَا
إِن السُّعَاةَ عَصُوكَ يَوْمَ أَمْرَتِهِمْ وَأَتَوْا دَوَاهِيَّ لَوْ عَلِمْتَ وَغَوْلَا
فَادْفَعْ مِظَالِمَ عَيْلَتِ أِبْنَاءِنَا عَنَا وَأَنْقِذْ شِلُونَنَا الْمَأْكُولَا^(٦)

(١) طبرى ١٣٥/٥ .

(٢) طبرى ٣٠٣/٥ وانظر ٣١٢/٥ .

(٣) تاريخ اليعتوبى (طبعة أوربا)

٢/٥٥٥ ، ٢٨٨ .

(٤) الحيوان ١١٦/٣ والشعر والشعراء ٢٠/٧١٥ .

(٥) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشى

(طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ .

(٦) عيلى : أفقرت . الشلو : العضو .

وإذا كان هذا يحدث في نجد واليواى فما كان يحدث في العراق وخراسان
أدهى وأمرّ ، فقد مضى الولاة وجباة الخراج يعتصرون الناس بفرض ضرائب
استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقا والنفوس سخطا ووجدا ،
فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة في الحكم لا في عهدى أمة فحسب ، بل أيضاً
في عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همام السلولي
وجهه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عماله في العراق ومن أقامهم هناك على
الخراج ، وهو يستهلها بقوله (١) :

يا بنَ الزُّبيرِ أميرَ المؤمنين ألم يبلغك ما فعل العُمال بالعمل
باعوا التُّجارَ طعامَ الأرضِ واقتسموا ضُلبَ الخراجِ شحاحاً قسمةَ النفلِ (٢)

وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً لحياتهم في الحكم ومطالباً بحاسبتهم
على ما استخلصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظل الناس متحمسين من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن
ولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من
ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحط الجزية عن أسلموا من الموالى .
وبعث على العراق وخراسان عمالاً جُدداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت
الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال (٣) :

إن الذين بعثت في أقطارها نبذوا كتابك واستحلّ المَحْرَمُ
طُلُسَ الثيابِ على منابر أرضنا كلُّ يجورُ وكلُّهم يتظلمُ (٤)

ويناديه كعب الأشقرى من خراسان (٥) :

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئابُ
لن يستجيبوا للذى تدعو له حتى تجلد بالسيوف رقابُ

(١) عن قذارة نفوسهم وأنهم ليسوا أعفاء . يتظلم
حقه : يظلمه إياه .

(٢) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

(٣) أنساب الأشراف ١٩١/٥ وما بعدها .

(٤) النفل : غنائم الحروب .

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٩ .

(٤) طلس : غبر ، وهو يكنى بقبيرة الثياب

وَيُتَوَفَّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم. ويثور الحارث ابن سُرَيْج بخراسان في العقد الثاني من القرن الثاني مطالباً برفع الجزية عن أسلموا من الموالي ، ويتولّى هناك نصر بن سيار في العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالي مثبتاً للخراج على الأرض .

ولا بد أن تفرق هنا بين معاملة العرب للموالي ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعسفت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يترعون لهم أخوتهم في الإسلام. ويسوق المستشرقون دليلاً قوياً على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث في أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالي السّواد في العراق إلى البصرة والكوفة ، فأمر بردّهم إلى قراهم ونقّش أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها ^(١) وظاهر الحادث عنف شديد في الظلم ولكن قد يكون الحجاج اضطرّ إلى ذلك لتعطل الزراعة في السواد وبالتالي تعطل الخراج الذي كان يُسفق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شئون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التي كانت مفروضة على مسلمي الموالي ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُراء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح في إنكارها إلحاحاً حتى رفعت عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصلاً في العقد الفريد ، صور فيه العرب يسيثون في المعاملة إلى الموالي لعصر بني أمية إساءة بالغة ^(٢) . غير أن بين أيدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا يَضْطهدون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق في الكوفة والبصرة نسبته شأنهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف ^(٣) . أما ما يلاحظه قلهوزن من أنهم كانوا يحاربون في جيش المختار رجالة لا فرساناً ^(٤) فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد في خراسان مثل حُرَيْث بن قُتَيْبَة وأخيه ثابت وحيّان النبطي وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

(١) طبرى ١٨٢/٥ وتاريخ الدولة العربية
لقلهوزن ص ٢٣٥ وما بعدها .
(٢) العقد الفريد ٤٠٣/٣ وما بعدها .
(٣) المحبر ص ٢٤٠ .
(٤) تاريخ الدولة العربية لقلهوزن ص ٢٣٧ .

وقد مرّ بنا في حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات تُسَمَّنُ في البصرة . فهم لم يكونوا في مرتبة متخلفة بالقياس إلى العرب ، ولعلّ مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بخطرته حتى على الخلفاء يمدح طائفة منهم مثل عبد الله^(١) بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة^(٢) ابن سنان مولى بني مسمع وكثير^(٣) بن سيار مولى بني سعد ومسلم^(٤) بن المسيب مولى بني بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجده في إحدى قصائده يفتخر بعمد مدخلا فيها قضاة كما يفتخر بالموالي ذاكرًا أنهم يتسبون إلى إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . يقول^(٥) :

أنا ابنُ الثرى أدعو قضاة ناصرى وآل نزارٍ ما أعزُّ وأكثرًا^(٦)
وأبناء إسحاق الليوث إذا ارتدوا محامل موتٍ لابسين السنورًا^(٧)
فيوما سراويل الحديد عليهم ويوما ترى خزا وعصبا منيرا^(٨)
إذا افتخروا عدوا الصبهد منهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا^(٩)

ويصرّح بأن الموالي أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا أب كان مهديا نبيا مطهرا

ولا تهمننا صحة الأسطورة التي ردّها جرير في هذه الأبيات ، والتي تجعل الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهمننا دلالتها على ما كان يسود بين العرب من الإحساس بأنهم والموالي شعب واحد ، تفرّق ، ثم عاد إلى الاجتماع

-
- (١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) عدد الثرى .
ص ٢ :
(٢) الديوان ص ١٠٦ .
(٣) الديوان ص ٢٨٧ .
(٤) الديوان ص ٨٨٧ .
(٥) ديوان جرير (طبعة الصاوي)
ص ٢٤٢ .
(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم
عدد الثرى .
(٧) السنور : السلاح . وهو يصف بذلك
الفرس .
(٨) الخز : الحرير . العصب : ضرب من
التياب النفيسة . منيرا : منوجا بالقصب وله
أهداب ووشى .
(٩) الصبهد : لقب أمراء إيران .

على الإسلام والعروبة ، ونرى جريراً في نفس القصيدة ينوّه بمولى من البربر
يسمى وضاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق معلماً فأورث مجداً باقياً أهلَ بربراً
والحق أن العرب اندمجوا في الموالى منذ الأيام الأولى في الفتوح . فقد
ساكنوهم وتزوجوا منهم ، وعربوهم عن طريق نظام الولاء الذي شرعه الإسلام .
إذ أدخلوهم في عداد قبائلهم ، وكأنما أوردوا بذلك أن يُلغوا جنسياتهم إلغاءً ،
فهم عربٌ ولاءً . واستشعر الموالى ذلك في عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نظمَ
الشعر وجدناهم يقفون في صفوف قبائلهم ذاتين عنها ومفاخرين بنفس روح
أبنائها الأصيلين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس
فقد عاش لقبيلته يحامى عنها ويصول^(١) ، وعنه هرون^(٢) مولى الأزد وثروان^(٣)
مولى بني عذرة وشُقْران^(٤) مولى بني سلامان . وكانت القبائل تبادلهم نفس
التعصب ، فإذا جنى أحدهم جناية كبيرة وزجَّ به في السجن لم يقرقرار لقبيلته
حتى تُردَّ له حرّيته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف الهانية من ابن مفرغ
حين زجَّ به عبّاد بن زياد في سجن سجستان ، فإنها ما زالت تتشفع فيه عند
الخليفة وتتوسل حتى أمر بإطلاق سراحه^(٥) .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أواصر بين العرب والموالى كأواصر الرحم ،
أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائي شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس^(٦)
فإنه يعد شذوذاً في العصر ، وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التي
كان يفتخر فيها كل عربي بقبيلته ممجداً لها ومشيداً بها محاولاً الغرض من القبائل
التي تعادىها ، وكأن ذلك نبّه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسي ، وقد لقي
جزاءه عند هشام بن عبد الملك ، فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه
يفخر بأصله الفارسي .

(١) أغاني (دار الكتب) ٨٩/١٣ ، (الكتب) ٣٠٨/٢ .
٣٨٠/١٥ وما بعدها .
(٢) الحيوان للجاحظ (طبع الحلبي) ٧٥/٧ .
(٣) البيان والتبيين ٣/٣٠٩ .
(٤) نثر المصدر ١٠٨/١ وأغاني (دار
(٥) الشعر والشعراء ١/٢٢٣ .
(٦) انظر ترجمته في أغاني دار الكتب
٤١١/٤ وما بعدها .

ومهما يكن فإن إسماعيل كان شذوذاً على الموالي أنفسهم في هذا العصر ،
وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذي أعلن النزعة الشعوبية في
عهد العباسيين إعلاناً قوياً يفتخر في هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً
عنيفاً^(١) . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم
الأعجميات مثل ابن ميادة^(٢) ، ومثل أبي نُخَيْلَةَ الذي يقول^(٣) :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطتُ العَجَمُ فأنَا فَمَا شئتُ من خَالٍ وعمِّ

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض
المستشرقين من أن العرب والموالي كانوا يستشعرون العداة بعضهم لبعض في هذا
العصر^(٤) ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه
كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً
مشتركاً . وحقاً كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولايتها من العرب ، ولكنها
فسحت للموالي في شئون الخراج وفي الدواوين حتى بعد أن تُرجمت وعُربت ،
على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله
عبد الحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالي لهذا العصر وأنها كانت
تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جنيناً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها
من وعظ وإمامة للمسلمين في المساجد ، فإننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم
لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل إنهم يبرزونهم ، حتى
لتصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله
أن الموالي شاركوا في الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا
يُعدُّون فعلاً عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربي ، على أنه أدبهم ، فهجر وآدابهم
المختلفة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة
القرآن الكريم التي ملكت أئمة قلوبهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

(١) أغاني ١٣٩/٢ والديوان ٣١٦/١ ، (٢) البيان والتبيين ٢٢٥/٣ والشعر والشعراء
٥٨٢/٢ .

(٣) أغاني ٢٦١/٢ . (٤) قلهووزن ص ٤٧٢ وفي مواضع متفرقة .

الفصل الثالث

شعراء المديح والهجاء

١

شعراء المديح

تعود العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوّهوا في أشعارهم بأشرفهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملاً إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السنّة في الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يَحمِظَ شاعر يُشيد به ، حتى يسير الركب ان يذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبري لترى مصداق ذلك واضحاً ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض لمُدّاح الأولين في الفصل التالي . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم من لم يتعلق الشعراء بمدحهم ونسب ورود الثناء في طريقه .

وأول من يلقانا من الولاة البارزين في العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ممدوح حارثة^(١) بن بدر الغُداني التميمي ومسكين^(٢) الدارمي ، وقد شُغف عبد الله بن الزبير الأسدي بمدح ابنه عبيد الله^(٣) . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولّي عليه أخاه مصعباً ، وكان جواداً سمحاً ، فالتفّ حوله كثير من الشعراء يمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى^(٤) همدان ودكَيْن الفُقَيْمِي^(٥) . ويدخل العراق في طاعة عبد الملك بن مروان فيولّي عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي وهو من الأجواد الممدحين^(٦) ولا يلبث أن يعزله ويولي أخاه بشراً ، وكان من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدّحاً « مدحه جريرٌ والفرزدق والأخطل

(١) أغاني (ساسي) ١٩/٢١ وطبري ٤/١٦٨ (٤) أغاني ٣٣/٦ وطبري ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .
والمبرد ص ١٧٩ .
(٢) ابن سلام ص ٢٥٩ .
(٣) أغاني (دارالكتب) ١٤/٢٢٧ ، ٢٣٥ .
(٤) معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٦ .
(٥) المحبر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبري ٥/٤٥ .
حيث يذكر أنه وزع على الناس في يوم واحد ألف ألف .

وكثير وأعشى بنى شيبان^(١١) ، كما ملحه نصيب^(١٢) والأقيشر^(١٣) الأسدي وأيمن^(١٤) بن خريم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفي ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابيه من مثل جرير والفرزدق وأعشى^(١٥) بنى شيبان وحُميد^(١٦) الأرقط وليلى^(١٧) الأنخيلية . وكانت فيه قسوة جعلت من يقفون بعض الجنايات حين يقعون في يده يمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العُدَيْل بن الفَرخ العِجَلِيّ فيه^(١٨) :

خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ مُصْطَفَى وَخَلِيلُ
بَنَى قُبَّةَ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَانَمَا هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولُ

ولعل من الطريف أن نجد محمد بن عبد الله النيرى الثقفي^(١٩) يهوى أخته زينب ، وينظم فيها غزلاً كثيراً يملؤه موجدة عليه ، فيطلبه ويهرب منه إلى اليمن ويركب البحر هناك ، ثم يعود إليه ، وقد ضاقت به الأرض ، متوسلاً بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب . وسنعرض لمدآحه عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور في عهد يزيد بن عبد الملك ويقضى على ثورته أخوه مسلمة ويوليه العراق لفترة محدودة ، ومن مدآحه أبو نُجَيْبَةَ^(١٠) وأعشى^(١١) تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزاري ، والفرزدق

في الأغاني (سأسي) ١١/٢٠ والشعر والشعراء

٢٧٥/١ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٤ والخزاعة

٣٦٧/٢ .

(٩) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب)

١٩٠/٦ ومعجم الشعراء للسرزياني (طبعة الحلبي)

ص ٢٤٢ .

(١٠) انظر الأغاني (سأسي) ١٤٠/١٨ .

(١١) مات على النصرانية سنة ٩٢ . انظر في

ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٠/١١

وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١٣٢/١١ ومجلة

المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

(١) ابن سلام ص ٣٧٧ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٣٤/١ .

(٣) أغاني ٢٧٠/١١ .

(٤) انظر ترجمة أيمن في الشعر والشعراء

٢٥٦/١ والأغاني (طبع سأسي) ٢٥/٢١

والإصابة ٩٤/١ وتهذيب ابن عساكر ١٨٧/٣

والموشح ص ٢٢١ .

(٥) أغاني (سأسي) ١٥٦/١٦ .

(٦) طبري ١٩٠/٥ وانظر ترجمته في معجم

الأدباء ١٣/١١ .

(٧) أغاني (دار الكتب) ٢٤٨/١١ .

(٨) البيان والتبيين ٣٩١/١ وانظر ترجمته

فيه مدائح^(١١) ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائح في
خالد القسري الذي ولي بعده^(١٢) ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح .
ومن مدحوا خالدا القسري جرير^(١٣) ، وأبو الشَّغْب وفيه يقول حين عُزل وسجن :^(١٤)

فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل
وكان الذي ولي العراق بعده يوسف الثقفي . ونرى الكمية بمدحه تقيه
وخوفاً من بطشه^(١٥) . وآخر ولاية هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جواداً
مِعْطاءً ، وهو ممدوح أبي عطاء^(١٦) السندي ويشار^(١٧) بن بُرد وخلف^(١٨) بن
خليفة .

ولم يمدح الشعراء في العراق هؤلاء الولاة وحدهم ، فقد كانوا يمدحون أيضاً
ذوآبهم وأصحاب شرطتهم وعمالمهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب
الثقفي نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق^(١٩) وجرير^(٢٠) ومثل
مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالد القسري . ومن مدَّاحه
الفرزدق^(٢١) ، ومثل بلال بن أبي بردة ، نائب القسري على البصرة : وهو
ممدوح ذى الرمة^(٢٢) والفرزدق^(٢٣) وحمنة^(٢٤) بن بيض . وكان منقطعاً إليه ،
ومثل أبان بن الوائد البجلي صاحب الخراج في عهد القسري . ومن مدَّاحه
الفرزدق^(٢٥) . ومثل قطن بن مدركة الكلابي والي البحرين . وقد خصه الفرزدق

- | | |
|--|---|
| (١) الديوان (طبعة الصاوي) ص ٢٨٠ . | (١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، |
| ٥٧٩ . | ٨٠٣ . |
| (٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٢٢٥ . | (١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كبريدج) |
| (٣) الديوان (طبعة الصاوي) ص ١٧٤ . | والبيان والتبيين ١٤٨/١ وأغاني (ساسي) |
| (٤) البيان والتبيين ٢٣٦/٣ . | ٢٨/١٦ والمبرد ص ٢٥٩ . |
| (٥) أغاني (ساسي) ١١٦/١٥ . | (١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، |
| (٦) الشعر والشعراء ٧٤٥/٢ . | ٦٦٠ ، ٦٧٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ . |
| (٧) ديوان يشار (طبع لجنة التأليف | (١٤) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة الساسي) |
| والترجمة والنشر) ١٤٥/١ . | ١٤/١٥ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٨٠/١٠ |
| (٨) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٩٢ . | وراجع فهرس البيان والتبيين والحيوان . |
| (٩) الديوان ص ٢٣ . | (١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ . |
| (١٠) أغاني (دار الكتب) ١٣/٨ وما بعدها . | |

يبعض مدائمه^(١) ، وكان المهاجر بن عبد الله والى البحرين جواداً
مدحاً، ومن مدّاحه جرير^(٢) وأبو نَحْيَلَة^(٣) وذو الرمة^(٤). ومن ولاية فارس
الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن معنمر، وله أحاديث
كثيرة في جوده^(٥) وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم^(٦) وأبو حُزَابَة^(٧)
ومن ولاية الرّيّ المدحّين خالد بن عتّاب بن ورقاء ممدوح أعشى همدان^(٨).

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك
يسكيلون الأموال والعطايا للشعراء كيلاً ، وهم بدورهم ينثرون عليهم
رياحين مديحهم نثراً . ولعل أسرة لم تحفظ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن
أبي صفرة الأزدي الذي قضى على الأزارقة في فارس ، ثم ولى للحجاج خراسان
سنة ٧٨ وظلّ بها إلى أن توفّي سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى
أن صرفه عنها وولّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر .
وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البرزوغ . إذ ولّى سليمان بن عبد
الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان ، فأصبح حاكماً للشرق .
ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه في أموال خراج خراسان ،
ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه ؛ غير أنه لم يلبث أن
قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره
هلال بن آحوز المازني .

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم في عصر بني أمية مقام أسرة البرامكة
في عصر بني العباس ، إذ كان أفرادها مجوراً فيأضة ، فنوّه بهم الشعراء طويلاً
في خراسان والعراق جميعاً ، ويؤثّر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن
يشترى الممالك بماله ولا يشترى الأحرار بمعرفه^(٩) » ونرى الشعراء مصطفين

(٦) أغاني (دار الكتب) ٣٨٥، ٣٧٩/١٥ .

(٧) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة ساسي)

. ١٥٢/١٩

(٨) أغاني (دار الكتب) ٥٦/٦ .

(٩) البيان والتبيين ٢٠٥/٣ .

(١) الديوان ص ٧٠٠ .

(٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ .

(٣) أغاني (ساسى) ١٤٥/١٨ وما بعدها .

(٤) انظر فهرس ديوانه .

(٥) الحبر ص ١٥١ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفي مقدمتهم كعب^(١) الأشقري وزياد^(٢) الأعجم وحمزة^(٣) بن بيض والمغيرة^(٤) بن حبشنة التيمي ونهار^(٥) بن توسعة ، وله يرثيه حين توفي بمرو الروذ :

ألا ذهبَ الغزو المقربَ للغني ومات الندى والحزم بعد المهلب
أقاما بمرو الروذ رهنَ ضريحه وقد غيبا عن كل شرقٍ ومغرب
وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونوالاً غمراً، وتوفى قبله بقليل، فبكاه الشعراء طويلاً على شاكلة قول زياد الأعجم في مرثية بديعة له^(٦) :

إن الساحةَ والمروءةَ ضمنا قبراً بمرو على الطريق الواضح
ولا يكاد يوجد شاعر في العراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا ملحه ونوه به تنويهاً بعيداً ، ومن مدّاحه الفرزدق^(٧) ونهار^(٨) بن توسعة وحمزة^(٩) بن بيض وحاجب^(١٠) القيل والعدّيل بن الفرخ العجلي وفيه يقول^(١١) :

يداه يَدُ بِالْعُرْفِ تَنْهَبُ مَا حَوَتْ وَأُخْرَى عَلَى الْأَعْدَاءِ تَسْطُو وَتَجْرَحُ
وكان كعب الأشقري وثابت قُطْنَةَ لا يفارقان مجلسه^(١٢) ، وفيه يقول ثابت حين خذله أهل العراق في ثورته على بني أمية وفرّ واعنه، فقتل قَعَصاً بِالرَّمَاحِ^(١٣) :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَإِنَّ قَتْلَكَ لَمْ يَكُنْ عَاراً عَلَيْكَ وَبَعْضُ قَتْلِ عَارُ

- (١) طبرى ٢٣/٥ ، ٧٧ ، ١٥٩ ، وأغانى (دار الكتب) ١٨٧/١٤ وما بعدها .
(٢) أغانى (دار الكتب) ٣٨٢/١٥ وما بعدها .
(٣) أغانى (ساسى) ٢٤/١٥ .
(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٦٧/١ وأغانى (دار الكتب) ٨٤/١٣ والخزانة ٦٠١/٣ وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٧٣ والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث يقول ابن دريد إله استشهد بخراسان وكان شاعر تميم في عصره .
(٥) انظر في ترجمة نهار بن توسعة وأخباره الشعر والشعراء ٥٢١/١ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى ١٩٨/٢ وفهرس الطبرى والأغانى .
(٦) ذيل الأمالى ص ١٠ وأغانى (دار الكتب) ٣٨١/١٥ .
(٧) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ .
(٨) الشعر والشعراء ٥٢٢/١ .
(٩) أغانى (ساسى) ١٨/١٥ .
(١٠) أغانى (دار الكتب) ٣٦٤/١٤ وما بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٦١٣/٢ وفهرس الطبرى والبيان والتبيين والحيوان وأمالى المرتضى (طبعة الحلبي) ١٠٥/٢ .
(١١) أغانى (ساسى) ١٣/٢٠ .
(١٢) أغانى (دار الكتب) ٢٦٦/١٤ .
(١٣) أغانى ٢٧٩/١٤

وكان أخوه المفضل ممدّحاً ومن أشادوا به كعب^(١) الأشقرى وثابت^(٢) قطنه ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة^(٣) بن بيض والكميت^(٤) . وفي المهالبة وكرمهم الفياض يقول^٥ بكبير بن الأخنس :^(٥)

نزلتُ على آل المهلب شاتياً فقيراً بعيدَ الدار في سنةٍ محلّ^(٦)
فما زال بي إلفانهم وافتقادم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلي^(٧)

ومن ولاية خراسان الممدّحين قتيبة بن مسلم الذي وليها للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبني أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشقَّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند. وقد تغنى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة^(٨) بن حبيّساء وكعب^(٩) الأشقرى ونهار بن تَوسعة وفيه يقول^(١٠) :

وما كان مذكناً ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابن مسلمٍ
أعمُّ لأهل الشُّرك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مغنماً بعد مغنم

ولها لعهد عمر بن عبد العزيز الجراحُ بن عبد الله الحكيم ممدوح الفرزدق^(١١) . ومن الأجواد الممدّحين الذين ولوها لخالد القسري أبلخنيّد بن عبد الرحمن المرّي ممدوح جرير^(١٢) ، وأسد القسري وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

-
- | | |
|--|--|
| (١) طبرى ١٩٤/٥ . | عن كثرة سؤلهم عنه واعتمادهم بأمره . |
| (٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغاني | (٨) طبرى ٢٤٠/٥ . |
| ٢٧٥/١٤ . | (٩) طبرى ٢٤٧/٥ وأغاني (دار الكتب) |
| (٣) أغاني (ساسى) ١٩/١٥ . | ٢٩٩/١٤ . |
| (٤) نفس المصدر ١٠٨/١٥ ، ١٢٢ . | (١٠) أمالي القتالي ٢/٢٠٢ والشعر والشعراء . |
| (٥) البيان والتبيين ٢/٢٢٢ . | ٥٢٢/١ . |
| (٦) محل : مجدبة . | (١١) الديوان ص ٢٢٨ . |
| (٧) الافتقاد : طلب الشيء عند غيبته كناية | (١٢) الديوان ص ٥١ . |

به الفرزدق طويلاً^(١) . ووليها ليوسف بن عمر الثقفي نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغواراً وغيثاً مدبراً ، وهو آخر ولايتها للأمويين ، ومن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق^(٢) وثابت^(٣) قُطْنَةُ ومن مُدَّاحه في ولايته أبو عطاء^(٤) السَّندى . ومن قُوداد الجيوش في خراسان هلال بن أحوز المازني الذي أبلى في حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جتَّهم بن صفوان متكلم المرجثة في ثورتهم بخراسان ، ومن أشادوا به طويلاً الفرزدق^(٥) وجريبر^(٦) . ويلقانا في سجستان من الممدَّحين عبد الله بن الحشَّرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم^(٧) :

إِنَّ السَّاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ لِحْشَرَجٍ

ومنهم طلحة بن عبد الله الخُزاعي الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة في عصره غير مدافع ، ومن مدحوه أبو حُزابة^(٨) وعُوَيْف^(٩) القوافي والمغيرة^(١٠) بن حبَّسَاء ، ونوّه به ابن قيس الرقيات طويلاً حتى إذا توفّي رثاه بقصيدة بدیعة^(١١) ومنهم عبيد الله بن أبي بكرة ممدوح الفرزدق^(١٢) وابن مفرغ^(١٣) ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبي جليدة اليشكري ، وفيه يقول حين وافاه الموت^(١٤) :

كُنْتَ الشَّهَابَ الَّذِي يُرْمَى الْعَدُوُّ بِهِ وَالْبَحْرَ مِنْهُ سِجَالُ الْجُودِ نَغْرَفُ

ومن ولاية الحجاز الممدَّحين سعيد بن العاص والي معاوية على المدينة ، وكان يسنح

- | | |
|---------------------------------|--|
| (١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، | (٨) أغاني (سأسي) ١٥٣/١٩ : |
| ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ . | (٩) انظر في ترجمة عوف أغاني (سأسي) |
| (٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ . | ١٠٥/١٧ والخزانة ٨٧/٣ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ . |
| (٣) طبرى ٣٩٩/٥ . | (١٠) أغاني (دار الكتب) ٨٥/١٣ . |
| (٤) أغاني (سأسي) ٨١/١٦ . | (١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد |
| (٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ، | يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ . |
| ٥٧٤ ، ٥٤٨ ، ٥٠٧ . | (١٢) الديوان ص ٥٧ . |
| (٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ . | (١٣) أغاني (سأسي) ٧٠/١٦ وما بعدها . |
| (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٣/١٢ . | (١٤) أغاني (دار الكتب) ٣١٣/١١ . |

في كل يوم جزوراً يطعمه الناس^(١)، ومن نوهوا به الخطيئة^(٢) والقرزدق^(٣). وكان ابن الأزرق المخزومي والي ابن الزبير عليّ بن جوادا معطاء، وهو ممدوح أبي دَهْبَل^(٤) الجمحي. ولعل واليا لم يُمدح كما مدح عبدالعزیز بن مروان في ولايته على مصر، وكان بجزيراً سيلاً من بحور العرب، ومن مدّأحه نُصَيْب^(٥) وابن قيس^(٦) الرقيات وكثير^(٧) وعبد الله^(٨) بن الحجاج والأحوص^(٩) وأمين^(١٠) بن خريم وأمية^(١١) بن أبي عائذ. ومن ولاها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الخزين^(١٢) الكناني.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفي مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عبّيدل^(١٣)، وعبد الواحد بن سليمان ممدوح القطامي^(١٤)، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عُوَيْف^(١٥) القوافي ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير^(١٦)، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامي^(١٧) وأعشى شيبان^(١٨)، وعكرمة بن ربیع الفياض ممدوح الأخطل^(١٩) والعُدَيْل^(٢٠) بن الفرخ العجلي، والمنذر بن الجارود ممدوح القرزدق^(٢١) وأبي الأسود^(٢٢) الدؤلي، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأقيشر^(٢٣) الأسدي. ومالك بن مسمع ممدوح العُدَيْل^(٢٤)، وكانت قبائل ربيعة في البصرة تجتمع عليه

- | | |
|--|-------------------------------|
| (١) المحبر لابن حبيب ص ١١٥ | (١٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٢/١٥ |
| (٢) ابن سلام ص ١٠٠ ، ١٠١ وأغاني (سأسي) ٣٨/١٦ | (١٣) أغاني ٤٢٥/٢ |
| (٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥ | (١٤) أغاني (سأسي) ١١٩/٢٠ |
| (٤) المحبر ص ١٥٢ | (١٥) أغاني (سأسي) ١١٧/١٧ |
| (٥) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ وما بعدها | (١٦) الديوان ص ١٥٢ ، ١٨٢ |
| (٦) أغاني ٨٧/٥ | (١٧) ابن سلام ص ٤٥٥ |
| (٧) البيان والتبيين ١٢/٣ وأغاني (دار الكتب) ٣٣/٩ | (١٨) أغاني (سأسي) ١٥٧/١٦ |
| (٨) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ١٥٨/١٣ والبيان والتبيين ٣٩٠/١ | (١٩) ابن سلام ص ٤١٧ |
| (٩) ابن سلام ص ٥٤٣ ، ٥٤٦ | (٢٠) أغاني (سأسي) ١٨/٢٠ |
| (١٠) أغاني (سأسي) ٧/٢١ | (٢١) الديوان ص ٢٢٠ |
| (١١) أغاني (سأسي) ١١٥/٢٠ | (٢٢) أغاني (دار الكتب) ٣٣١/١٢ |
| | (٢٣) أغاني ٢٥٥/١١ |
| | (٢٤) أغاني (سأسي) ١٧/٢٠ ، ١٩ |

في الإسلام اجتماعها على كُليب في الجاهلية . ومن كان لا يبارى في جوده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وله في كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مُدَّاحه ابن^(١) قيس الرقيات . وكان يجري على مثاله في الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح إسماعيل^(٢) بن يسار النسائي ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى^(٣) شهوات ، وفيه يقول^(٤) :

حمزةُ المبتاعُ بالمال الثنا ويرى في بيّعه أن قد غبَنُ
وهو إن أعطى عطاءً فاضلاً ذا إخاءٍ لم يكدره يَمَنُ

وظلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ممدوح الخزين^(٥) الكناني . ولعل من الخير أن نقف عند نفر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقظامي من الجزيرة وكعباً الأشقري وزياداً الأعجم من خراسان .

نُصَيْبُ^(٦)

شاعر حجازي نوبى الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك يحتجّ للونه كثيراً على شاكلة قوله في بعض شعره :

فإن يك من لوّنى السوادُ فيأننى لكالمسك لا يروى من المسك ذائقة

وكان مُسْتَرْقِئاً لرجل من كنانة من أهل ودّان بالقرب من مكة ، وتيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتبَ مولاة ، وفزع إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ، فردّ إليه حرّيته ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه . فدبّج فيه مدائح رائعة من مثل قوله :

- | | |
|--|--|
| (١) أغاني (دار الكتب) ٧٩/٥ ، ٨٦ . | (٥) الحبر ص ١٥٢ . |
| (٢) أغاني ٤٠٨/٤ . | (٦) انظر في ترجمة نصيب أغاني (دار الكتب) |
| (٣) انظر ترجمة موسى شهوات في الأغاني | ٣٢٤/١ وراجع فهرسه والشعر والشعراء |
| (طبع دار الكتب) ٣٥١/٣ والشعر والشعراء | ٣٧١/١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن |
| ٥٥٨/٢ والخزاعة ١٤٤/١ ومعجم الشعراء المرزباني | دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ٢٢٨/١٩ |
| ص ٢٨٦ . | وشواهد العيني ٥٣٧/١ والموشح ص ١٨٩ . |
| (٤) أغاني ٣٥٧/٣ والمبرد ص ٣٦٧ . | |

فبشّرُ أهلَ مصرَ فقد أتاهمُ مع النَّيلِ الذي في مصرَ نيلُ
يقولُ فيحسنُ القولَ ابنُ ليلي ويفعلُ فوقَ أحسنِ ما يقولُ^(١)
وقوله :

لعبد العزيز على قومه وغيرهمُ مننُ غامره
فبابك أسهلُ أبوابهمُ وداركُ مأهولةُ عامره
وكفكُ حينَ ترى السائلُ بين أندي من الليلة الماطره

وما زال مع عبد العزيز حتى توفي سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حاراً ،
وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه ، ومن قوله فيه :

قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعروفه من أهل ودان طالبُ
فعاجوا فاثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنتُ عليك الحقائقُ^(٢)

وله مدائح في يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى
أوائل القرن الثاني ، وله مدائح في بعض ولاة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام
الخزومي وإلى مكة وعبد الواحد النصري وإلى المدينة ، وبعض ولاة العراق وقواده
مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بشيابه وطيبه ،
وكان كبير النفس ، فلم يتورط في هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقي
طاهر ، وهو لذلك يُسَلِّكُ في العذريين .

القطامي^(٣)

لقب غَلَّابَ على عَمَّيرِ بنِ شَيْبِيمِ التغلبي ، وهو من بني الفَـدَوِ كس عشيرة
الأخطل ، ومن تَمَّ نَشَأَ نصرانيا ، غير أنه فيما يظهر دخل في الإسلام . وقد
اشترك في الحروب التي نشبت بين قبيلته تغلب وقيس في أثناء فتنة ابن الزبير ،

٧٠١/٢ والخزاة ٣٩١/١ والاشتقاق ص ٣٣٩
ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٧ ومعاهد
التنصيص ١٨٠/١ والموشح ص ١٥٨ . وقد
نشر ديوانه في ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار
الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة ببغداد .

(١) ليلي : أم عبد العزيز بن مروان وحى
بت زبان بن الأصبح الكلبية .
(٢) عاجوا : وقفوا .
(٣) راجع في ترجمة القطامي أعاني (ساسي)
١١٨/٢٠ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء

وأسرّه أحد القيسيين في يوم ماكسين ، غير أن زُفَر بن الحارث حين عرفه
افتكته من الأسر ، وردّ عليه ما سُلِب منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله
ينوّه به وبصنيعه معه طويلاً ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثوى^(١) فقد أحسنت ، يا زُفَر ، المتاعا^(٢)
أأكفر بعد ردّ المسوت عني^(٣) وبعد عطائك المائة الرتاعا^(٤)
ولم أر مُنعمين أقلّ منّا^(٥) وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا^(٦)
من البيض الوجوه بني نقييل^(٧) أبت أخلاقهم إلا اتساعا^(٨)

وفي هذه القصيدة يئسى للحروب الناشئة بين تغلب وقيس على ما بينهما من
صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح ووقف هذه الحروب المبيّرة التي
لا تتوقف رحاها حيناً إلا لتعود أشدّ التهاماً لأبناء القبيلتين ، يقول :

ألم يحزنك أن حبال قيس^(١) وتغلب قد تباينت^(٢) انقطاعا
وكُنّا كالحريق أصاب غاباً^(٣) فيخبو ساعة ويشبّ^(٤) ساعا
أمور^(٥) لو تدبرها حلیم^(٦) إذن لنهى وهيب ما استطاعا

ووفد على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقيل له
إن الشعر لا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد^(٥) بن سليمان سيبرك إن ملحته ،
فمدحه ، وأضنى عليه كثيراً من بیره ونواله . وكان أول ما ملحه به قصيدته :

إنا محيوك فاسلم^(١) أيها الطلل^(٢) وإن بليت وإن طالت بك الطيل^(٣)

- (١) استلام : أتى ما يلام عليه . الثوى :
الضيف المقيم . المتاع : الزاد .
(٢) يريد بالكفر كفر النعمة وجعلها .
الرتاع : جمع راتمة .
(٣) المن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم
لا يمتنون بما يصنعون .
(٤) بنو نقييل : عشيرة زفر وهم من بني عامر
ابن صعصعة ، ويريد باتساع الخلق الكرم وغيره
من الشيم الفاضلة .
(٥) انظر في تحقيق نسب هذا المدوح
وعمل هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو
عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاصي
الخزاعة ١٢٤/٣ وقارن بأخبار القطامي في الأغاني
وبالقصيدة الأولى في الديوان .
(٦) الطيل هنا : الأئمة .

ونراه يضمّتها نظراتٍ في الحياة وفي الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب في ذلك من ذوق المتنبي في مدائمه كما نرى في مثل قوله :

والعيش لا عيش إلا ما تقرُّ به عَيْنٌ : ولا حال إلا سوف تنتقلُ
والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأمّ المخطيء الهبلُ
قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

ويشيد في القصيدة بقريش ونصرتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتشبيهاً لدعائم الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمّ عليه نعمة الإسلام : يقول :

قومٌ همُ ثبتوا الإسلام وامتنعوا قومُ الرسول الذي ما بعده رسلُ
ومن أشاد بهم ونوه بذكرهم أسماء بن خارجة الفزاري : وله فيه أمداح رائعة على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حصنٍ فلا هطلت على الأرض السماء
ولا رجع البريد بغنمٍ خيرٍ ولا حملت على الطهر النساءُ
ومن أهم ما يميزه في شعره صفاءُ موسيقاه وحلاوة ألفاظه وعذوبة أنغامه
ويمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفّي في أوائل القرن الثاني للهجرة .

كعب^(١) بن معدان الأشقري الأزدي

من شعراء خراسان الذين برعوا في المديح ، وهو فارس شجاع له آثار في حروب المهلب للأزارقة في فارس ولترك في خراسان . وله في المهلب ووصف حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة في حروبه للأزارقة تشبه أن تكون ملحمة . وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً ، وروى منها الطبري ثلاثة وثمانين بيتاً^(٢) وهو في شعره يحسن حوكم اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب وأبناءه :

(١) انظر في ترجمة كعب الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء (٢) طبري ١٢٢/٥ .

(١) انظر في ترجمة كعب الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٩٧/١ وما بعدها ومعجم المرزبان ص ٢٢٦

بَرَآكُ اللّٰه حِين بَرَآكُ بَحْرًا وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنهَارًا غِزَارًا^(١)
 بَنُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى المَعَالَى إِذَا مَا أَعْظَمَ النَّاسُ الخِطَارًا^(٢)
 كَأَنَّهُمْ نَجُومٌ حَوْلَ بَدْرِ دَرَارِيٌّ تَكْمَلُ فَاسْتَدَارًا^(٣)
 مَلُوكٌ يَنْزَلُونَ بِكُلِّ ثَغْرِ إِذَا مَا الهَامُ يَوْمَ الرُّوعِ طَارًا^(٤)
 رِزَانٌ فِي الأُمُورِ تَرَى عَلَيْهِم مِنَ الشَّيْخِ الشَّمَائِلَ وَالنُّجَارًا^(٥)
 نَجُومٌ يُهْتَدَى بِهِمْ إِذَا مَا أَخُو الظُّلَمَاءِ فِي الغِمْرَاتِ جَارًا
 وَتَوَفَّى المَهْلَبُ : فَلَزِمَ ابْنَهُ يَزِيدَ يَمْدَحُهُ وَيَصِفُ حُرُوبَهُ مَعَ التُّرْكِ وَبِرَّهُ
 وَنَائِلَهُ الخِزْلَ ، وَمِنْ بَدِيعِ مَا قَالَهُ فِيهِ :
 يَدَاكَ إِحْدَاهُمَا تَسْقِي العَدُوَّ بِهَا سَمًا وَأُخْرَى نَدَاهَا لَمْ يَزَلْ دِيمَا
 وَلَا عَزَلَ يَزِيدَ عَنِ خِرَاسَانَ لِعَهْدِ الخِجَابِ وَوَلِيهَا قَتِيْبَةً بَنَ مَسْلَمَ البَاهِلِيَّ وَانْتَصَرَ
 عَلَى التُّرْكِ انْتِصَارَاتِهِ الرَّائِعَةَ مَضَى يُشِيدُ بِهِ وَيَانتَصِرَاتِهِ بِمَثَلِ قَوْلِهِ^(٦) :
 دَوَّخَ السُّغْدَ بِالكِتَابِ حَتَّى تَرَكَ السُّغْدَ بِالعَرَاءِ قَعُودًا
 فَوَلِيدٌ يَبْكِي لِفَقْدِ أَبِيهِ وَأَبٌ مَوْجِعٌ يَبْكِي لِوَلِيدِهِ
 وَجَرَّهَ ذَلِكَ إِلَى التَّخْلِصِ مِنْ عَصِيْبَتِهِ لِقَبِيلَتِهِ وَصَاحِبِهَا يَزِيدَ بَنَ المَهْلَبِ :
 وَيُقَالُ إِنَّهُ نَالَ مِنْهُ وَثْلَهُ . وَكَانَ قَبْلَ هَذِهِ الفَتْرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ يَسْتَشْعِرُ عَصِيْبَةَ حَادَةَ
 لِلأَزْدِ ، وَهِيَ عَصِيْبَةٌ جَعَلَتْهُ يَتَهَاجَى هِجَاءَ مَرِيْبٍ مَعَ شَعْرَاءِ قَبِيلَةِ عَبْدِ القَيْسِ
 وَعَلَى رَأْسِهِمْ زِيَادُ الأَعْجَمِ ، كَمَا تَهَاجَى مَعَ شَعْرَاءِ رَبِيعَةَ . وَكَانَ مَوْقِفُهُ مَعَ قَتِيْبَةَ
 سَبَبًا فِي غَضَبِ يَزِيدَ بَنَ المَهْلَبِ عَلَيْهِ غَضَبًا شَدِيدًا ، فَلَمَّا وَلى العِرَاقَ وَخِرَاسَانَ
 لِعَهْدِ سَلِيْمَانَ بَنَ عَبْدِ المَلِكِ طَلَبَهُ ، فَهَرَبَ إِلَى عُثْمَانَ ، وَظَلَّ بِهَا إِلَى أَنْ ثَارَ يَزِيدُ
 عَلَى الأُمَوِيِّينَ سَنَةَ ١٠٢ فَاتَّبَعَهُ مِنْ قَتْلِهِ .

(٥) رِزَانُ : جَمْعُ رِزِينِ . وَيُرِيدُ بِالشَّيْخِ

المَهْلَبِ . الشَّمَائِلُ : الطَّبَاعُ . النُّجَارُ : الأَصْلُ

وَالحِبُّ .

(٦) ظَبْرِيٌّ ٢٤٤/٥ وَالسُّغْدُ : جَنْسٌ مِنْ

التُّرْكِ .

(١) بَرَآكُ : خَلْقُكَ .

(٢) الخِطَارُ : المَرَاهِنَةُ .

(٣) نَجُومٌ دَرَارِيٌّ : مَضِيْبَةٌ .

(٤) الهَامُ : الرُّمُوسُ ، يَوْمَ الرُّوعِ : يَوْمُ

الحَرْبِ وَالحَرْيفِ .

زياد^(١) الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ومولده ومنشؤه بأصبهان ، وكانت فيه
لغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحسِن فنَّ المديح إحساناً رائعاً ،
ومن ظلَّ يمدحهم طويلاً عمر بن عبيد الله بن معمر والى فارس ، وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فما تَأبَى وأعطى فوق مُنَيِّنَا وزادا
وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُذْنَا فأحسنَ ثم عُذْتُ له فعادا
أخُ لك لا تراه الدهرَ إلا على العِلَاتِ بساماً جوادا

ويُروى أن ابن مَعْمَرٍ عدَّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت
ألفاً . وما زال يلزمه حتى توفى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن
الحشرج والى سجستان ، وتوفى فرثاه رثاء حاراً ، تمثلنا فيما سلف بيت منه ،
وحدّث أن مدح المهلب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبِئَاء ، فأمر
لهم بجوائز ، وفضل زيادا ، ولاحظ - كما أسلفنا - لُكْنَتَهُ في قوله :

فتى زاده السلطان في الخير رفعةً إذا غير السلطان كل خليل
إذ نطق السلطان « الشلتان » بإبدال السين شيئاً والطاء تاء ، فوهب له
غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغاز صنيع المهلب بزياد المغيرة بن حَبِئَاء وكعباً ،
وانتدب له المغيرة ، فتهاجيا طويلاً . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق
عليه في عدة قصائد يقول في إحداها مهاجياً قبيلته :

قُبَيْلَةُ خَيْرُهَا شَرُّهَا وأصدقها الكاذبُ الأثيمُ
وضيفهمُ وَسَطُ. أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائماً
وهاجى قتادة بن مغرب اليَشْكُرَى . وفي قبيلته هو الآخر يقول :

ويشكر لا تستطيع الوفاء وتعجز يشكر أن تغدرا

ص ٣٣٣ وراجع أغاني (دار الكتب)
١٣/٨٩ وما بعدها وذيل الأمل ص ١٠ والجزء
الخامس من الطبرى في مواضع متفرقة .

(١) انظر في ترجمة زياد أغاني (دار
الكتب) ٢٨٠/١٥ وابن سلام ص ٥٥٧
والشعر والشعراء ٣٩٥/١ ومعجم الأدباء
٢٢١/١١ والخزانة ١٩٣/٤ والاشتقاق

وكان مُغَرَّرِي بهجاء الوعاظ والفقهاء والنُّسَّاك، ويقال إن الفرزدق هم بهجائه حين رآه يُكثِر من هجاء المغيرة بن حَبِيساء وقبيلته تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لي إن هجوته مصححاً أراه في أديم الفرزدق
وإنا وما تُهدى لنا إن هجوتنا لكا لبحر مهما يُلْقَى في البحر يَغْرِقِ

فتوسل الفرزدق إليه أن يكفَّ عنه . وفي ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والرثاء ، ومرثيته للمغيرة بن المهلب من روائعه . وقد توفى في حدود المائة الأولى للهجرة .

٢

شعراء الهجاء

احتدم الهجاء في هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبية القبلية التي اشتعلت - كما مرَّ بنا - نيرانها في كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَبْذ هذه العصبية وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا - فيما يظهر - كان مثلاً أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكف نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الردة وأشرع فيها الشعراء ألسنتهم صادرين عن روحهم القبلية ، على نحو ما يروى عن أبي شجرة السلمي وانتصاره للمرتدين من قبيلته سُلَيْم ، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قريش . وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرماً على هذه الفتنة ، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون ، حتى تحدث فتنة عثمان وتنشب الحروب بين علي وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من اليمانية وربيعه ، ونراهما تتنافسان في قيادة حربه بموقعة الجمل ، كما تتنافسان في موقعة صفين ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلُّه يصور حسن بلاء قومه في الحرب . والتقت بهذه الأصوات أصوات مضرية كثيرة . وحدث هذا نفسه في صفوف خصومه ، مما نجد آثاره في الطبرى وفي

وقعة صيفيين لنصر بن مزاحم . وعبثاً حاول علي[ؑ] أن يُعَلِّي كلمة الإسلام الذي حاول أن يمحو الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبية ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة في جيشه بعد قبوله للتحكيم أن نظرت في تولى قريش تدبير الأمور في الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان . وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشهرت سيوفها في وجهه مما اضطره أن يجار بها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة .

وما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قوياً من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبلية ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية في الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحبي قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التي كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحوّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهي التي تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد في استشعار العصبية في صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنات بنت الصرافصة . وتزوج معاوية من ميسون بنت بحدل ، وهي أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلي بنت زبّان بن الأصبع الكلبية ، وهي ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية في حربه لعل ذلك ، لأن الصّهر عند العرب كالنسب ، ووسّع استغلاله ، إذ ضمّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية تسرى في أحداث هذه الفترة ، وحدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفّي يزيد وجدنا العصبية تستعر بين القبائل في الشام والجزيرة وفي البصرة وخراسان . أما في الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامها في أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفي ثانيهما بتغلب الرّبعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيس[ؑ] ابن الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروان بن الحكم ، وسلّ الطرفان سيوفهما في معارك حامية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آباؤهم في الجاهلية ويهجون .

وفي نفس الوقت نجد الحلفين الكبيرين في البصرة : حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعه واليمية من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حاداً . ومرّ بنا في غير هذا الموضع كيف اصطدم الحلفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمر الأحنف بن قيس فرّقت الفتن . وقد ظلت نفوس الحلفين تغلّي طول العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلي حتى لنجد أبا نخيلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميميين مع الأزد وربيعه مفاخرأ بانتصارهم على شاكلة قوله (١) :

نحن ضربنا الأزد بالعراقِ والحى من ربيعة المراقِ
ضرباً يُقيم صعر الأعناقِ بغير أطماعٍ ولا أرزاقِ (٢)
إلا بقايا كرم الأعراقِ

ولم تحتدم العصبية القبليّة في البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعي ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جنود البصرة ، إذ هم الذين ابتدعوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالت بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبيعياً أن تنعكس بها نيران هذه العصبية ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالاً بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الولى هناك يولّي عماله وقواده من قبيلته وأحلافها ، فإذا تولّى المهالبة مثلاً قدّموا رجال الأزد وربيعه واليمن وانتكست قيس وتميم ، وإذا تولّى قتيبة بن مسلم الباهلي مثلاً رفعت قيس وتميم رءوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل في الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتصارفت وتطاحت بسبب الاختلاف على المقام وطمعاً في اكتنازها ، وأقرأ في أي شاعر من عاشوا هناك وترجم له صاحب الأغاني فستراه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من موالها ، على نحو ما مرّ بنا من استعار الهجاء بين زياد الأعجم مولى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .

عن الكبر والغرسة ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوناً واستكباراً .

(٢) الصعر : الميل ، وصعر الأعناق كناية

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدي ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن
حبّساء التميمي وقتادة بن مغربّ اليشكري وابن عمه أبا جيلدة^(١). وقد يرتفع
صوت في أثناء هذا الضجيج باعترال هذه الحرب اللسانية وما تطوى من عصبيات
عنيفة على شاكلة قول نهار بن تومعة^(٢):

أبى الإسلام لا أب لي سواه إذا هتفوا بيكر أو تميم.

ولكن مثل هذا الصوت كان يضيع في غمار هذه العصبيات التي استعلت
سلطانها في العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة في
جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شغلت عن العصبيات القبلية بتشييعها وخصومتها
للأمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميّ بن زيد الأسدي يثير معركة
حامية مع حكيم^(٣) بن عياش الكلبي وهرون^(٤) مولى الأزدي ، وكثيراً ما كانت
تثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك
على نحو ما احتدمت في خراسان والبصرة . وإذا ولينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموي
هجاء مريراً^(٥) ، ويقال إنه هجا يزيد بن معاوية وشبّب بأخته رملة تشبيهاً أحفظه ،
فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الأنصار ، وأغضب ذلك النعمان
ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف^(٦) :

ويلقانا في نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، ولعل من خير
ما يمثله تهاجى المرار بن منقذ الأسدي ومساور بن هند العبسي . ومن طريف
ما للمرار قوله^(٧) :

(١) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١١ .
(٢) الشعر والشعراء ٥٢١/١ .
(٣) أغاني (سأسي) ١٢/١٥ ومعجم الأدباء ٢٤٧/١٠ .
(٤) الحيوان ٧٥/٧ .
(٥) أغاني (سأسي) ١٤١/١٣ والمبرد .
(٦) انظر في ترجمة النعمان بن بشير أغاني (سأسي) ١٤٧/١٣ ، ١١٤/١٤ وما بعدها
والشعر والشعراء ٤٥٦/١ وقد طبع له ديوان على
الحجر في دهلي ونشره كرنكو مع ديوان أبي
بكر بن العزيز .
(٧) أغاني (دار الكتب) ٣١٨/١٠ .

شقيت بنو عبّيس بشعر مساورٍ إن الشقيّ بكلّ حبلٍ يُخنقُ

ومرّ بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البرصاء الذبياني وابني عمه عقيل بن علفة وأرطاة بن سهية ومهاجاة ابن ميادة والحكم الحضري ، وكان في ابن ميادة (١) شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبه بن كعب بن زهير وعقال بن هاشم اليميني وشقّران مولى بني سلامان .

وعملت بجانب هذه العصبيات أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران الهجاء ، فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل في تهاجيه مع زميل آخر ، حيثئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير في تهاجيه مع الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصب عليهم شواظ نار . وقد يفاضل أحد الولاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء فيزيد شاعراً في جائزته على زميله أو زملائه ، فيغضب المفضول ، ويسقط بغضبه على من فضله كما مر بنا في تهاجى المغيرة بن حبشاة ، وزياد الأعجم . وقد يبطئ الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا الخزيم الكنانى عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله (٢) :

مواعيدُ عمرو تُرهاتُ ووجهه على كل ما قد قلتُ فيه دليلُ
جبانٌ وفحاشٌ لثيمٌ مذمّمٌ وأكذبُ خلق الله حين يقول

وقد يحرم ممدوح مادحاً له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان من عكرمة بن ربّعي مع المتوكل (٣) اللبّي ، وقد لا تقوم مكافأة الممدوح في

ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى (دار الكتب)
١٥٩/١٢ ومعجم الشعراء ص ٣٣٩ وهو صاحب
البيت المشهور :
لاته عن خلق وتأتى مثله
عار عليك إذا فلتت عظيم

(١) انظر في ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء
٧٤٧/٢ والمؤتلف ١٧٤ والأغانى (طبع دار
الكتب) ٢٦١/٢ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧
والخزاة ٧٦/١ والموشح ص ٢٢٨ .
(٢) أغانى دار الكتب ٣٣٨/١٥
(٣) انظر في ترجمة المتوكل ابن سلام

رأى المادح بما قدم له من مديحه . فبهجوه ويسرف في هجوه على نحو ما صنع
الشَّمْرَدَلُ بهلال^(١) بن أحوز المازني فارس تميم في عصره غير مدافع . وقد
يحجب المدوح مادحه فلا يأذن له بلفائه ، فيصبُّ عليه نار هجائه ، على نحو
ما روى الرواة عن حجب مقاتل بن مسمع بن مالك لأبي جليدة الشكري ،
فقد تولى بهجوه بمثل قوله^(٢) :

قَرَى ضَيْفَهُ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ ابْنَ مِصْمَعٍ وَكَانَ لَثِيماً جَارُهُ يَتَذَلُّ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حيثئذ
ينتقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبَّاد بن الحصين ،
وكان على شرطة القُبَاعِ والى ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازورَّ عنه
فهجاه وهجا عشيرته الحَبِطَاتِ طويلاً . وفيها يقول^(٣) :

رَأَيْتَ الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا كَمَا الْحَبِطَاتِ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماءهم
والذين طالما مدحهم الشعراء يُهَجَّجُونَ كثيراً أو قليلاً ، فزياد وبنو زياد يهجوم
ابن مفرغ ، والحجاج يهجوهُ العُدَيْلُ^(٤) بن الفرخ العجلي ومالك^(٥) بن الرب
التميمي . وفيه يقول^(٦) :

وَلَوْلَا بَنُو مِرْوَانَ كَانَ ابْنُ يَوْسُفٍ كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِ إِيَادٍ
زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمَقْرُّ بِذُلِّهِ يَرَاوِحُ صَبِيَانَ الْقُرَى وَيَغَادِي

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمَّالِ عصبيةً لقبيلته تميم

(١) أغاني (دار الكتب) ٣٥٨/١٣ .
(٢) أغاني ٣٣١/١١ .
(٣) البيان والتبيين ٣٧/٤ والخزاعة ٢٨٠/٤ .
(٤) أغاني (ساسي) ١٣/٢٠ .
(٥) انظر في ترجمة مالك الشعر والشعراء
٣١٢/١ وأغاني (ساسي) ١٦٣/١٩ والخزاعة
٣١٧/١ ومعجم الشعراء ص ٢٦٥ .
(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، ومن أكثر من هجائهم عمر^(١) بن هبيرة الفزاري وخالد القسري^(٢) ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار^(٣) :

بكتِ المنابرُ من فزارة شجّوها فالآن من قسّرٍ تضحُّ وتجزع
وكان المهالبة ممدّحين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء
وعلى رأسهم الفرزدق^(٤) . ومن ولاية الشرق الذين هجاهم غير شاعر قتيبة بن
مسلم الباهلي والى خراسان ، وسرى عما قليل هجاء ثابت قطنه له ، ومنهم عبد الله
العشمي مهجوّ أبي حزابة^(٥) . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتاب بن
ورقاء والى الرى وأصبهان حين جفناه بمثل قوله^(٦) :

ويركب رأسه في كل وحلٍ ويعثرُ في الطريقِ المستقيمِ
ويهجو أبو نخيلة المهاجر بن^(٧) عبد الله والى اليمامة . وفي الحجاز نجد
الأحوص مشغوقاً بهجاء ابن^(٨) حزم والى المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد
العرجي مشغوقاً بهجاء محمد بن هشام الخزومي والى مكة لهشام بن عبد الملك .
ونحن نقف قليلاً عند ثلاثة من المهاجرين هم ابن مفرغ البصرى والحكم بن عابد
الكوفي وثابت قطنه الخراساني .

ابن^(٩) مفرغ

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان
حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مسترقاً للضحاك الهلالي فأعتقه . وكان يتقن
الفارسية كما أسلفنا في غير هذا الموضع ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه
يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميري فلعل منشأه أنه كان من حفدة
الفرس الذي نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبع .

- | | |
|---|--------------------------------------|
| (١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ . | (٧) أغاني (سأسي) ١٤٥/١٨ . |
| (٢) أغاني (سأسي) ٢٣/١٩ . | (٨) أغاني (دار الكتب) ٢٣٧/٤ . |
| (٣) أغاني (دار الكتب) ٣٧٩/١١ . | (٩) انظر في ترجمة ابن مفرغ ابن سلام |
| (٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٤١٢ . | ص ٥٥٤ والشعر والشعراء ٣١٩/١ وأغاني |
| (٥) أغاني (سأسي) ١٥٢/١٩ . | (سأسي) ٥١/١٧ والطبري ٢٣٥/٤ والاشتقاق |
| (٦) البيان والتبيين ٥٠/٤ . | ص ٥٢٩ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزانة |
| | ٥١٤ ، ٢١٢/٢ |

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة ، وطبيعي وهو قد نشأ في البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على السنة الشعراء من حوله ، غير أن الهجاء هو الذي غلب عليه ، وقد صبه صباً على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذي دلح لسانه فيها أن سعيد بن عثمان والي معاوية على خراسان أراد استصحابه فأثر عليه عباد بن زياد والي سجستان ، وصحبه فلم يحمد ، وكان عباد طويل اللحية عريضا ، فركب ذات يوم وابن مفرغ يسير معه في موكبه ، فهبت ربيع ، فنفتحت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

ألا ليت اللحي كانت حشيشا فنعلفها دواب المسلمينا
وعلم عباد بما قال ، فأخذ يجفوه ويتكره ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على صحبته وتركه لسعيد بن عثمان ، وفي ذلك يقول :

إن تركي ندى سعيد بن عثمان فتي الجود ناصري وعديدي
واتباعي أخا الوضاعة . واللؤم لنقص وفوت شأو بعيد
وكان على ابن مفرغ دين ، فاستعدى عليه دائنوه عبّادا ، فأمر ببيع ماله في دينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له برّد وجارية تسمى أراكة ، فبكاها طويلا بمثل قوله :

وشريتُ برّداً ليتني من بعد برّد كنت هامة^(١)

يا هامة تدعو صدّي بين المشقر فاليامة^(٢)

الريح تبكي شجوه والبرق يلمع في الغمامة^(٣)

وأخذ يهجو عبّادا وأخاه عبيد الله والي العراق وأباهما زيادا هجاء مقذعا ، وكان مما وقف عنده طويلا استلحاق معاوية لزياد ، معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

(١) يقال فلان هامة اليوم أو اللغد أي أنه يموت في يومه أو غده . وشريت هنا : بعت .
(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصندي يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين ونجران .
(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً في الغمامة .

ألا أبلغ معاويةَ بنَ حَرْبٍ مُغْلَغَةً عن الرجل اليماني
 أتغضب أن يُقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زاني
 وأشهد أن إلك من زياد كإلّ الفيل من ولد الأتان^(١)
 وكان أهل البصرة يتغنون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله،
 فطلبه وألحَّ في طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائبٌ عنها في وفادة
 على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمنذر بن الجارود ، وكان عبيد
 الله مُصهراً إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يترعَّ جوار المنذر ، وأخذ ابن
 مفرغ وسجنه . ورأى أن ينكُل به ، فأمر - كما مر بنا في غير هذا الموضع -
 أن يُسقى نبيذاً ويُحمَل على بعير مقروناً إلى هيرةٍ وختزير ويُطاف به في أزقة
 البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله في طوافه يخاطبونه بالفارسية
 ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجياً عبيد الله وجدته سُميَّة هجاء مقذعاً .
 وردَّ إلى السجن ، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد ليتزل به عقاباً
 ألماً ، فألقى به في غيابات السجن . وشفعت فيه الهمينة عند يزيد بن معاوية ،
 وألحت في شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى يهجو عبَّاداً وأخاه عبيد الله،
 وخاصة حين خلا له الجحورُ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن
 معاوية ، فقد ظلَّ يسقط عليه بهجاء مريـر . ، وقد توفي سنة تسع وستين .

الحكم^(٢) بن عبدل

من بني أسد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بني أمية ،
 فلما دخل العراق في طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام ، فقدمها على عبد الملك
 وحظي عنده ، وله في تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته
 أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت شعري وليتُ ربما نفعتُ هل أبصرنُ بني العوامِ قد سُملوا
 بالذلِّ والأسر والتشريدِ إنهمُ على البريةِ حَتَفٌ حيثما نزلوا

الأدباء ٢٢٨/١٠ وما بعدها وفهرس البيان
 والتبيين والحيوان .

(١) الإل : القرابة .
 (٢) انظر في ترجمة الحكم بن عبدل أغاني
 (دار الكتب) ٤٠٤/٢ وما بعدها ومعجم

ولا دخلت العراق في طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصعك في بعض مدائحهم، إذ نراه يصف لمدوحيه بثؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجرذان^(١). وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا في العصر العباسي، وكانوا سبباً في نشوء فن المقامات عند بديع الزمان ثم الحريري. وكان هجاء خبيث اللسان، ومن هجاهم طويلاً محمد بن حسان بن سعد، وكان يتولّى خراج الكوفة، فكلّمه في شخص ليضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه فردّه ردّاً قبيحاً جعله يسأل لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها:

رأيت محمداً شريهاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورعٍ وقصدٍ
يقول: أماتني ربّي خيلاً أمات الله حسان بن سعدٍ
وذاعت القصيدة على السنة الكوفيين، حتى كان المكارى يسوق بغله أو حماره فيقول: عدّ، أمات الله حسان بن سعد. وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخطبة بأشعار كثيرة من مثل قوله:

وما كان حسان بن سعدٍ ولا ابنه أبو المسك من أكفأ قيس بن عاصم^(٢)
خذي ديةً منه تكن لك عُدّةً وجيئى إلى باب الأمير فخاصمى
وكان ذلك سبباً في نقض هذا الصهر، إذ أنفت للفتاة عشيرتها وردت ابن حسان ردّاً قبيحاً. ومن هجاهم ابن عبدل عمر بن يزيد الأسدي صاحب شرطة الحجاج، وله يصف شحّه وتقتيره:

جئنا وبين يديه التمر في طَبَقٍ فما دعانا أبو حفصٍ ولا كادا
وولى إمارة الكوفة لمسلمة بن عبد الملك في ولايته على العراق عبد الحميد
ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وكان أعرج، وتصادف أن كان صاحب شرطة مثله أعرج، فدخل عليه الحكم، وكان هو الآخر أعرج، فأنشده في أبيات:

(١) انظر الحيوان ٥/٢٩٧ وفي مواضع متفرقة. (٢) يكنى ابن عبدل بابي المسك عن نون ابن حسان.

أَلْتِي الْعَصَا وَدَعِ التَّخَامِعَ وَالتَّمَسَّ عَمَلًا فَهَذِي دَوْلَةُ الْعُرْجَانِ^(١)

فأعطاه عبد الحميد مائتي درهم وسأله أن يكف عنه ، ويقول الجاحظ :
« لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي نحمد بن حسان بن سعد وغيره من
الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم
أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته .
ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْبِسُ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قَدِرَ وأوفر
مما أُمِلَ ، فقال يحيى بن نوفل^(٢) :

عَصَا حَكْمٍ فِي الدَّارِ أَوَّلُ دَاخِلِي وَنَحْنُ عَلَى الأَبْوَابِ نُنْقِصِي وَنُحْجَبُ^(٣)

وللحكم هجاء فكه في زوجة همدانية كرهها ونفر منها : ونراه بصورها
متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفي في مطلع القرن
الثاني للهجرة .

ثابت^(٤) قُطْنَةُ

هو ثابت بن كعب من بني العتبيك الأزدية ، وقيل بل هو مولى خم ،
ولقب قُطْنَةُ لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه في بعض حروب الترك ، فذهب
بها ، فكان يجعل عليها قُطْنَةَ . وهو من فرسان المهلب المبرزين وقد علا نجمه في
ولاية يزيد بن المهلب الأزدى على خراسان إذ كان يوليّه أعمالاً في الثغور ،
فيحسنها وتظهر كفايته وبنالته . وكان قوم من المرجئة هناك يجتمعون ويتجادلون
فقال إلى قولهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته في الإرجاء في تضاعيف
حديثنا عن الثقافة .

(١) التخامع : العرج .

(٢) انظر في ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء

٧١٧/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٧/٤ والطبرى

٤٥٧/٥ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد .

وكان مولماً بهجاء خالد القسرى وعبد الملك بن

عبيد قاضي الكوفة .

(٣) البيان والتبيين ٧٤/٣ .

(٤) راجع في ترجمة ثابت الشعر والشعراء

٦١٢/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٦٣/١٤

والخرزاة ١٨٤/٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

ويلتئم في ثابت هجاء العصبية وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . ونراه مع المهلب في حروب الأزارقة . ويتعرض بعض بني الكوآء اليشكريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبى هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدهم ^١ واليشكريون منهم ^٢ ألام العرب
 ويمضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً في سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له ودّه ، فكان يمدحه ، وكلما شغبت عليه قبيلة صبّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد في البصرة كما قدمنا تعيينها وتشدّ من أزرها لا في البصرة فقط ، بل أيضاً في خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيد في بعض الأمر ، وهي تنزل مع الأزد حواليه ، فشغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تنزّو في الفساد وفي الوغى ^١ إذا راعها روع ^٢ جمايح بروق ^٣
 وأنتم على الأدنى أسود ^٤ خفية ^٥ وأنتم على الأعداء خزان ^٦ سملق ^٧

وحين ولي قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزور عنه امتعاضاً لابن المهلب . ولم يلبث أن هجاء هو وقبيلته باهلة حين هزمت في بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

توافت ^١ تميم في الطعان وعردت ^٢ بهيلة ^٣ لما عاينت معشراً غلباً ^٤
 تسامون كعباً في العلاء وكلاها ^٥ وهيهات أن تلقوا كلابا ولا كعبا ^٦

وأهم شاعر اصطدم به حاجب بن ذبيان المازني التميمي ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه . فغبطه عليها ، وأساء له

(١) تنزو : تثب . الروع : الفرع .
 الجمايح : ما نبت على رهوس القصب مما إذا دق
 تطاير . بروق : نبت ضعيف .
 (٢) خفية : أجمة في سواد الكيفة . خزان :
 جمع خنز و هو ذكر الأرناب وهي معروفة بالجن .
 والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .
 (٣) عردت : فرت . بهيلة : تصغير باهلة .

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله الهجاء ، ولقبه في هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسماه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول في بعض أهاجيه :

أحاجبُ ! لولا أن أضلك زيفُ وأنك مطبوعٌ على اللؤم والكفرِ
وأنى لو أكثرتُ فيك مقصراً رميتك رمياً لا يبديد يدَ الدهرِ

وله أشعار كثيرة في مدح المهالبة وراثتهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل في معاركه مع بني أمية طويلاً ، وهو في مديحه وراثته لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قوياً . وأكبر الظن أنه توفي قبل نهاية العقد الأول من القرن الثاني .

٣

شعراء النقائض

هياً استعار العصبية في البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء طوال هذا العصر ، كما هياً نمو فن النقائض نمواً واسعاً ، وقد أعدت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية . أما العوامل الاجتماعية فردّها إلى حاجة المجتمع العربي خاصة في البصرة إلى ضرب من الملامى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلي وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلاً نهضت - كما رأينا في غير هذا الموضوع - دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملامى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم : وقد رأينا المدينة ومكة تُقبّلان على الثناء وتجدان فيه حاجة أهلها من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالاً شديداً . حينئذ انبرى الهجاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيمهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعرُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورؤيتها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمع الناس من حوالهما يصفقون ويهتفون ويصيحون^(١) . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هي سدُّ حاجة الجماعة الحديثة في البصرة إلى ضرب من ضروب الملامح .

وتدخلت في صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردتها إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النحل السياسية والعقيدية وفي الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المربد مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهم من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان^(٢) . وكان أولهما من عشيرة كليب اليربوعية ، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتهما من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفًا كثيرة جعلت جريراً يقف في صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هوى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشع الزبير بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لجأت النوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجو^(٣) .

أجزاء ضخمة. ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوي سنة ١٩٣٥ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/٩ وما بعدها

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٢/١٠

وطبعة ساسي ١٠٣/١٩ .

(٢) شرح أبو عبيدة نقائض الشعراء ، وحقق الشرح ونشره بيثن سنة ١٩٠٥ في ثلاثة

ونحن لا نصل إلى حكم القُبَاع والى ابن الزبير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين في تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجدهما في تقيضتين لهما يُعلنان تكبيرهما على هذا الوالى ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل^(١) . ويقول الرواة إن سبب التحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غساناً هجا جريراً فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالسبعيث^(٢) المُجاشعي ، فأغاثه بمثل قوله في جرير وعشيرته :

أترجو كُليباً أن يجيء حديثها بخيرٍ وقد أعيا كليباً قديمها
فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شواظ نار ، وأفحش بنسائهم إفحاشاً
شديداً جعلهن يستغثن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه في الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فُقَيْمِ التميميين معروفة ، ووجدته عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة ، فازلن به يسترنه قائلات إن جريراً هتكت عورات نسائك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريراً ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء يتزلق فيها متحيزاً للفرزدق على جرير ، فكان يَشْوَى وجوههم ووجوه عشائهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الراعى^(٣) ، وكان من سوء حظِّه أن فضَّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبي دنا الرِّوَّاحُ فسيراً غلب الفرزدقُ في الهجاء جريراً
وهجاه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعَدُّها « حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

عساكر ١٢٢/٥ ومعجم الأدباء ٥٢/١١ .

(٣) انظر في ترجمة الراعى ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفي مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٣٧٧/١ وأغانى (سأسى) ١٦٨/٢٠ وفي ترجمة جرير، وفي الخزانة ٥٠٢/١ والموشح ص ١٥٧

(١) شرح النقاظ لأبي عبيدة (طبعة ياقظن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف للبلاذرى ٢٧٨/٥ .

(٢) انظر في ترجمة البعيث ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٤٧٢/١ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن

بالمربد ، وكان له مجلس ، وللفرزدق مجلس ، فدعا بدُّهن (طيب) فادَّهن
وكف^(١) رأسه ، وكان حسن الشعر ، ثم قال : يا غلام أسرج لي ، فأسرج له
حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق والراعي ، فتوجه للراعي يقول له : أبعتك
نيسوتك تكسبهن المال بالعراق ، أما والذي نفس جرير بيده لترجعن إليهن بميمير^(٢)
يسوءهن ولا يسرهن^(٣) ، ثم اندفع فأشد قصيدته ، وفيها يقول للراعي بيته
المشهور :

فُغِضَ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَ كَعْبًا بَلِغْتَ وَلَا كَلَابِيَا

ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخيزي والصغار ،
واتجه توا إلى منازل قبيلته نمير في نجد ، وهو يردد : فضحنا والله جرير ، وهم
يقولون : هذا شوئك .

وإنما أطلنا في هذا الخبر لنعطي صورة عن شاعر النقائض في المربد ،
وكيف كان يحتفل بشيابه وزينته : وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس
من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصباح والتهليل ، وأيضاً لندل على قدرة
جرير في الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال
إنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفا ، كانت
أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، ومن ثبت له قليلاً ثم
اندحر عمر بن بلأ التميمي^(٤) : وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريدُ
ويُقْضَى الأمر حين تغيب تيمُّ ولا يُستأذنون وهم شهود
لثامُ العالمين كرامُ تيمِّ وسييدهم - وإن رغموا - مسودُ

ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفي
مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢/٦٦٢ والاشتقاق
ص ١٨٥ والخزاة ١/٣٥٩ وفهرس الجزء الثامن
من الأغاني والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر في هذا الخبر أغاني (دار الكتب)
٢٩/٨ .
(٤) انظر في ترجمة عمر بن بلأ ابن سلام

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تغلب. وسنعرض لذلك عما قليل . وفي الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه ، إذ كان على شاكلته يعرف كيف يبسري نبال الهجاء المصمية ، وقد تبادل معه نقائض كثيرة ، وظلاسين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب في نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لما بأيام العرب ، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التي يتحدثان عنها دون أن يذكرها . فجرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم ، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل . وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس في خراسان ، إذ دفعت تهما الحوادث هناك لكي تنكّل بعبد الله بن خازم السلمى وإلى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب ؛ كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلي حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ في نقائضهما ، بحيث تُعدُّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعب عمل النقيضة ؛ لأنها لم تكن هجاء فحسب ، بل كانت أيضاً دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التي كان يحامى عنها فحسب ؛ بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التي يهجوها ليقف على الأيام التي انهزمت فيها ، حتى ينشر محازيها في الناس .

وواضح أن أساس الهجاء في النقائض كان يقوم على العصبية القبلية ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن هذه العصبية اختلطت في العصر الأموي بالسياسة ؛ وهياً ذلك النقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء والولاة ؛ بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب ؛ بل تحتوى كذلك مديحاً ، كما تحتوى نسبياً وغزلاً . والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربي الحديدية على الجدال ونقض الدليل بالدليل ؛ وقدرته أيضاً على التوليد في المعاني . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجريرو عملاً فنياً معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعاني ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

تحنُّ بزوراءِ المدينةِ ناقتي حنينَ عَجُولٍ تبتغي البوَّ راثم^(١)

وهو في غزلها يستشعر الإسلام خائفاً وجلا من يوم الحساب . ونراه يعتذر بما قد بدّر منه من أشعار تصوّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولستَ بماأخوذ بلغورٍ تقوله إذا لم تعمدْ عاقدات العزائمِ

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) ويمضي فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جُعلتَ لأهل الأرض نوراً ورحمةً وعدلاً وغيثَ المُغبراتِ القوادمِ^(٢)

وكان الحجاج ليجّ في البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفّي قبل خلافته ، فنكّل بمن لجّوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرّاً صورّه فيه طاغياً باغياً ، لى جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب القيل إذ ترميهم طير أباييل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . ومن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلي وثورته على سليمان بخراسان ، وافتخربأن تميا بزعامة وكيع بن أبي سود هي التي قضت عليه . ومضى يكييل لقيس وشاعرها جريرو هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس في الجزيرة . ويتجسّم له جريرو كأنه قيسٌ نفسها فيقول :

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض

حقيقة .

على أمه قرأه أي تحن إليه فلنا منها أنه ولدها

(٢) المغبرات القوادم : السنوات المجديّة .

وَأَلْقَيْتَ مِنْ كَفِّكَ حَبْلَ جَمَاعَةٍ وَطَاعَةَ مَهْدَى شَدِيدِ النَّقَائِمِ (١)

ويسمى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فهم بسيف سليمان الذي ضرب الله به مشركي قريش في يوم بدر . ويعير جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوِّ السيف في يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخراً عارماً بتميم وأيامها في الجاهلية وأمجادها العريقة في الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المراغة (الأتان) فهم ليسوا فرساناً ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبني وكانت كليبٌ مدرجاً للشتائم
ودائماً يصف كليباً باللؤم والدناءة ، ويفتحش في النيل من نساءها ومن أم
جرير خاصة ، ولا يترك مذمة إلا ويكلفح بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من
نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِي كَلَيْبٍ نَجُومُ اللَّيْلِ مَا وَضَحَتْ لَسَارِ
ولو يُرْمَى بِلُؤْمِهِمْ نَهَارٌ لِلدَّسِّ لَوْمُهُمْ وَضَحَ النَّهَارِ
وما يغدو عزيزُ بني كليبٍ ليطلب حاجةً إلا يجارِ
ووقف جرير في الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التي لخصناها آنفاً ،
فمضى بعد غزوها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذي اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتُ أمّ الفرزدق فاجراً وجاءت بوزوازٍ قصير القوائم (٢)
وما كان جارٌ للفرزدق مسلمٌ ليأمن قرداً ليله غير نائم
أتيت حدود الله مذ أنت يافعٌ وشببتَ فما ينهاك شيبُ اللهازم (٣)
تتبع في الماخور كلّ مريبة ولست بأهل المحصنات الكرائم (٤)

(٢) اللهازم : أصول الحية .

(٤) المحصنات : العفيفات .

(١) المهدي هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه بالمهدي كما يلقب الشيعة أئمتهم .

(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .

ومضى يتصممه بأخته جعشين : وكانت سيدة طاهرة ، ولكنه الهجاء . كما وصمه بأنه قين ابن قيسن : فهو ليس شريف الأصل كما يزعم . وكان لجدته قيون ، فرى جمدته بهم ، كى يغيظه ويحفظه . ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه في أخته ، وأيضاً فإنه كان يردد كما في هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حتى جواره ، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره ، كل ذلك ليضرب من حوالبه نطاقاً من الذل . وكان الذي قتل قتيبة بن مسلم الباهلي وكيع بن أبي سود اليربوعي . فهو ليس مجاشعياً ؛ إنما هو من قوم جرير ، ومن ثم يقول له :

فغيرك أدى للخليفة عهده وغيرك جلى عن وجوه الأهاتم^(١)
فإن وكيعاً حين خارت مجاشع كفى شعباً صدع الفتنة المتفاقم
لقد كنت فيها يا فرزدق تابعا وریش الذنابي تابع للقوادم^(٢)

وبذلك استل منه الفخر بمحادثة وكيع ، وجعلها لقومه اليربوعيين ، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق . وأخذ يفخر بياهلة قبيلة قتيبة القيسية وأيامها في الجاهلية . وعمم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب في الجزيرة . وغير تغلب بمسيحيها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين ، وكان عمر قبيل منها أن تدفع صدقة كالعرب لاجزية ، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمى ما تدفعه جزية ، ثلثاً وتعبيراً . ويعود إلى أيام قيس في الجاهلية ، يعددها . ويعدد ما لها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم .

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك في أثناء حجة له . وجاءوه بأسرى من الروم . فأمر بجزء حلاقهم : وأعطى لبعض من صحبه أسياف يضربون بها دعوس هؤلاء الروم . وعرف بعض القيسيين أن سيطلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم ، فدسوا له سيفاً كليل لا يقطع . فلما ضرب به لم يصنع شيئاً في الروم . وانتهزها جرير : فكان يكرر له هذا

(١) الأهاتم : من أشراف تميم
جناح الطائر ، والذئاب ما خلفها من ريشات
قصيرة .

(٢) التوادم : الريشات الطويلة في مقدمة

الحادث ليضحك أهل المرْبِد عليه، بما يَصور من خَوْره وجُبْنه، ومن ثمَّ يقول له الفرزدق في تقيضته السالفة :

فهل ضربةُ الروميُّ جاعلةٌ لكم
ونرى جريراً يردُّ عليه بمثل قوله :

بسيْفِ أبي رَغْوَانِ سيفِ مجاشعِ
ضربتَ به عند الإمامِ فأرْعِشَتْ
ضربتَ به عُرْقُوبَ نابٍ بصوْأرِ
عنيفٌ هزَّ السيفَ قَيْنٌ مجاشعِ
ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالمِ^(١)
يداك وقالوا مُحَدَّثٌ غيرِ صارمِ
ولا تضربون البيضَ تحت الغماغمِ^(٢)
رفيقٌ بأخراةِ الفُثوسِ الكرازمِ^(٣)

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صَوْعَر، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فَجَسَلَلْ له جرير هذه المكرمة بعار الجين، فأبوه وهو إنما يضربان، بمثل هذا السيف الذي نيا في يده، عراقيب الإبل لا صدور الفرسان. ويقول له إنك قَيْنٌ لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفرع وتهلع حين تمسك به، إنما تحسن الإمساك بالفُثوس فهي صناعتك.

وواضح أن جريراً لم يقف بنبو السيف في يد الفرزدق ووصفه بأنه قين ابن قين عند حد السُّلب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق. واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبغ الدلالة على ما أصاب العقل العربيَّ عند جرير من قدرة على التوليد في المعاني، كما نرى في مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُدوا
فأورثك العسلاة وأورثونا
أبانَ المُقْرِفاتُ من العِرابِ^(٤)
رباطَ الخيلِ أفنيةَ القِبابِ^(٥)

(٣) أخراة : جمع خوت وهو الثقب في أعلى الفأس. الكرازم : الفُثوس ضخمة اليريس .
(٤) المقرفات : المهجينات التي لا يخلص نسبها . العراب : الأصيلات في العروبة .
(٥) العلاة : سندان الحداد .

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المري أحد فرسان قيس في الجاهلية .
(٢) الناب : الناقة المستنة . البيض : خوذ المحاربين . الغماغم : أصوات الجيوش ، جمع غمغمة .

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القَيْنِ لا قَيْنَ مثله لَفَطَحِ المساحي أو لِحَدَلِ الأدهم^(١)

وقوله :

ورَقَّ لِحَدِّكَ أَكْبَارُهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعِكَ لَا تُفْسِدِ
وَأَذِنِ الْعَلَاةَ وَأَذِنِ الْقَدُومَ وَوَسَّعَ لِكَبِيرِكَ فِي الْمَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شيء هذا العنصر من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصراني ضده ، فأخذ يُضحك عليه سامعيه في المرْبَدِ بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهما على دين نصرانيةٍ لتنصراً

وقوله :

يحبُّك يوم عيدهمُ النَّصاري ويومَ السَّبْتِ شِيعَتُهُ اليهودُ

ولعل في هذا ما يدل أكبر الدلالة على أن النقائص عند الشعراء الكبارين : جرير والفرزدق إنما كان يُقصدُ بها قبل كل شيء إلى تسلية الجماعة العاطلة التي تكونت في المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهي مناظرة كانت تقاطع بالتهليل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلاً جاداً من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلاً من هذه الأشكال لشهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق في قذف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم . بل أصبحت فناً يُقصدُ به إلى إمتاع الناس في البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين ، ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية^(٢) . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متواديين لامتخاضمين متباغضين ، فهما يجتمعان

وهو القيد .

(١) قطع المساحي : تمويهاً وتعريفها

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٧٦، ٣٧/٨ .

الجدل أيضاً : التسوية . الأدهم : جمع آدم ،

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سوياً، وإذا نزلت بأحدهما شدة
أوحزبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يَدَ العون، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة
تشفع له الفرزدق (١) ، وإذا هجا الفرزدق خالدًا القسريَّ وحبسه تشفع له
جرير عنده (٢) ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه
ويطلقه (٣) . ونراه حين يُلسيَّ القدر قبله يرثيه رثاء حارًّا بمثل قوله :

ولا حملتُ بعد الفرزدق حُسرَةً ولا ذاتُ حملٍ من نِفايسٍ تعلتُ (٤)
هو الوافد المَحْبُوبُ والراتقُ الشَّأى إذا النُّعْلُ يوماً بالعشيرة زلتُ (٥)

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر في
عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر في عصرنا أصحاب الصحافة
الحزبية في آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم في أثناء ذلك صداقتهم .
وواضح مما قلنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة
إلى ما يسد فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما
كانوا يبتغون من ذلك ، إذ تحولوا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة
التي استضاءت فيها بقدرة العقل العربي الحديث على الحدال والتوليد في
المعاني . وارجع إلى أي فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قيسن أو فكرة ذل
بنى كليب فسرى كلا منهما يعرض الفكرة التي يقف عندها في صور كثيرة ،
إذ ما يزال يولّد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرّع ويشعب ، وكأنما يريد أن لا يُنتهى
فيها بقية . وانظر في أي نقيضة يردّ بها أحدهما على خصمه ، فستراه يقف بإزاء
كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صنّع المتناظرين من أهل اللدّ والحصومة في
المسائل العقيدية . فهو يحاول جاهداً أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه
في هجائه وأن ينقشها نقضاً . ومن ثمّ كُنا نرى أن نقائض جرير والفرزدق
فن جديد ، وهي ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقها مقدمات في العصور

(٤) تعلت : تطهرت .

(٥) الشأى : الفساد والضعف . زلت : عثرت .

(١) أغاني (ساسي) ٢٨/١٩ .

(٢) أغاني ٤٢/١٩ .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشعراء في صورة جديدة ، وهي صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع في العصر من قدرة على الجدل والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة في انجاء القديم : وهي ظاهرة التندير على المهجو وقبيلته : حتى تُضحك المستمعين في المربد . وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصباح والصفير والتصفيق . ومن ثم لم يترك كل من الشعراء شيئاً يثير الضحك في خصمه إلا آثاره ، كأن يقول الفرزدق في جرير :

يُهدى الوعيدَ ولا يحوطُ حريمَهُ كالكلبِ يَنبَحُ من وراء الدار
أو يقول في كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار^(١)
أو يقول :

أتعدل أحساباً لئاماً أدقّةً بأحسابنا إني إلى الله راجعُ
وكان جرير يلقاه بمثل قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مَرَبَعاً أبشِرُ بطول سلامةٍ يا مَرَبَعُ
وقوله :

خذوا كُحْلاً ومِجْمَرَةً وعِطْراً فليتم يا فرزدقُ بالرجالِ
وهو يتفوق على الفرزدق في هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكايه .

وساقت الظروفُ الأخطلَ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميا المناضل عنها . وكان الأخطل - كما قدمنا - يهاجى قيساً في الحروب التي

(١) الأوتار : جمع وتر وهو النار .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مرج راهط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردون عليه ، فُينتحمهم بأهاجيه المقذعة .

و شاءت المقادير أن يلمَّ بالعراق في ولاية بشر بن مروان ، فاصطدم هناك بجرير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه ^(١) وطبيعي أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجئلب عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفني من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشعارين . وإذا هما يخلفان طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام ^(٢) . وقد ظلا ينظامتاها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفي الأخطل حوالي سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر في هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم . فأفحموهم ، وسكت عنهم بتعضُّس من هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون ، جرير والفرزدق والأخطل » ^(٣) وجميع الظواهر التي لاحظناها في نقائض جرير والفرزدق نجدتها مجسمة في نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعَسِّيان بتاريخ القبائل في الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبية بالسياسة . وقد ساقَت الظروف تغلب لتقف في صفوف بني أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، كما ساقَت الأخطل التغلبي ليكون شاعر بني أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق في الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير ، ونراه يستلها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُتَّبِعُهُمْ طرفه مولَّها ، حتى يشبِّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدق يلمَّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نضرايا ، فانفرد بهذا الموضوع في شعره .

اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشعارين ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لها .
(٣) البيان والتبيين ٤/٨٢ .

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٣١٥/٨ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .
(٢) نشر صالحاني هذه النقائض في بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة في الآستانة ، وقد

على أنه لم يُطُنَّب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُعن الحبيبة : مستلهماً زهيراً في هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء، وإقبالهن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك، فمدحه من حيث هو خليفة ، منوهاً بجوده ، ومشبهاً له في هذا الجود بالفرات، وهي صورة يتأثر فيها تأثيراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر في معلقته . ويمضي فيفصل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته في قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوهاً بشرفها العريق وأنفها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه في صفوف بني أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس . وكان قد دخل في طاعة عبد الملك ، وكأنه يبغى أن يُحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بني أمية إني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمنة زُفر

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس في حروبهما بالجزيرة : ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية ! وقد مرّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحشّاك التي قتل فيها فارسها عمير بن الحباب وأن زُفر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن بُعد نظر . ومضى الأخطل يهجو قيساً حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع في هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُليبُ بن يربوعِ فليس لهم
مخلفون ويقضى الناس أمرهم
ملطمون بأعقار الحياض فما
قوم أنابت إليهم كل مخزية
على العيارات هداجون قد بلغت
عند التفارط إيراد ولا صدر^(١)
وهم بنغيب وفي عمياء ما شعروا^(٢)
ينفك من دارمي فيهم أثر^(٣)
وكل فاحشة سبت بها مضر^(٤)
نجران أو حدثت سوءاتهم هجر^(٥)

لعزتها وشرقها .

(٤) أنابت : رجمت وتناحت .

(٥) العيارات : جمع عير وهو الحمار ،

يهجوه بأنهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل .

الهدج : تقارب الخطر .

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ، والإيراد : ورود الماء . والصدر : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لا يستشارون ولا يعبا بهم .

(٣) يقول إنهم يملطمون حيث يكونون في

مؤخرات الحياض ، تلعطمهم دارم عشيرة الفرزدق

ويأخذ في هجاء جرير هجاء عنيفاً يُتَمَدِّع فيه إقذاعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل في نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نيبال الذل والحسنة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس في الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات ، وكثيراً ما يضمُّ إلى ذلك فخراً بأيامها في الجاهلية ، كما يضمُّ انتصاراً للفرزدق وعشيرته دارم ، حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقضُّ عليه كالصقور الجارح ، فيضع تحت عينه مخازي تغلب وهزائمها في حروبها مع قيس سواء في يوم ماكسين الذي نكَّل بها فيه عمير بن الحباب أو في يوم الكُحَيْل الذي نكل بها فيه زفر بن الحارث أو في يوم البشر الذي نكَّل بها فيه الجحاف السلمي ، ضاماً إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع في الجاهلية وملججا في هزائم تغلب قبل الإسلام، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه تقيضته السالفة :

نحن اجتبينا حياض المجد مترعة^(١) من حومة لم يخالط صفوها كدر^(١)
 لم يُخزِر أولَ يربوعِ فوارسهم ولا يُقال لهم كلا إذا افتخروا
 هل تعرفون بذي بهدي فوارسنا يوم الهديل بأيدي القوم مقتسر^(٢)
 خابت بنو تغلب إذ ضلَّ فارطهم حوض المكارم إن المجد مُبتدر^(٣)
 الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر^(٤)
 الآكلون خبيثَ الزاد وحدهم والنازلون إذا واراهم الخمر^(٥)
 إني رأيتكم والحقُّ مغضبةٌ تخزون أن يُذكرَ الجحاف أوزفر^(٥)
 كانت وقائع قلنا لن تُرى أبداً من تغلب بعدها عينٌ ولا أثر^(٥)
 حتى سمعتُ بخنزيرٍ ضغاً جزعاً منهم فقلت أرى الأموات قد نُشروا^(٦)

(١) الحومة : معظ الماء .

(٢) ذو بهدي : يوم ليربوع على تغلب وفيه

أسرت فارسها الهديل بن هيرة .

(٣) الفارط : الذي يتقدم قبل الإبل ليملاها

الحوض .

(٤) يريد أنهم لا يعرفون الأمر إلا تدبراً ، فهم

لا يُسألون في شيء وهم يسألون عن أخبار الناس .

(٥) الخمر : الموضع المستتر ، يقول إنهم

ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التي تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبعثوا .

رواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنيً ، وقد لقبه في البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصراني ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً ، وهو يمضي في نفس هذه التقيضة ، فيقول .

رَجَسُ يَكُونُ إِذَا صَلَّى : أَذَانَهُمْ قَرَعُ النَّوَاقِيسِ لَا يَدْرُونَ مَا السُّورُ (١)
 وما لتغلبَ إن عدت مساعيها نجمٌ يضيئُ ولا شمسٌ ولا قمرٌ
 الضاحكين إلى الخنزير شهوته يا قُبْحَتْ تِلْكَ أَفْوَاهَا إِذَا كَشَرُوا (٢)
 والمُقرِّعين على الخنزير ميسرهمُ بئس الجزورُ وبئس القومُ إذ يسروا (٣)
 جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا وهل يضيرُ رسولَ الله أن كفروا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه انجححر ، ولم يستطع له جواباً ، ومن ثم كان جرير يقول إنني أُعِنت عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته في التندير على خصمه ، وما يجمع الجانبين جميعاً قوله في تقيضة ثانية :

قَبِحَ الْإِلَهُ وَجْوهَ تَغْلِبَ كَلِمَا شَبِحَ الْحَجِيجُ وَكَبُرُوا إِهْلَالًا (٤)
 عَبَدُوا الصُّلَيْبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِجَبْرَائِيلَ وَكَذَّبُوا بِمِيكَالَا
 الْمُعْرِسِينَ إِذَا انْتَشَرُوا بِبِنَاتِهِمْ وَاللَّدَائِبِينَ إِجَارَةً وَسَوَالًا (٥)
 وَالتَّغْلِيُّ إِذَا تَنَبَّحَ لِلْقِرَى حَكُّ أَسْتِهِ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا (٦)
 ولو أن تغلب جمعت أحسابها يوم التفاضل لم تزن مثقالا
 نُبِّتُ تَغْلِبُ يَنْكَحُونَ رِخَالَهُمْ وَتَرَى نَسَاؤَهُمُ الْحَرَامَ حَلَالَا (٧)
 لا تطلبين خولةً في تغلبِ فالزنجُ أكرمُ منهمُ أخوالا

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال : رفع الصوت .

(٥) يقول إنهم بين أجير وسائل .

(٦) تنبج : كانوا ينبحون في الظلام إذا ضلوا لترد عليهم كلاب الحي ، فيستهدون بها للقرى وهو الطعام والضيافة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير ضحكوا شهوة للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول إنهم نصراني ولذلك يسرون ويقامرون على الخنزير .

ويقول في نقيضة ثالثة :

إن الذي حَرَمَ المكارم تَغَلَّبَا جعل الخلافة والنبوة فينا
مُضَرُّ أَبِي وَأَبُو الملوِكِ فهل لكم يا خُزْرَ تَغَلَّبَ من أبٍ كَأَبِينَا^(١)
هذا ابنُ عَمِيٍّ في دمشقَ خَلِيفَةً لو شئتُ ساقكمُ إلى قَطِينَا^(٢)
وما زالا يتهاجيان حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقيل له ألا توصي ؟
فقال تَوًّا :

أوصى الفرزدقَ عند المماتِ بِأُمِّ جَرِيرٍ . غيَّارها^(٣)
ولم يكده يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت
وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ فأصبحَ ألامَ زوارها^(٤)
والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً في الهجاء، وقد شهد له
الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يروى الرواة: «إن جريراً أوتي من سير
الشعر ما لم نُؤْتَه» ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه ، قلت :
قومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كَلْبَهُمْ قالوا لأهمهم بُولَى على النار
فلم يَرَوْه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :
والتغلبىُّ إذا تُنْبِحَ لِلِقَرَى حَكَ أَسْتَهُ وتمثَّلَ الأمثالاً
فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَّه^(٥) . ولعل من الخير أن نلتم بحياة هؤلاء
الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرزيه في
الهجاء والمديح جميعاً .

(٣) أعيار : جمع غير وهو الخمار .

(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .

(٥) أغاني ٣١٨/٨ .

(١) الخزر : ضيق في مؤخر العين ، يكنى

به جرير عن اللؤم .

(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .

الأخطل (١)

واضح مما قلنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهي إحدى القبائل العربية الكبيرة التي كانت تكون مجموعة قبائل ربيعة ، وكانت تنزل في الجزيرة ، وتمتدُّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة ، غرباً إلى الشام ، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أخيها بكتر جملتي فيها المهلهل . وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قتل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم لعمر بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها في الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة ، ولما فتحت الفتوح لحّت في أول الأمر مع الفرس والروم ؛ وسرعان ما اضطرت إلى الدخول في طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقبيلَ منها أن تؤدّي الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها في الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية في حروبه مع علي بصيفين ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جَعَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحد الألسنة في جيش معاوية على خصومه (٢) :

وقد مضت تغلب بعد صيفين تَحطَّب في جبل الأمويين ، من سفيايين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزلت إلى منازلها مع الفتوح وزاحمتها في

أشعاره نقائض جرير والأخطل وديوانه نشر صالحاني .

(٢) انظر في أشعار كعب بصيفين واقعة صيفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفي مواضع منفردة . وانظر في ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٦٣١/٢ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ٤٥٧/١ وراجع فهرس الطبري والأغاني

(١) انظر في ترجمة الأخطل أغاني (دار الكتب) ٢٨٠/٨ وكذلك في ترجمة جرير ٣/٨ وما بعدها وفي خبر الجحاف ويوم البشر ١٩٨/١٢ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ٤٥٥/١ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفي مواضع منفردة وخزانة الأدب ٢٢٠/١ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس : Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بي أمية السيد مصطفي غازي وانظر في

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تكده تتقدم بهما الأيام في أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سَلَّأ سيوفهما . واحتدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس في طاعة عبد الملك وتكافأت القبيلتان عن المغازي في الجزيرة .

وفي هذه القبيلة وفي فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفي عشيرة من هذا الفرع تسمى بني الفَدَو كس وُلد الأخطل في بادية الحيرة حوالي سنة ٢٠ للهجرة . وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهي من قبيلة إياد ، ومن ثمَّ نشأ نصرانياً ، وظل حياته على دينه ، فلم يدخل في الإسلام . وفي أخباره أنه كان يُكثِر الشَّجار في صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبِلَا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوج أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه ، فإننا نراه يطلق زوجته ، ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة . واقترن بها سَفَمَةً شديدة ، فكان يُكثِر من هجاء الناس ، ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْل الأخطل ومعناه السفية . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبي مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموي ويتعرَّض لنساء بني أمية . وكان ممن تعرض لمن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلاً مفحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسي ، ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبني أمية منذ وقوفهم مع علي في صفين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يردَّ عليه ، فاستعلاه ابن حسان ، فقال يزيد لكعب بن جُعَيْل : أجبته عنى وانهمجه ، فقال : « أرادى أنت إلى الإشرار بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثور ، يعنى الأخطل » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه ، فقال له : اهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

في الإسلام؟ أخافهم على نفسي، فقال يزيد: لك ذمة أمير المؤمنين وذمتي، فنظم في هجائهم قصيدته التي يقول فيها:

ذهبت قريش بالمكارم والعلل واللؤم تحت عمائم الأنصار

وغضب النعمان بن بشير الأنصاري، وكان ممن صحبوا معاوية في حروبه ضد علي وولائه الولايات وأكرمه، فجاء إليه يشكو له هجاء الأخطل لقومه، فقال ما حاجتك؟ قال لسانه، فقال معاوية ذلك لك. وعلم الأخطل، فاستغاث بيزيد، فدخل على أبيه، وقال له: إني جعلتُ له ذمتك وذمتي، إذ ردت عني، فقال معاوية للنعمان: لا سبيل إلى ذمة يزيد. وردَّ النعمان على الأخطل - كما أسلفنا - ولكن الهجاء لم يستطر بينهما، وكان الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه. ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بني أمية، فهو يعيش لهم يمدحهم، وهم يُغدقون عليه. وليس في ديوانه مديح لمعاوية، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان، فإن المرتضى في أماليه روى له فيه هذين البيتين (١):

إذا متَّ مات العزُّ وانقطع الغنى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرودٍ (٢)
ورُدَّتْ أكفُّ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلفٍ مجددٍ (٣)

وفي ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد، ونحسُّ في قصائد الأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبني أمية، إذ لا ينسى أن ينوّه بانتصار معاوية في صفين وأن الله اختار بيتهم للخلافة، على شاكلة قوله:

تمَّتْ جُدودهم والله فضلهم وجَدُّ قوم سواهم خاملٌ نكدٌ
ويوم صفين والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم - إذ دعوا من ربهم - مددٌ
وأنتم أهلُ بيتٍ لا يوازنهم بيئتٌ إذا عُدَّتِ الأحسابُ والعدد

(٣) الخلف: واحد أخلاف الناقة، ويقال تجددت أخلافها إذا ذهب لبنها.

(١) أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ٢٤/٢. (٢) مصرود: مقل.

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلاً ، فقد كان يفد عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه في الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده في الفترة التي احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً في صفوف قومه يناضل عنهم الراعي وابن الصَّفَّار المحاربي وابن الصِّمِّع وغيرهم من شعراء قيس . ومراً بنا أن القبائل اليمنية في الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نشزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان في موقعة مَرَجِ رَاهِط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها في تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس في الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَمِيَّ فِيهَا وَطَيْسُ الْحَرْبِ ، وَأُشْرِعَتْ فِيهَا ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت أسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِعَ فِي تَغْلِبِ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْلَفْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ نِقَائِضِهِ .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَرَ بْنَ الْحَارِثِ وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُدْعُونَ ويدخلون في طاعته ، فهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفراً ، ويحاول في سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين ، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل في هذا الاختصاص ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجَحَّافُ السُّلَمِيُّ ، فينشد :

ألا سائلِ الجَحَّافَ هل هو نائِرٌ بقتلى أصيبت من سُلَيْمٍ وعامرٍ
أجحاف إن نهبطُ عليك فتلتقي عليك بحور طاميات الزواجر

ووثب الجحاف يَجْرُ مُطْرَفَهُ غَضِباً ، وذهب تَوّاً إلى قومه في الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلاً فقتل فيها مقتلة عظيمة ، وبقر من النساء من كانت حاملاً . ومن كانت غير حامل قتلها . وتسمى تلك المعركة معركة « البشر » باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضلَّ من أسروه إذ قال لهم إنه عبد ، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الواقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمنته ، فعاد على أن يؤدّي الحملات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتصور من هذه الواقعة تصوراً شديداً ، حتى لراه يهدد بني أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحافُ بالبشرِ وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعولُ
فسائلُ بني مروانَ ما بالُ ذمّةِ وحبلٍ ضعيفٍ لا يزالُ يوصلُ
إلا تغييرها قريشٌ بملكها يكنُ عن قريشٍ مُسترادٌ ومزحلُّ^(١)

واستطاع عبد الملك أن يرمّمَ الفتقَ ويُحكّمَ الصلحَ بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلاً عليّاً ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يسئَلُ بين يديه « وعليه جُبة خنزٍ وحرز خنزٍ ، في حنقه سليلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفضُ لحيته خمرًا^(٢) » وعصرُ عبد الملك يُعَدُّ العصرَ الذهبي للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمي للدولة ، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يُعلن بين الناس أنه شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين ، وفي الأغاني أخبار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبني أمية ، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهي دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما ينال من قيس وشاعريهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خَفَّ القَطِينُ » التي أسلفنا الحديث عنها ، وقد أُحكِمَ نسجها حتى لتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله في الأمويين :

حُشِدْ على الحقِّ عَيَافو الخنا أنفُ إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجّتْ على الآفاقِ مظلمةٌ كان لهم مخرجٌ منها ومعتَصِرٌ^(٣)

(١) بملكها : بقدرتها . مستراد : مرعى .
(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩٩/٨ .
(٣) تدجّت : أظلمت . معتصر : ملجأ .

أَعْطَاهُمْ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدَ مُحْتَقَرٍ^(١)
 شُمْسُ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسَ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا^(٢)
 والأخطل في مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجرير ، بل لاشك
 في أنه يتقدم أولهما إذ كانت نفسه صلبة ، وكان يعتز بأبائه اعتزازاً شديداً ،
 فلم يبرع في المديح ، إنما برع في الفخر . أما جرير فكانت نفسه لينة ،
 ومن ثمَّ يُعَدُّ هو والأخطل في المديح فرسى رهان . وإن كنا نلاحظ في الوقت
 نفسه أن مدائح جرير أكثر عذوبة ، إذ كان يتفوق على خصميه جميعاً في
 حلاوة الألفاظ وجمال النغم ورشاقة اللفظ ونعومته . أما الأخطل فيمتاز
 برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ومدائحها في عهد الملك تُعَدُّ درره الشعرية ،
 وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمة على شاكلة قوله :

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ بِأَبْيَضٍ لَا عَارِيَ الْخِيَانِ وَلَا جَدْبٍ
 وَلَكِنْ رَأَى اللَّهُ مَوْضِعَ حَقِّهَا عَلَى رِغْمِ أَعْدَاءِ وَصَدَائِدِ كُذِّبِ^(٣)
 ونراه يلم في هذه الفترة من حياته بالكوفة والبصرة كثيراً بمدح ولائهما
 وأجوادهما من مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي ، وبشر بن مروان
 والحجاج ، وسماك الأسدي ، وهو من أجواد الكوفة . ونراه ينوه بمصقلة بن هبيرة
 الشيباني أحد قواد طبرستان ، كما ينوه بعكرمة بن ربيع الفياض وجوده الغمر ،
 ومن قوله فيه :

إِنَّ ابْنَ رَبِيعٍ كَفَانِي سَيْبُهُ ضِغْنِ الْعَدُوِّ وَعِذْرَةَ الْمُحْتَالِ^(٤)
 وَإِذَا عَدَلْتَ بِهِ رَجَالًا لَمْ تَجِدْ قَيْضَ الْفُرَاتِ كِرَاشِحِ الْأَوْشَالِ^(٥)
 ومن نوه بهم جرير بن عبد الله البجلي وجدار بن عتَّاب التغلبي وهمام بن
 مطرف .

(٤) السيب : العطاء . العذرة : الاعتذار ،

يشير إلى من يسألهم فيعتذرون .
 (٥) عدلت : وزنت . الأوشال : جمع وشل
 وهو الماء القليل . والراشح : الذي يسيل في قلة .

(١) الجد : الحظ .

(٢) شمس : جمع شمس وهو العسير في
 عداوته . استقاد له : أعطاه مقادته وذيامه ،
 فنضع وذل .

(٣) كذب : جمع كذوب .

وتُطوى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفى عبد الملك، ويخلفه ابنه الوليد، فيأفل نجمه، إذ يُقنصيه عنه، ويقرب منه شاعراً شامياً مسلماً هو عدى بن الرقاع العامل، وبذلك انزوى الأخطل، ولم يعد له كبير شأن. وقد مدح الوليد، ومدائح فيه فاترة.

وعلى نحو ما كان الأخطل يجيد المديح كان يجيئه نعت الخمر ودنانها ونداماها، ويطيل المديح في عتيقها والسرور بشربها، يقول:

صهباء قد كلفت من طول ما حُبستُ في مخدع بين جنات وأنهار^(١)
عذراء لم يجتل الخطاب بهجتها حتى اجتلاها عبادى بدينار^(٢)
واقراً له القصيدة الأولى في ديوانه، فستره يصور فيها زقاق الخمر تصويراً بديعاً، إذ يقول،

أناخوا فجرؤا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا^(٣)
ويصف تمشياً في دمه وجسمه وعظامه، فيقول:

تدب دبيبا في العظام كأنه دبب نمال في نقا ينهيل^(٤)
ويرسم صورة المنتشى بها نشوة تفقده حسه ووعيه، على هذا النحو:

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحياً وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحيانا وحيناً نجره وما كاد إلا بالحشاشة يعقل^(٥)

إذا رفعوا صدرا تحامل صدره وآخر مما نال منها مخبل
وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغوفاً شديداً، حتى لراه يذكر في حديث له مع عبد الملك أنها هي التي تمنعه من إعلان إسلامه^(٦). وفي أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا، فقد كان يتمسح بالقساوسة تبركاً، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان. وراه يذكر الصليب في ديوانه كما يذكر قديس قبيلته مارسرجيس، ويُقسم بالمسيح والرهبان. وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفى سنة اثنتين وتسعين للهجرة.

(١) الصهباء: الخمر. كلفت: تغير لونها.
(٢) عذراء: لم تفض. العبادى: نسبة إلى قوم في الحيرة كانوا يتجرون في الخمر، وهم نصارى، سما العباد.
(٣) الشاصيات: المثلثة.
(٤) النقا: الكتيب من الرمل.
(٥) نهاديه: نسوقه. الحشاشة: بقية النفس.
(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٩٠/٨.

الفرزدق (١)

شاعر تميمي ، وكانت تميم تنزل في الجاهلية بشرق الجزيرة ، وتمتد عشائرها ويطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل في نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل اليمنية والمصرية والربعية في أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتعدّ أكبر القبائل المصرية ، وهي في حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنتسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض ، ومن أشهر هذه القبائل دارم ويزربوع ومازن ومنيقر وبنو الهجيم وبنو أنف الناقة . ويُفِيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق في الحديث عن أيامها وحروبها القديمة ، ومن أهمها «أورة» بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة و«الرَّحْرَحان» بين دارم وعامر و«ذو نَجَب» بين يربوع وعامر و«النَّباج» بين منيقر وبكر و«إراب» بين يربوع وتغلب و«جَبَلَة» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عبس و«طَخْنَفَة» بين دارم ويزربوع . وكانت وثنية إلا نفرًا قليلاً تنصروا ، وهم يسمّون في الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حجر وسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وعدى بن زيد العبادي ، ومن شعرائها في صدر الإسلام عبيدة بن الطبيب ومتمم

ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦ والمبرد
ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ،
٢٩٢ والأمالى ٥٣/٣ وكذلك الاستيعاب لابن
عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها . وقد
طبع ديوانه طبعات مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً
كبيراً منه وأكمله هل . وطبع في مصر وبيروت
طبعات مختلفة ، أهمها طبعة الصاوي . ونشر
بيغن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبي
عبيدة ، والديوان والنقائض جميعاً في حاجة
إلى نشرة علمية محققة .

(١) انظر في ترجمة الفرزدق الأغاني (طبع
ساسي) ٢/١٩ وما بعدها وأخباره مع ابن الزبير
وزوجه النوار في أغاني (دار الكتب)
٣٢٤/٩ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء
٤٤٢/١ وابن سلام ٢٤٩ وما بعدها والموضح
ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت
٢٩٧/١٩ وخزانة الأدب ١٠٥/١ ومراة
الحنان لليافعي ٢٣٨/١ وأمالى المرتضى
٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة
في الأغاني انظر الفهرس ، وراجع الإصابة
٣٢٠/٥ والطبري ١٨٠/٤ وما بعدها و

ابن نويرة . وقد دخلت في الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متنبئة تسمى سجّاح . وتبعها كثيرون ، فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام ، مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة في فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة في معارك صيفيين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج في زمن علي بن أبي طالب ، ثم فيما تلاه من أزمنة ، وخاصة في صفوف الأزارقة . وقد مرّ بنا أنها تحالفت في البصرة مع قيس ضد الأزدي وربيعة ، وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اصطدمت بالأزدي ، وظلتا متنافرتين طول العصر لا في البصرة فحسب ، بل أيضاً في خراسان .

وكانت دارم تتشعب شعباً أهمها بنو فُقَيْم وبنو نَهْشَل وبنو مجاشع ، وفي بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة ولد الفرزدق وهو لقب لقب به بلهامة وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الحُبْرَة الغليظة التي يتخذ منها النساء اللففوت . واسمه هَمَام ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عِقال ، وجميعهم في ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فدى الموءودات في الجاهلية ونهى عن قتلهن ، ويقال إنه فدى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك ، ونوّه الفرزدق في شعره بهذه المكرمة بلحده طويلاً ، من مثل قوله :

أبي أحدُ الغيثين صعصعةُ الذي متى تُخلف الجوزاء والنجمُ يَمْطُرُ
أجار بناتِ الوائدين ومن يُجِرُّ على القبرِ يُعلمُ أنه غيرُ مُخْفِرِ

وكان لصعصعة قبون منهم جُبَيْر ووقبان وديسم ، ومن ثم جعل جرير مجاشعا قيوناً كذباً وبهتاناً وصعصعة أحد من أتوا النبي صلى الله عليه وسلم في وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر في الجاهلية كان ابنه غالب في الإسلام وأمه ليلي أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، وما يروى من جوده السّيال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جودهم ، فما كاد يسمع مسألهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويروى أن دارما ويربوعاً أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يربوع سُحيم بن وثيل فصنع صنعه ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُحيم مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحرَ إبله كلها في مكان يسمى صَوَّعَر ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً في شعره . ولم يكن يتلفع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعْثَيْن ، وتصادف أن أحد أشرار بني مَنَقَر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ، وقد غيرَ جرير الفرزدق بذلك كثيراً حتى لنراه يرميها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التي وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالي سنة عشرين للهجرة ، ففي أخباره أنه قال : « كنت أهاجى شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفي أخباره أيضاً أن أباه قدّمه إلى علي بن أبي طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابني هذا شاعر ، فنصحه أن يعلمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ في بيت كريم ، مآثره ومفاخره لا تُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق في نفسيته إذ كان يعتدُّ بأبائه اعتداداً شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم في هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجِير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجِيرون . ولما توفى صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاقُ الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التي حرّمها الإسلام ، وأيضاً بكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثل البدوي التميمي شديد الشكيمة الذي لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلاً بعيداً عن قصر بني أمية في دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بني أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمَّ عم له يسمى الحُتات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفى قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، لم يكأ يسع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة في معاوية يقول فيها :

فما بال ميراث الحنات أخلته وميراث حرب جامد لك ذاتبة^(١)
 فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المرة القليل حلاتبه^(٢)
 ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمه في ذنب ذهب بكبش
 من غنم لأهله ، وهو يستهله بقوله :

تلوم على أن صبَّح الذئب ضأنها فالوى بكبش وهو في الرعي راتع
 وهي أبيات جيدة الصياغة . وفي أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حديد
 اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن
 هجأهم وأسرف في هجائهم بنو فقيم وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم في قوم ،
 فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبت وفود بني فقيم بآلم ما تؤوب به الوفود
 ومضى يهجوهم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رؤيلة النهشلي ،
 واستعر الهجاء والتفاخر بينهما ، حيثد رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك
 في سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو
 البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ،
 وأعانوه على الفرار ، فولّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قبيل
 معاوية ، وكان سيداً ممدّحاً ، فأمنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

ترى الغر الججاج من قريش إذا ما الأمر في الحدثن غالا^(٣)
 قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالا
 وسمعه الخطيئة وهو ينشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعر
 لا ما نعلل به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رقى له وقال : لو أتاني لآمنته وأعطيته ،
 فقال في كلمة :

دعاني زياد للعطاء ولم أكن لآتيه ، ما ساق ذو حَسَبٍ وفراً^(٤)

وهو السيد الكريم . الحدثنان : حوادث الدهر
 ونوائبه . وغال : أصاب بشر .
 (٤) الوفير : المال الكثير . وأراد التأيد أي
 لا آتيه أبداً .

(١) حرب : جد معاوية .
 (٢) الحلائب : الجماعات وأبناء العم في القبيلة .
 (٣) الغر : جمع أغر وأصله أبيض الغرة
 ويريد به الشريف . الججاج : جمع ججاج

ومضى في المدينة ينفق أيامه ولياليه في اللهو والاختلاف إلى دور القيان،
وذكر ذلك في شعره بمثل قوله :

إذا شئتُ غنَّاني من العاج قاصفٌ على معصمٍ ريانٍ لم يتخذدٍ^(١)
وقوله :

هما دلتاني من ثمانينَ قامةً كما انقضَّ بازٍ أقتمَّ الرِّيشَ كاسِرُهُ

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الشُّغرة في خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل
المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمروان بن الحكم ، فولى مروان ، وكانت فيه
شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفي طريقه إليها
أتاه نعي زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه
مسكينا الدارمي يتفجع على زياد بمثل قوله :

رأيت زيادةً . الإسلام وُدَّتْ جهارا حين ودَّعها زيادُ
فحنق عليه حنقا شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أمسكينُ ! أبكى الله عينك إنما جرى في ضلالٍ دمُعها فتحدرا

وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه ، حتى لا يهتدم شطر حسبه . ونراه
يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له في مجالسه . ولا يفارقه شره ، فهجو بني
منقر ، ويغضب لهم مرةً بن مسحكان^(٢) شاعر بني ربيع التميميين وسيدهم ،
فهجوه وعشيرته بكلمة يقول في تضاعيفها :

ترجى ربيعٌ أن يجيء صغارها بخيرٍ وقد أعيا ربيعاً كبارها

ويشتعل بينهما الهجاء . وندخل في فترة فتنة ابن الزبير ، وتتبعه العراق كما
تبعته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعبُ ابن محكان . ونرى الفرزدق في هذه الأثناء

(١) أراد بالعاج أساور العاج . قاصف :
من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة
الأساور . ريان : مثل . يتخذد : يتجمد .
(٢) انظر في ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥
والشعر والشعراء ٦٦٧/٢ وأغانى (ساسى)
٩/٢٠ ومعجم الشعراء ص ٢٩٥ .

يدخل - كما مر بنا - مع جرير في معركة الهجاء التي استمر شررها يتطاير حتى توفى ، والتي أورثتنا نقائضهما آفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النوار وهي ابنة أعين بن ضبيعة المجاشعي ، وكان قد تزوجها راغمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليها ، فأنهز الفرصة ، وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الخلدق . فغضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خولة بنت منظور بن زبآن الفزاري ، وتشفعت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة ، فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تقبل شفاعتهم وشفعت بنت منظور بن زبانا
ليس الشفيح الذي يأتيك مؤتزرا مثل الشفيح الذي يأتيك عريانا
وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله في العراق فضت معه النوار
مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا في مكة ، غير أنها ظلت تشاره وتشاجره ،
إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حدراء
بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرض بالنوار ،
فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدراء وقومها معها ، وتصادف أن
ماتت حدراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية
أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزتا
منه فطلقهما ، ومازالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم ندماً شديداً ، يقول في
كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامة الكسبيِّ لما غدتُ مني مطلقاً نواراً^(١)
وكانتُ جنةً فخرجتُ منها كآدم حين أخرجته الضرار^(٢)

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبطة وسبطة وخسبطة وركضة من النوار
وولد له أيضاً زمعة . وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه في الشعر . وفي تسميته

(١) الكسبي : شخص يضرب به المثل في الندم . (٢) الضرار : العصيان والمخالفة .

لأبنائه هذه الأسماء ما يدل من بعض الوجوه على غلظ نفسه ولاشك في أن فشله المبكر في حياته الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذي ولي العراق لأخيه عبد الملك ، حتى ليستشير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إنك سيف الله صِيلَ به على العدو وغيثٌ يُنبت الشَّجَرَا

ووليّ العراقَ الحجاجُ ، وكانت فيه قسوة ، فخشي بطشه ومضى يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

إن ابن يوسفَ محمودٌ خلّثمهُ سيانٍ معروفهُ في الناس والمطرُ
هو الشهابُ الذي يُرمى العدوُّ به والمشرقيُّ الذي تَعَصَى به مُضَرٌ^(١)

ونوّه طويلاً بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازن العدل : حتى إذا توفّي رثاه رثاء حارّاً ، يقول فيه :

ومات الذي يَرْعَى على الناس دينهم ويضربُ بالهنديِّ رأسَ المخالف^(٢)

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التيممية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلي الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، ولجّ معه الحجاج وولاته في المشرق ، وتصادف أن توفّي الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما وليّ لم يكن له هم إلا أعمال الحجاج وثار عليه قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي بخراسان ، فقتلته تميم وردّت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع في هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لميم . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يضطرّ اضطراراً للتزول عنها . وبتأثيرها نجده يشذ على ذوق مواطنيه ، فهجو المهلب الأزدي السيد الجواد والفارس الشجاع الذي طبع الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه في جرجان ، ليضئق عليه من نواله ، فيأبى قائلاً :

(١) تعصى هنا : تضرب ، من العصا . (٢) الهندي : السيف .

دعاني إلى جُرْجان والرِّيُّ دونه لآتِيهِ ، إني إذْ نَزَمُورُ^(١)
 سآبِي ونأبِي لي تَمِيمٌ وربِّمَا أبيتُ فلم يقدر عليَّ أمير
 حتى إذا ولي يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى يمدحه مسرفاً
 في مديحه علي شاكلة قوله :

إني رأيتُ يزيدَ عند شبابه لَيْسَ التَّقَى ومهابةَ الجِبَارِ
 وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم خُضِعَ الرُّقَابُ نواكسَ الأبصارِ

ودار الزمن فنار ابن المهلب علي يزيد بن عبد الملك ، وقضى علي ثورته
 مسلسة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازني الذي تعقب آل المهلب
 في قنءابيل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حيثُ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع
 تميم ، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مرا^(٢) .

وقد قلنا آنفاً إنه ظل طويلاً لا يفد علي قصر بني أمية في دمشق ، وأول
 من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بني حَرْبٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتِيهِ والمتخيراً
 أباك وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أو ليؤمن أوجراً^(٣)
 فما كنتُ عن نفسي لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المومراً

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بني أمية الذين يدعون لهم ويدافعون
 عن خلفائهم ، مضمّنين عليهم هالة قدسية من التقوى والبرِّ ، تحضُّها المبالغة
 المسرفة من مثل قوله في سليمان :

أنت الذي نعت الكتابُ لنا في ناطق التوراة والزُّبُرِ
 كم كان من قَسٍ يخبرنا بخلافة المهديِّ أو حَبِرِ
 جعل الإلهُ لنا خلافته بُرء القروح وعصمةَ الجَبِرِ

(٣) الأوجر : الخائف .

(١) زءور : كثير الزيارة .

(٢) الديوان ص ٥٧٥ .

وقوله في يزيد بن عبد الملك ، وهو مجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائم
لكنت الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام
ورثم خليل الله كل خزنة وكل كتاب بالنسوة قائم
ولعل في هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعياً مائلاً إلى
بنى هاشم وإنهم ليسترسلون في ذلك فينسبون إليه قصيدة في علي بن الحسين
وهي القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحجل والحرم
وقد أنكر أبو الفرج الأصبهاني نسبة القصيدة إليه^(١) ، والذي لا شك فيه
أنها تخالف نسجه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته
وأبائه ، وقد مدح بنى أمية بأخرة ، أما ولاية العراق فكان إذا خاف بطشهم
مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد
تميم ، ومن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزاري وإلى يزيد بن عبد الملك ،
وفيه يقول :

أمير المؤمنين وأنت عفو كريم لست بالطبع الحريص^(٢)
أوليت العراق ورافديه فزارياً أحذ يد القميص^(٣)

وولّى بعده خالد القسري هشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمنية ،
وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخر الناس في شق نهر
المبارك ، واتهز الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجوها بالعملين جميعاً ، يقول :

بنى بيعة فيها الصليب لأمه وهدم من كفر منار المساجد
ويقول

أهلكت مال الله في غير حقه على نهرك المشثوم غير المبارك

(٣) أخذ : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير أمين على أموال الأمة .

(١) أغاني (سأسى) ٧٥/١٤ .

(٢) الطبع : التميم الذي .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يجسه ، فألقى به في السجن ، فانتقلب يستعطف مالكا وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حجَّ خالد وأتاب عنه أخاه أسداً ، فردَّ إليه حرите ، ومن ثم نراه يمدحه بمدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أتاب إلى ربه في سنيه الأخيرة فقد أخذ يتدم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته في إبليس ، وفيها يقول :

أطعتك يا إبليس سبعين حجةً فلما انتهى شئبي وتمَّ تَمَامِي
فَرَرْتُ إلى ربي وأيقنت أنني مُسَلِّقٍ لآيام المَنونِ حِمَامِي
وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته في المديح والهجاء ، وهو في مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لما قلّمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير في الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة . إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المحتد ، فكان ينصبُّ عليه وعلى غيره من مهجويه كالصقر الجارح . وهذه النفس الحشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع في الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زير غَوَانٍ وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً »^(١) . وكان جرير يتقدمه كذلك في الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذي يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بأبائه وقبيلته اعتداداً لا حد له ، ومن ثم بلغ في الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :

وَكُنَّا إِذَا الْجِبَارُ صَعَرَ خَدَّهُ ضَرْبِنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ^(٢)

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٨ .
صفحة العنق . واستقامة الأخادع كناية عن الخضوع والذل .

(٢) صعر خده : أماله كبراً وخطرة .
الأخادع : جمع أخدع وهو العرق البارز في

وقوله :

ترى الناس ماسرفنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا^(١)

وقوله :

إن الذى سمك السماء بنى لنا
حللُ الملوك لباسنا فى أهلنا
أحلامنا تزُنُ الجبالَ رزانه
فادفع بكفك - إن أردت بناءنا -
ببيتاً دعائمهُ أعزُّ وأطولُ^(٢)
والسابعاتِ إلى الوغى نتسرِبَلُ^(٣)
وتخالنا جنًا إذا ما نجْهَلُ^(٤)
ثهلانَ ذا الهضباتِ هل يتحلحلُ^(٥)

والحق أن الفرزدق كان نبعا كبيرا من ينابيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صلبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر فى أساليبه ، من مثل قوله المشهور فى مديح إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله فى الناس إلا مُملِكاً أبو أمه حتى أبوه يُقارِبُهُ

فإن البيت لا يُفهمُ إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعياً على هذا النحو :
« وما مثله (الممدوح) فى الناس حتى يُقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعَضُّ زَمَانٍ يابنَ مَرَّوانَ لم يدعُ من المالِ إلا مُسَحَّتاً أو مُجَرَّفاً^(٦)

وكان القياس أن يقول مجزفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستثناف تمشياً مع روى قصيدته . وكان ابن أبى إسحق الحَضْرَمِي يراجعهُ فى ذلك ومثله كثيراً ، فكان يَسْخَرُ منه . وقد عدّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » ومن ثم دارت أشعاره فى كتب اللغويين والنحاة كما دارت فى كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

(١) وقفوا : وقفت ركائبهم لا يتقدمون . (٤) نجهل هنا : نهض حمية .

(٢) سمك : رفع . (٥) ثهلان : جبل . يتحلحل : يتحرك .

(٣) السابعات : الدروع الكاملة . نتسرِبَل : (٦) المسحت والمجرف : المهلك المتأصل .

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها ، بل يشتبك أيضاً بأحداث الحوارج وأحداث خراسان ، وله مدائح وأهاج مختلفة في ولائها وولاية فارس ، أمثال عبيدالله بن أبي بكر وأبي بكر وأبي بكر وأبي بكر وأبي بكر وأبي بكر ، ابن عبد الرحمن المُرِّي ، وقد نوّه طويلاً بأسد بن عبد الله القسري وهلال بن أحوز المازني . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء ، وهو يضمن ذلك مدائح وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضخم ناشئ من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التي قلما تعرف الرقة واللين

٦

جرير (١)

شاعر تميمي من عشيرة كليب اليربوعية ، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته مجاشع من المآثر والأجداد ، أما العشيرة فعُرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة في الجاهلية ، فأشاد بأيامها وقرساتها طويلاً .

وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلاً ، أما جدّه الحطّطي فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أتاه من قبيله الشعر ، ومما يروى من شعره قوله :

عجبتُ لإِزراءِ العَيِّ بنفسه
وَصَمْتِ الذي قد كان بالقول أعلماً
وفي الصمتِ سترٌ للعَيِّ وإنما
صحيفةٌ لبُّ المرءِ أن يتكلما

وراجع فهرس الأغاني في مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٢١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه في القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوي بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب . ونشر بيّن نقائضه مع الفرزدق بشرح أبي عبيدة ، ونشر صالحاني نقائضه مع الأخطل برواية أبي تمام .

(١) انظر في ترجمة جرير الأغاني (طبع دار الكتب) ٣/٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٣٥/١ وابن سلام ص ٣١٥ والموشح للمرزباني ص ١١٨ وخزانة الأدب ٣٦/١ والعيني ٩١/١ وراجع فهرس الكامل للمبرد والبيان والتبيين - وانظر ذيل الأمل ص ٤٣ والطبري ٥/٢٦٧، ٢٧٣

وكانت أمه تسمى أم قيس، وهي من نفس عشيرته، وقد ولدت جريراً في بادية
اليمامة حوالي سنة ثلاثين للهجرة، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد، كانا
ينظمان الشعر.

فجرير إن لم يكن نشأ في بيت مجد فقد نشأ في بيت شعر، وظل الشعر
يُتوارث في أبنائه، وأشعرهم بلال. وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين في
العصر العباسي، وعنه أخذ الرواة شعر جدّه وأكثر أخباره، ويقول ابن قتيبة
كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور.

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة، وقد وجد في جدّه الحطّبي
خير من يلقنه الشعر، ويقال إن من أوائل ما نظمه ممارواه له الرواة أحياناً - عاتبه
بها، وذلك أنه كان ذا مال كثير، وكان ينحلّ أبنائه وأحفاده من ماله،
فاستنحله جرير، فأعطاه بعض ماله، ثم رجع فيه، وقيل بل أعطاه قليلاً فاستزاده
فلم يزد، فتسخّطه، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها، وقد وصلها بعد
ذلك بسنوات بأبيات نظمها في الفرزدق وغسان السليطي، وفيها يقول معاتباً
جدّه:

وإني لمغرورٌ أعللُّ بالمنى ليالي أرجو أنّ مالك مالياً
وإني لعفُّ الفقر مُشترِكُ الغنى سريعٌ - إذا لم أرض داري - انتقالياً

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة، فأنشده هذه
الأبيات، فقال له: كذبت إنها لجرير، فقال له: أنا جرير. ومن قوله فيها:

وليستُ لسيفي في العظام بقيةٌ وللسيفِ أشوى وقعةٌ من لسانيا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف، فالسيف إنما يقطع الشوى
أي الأطراف، فيبقي على من طعنه، أما لسانه فلا يبقي بقية فيمن يطعنه.
وهو استهلال حياته الشعرية، يدل على أنه مقتحم بها فن الهجاء، وقد ظل
يجول ويصول في هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفي بعد
الفرزدق بنحو ستة أشهر. ونراه يهاجى غساناً السليطي، ويعينه البعيث، فيطعنه
ويطعن نساء عشيرته مجاشع طعناتٍ نجلاء، فيضطرّ الفرزدق أن ينازله،

ويحتدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجوهُ وهو مقيم بالمرُوت من بادية الحامة بضع سنوات ، فأرسلتُ بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمرُوت ، ليس عندك أحد يروى عنك . والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فأنحدر إلى العراق ، فأقام بالبصرة . منشدا :

وإذا شهدتُ لشعرٍ قوميَ مشهداً آثرتُ ذاكَ على بنيِّ ومالي

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق في طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الملقب بالقُباع (٦٥ - ٨٦٦) يأمر - حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمرُبَدِ - صاحب شرطته عبَّاد بن الحُصَيْنِ بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أحارثُ داريَ مرَّتينِ هدمتها وكنتَ ابنَ أُختٍ لا تُخافُ غوائله

ويقول جرير :

وما في كتابِ اللهِ هدمُ بيوتنا كتهديمِ ماخورٍ خبيثٍ مداخِلُهُ

ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى - كما أسلفنا - مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغاني نقلاً عن الأصمعي إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرى بهم واحداً واحداً ، ويقول في موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً غلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبدعونني ثم لا أعفوا ، كما كان يقول : إنني لا أبتدىء ولكن أعتدى ، ويروى أن الراعي سمع راكباً يتغنى :

وعاوي غوى من غير شيءٍ رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما^(١)
خروجٍ بأفواه الرواة كأنها قرأ هُندوانى^(٢) إذا هزَّ صمما^(٣)

(١) كثيرة الإنشاد . قرأ : متن وظهر . الهندوانى : السيف ؛ كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند . صم : قطع اللحم ويرى العنم .

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلم الذي تحدثه الطعنة .

(٢) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال : والله لو اجتمع
الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً ، هل ألام على أن
يغلبني مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعنهم طعنات مسمومة في
نساء عشائريهم ، كقوله في نساء عشيرة سُرّاقة البارقى ، وكان ممن رفعوا الفرزدق
عليه :

يُعْطَى النِّسَاءَ مَهْرَهُنْ كِرَامَةً وَنِسَاءَ بَارِقٍ مَالَهُنْ مَهْرُهُ

ولم يثبت له - كما أسلفنا - سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن لُحَا
التَّيْمِيُّ إلى حين ويقال إنهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل
ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأنهما يتهاجيان ، فأمر
بأن يُضْرَبَا تَأْدِيباً ، فَضْرَبَا وَأَقِيَا عَلَى الْبُلْسُ (١) مقرنين . وعادا إلى العراق ،
وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قَوْمٌ إِذَا حَضَرَ الْمَلُوكَ وَفُودَهُمْ نُتِفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الْأَبْوَابِ

واستغاثت تَيْمٌ* بجرير وتوسلت إليه وتضرعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد
أن ثلَبَهَا وشاعرها ثلَباً قبيحاً . وويل للعشيرة التي كانت تتعرض له ، روى الرواة
أن الفرزدق أتى مجلس بني الهُجَيْمِ في مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريرا ،
فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلاً له :
اتَّقِ اللَّهَ ، فَإِنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ بُنِيَ لَذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ ، فَانصرف عنهم مغضباً ،
وهو يقول :

إِنَّ الْهُجَيْمَ قَبِيلَةٌ مَلْعُونَةٌ حُصُّ اللَّحَى مُتَشَابَهُو الْأَلْوَانِ (٢)
لَوْ يَسْمَعُونَ بِأَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ بَعْمَانٌ أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بَعْمَانٌ
مَتَوْرِكِينَ بَيْنَهُمْ وَبِنَسَاتِهِمْ صُعْرُ الْأَنْوْفِ لَرِيحٍ كُلُّ دُخَانِ (٣)

(٢) متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم
وبنيتهم ويذهبون يسألون بهم . صعر : جمع
أصعر وهو الذي ينظر بوجهه لا وياً عنقه .

(١) البلس : غرائر كبار تحشى تبناً ،
كان يرفع عليها الجنة تشهيراً لم وتأديباً .
(٢) الأحص : قليل الشعر في ذقنه وعارضيه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ - ٨٩٥) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدم لهما من الغزل ووصف الصحراء ، حتى إذا أظلم هذا العصر ، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يتقدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة ، فيمدحه برجز ، يقول فيه :

خليفة الحجاج غير التهم في معقد العز وبؤبؤ الكرم^(١)

واستنطقه فأعجبه ظرفه وشعره ، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه ، فكتب إليه أن ابعث به إلى ، فقدم عليه ، فأكرمه . وسرعان ما عاش له جرير يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النَّفْسَاقِ عَلَيْكُمْ	أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ ^(٢)
أَمْ مَنْ يَخَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيظَةً	إِذْ لَا يَثِقْنَ بَغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ ^(٣)
إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا	مَاضِيَ الْبَصِيرَةَ وَاضْحُ الْمِنْهَاجِ
مَاضٍ عَلَى الْغَمْرَاتِ يُمَضَى هَمَّةٌ	وَاللَّيْلُ مُخْتَلَفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي ^(٤)
مَنْعَ الرِّشَا وَأَرَاكُمُ سُبُلَ الْهَدَى	وَاللَّصَّ نَكْلَهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ ^(٥)
وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا	سَبِيلَ الضُّجَّاجِ أَقَمْتَ كُلَّ ضُجَّاجِ ^(٦)
دَاوَيْتَهُمْ وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ	غِبْرَاءَ ذَاتِ دَوَاخِنٍ وَأُجَاجِ ^(٧)
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ	وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحُجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التي يجلبها العرب من قديم ، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته للعراق ، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق ، مع شجاعة فائقة ومحافظة على الذمام . ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة ، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد ، ويصور كيف أقام العدل في الناس ومنع

(١) بؤبؤ : أصل .
 (٢) المطلع : المنفذ من أعلى ، أو المصدر .
 (٣) الحفيظة : الغضب .
 (٤) الغمرات : الشدائد . داجي : مظلم .
 (٥) الإدلاج : السير ليلا .
 (٦) الضجاج : الباطل .
 (٧) الأجاج هنا : من أجة النار . والدواخن : جمع داخن وهو الدخان .

الرشوة وقضى على اللصوص وقطّاع الطريق في الليل المدمم . ويقول إنه قوم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيشون في الأرض فسادا . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوّه بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجاجُ مثلَ دعاءِ نوحٍ فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا^(١)
صبرتَ النفسَ يابنَ أبي عقيلٍ محافظةً فكيفَ ترى الثوابا
ولو لم يرَضَ ربُّك لم ينزلْ مع النَّصرِ الملائكةَ الغضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حربٍ رأى الحجاجَ أثقَبها شهابا
وكان عبد الملك بن مروان في دمشق يفسح في مجالسه للأخطل شاعر تغلب
النصراني ، وينتقلُ إليه شعر جرير في الحجاج فيغيبطه عليه لروعة شعره ومهارته
في المديح . ورأى الحجاج أن يهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة في
أن يمثّلَ بمدح بين يديه ، فصحبه معه في وفادته التي وفدها على عبد الملك ،
ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له في النشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه
في الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التي يقول في استهلالها :

تعزّت أمٌ حَزْرَةَ ثم قالتُ رأيتُ الموردين ذوى لقاح^(٢)
تعلّل ، وهى ساغبةٌ ، بنيتها بأنفاسٍ من الشِّيمِ القراح^(٣)
سأمتاح البحورَ فجَنَّبيني أذاة اللوم وانتظري امتياحي^(٤)

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

وإني قد رأيتُ على حَقًا زيارتيَ الخليفةَ وامتداحي
ألستم خيرَ من ركب المطايا وَأندى العالمين بطونَ راح^(٥)

(١) أم حزره : إحدى زوجاته .
(٢) تعلل أبنامها : تشغلهم . ساغية : جائعة .
النفس من الماء : الجرعة . الشيم : البارد .
القراح : الصافي .
(٤) أمتاح : استقى من الميح وهو العطاء .
(٥) أندى : أجود .

(١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)
ذو المعارج : الله جل جلاله .
(٢) الموردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء .
ولقاح : جمع لقحة وهي الناقة في أول نتاجها .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير بصور فنتته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوها بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقوم قد سموت لهم فدانوا ^(١) بدّهم في مُلمّمة ردّاح ^(١)
 أبحت حمى تهامة بعد نجد ^(٢) وما شيء حميت بمستباح ^(٢)
 دعوت الملحدين أبا خبيب ^(٣) جماحاً ، هل شفيت من الجماح ^(٣)
 فقد وجدوا الخليفة هبرزياً ^(٤) ألف العيص ليس من النواحي ^(٤)
 فما شجرات عيصك في قرّيش ^(٥) بعشّات القروع ولا ضواحي ^(٥)
 رأى الناس البصيرة فاستقاموا ^(٦) وبينت المراض من الصّحاح ^(٦)

وأعجب عبد الملك بجزير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومحبلاً من فضة . وجزير في هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه في الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر في مدايح عبد الملك ومن خلفوه حقهم في الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين في الحكم ويتناضل عنهم وما يزال يسدّد سهامه إلى خصومهم ، وهو في تضاعيف ذلك يحفّهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقررّاً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشيع أهل باطل وضلال وأهواء ويدّع ، يقول في عبد الملك :

لولا الخليفة والقرآن نقرؤه ^(١) ما قام للناس أحكام ولا جمع ^(١)

(١) دانوا : أطاعوا . الدم : الجيش الكثير .
 مللمة : مجتمعة . رداح : ضنخة . يقصد
 من ثاروا عليه .

(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك
 على ما كان في يديه من نجد والحجاز .

(٣) أبو خبيب : ابن الزبير : الجماح :
 المناد والخلاف .

(٤) هبرزيا : نافذاً في الأمور ماضياً .

(٥) الشجرة عثة القروع : دقيقة الأغصان .
 والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .

(٦) بينت : تبينت .

أنت الأمين أمينُ الله لا سرفُ فيا وليتَ ولا هَيَابَةُ وَرَعٌ^(١)
 أنت المباركُ يَهْدِي اللهُ شِيعَتَهُ إذا تفرقتِ الأهواءُ والشَّيْعُ
 فكلُّ أمرٍ على يُؤمّنُ أمرتَ به فينا مُطاعٌ ومهما قلتَ مُسْتَمِعُ
 يا آلَ مروانٍ إن الله فضلكم فضلاً عظيماً على من دينه البدع

وواضح أنه يُزري على أصحاب الأهواء الذين يحادون بني أمية من الزبيريين
 والخوارج والشيعة ، ويسمهم أهل بدع وضلالة . ويتوفى عبد الملك ، فيلزم
 ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه في أول الأمر ، فقد مر بنا أنه أمر واليه على
 المدينة أن ينزل به ويأين لِحماً عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يصرف جريراً عنه ،
 فقد كان يلتمُّ به في دمشق ، وكان يراه يقرب عدى بن الرقاع ، فهجاه ، وحاول
 أن يستثيره ، ولكن عدياً آثر العافية . واستطاع جرير أن يتغذ إلى الوليد وأن
 يقع منه بعد ذلك موقفاً حسناً بما دبَّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إنَّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى بالنَّصر هُزَّ لَوَاوَهُ وَالْمَغْنَمِ
 ذو العرشِ قَدَّرَ أن تكونَ خليفةً مُلِّكَتَ فاعِلٌ على المنابرِ واسلَمِ

ونراه يلزم ابنه عبد العزيز ، ويقدم له مدائح كثيرة . حتى إذا عزم الوليد
 على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليها عبد العزيز رأيناه يحطب في حبله
 بمثل قوله :

إذا قيل أيُّ الناس خيرٌ خليفةً أشارتُ إلى عبد العزيز الأصابعُ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفى الوليد ويتولى سليمان ، فيغد
 عليه مادحاً ، محاولاً أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصور من تقواه ومن عدله
 وكيف أطلق من سجنهم الحجاجُ وكيف ردَّ مظالمه عن أهل العراق وأحسن

(١) الهيابة : الجبان وكذلك الورع بفتح الراء .

إلى الناس ، وهو في تضاعيف ذلك يتوّه بأن الله اختاره للأمة ناعماً له بأنه المهدي المنتظر ، يقول (١) :

سليمانُ للبارك قد علمتم هو المهديُّ قد وضع السبيلُ
أجرتَ من المظالم كلَّ نفسٍ وأدّيتَ الذي عهدَ الرسولُ
صَفَتَ لك بيعةُ بثباتِ عهدِ قوزنُ العدلِ أصبح لا يميلُ
وتدعوك الأراملُ واليتامى ومن أمسى وليس به حَوِيلُ^(٢)
ويدعوك المكلفُ بعد جَهْدٍ وعانٍ قد أضرَّ به الكبُولُ^(٣)

ونراه يمدح ابنه أبوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله في دينه ويزهد في الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه ، ومعرفته به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصور فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله :

أنت المبارك والمهديُّ سيرتهُ تَعْصِي الهوى وتقوم الليل بالسورِ
نال الخلافةَ إذ كانت له قَدَرًا كما أتى ربّه موسى على قَدَرِ

ويشير إلى سياسة عمر في طرح العشور عن الرعية وكل ما كان يُجني منها غير الخراج^(٤) ، فيقول في مدحة أخرى :

إن الذي بعث النبيَّ محمداً جعل الخلافة في الإمام العادلِ
ولقد نفعت بما منعتَ تحرجاً مكسَّ العشور على جسور الساحل^(٥)

طاقته . والعاقب هنا : السجين . والكبول : القيود . وهو يشير هنا في وضوح إلى عسف الحجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناوله بالهجاء على نحو ما صنع الفرزدق في ميميته .
(٤) انظر الطبري ٣٢١/٥ .
(٥) موضع المكس حيث طريق المارة في قنطرة أو جسر .

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما ولي الخلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس بإحسانه . انظر الطبري ٣٠٤/٥ وراجع ميمية الفرزدق التي نظمها في قتل قتيبة بن مسلم ، وقد تحدثنا عنها في الكلام على النقائض .
(٢) حويل : حيلة وقوة .
(٣) المكلف بعد جهد : الذي كلف فوق

وسرعان ما توفّي عمر ، فندبه ندباً حارّاً ، يصور فجيرة الأمة فيه حتى
ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنَعَى النُّعَاةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَا
حُمِّلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقَمَّتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ كَاسْفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا^(١)

ويتولّى يزيد بن عبد الملك ، ويثور عليه في العراق يزيد بن المهلب ،
ويَقْضِي على ثورته مسلمة ، ويصيح به جرير مراراً في قصائد مدح بها يزيد
ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التي صور بها سابقه من الخلفاء ، من
مثل قوله :

زَانَ الْمُنَابِرَ وَاخْتَالَتْ بِمَنْتَجَبٍ مَثَّبَتْ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورِ

ويصفه بالعدل وأنه ورث الملك عن آبائه بعهد منهم . ودائماً ينوّه في مدح
لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة في الأمة ولا في قريش ، بل هي وراثية
في بني أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد
الملك ، وفيه يقول في آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :

إِلَى الْمَهْدِيِّ نَفَّرَ عَ إِذَا فَرَعْنَا وَنَسْتَسْتَقِي بِغُرَّتِهِ الْغَمَامَا
وَحَبْلُ اللَّهِ يَعْصِمُكُمْ قُوَاهُ فَلَا نَخْشَى لِعُرْوَتِهِ انْفِصَامَا^(٢)

ومدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك
وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ،
ودائماً ينوّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ
عرف عبد الملك داعية للأمويين لم تكن مبالغين . وليس له في سواهم إلا مدائح
قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالد القسري
مستشعاً للفرزدق كي يُطْلَقَهُ ، ومدح بعض أشراف قيس وتميم مثل المهاجر بن

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمرأبد

(٢) قوى الحبل : طاقاته .

عبد الله الكلابي والحُنيدي بن عبد الرحمن المرّي وهلال بن أحوز المازني الذي نكّل
بآل المهلب في ثورتهم . ويظل أضخم صوت في ديوانه تغنيّ به مادحاً صوته
في الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون
الشعر حتى برز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفي
رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسي رهان ، بل لقد كان يتقدمه في
كثير من الأحيان بعذوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار
الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطل والفرزدق جميعاً في الموضوعات التي تتطلب
دقة في الإحساس ورقة في الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ،
وكان الفرزدق — كما أسلفنا — صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق في
الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته
كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته
ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن عميق صقّ
جوهرها ، وزاد في هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان دينا عفيفاً طاهر النفس .
واقراً رثاءه لزوجته أم حنزة ، إذ يقول :

لولا الحياء لعادني استعبارٌ ولنرتُ قبرك والحبيبُ يُزارُ
ولمتهِ قلبي إذ علتني كبرةٌ وذوو التاتم من بنيك صغارُ
ولقد أراك كُسيّت أجملَ منظرٍ ومع الجمال سكينَةٌ ووقارُ
صَلَّى الملائكة الذين تُخَيَّرُوا والصالحون عليك والأبرارُ

فإنك تحس تفجعه المرير ، لقيام سور الموت الصفيق بينها وبينه هو وأولادها ،
وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محيياً فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل
دلائل كثيرة على أن علاقاته بزوجاته : أم حنزة هذه وأمامة التي أهداها إليه
الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنيه بلال ونوح ، كانت علاقات ودّ ومحبة .
ولم تنشز عليه سوى جارية اشتراها بأخرة ، وقد عابت عليه عيشه وكبيرة سنه ،
ففارقها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكن يبادلنه ودّاً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذي كان يقدم به بين يدي قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطوائها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتأطف ويستعطف ويشكو ويتضرع على شاكلة قوله :

بنفسي من تجنبه عزيزٌ عليّ ومنّ زيارته لمام^(١)
ومن أمسى وأصبح لا أراه ويَطْرُقني إذا هجع النيام

وقوله :

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيمني لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
إن العيون التي في طرفها مرضٌ قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يَصْرَعَنَ ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهن أضعفُ خلق الله أركاناً
أتبعتهن مُقلّةً إنسانها غريقٌ هل ما ترى تاركٌ للعَيْن إنساناً^(٢)
وكان إذا هجا نساء من يهجونه أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النوار زوجة الفرزدق إغاظه له وكيداً نثر فوقهن زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذي يشغف القلوب ، ومن بارع قوله في نساء عشيرة النوار :

وهنّ كماء المزن يُشفي به الصدى وكانت ملاحاً غيرهن المشارب^(٣)
ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على نحو ما صور ذلك في هذه المقطوعة التي يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تشنه أمه يشني الصداغ ريحُه وشمه^(٤)
ويذهب الهموم عني ضمه ينفح ريح المسك مستحمة^(٥)
يُضي الأمور وهو سام همه بحرُ البحور واسع مجمه^(٥)
يفرج الأمر ولا يغمه فنفسه نفسي وسمي سمه^(٦)

(٤) يشير إلى أن أمه أعجبه ، ولم تشنه عجبها .

(٥) المجم : الصدر .

(٦) يغمه : يهبه ويستره .

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو قائم في الحين بعد الحين .

(٢) إنسان العين - سواد حلقها .

(٣) المزن : السحاب . الصدى : العطر .

وواضح أن جريراً كان لا يبارى في جميع الموضوعات التي تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما في الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يترش سهامه ويسدّ دها إلى محور خصومه ، محملاً لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لجرير مادة يبني منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى يربوع أو إلى تميم عامة ، حينئذ تنبذ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبتُ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلَّهمُ غضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق في هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نسبياً ثراً من يتابع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لجرير ، والأخطل - مع أنه استطاع أن يثبت له - يأتي دون الشاعرين جميعاً ، إلا ما يسوقه في النذرة من قطع مديح متوهجة . وساقَ نفسَ هذا الحكم عليهم قديماً بشارٌ ، فقال حين سأله سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريراً على الفرزدق فقال : « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار (زوجته) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ؛ إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأى شيء لجرير من المراثي إلا التي رثى بها امرأته : أم حنزة ، فأورد عليه بشار مرثيته في ابنة سودة التي يقول فيها :

فارقنتي حين كَفَّ الدَّهْرُ من بَصْرِي وحين صِرْتُ كعظم الرِّمَّة البالي

فاقتنع سائله (١) .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعنى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وقد أتاه ذلك - كما أسلفنا - من

(١) ابن سلام ص ٣٩١ .

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرده الطاغى . وما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة
فى نقد الشعر وتميز جيله من رديئه، حتى قالوا إنه كان يَسْطُو على بعض أبيات
معاصريه ، حين يهره حسنها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره
بجزالة لفظه وشدة أسره . أما جرير فإنه لا يبارى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ،
فإذا قرأته أحسست الذوق المهذب الصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن
الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجزرت
أشعاره صافية ، كأنها الجدول الرقاق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرسها وتلذ
النفوس والأفتلة .

الفصل الرابع شعراء السياسة

١

شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضة حادة لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين لبياعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته ، فخلا الجوّ لابن الزبير الذي عاذ بمكة ، وقد اتخذ من قتل الحسين أداة للتشجيع على يزيد وعمّاله ، وثارَت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحرّة المشهورة . فاتسعت الجروح في الحجاز ، وبدا للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيف كئيب وغيرها من قبائل الشام اليمنية ، وكأنه لم يتعدّ لقريش وللحجاز عامة شيء في الحكم . وحقاً أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق ، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قریش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكمونها في رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يتدّون الخلافة كما وليها يزيد ، لا بسلطان شرعي ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتي أولاً بين أبناء كبار الصحابة فيبينهم من يتفضلونه بسابقة آباءهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . واتجه الجيش الذي نكسب المدينة في وقعة الحرّة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهبّ كثير من العرب حتى من الخوارج للدّود عن البلد الحرام . وضرب من حوله حصار ،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرُفع الحصار ، وعاد الجيش أدراجه .
وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذي اختير للجماعة ، فأبوه من
كبار الصحابة المقدمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله
عليه وسلم . وكان قوياً الشخصية تقياً وشارك في فتوح إفريقية ، وسرعان ما
انضمت تحت لوائه قيس في الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته
خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السلمى القيسى . وولى بعد يزيد ابنه معاوية
بعهد منه ، ولكنه توفى سريعاً ، وبدا كأن حكم بني أمية قد انتهى ، حتى ليقول
ابن عرادة بخراسان (١) :

أبني أمية إن آخر مُلككم جَسَدٌ بِحُورَيْنِ ثُمَّ مَقِيمٌ (٢)
طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وَسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌّ رَاعِفٌ مَرثُومٌ (٣)
وَمُرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ بِالصَّنَجِ تَقَعْدُ تَارَةً وَتَقُومُ (٤)

وظل ابن الزبير يقود الولايات التي تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن
الحكم أن ظهر بالشام تسنده كلب والقبائل اليمنية ، وأوقع بقبس الشام وقعة
مرج راهط المشهورة ، فخلصت له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ،
وولت عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفينيين إلى
بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفى وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان
سياسياً أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال في جمع الناس من حوله ، وكان في
ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويضرب
الرواة لذلك مثلاً هو أن فضالة بن شريك الأسدي ، وقيل بل ابنه ، وقد عليه (٥)

(١) طبرى ٤/٤٢١ .

(٢) حوارين : قرية من قرى حمص توفى بها
يزيد .(٣) راعف : سائل . مرثوم : انكسر حتى
تقطرت منه الحمر .

(٤) مرنة : مغنية .

(٥) انظر في هذه الوفاة ترجمة فضالة بن
شريك في الأغاني (طبع دار الكتب) ٧١/١٢
وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٧/٤٢٤ والإصابة
٢٢٤/٣ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

فقال له : إن ناقتي قد نَقِبَتْ^(١) وَدَبَّرَتْ^(٢) ، فقال : ارقعها يجلد^(٣) ،
واخصفها بهُلْب^(٤) ، وسير البرددين^(٥) بها تصح ، فقال فضالة : إني أتيتك
مُسْتَحْمِلاً ولم آتكَ مستوصفاً ، فلعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال له ابن
الزبير : إن^(٦) وراكها . وانصرف فضالة من عنده ، وهو يقول :

شكوتُ إليه أن نَقِبَتْ قَلوصي فسرُّ جوابَ مشلودِ الصَّفادِ^(٧)
يَفِينُ بناقةٍ ويروم مُلْكاً محالاً ، ذلكم غيرُ السُّدادِ

ومضى يُشيدُ ببني أمية وكرمهم الفياض ، ويقول إنه صائر إليهم . ولعل
في هذا الحادث ما يفسر السبب في قلة الشعراء الذين صدروا عن رأي ابن
الزبير في الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم ، وكأما لم تكن تعنيه هذه النبال .
وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون في صف ابن الزبير ، وإنما
معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية ، أو قل رغب به شحُّه عنه ،
ومع ذلك فقد وقف في صفِّه كثير من الشعراء ، لا في الحجاز حيث كان يدعو
لنفسه بل بين قيس في الشام والجزيرة ولدن أخيه مصعب واليه على العراق .
ومرَّ بنا في غير هذا الموضع أن العصبية والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل
القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية ، وأن الشعراء في الطرفين
جميعاً سلَّوا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين ، أو بعبارة أخرى مفاخرين
ومهاجين هجاء مريراً . ولم يكن الطرفان يتناقضان في العصبية القبلية فحسب ،
بل كانا أيضاً يتناقضان في السياسة ، إذ كان هوَى قيس مع ابن الزبير وهوى
القبائل اليمنية وتغلب مع بني أمية ، ومن ثم اختلطت في أشعارهم العصبية بالسياسة ،
ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خَفَّ القَطِين» التي ضمنها الأخطل هجاء قيس
ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

(١) نَقِبَتْ : من نَقَبَ البعير إذا حنق وركت
أخفاه .
(٢) دبَّرت : أصابها جرح في ظهرها .
(٣) ارقعها يجلد : يريد أن يجعل لها خفا
من جلد .
(٤) الهلب : الشعر . الحصف : الحرز . يريد
أن يحرز الحف به ليقه .
(٥) البردين : الغداة والعشى .
(٦) إن هنا بمعنى نعم .
(٧) القلوص : الناقة . الصفاد : ما يشد به
الأسير من قيد ونحوه .

مساعدات حربية ولسانية . وحين نتصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدتها تقطر عصبية^(١) عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو في تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدَل الذي يناصر بني أمية ، يقول^(٢) :

أفي الله أما بَحْدَلُ وابنُ بَحْدَلِ فَيَحْيَى وأما ابنُ الزبير فيُقْتَلُ
كذبتُم وبيتِ الله لا تقتلونهُ ولا يكن يومُ أغرُ محجَلُ^(٣)

ولا يكن للمشرفية فوقكم شعاعُ كقرنِ الشمس حين ترجلُ^(٤)
وعلى هذا النحو كانت تختلط في أشعار الطرفين الذحول والثرارات بالسياسة .

وظلوا يجترئون ذلك طويلاً ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحامياً يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذي انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا في النقائض .

وكان مصعب بن الزبير من فتیان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولي العراق لأخيه انهلت غيوته على الشعراء ، فدحه منهم كثير ون مثل أعشى همدان ودكيسن الفُقَيْمِي ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمننا ، إنما يهمننا الشعر السياسي الذي كان يدافع عن نظرية ابن الزبير في الخلافة ، هاجياً ابني أمية مؤلباً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظريتهم السياسية غير مدافعٍ ، ومن ثمَّ ينبغي أن نقف عنده قليلاً .

ابن^(٥) قيس الرقيات

اختلف الرواة في اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن في أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا في اسمه اختلفوا في

١/٥٢٣ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب

٢/٢٦٥ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغنى ص

٢١١ وحديث الأرباء لطفه حسين (طبعة الحلبي)

١/٣١٦ وكتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة

ولعصر بني أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥

وله ديوان نشره رودكناكس في فينا سنة ١٩٠٢

وحققه تحقيقاً علمياً وأعاد نشره في بيروت محمد

يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينون

قيس وإما مضافة . راجع في ذلك الخزانة .

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف

للبلاذري في مواضع متفرقة والأغاني (ساسي)

١١٢/١٧ ، ١٢٤/٢٠ .

(٢) طبري ٤/٤١٩ .

(٣) يريد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبق

ولا يذر

(٤) المشرفية : السيوف . ترجل : ترتفع .

(٥) انظر في ترجمة ابن قيس الأغاني (طبع

دار الكتب) ٥/٧٣ وما بعدها والشعر والشعراء

سبب نعته بالرقيات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤي ، وُلد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شريح بن مالك بن ربيعة (النويم) بن أهيب بن ضباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعِيص بن عامر بن لؤي . وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء في الحج ، ولم تكذ تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين حتى سُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلاً ، ولعل الذي دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغاني أخباراً له مع سائب خاثر وبُدَيْح وِفِينْد ، وهم من مغنى المدينة المشهورين ، ونراه يذكر في بعض شعره داراً له بها ^(١) ، ويبدو أنه لم يتزلها وحده ، بل نزلها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفي اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية في المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذي كان يُعقب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص في حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت في مروان شدة وغلظة فكان إذا ولى يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد ، ومن ثمّ تعرّض له ابن قيس يصف شدته وقسوته ^(٢) ، وهو في أثناء ذلك ينظم مقطوعاته في الغزل ، ويترنم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة في أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة في تلك الفترة التي ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءت الأنباء بموقعة الحرّة وأن طائفة من أهل بيته قُتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله ، فهزته تلك الأنباء هزاً عنيفاً ، فإذا هو يبكي من ماتوا من أهله بكاء حاراً ، يقطر بالثورة على يزيد وبني أمية ، يقول :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعني وقرعن مروتيسه ^(٣)

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ .
 (٢) الديوان ص ١٧٧ والأغانى ٧٣/٥ وما بعدها .
 (٣) المروة : حجر أبيض تقذح منه النار . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

يُنْعَى بنو عَبْدِ وَإِخْوَتِهِمْ حُلُّ الْهَلَاكِ عَلَى أَقَارِبِيهِ (١)
 وَنُعَى أَسَامَةُ لِي وَإِخْوَتُهُ فَظَلَلْتُ مُسْتَكًّا مَسَامِعِيهِ (٢)
 تَبْكِي لَهُمْ أَسَاءُ مُعْوَلَةٌ وَقَوْلٌ لَيْلِي : وَارْزِيَّتِيهِ
 وَاللَّهُ أَبْرَحُ فِي مَقْدَمَةِ أَهْدَى الْجِيُوشِ ، عَلَى شِكْتِيهِ (٣)
 حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ وَأَسْوَقَ نِسْوَتِهِمْ بِنِسْوَتِيهِ

ولم يلبث يزيد أن توفي ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس وتغلب على نحو ما مررنا في غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن الحُبَاب بطل قيس في بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان طبيعياً أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حتماً على بني أمية منذ موقعة الحرّة ، يريد أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثار لابني أخيه ، ويسبي نساءهم . وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغي أن تكون في قريش روحاً وواقعاً عملياً ، بحيث تكون حاضرتها في الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كَلْبٍ وَأَخْوَاتِهَا مِنْ قِبَائِلِ الشَّامِ الْبِنِيَّةِ الَّتِي أَوْقَعَتْ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَقَعَةَ الْحَرَّةِ الْمَشْتُومَةِ . وهو يصدر في ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التي أصابت فؤاده من أهل الشام من جهة أخرى ، ومن ثمّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ، وهو اعتناق يشوبه الحقد على بني أمية والرغبة الشديدة في أن ينقض حكمهم في الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الهمزية التي يفتتحها بقوله :

أَقْفَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كَدَاءُ فَكُدَى فَاالرُّكْنُ فَالْبَطْحَاءُ (٤)
 وَمَضَى يَطِيلُ فِي ذِكْرِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي هَجَرَهَا الْأُمُويُونَ إِلَى دِمَشْقَ وَرَبُوعِ

(١) بنوعيد: عشيرته نسبها إلى جده السابع .
 (٢) استككت المسامع : صمت وضامت ، هو مثل يضرب للتبأ الشديد يعرك سامعه .
 (٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكّة :
 السلاح التام .
 (٤) كداء وكدى : جبلان بمكة . والركن .
 ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل
 أشراف مكة حول البيت في الجاهلية .

الشام منوهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسي لهذا المصير الذي انتهت إليه قريش . فقد تفرقت بُلْدَانًا وَشِيْعًا ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرح بذلك فيقول :

حَبَّذَا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفْرُقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعِ الْقَبَائِلُ فِي مَدُنِكَ قَرِيشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
وَيَمْضَى فَيُرَدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ كَانُوا يَرُونَ أَنْ تُنْزَعَ الْخِلَافَةُ مِنْ
قَرِيشٍ وَتُرَدَّ إِلَى الْعَرَبِ ، بَلْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، يقول :

أَيُّهَا الْمَشْتَهَى فَنَاءَ قَرِيشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمُرُهَا وَالْفَنَاءُ^(١)
إِنْ تَوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قَرِيشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لَحَى بَقَاءُ
قَرِيشٍ هِيَ عَمُودُ الْخِلَافَةِ ، وَلَوْ أَنَّهَا زَالَتْ عَنْهَا لَسَقَطَ رُكْنُهَا سَقُوطًا لَا
يَرْتَفِعُ بَعْدَهُ . وَلَا يَلْبِثُ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِخَطَابِهِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ هَاجِيًا :

قَدْ عَمِرْنَا فَمَتَّ بَدَائِكَ غَيْظًا لَا تَمِيتُنَّ غَيْرَكَ الْأَدْوَاءُ^(٢)

ويأخذ في الفخر بقريش وفضلها على الإسلام والخلافة ، فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخطباءه الراشدين وحمزة عم الرسول وجعفر الطيار والزيير بن العوام حوارى النبي وأبا عبد الله ومصعباً . ويشير إلى انتصار مصعب على المختار الثقفي ، ويعرض لما كان يزعم من أنه يوحى إليه ، ويمدح مصعباً ، فيقول :

إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ بِهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مَلِكٌ قُوَّةٌ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ

ويعود إلى الافتخار بقريش ورجالها في الجاهلية والإسلام ، ويفتخر ببيتها الحرام الذي يحج إليه الناس من كل فج عميق ، ويأسي لحرق جيوش الشام هذا البيت حين حصارها لابن الزبير بعد موقعة الحرّة ، ويُشيد ببناء ابن الزبير له بعد هذا الحصار ، ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك

(١) عمراها : يريد بقاءها .
خلافة ابن الزبير وأنها استقرت له أعواماً .

(٢) عمرنا : عشانزناً طويلاً ، يشير إلى

و بنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام ، وقتلوا الحسين في كربلاء يقول :

كَيْفَ نَوَّمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا تَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةً شَعْوَاءُ
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنِ بَنِيهِ وَتُبْسِدِي عَنْ بُرَاهِمِ الْعَقِيلَةِ الْعَذْرَاءُ^(١)
أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمِيَّةٍ مُزَوَّرٌ وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْأَعْدَاءِ
إِنَّ قَتْلِي بِالطَّفِّ قَدْ أَوْجَعْتَنِي كَانَ مِنْكُمْ لَكُنْ قُتِلْتُمْ شَفَاءُ^(٢)

وهذه هي الأنعام السياسية التي كان يوقّعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشي بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرَجٍ راهط التي هُزم فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالغارات المبيرة . ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لَحَّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، فحاكاه في هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفي الوقت نفسه كان يشبب بزوجتي مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيهاً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء . يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيرى السياسى ومن قوله في عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهي غاضبة عليه ليرضأها^(٣) :

جَنِيَّةٌ بَرَزَتْ لَتَقْتَلَنِي مَطْلِيَّةُ الْأَصْدَاغِ بِالْمِسْكِ
عَجَبًا لِمَثَلِكِ لَا يَكُونُ لَهُ خَرَجُ الْعِرَاقِ وَمِنْبَرُ الْمُلْكِ^(٤)
تَرْمِي لَتَقْتَلُنَا بِأَسْهَمِهَا وَنَزْنُهَا بِالْحَلْمِ وَالنُّسْلِكِ^(٥)

القطعة بأبيات في أم البنين لاشك و أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .

(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة وكأنه يتمناها لمصعب .

(٥) نزنها : نسبها إلى .

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيبن من فزع شديد .

(٢) الطف : من ضواحي الكوفة حيث كربلاء التي قتل فيها الحسين .

(٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

١٧٦/١١ وقارن بالديوان ص ١٤١ وقد وصل

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرن هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذي كان يسوقه في مقدمة مدائح لمصعب ، فإنك ستراه يعرضهما في صورة تؤذيها كقوله في عاتكة :

بَدَتْ لِي فِي أَثْرَابِهَا فَقَتَلْتَنِي كَذَلِكَ يَقْتَلُنِ الرِّجَالَ كَذَلِكَ
وَقَالَتْ لَوْ أَنَا نَسْتَطِيعُ لَزَارَكُم طَبِيبَانِ مِنَّا عَالِمَانِ بِدَائِكَا^(١)

ويتخيل أم البنين جاءت في الحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكأنها امرأة مبتدلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهي تمنع معه في اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أَتْنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ تَ هَذَا حِينَ أُعْقِبُهَا^(٢)
فَلَمَّا أَنْ فَرِحْتُ بِهَا وَمَالَ عَلِيٌّ أَعَذَّبُهَا^(٣)
شَرِبْتُ بِرِيقِهَا حَتَّى نَهَيْتُ وَبِتُ أَشْرِبُهَا^(٤)
وَبِتُ ضَجِيعِهَا جَذَلًا نَ تَعَجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا^(٥)
وَأَبْقَظْنَا مَنَادٍ فِي صَلَاةِ الصَّبْحِ يَرْقُبُهَا^(٦)

وظل على هذا النحو يصول ويجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذي يمثل الحكم القرشي الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه في ديار الجاثليق ، وقد انفض عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه منهم سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويقتل مصعب ويفر ابن قيس إلى الكوفة متفجعاً على صاحبه آسياً لا نفضاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظناً

(١) طيبان : يريد رسولين ، ويريد بالداء الحب الذي سرى في نفس عاتكة له .
(٢) أعقبها : صارت عقبها لى أى صارت إلى .
(٣) أعذبها : فيها .
(٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقىها .
(٥) جذلان : فرح .
(٦) يرقبها : أى يرقب الصلاة .

أنها زوجة^(١) على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثم رأيناه يخرج من مخبئه ، ميمماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر في المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كى يشفع له عند أخيه ، وليأه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يرد لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفي رواية أن ابن جعفر هو الذى شَفَع له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مثل بين يديه ينشده بائته التى يقول فيها :

ما نَقَمُوا من بنى أمية إ
لأ أنهم يَحْلُمُونَ إن غضبوا
وأنهم مَعْدِنُ الملوك فلا
تصلحُ إلا عليهمُ العَرَبُ
إن الفَنَيْقَ الذى أبوه أبوال
عاصى عليه الوقارُ والحجُبُ^(٢)
خليفةُ الله فوق منبره
جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكتب
يَعْتَدِلُ التاج فوق مفرقه
على جَبِينِ كَأَنه الدَّهَبُ

ويظهر أن عبد الملك لم يَطِيبُ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشراً ، وَيُعْطِيهِ الجزيل . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش في ظل ابن جعفر يُغْدِقُ عليه من بَرِّه ونواله ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلاً ، حتى إذا فكر عبد الملك في صَرْفِ ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأيناه يثور معه على أخيه ، إذ يقول في بعض مدائمه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيه :

لَتَهْنِهْ مصرُ والعراق وما
بالشام من بَزَهْ ومن ذهبه^(٣)
يَخْلُفُكَ البِيضُ من بنيك كما
يَخْلُفُ عودُ النَّضَارِ في شُعبه^(٤)
نحن على بَيْعَةِ الرسول وما
أَعْطَى من عُجْمِهْ ومن عَرَبِهْ

(٣) البز : الثياب والمتاع .
(٤) النضار : يريد الشجر النضر ، ويخلف
الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

(١) انظروفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة
أوربا) ص ٤١٢ .
(٢) الفنيق : أصله الفحل من الإبل الكريم
على أصحابه .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوعده ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقر له
قرار وضائق الدنيا في عينيه فنظم قصيدة بديعة يذم فيها من يغتابونه عند
عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشَّرَ الظُّبْيُ والغُرَابُ بسُعْدَى مرحباً بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها يصور ما يلزمه من نحس رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد
على عبد الملك من حين إلى حين في ديوانه مدائح له مختلفة ، والطريف أنه
يستهل بعضها بغزله بأُم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن
يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف
جمالها ووقارها متلطفاً . وليس في ديوانه مدائح في الوليد مما يدل على أنه إن
كان لحق عصره فإنه لم يعش فيه طويلاً . وفي ديوانه قصائد مختلفة مدح بها
عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به وبجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أتيناك نُثْنِي بالذى أنت أهله عليك كما يُثْنِي على الروض جارُها
إذا مُتَّ لم يُوصَلْ صديقٌ ولم تَقُمْ طريقٌ من المعروف أنت منارُها

ومن مدحهم ونوه بهم طويلاً طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو
يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيه يقول حين توفى بيته المشهور من مرثية
فيه بديعة :

نَضَّرَ اللهُ أعْظَمًا دَفَنُوهَا بِسِجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلِحَاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله
ابن خالد حين هُزم في حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجائين في
عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو في الطليعة من شعراء الغزل المكيين ،
ولو أنه لم يشغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وخُلص للغزل على شاكلة
عمر بن أبى ربيعة لما قصر عنه في هذا الفن ، وقد رأينا في مطلع حياته يلزم

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع في موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالتقاء والصفاء والعدوية حتى في مدائمه ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطَبِّع شعره بطوايع الغناء التي عاصرتة ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقِيَّ بِعَيْشِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنْيْنَا الْمُنَى ثَمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شَتَّ إِنَّا نُحِبُّ - وَإِنْ مَطَلْتِ - الْوَاعِدِينَا
فَلِمَا تُنْجِزِي عَلَيَّ وَإِمَا نَعِيشُ بِمَا نُوْمَلُ مِنْكَ حِينَا

وقوله :

رُقِيَّةٌ تَيْمَتُ قَلْبِي فَوَاكِبِدِي مِنَ الْحَبِّ
وَقَالُوا آدَاؤُهُ طَبُّ أَلَا بَلَّ حَبُّهَا طِبِّي

وقوله :

حَبُّ ذَاكَ الدَّلُّ وَالْغُنْجُ وَالَّتِي فِي عَيْنِهَا دَعَجٌ^(١)
وَالَّتِي إِنْ حَدَثَتْ كَذِبَتْ وَالَّتِي فِي وَعْدِهَا خَلَجٌ^(٢)
خَبَّرُونِي هَلْ عَلَى رَجُلٍ عَاشِقٌ فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ

ودائماً يجري غزله على هذه الصورة من عدوية الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّيَ باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلاً يملؤه بالصباية واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

(١) الدل : الدلال . الغنج : حسن الدل
والمزح . الدعج : شدة سواد العين .
(٢) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات على حال .

شعراء الخوارج

رأينا في غير هذا الموضوع كيف أن الخوارج بفرقتهم المختلفة من أزارقة وُصُفَرِيَّة وِزْجِدَات وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبَّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد في سبيل عقيدتها في ولاية الأمة وأنه ينبغي أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشياً . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الديني الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج في هذا العصر للحرب ، مستحلين دماء إخوانهم المسلمين ، وهي معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوار تراقفهم السيوف في غدوهم ورواحهم وفي استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا ، ومن ثمَّ كان شعرهم في جملة حماسياً ، وهي حماسة لا تحركها العصبية القديمة ، عصبية القبيلة التي كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التي تعمقتهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الخفيف وأن عليهم أن يجاهدوا في سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلِّونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا في معسكراتهم ، وبذلك مزَّقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالين في نضالهم ، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطنين أنفسهم على طلب الشهادة في ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طُعن فأنقذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قائله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربَّ لترضى)^(١) وكأنما وهبوا أنفسهم للموت . ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهوتون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدَّمه الحجاج إلى القتل ، فأشده^(٢) :

ما رغبة النفس في الحياة وإن عاشت قليلا فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعود كما كان براها بالأمس خالقها^(٣)
يوشك من قرَّ من منيته في بعض غرَّاته يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هرما والموت كأس والمرء ذائقها^(٤)

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجي ، الموت قعصا بالرماح ، حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حبَّاء وكان من الأزارقة :

أبيتُ وسربالي دلاص حصينة ومغفرها والسيف فوق الحيازم^(٥)
أريد ثواب الله يوما بطعنة غموس كشدق العنبري بن سالم^(٦)
فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطري بن الفجاءة^(٧) :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معاراتها تدعو إلى حماميا^(٨)
أغارعُ عن دار الخلود ولا أرى بقاء على حال لمن ليس باقيا
ولو قرب الموت القراع لقد أنى لموتى أن يدنو لطول قراعيا^(٩)

(٧) انظر في ترجمة قطري وأشعاره وفيات الأعيان لابن خلكان والملل والنحل ص ٩٠ وأمالى المرتضى ١/٦٣٧ وفهارس الكامل للمبرد والطبري والبيان والتبيين .

(٨) تعاريني : تطلبني عارية . الحمام : الموت .

(٩) القراع : مضاربة السيوف في الحرب . أنى : آن .

(١) المبرد ص ٥٦٤ .

(٢) المبرد ص ٤٣ .

(٣) براها : خلقها .

(٤) عبطة : شابا .

(٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة . المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع به المتسلح .

(٦) غموس : واسعة . العنبري بن سالم : رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعةفه .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة ويترج عنها إلى الحياة الباقية التي لا تزول ، وهو لذلك يستبطن الموت ، وكأنما ملّ دنياه . وتصور لنا هذا الملل إحدى نساءهم المقاتلات ، وهي أم حكيم ، إذ تقول (١) :

أحمل رأساً قد سمنتُ حمَلَهُ وقد ملّيتُ دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله

وكانما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى ويمن سبقهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس في خروجه (٢) :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحبُّ بقاءً أو أرجى سلامةً وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فياربٍ سلّم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى ألقى أولثكا

فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبي والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طلبته ، فيقتل في سبيل عقيدته ، وكان الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التي نجدها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق في رأيهم السعادة المنشودة ، وهي سعادة يطلها كل خارجي لنفسه ، لذلك مضوا بمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الراسبي حين قتل ابنها في يوم دولا ب (٣) :

الله أيدٍ عمراناً وطهره وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه سراً وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيدي ملحادةٍ غدر (٤)

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء ، إذ يصورون استشهاد قتلاهم زلّني إلى الله راسمين فيهم مثلاً أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٠/٦ وتريد .
أم حكيم يدهن شعرها ما تدهنه به من الطيب .
(٢) المبرد ص ٥٨٦ .
(٣) أغاني ١٤٥/٦ .
(٤) ملحادة : من الإلحاد والتناء للمبالغة .
غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين في رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة ومن قُتل من أصحابهما (١) :

ياربُّ أسلكني سبيلهمُ ذا العرشِ واشدُّدُ بالتقى أزرى
في فتيةٍ صبروا نفوسهمُ للمشرفيةِ والقننا السمرِ (٢)
متأهبين لكلِّ صالحَةٍ ناهين من لاقوا عن النكرِ

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً لا ينامون فيه إلا اختلاصاً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كم من أخٍ لك قد فُجِعَتْ بهِ قوَامٍ ليلته إلى الفجرِ
متأوه يتلو قوارعَ من آي القرآن مفرع الصدرِ

ويعمى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أشرعت الرياح وسلت السيوف ورعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب في أن هذه صورة جديدة في الرثاء ، تخالف ما نألفه عند غيرهم من الشعراء ، فهم لا يبكون فيمن يرثونهم خلال الكرم والمروعة ، وإنما يبكون فيهم المثل الأعلى للخارجي من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزهرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذي يتمنونه لأنفسهم ، الموت الذي يفتح لهم أبواب الفرديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم في حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسي ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتال والمضي قدماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ، وتتخضب بالدماء صدورها وصدورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماستهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى القعدة منهم ، فقد كانت فرقهم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب . ولكن نحسُّ دائماً كأن هذا القعود هدنة مسلحة إلى حين ، وبذلك نفسركثرة ثورات الصفرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يقعدون

(١) أغاني (سأى) ١١١/٢٠ وما بعدها . (٢) المشرفية : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نقرأ منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يُرَدُّ في أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يتقلب لهم الدهر المِجَنَّ من بعدهم ، وكان لا يزال ثُوَّارهم يحمسونهم ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين في رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد (١) من أن أبا خالد القناني استحبَّ القعود ، فلامه قَطْرِيَّ بن الفُجاءة بمثل قوله :

أبا خالد يا انفِرْ فلستَ بخالدٍ وما جعل الرَّحْمَنُ عُدْرًا لقاعدٍ (٢)
أتزعم أن الخارجيُّ على الهدى وأنت مقيمٌ بين لِصٍّ وجاحِدٍ
فكتب إليه أبو خالد .

لقد زاد الحياة إلى حُبِّنا بناقي إنهن من الضعافِ
أحاذر أن يرينَ الفقر بعدى وأن يشربنَ رنقاً بعد صافي (٣)
ولا يتحول مثل هذا الاختلاف في الرأي بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقاً بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الذمَّاء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً في الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا في مقالاتهم دون رفق ودون تفكير عميق في المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتنازعا فرقاً وتتقطع شبيحاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة في أشعارهم ، هي أنهم يُبدئون ويعيدون في معانيهم التي صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسنا في أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب في أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هي صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجي أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

(١) المبرد ص ٥٢٩ .
(٢) يا انفِرْ يا للتنبية أو في تقدير حذف .
(٣) الرنق : الكدر .
منادى مثل يا أخى .

في الأغاني فسترى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة في ناظمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطري بن الفجاءة ، ونسبها المدائني إلى صالح بن عبد الله العَبَشِيِّ . وقال خالد بن خِدَاش : بل قائلها عمر والقننا ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سَهْم^(١) . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح .

عمران^(٢) بن حِطَّان

بَصْرِيٌّ سَدُّ وِسِيٍّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدرًا من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل في مقالة الخوارج . وولقاه في عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه^(٣) . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُروى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت في الجنة ، قال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : لأنك أعطيت مثلي فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر في الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب ، وفي طعنته له يقول^(٤) :

يا ضربةً من تقىُّ ما أراد بها إلا ليلغ من ذى العرش رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا
ونراه يتأثر تأثراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر في الخروج وامتشاق الحسام ، يقول :

(١) أغاني ١٤٧/٦ وما بعدها .

(٢) انظر في ترجمة عمران الأغاني (سأسي)

١٤٦/١٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما

بعدها والإصابة ١٨١/٥ وخزانة الأدب ٤٣٦/٢

وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالي

المرتضى ص ٦٣٥ .

(٣) البيان والتبيين ١١٨/١ .

(٤) انظر في نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١

والخرزاة ٤٣٦/٢ .

لقد زاد الحياةَ إلى بُغْضاً وحباً للخروج أبو بلالٍ
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذُرى العوالى^(١)
ولو أنى علمت بأن حَتْنِي كحُتف أبي بلالٍ لم أبال
فمن يكُ هَمُّه الدنيا فإني لها والله ربُّ البيتِ قالى^(٢)
فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج
الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبي بلال ، وقد ظلت ذكراه عالقة بنفسه طويلاً ،
حتى يقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناس

وكان الناس جميعاً ما توافيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقيوم ،
ومن ثمّ اعتنق مذهب الصُّفريّة ودعا إلى القعود ، حتى عدّ رئيس قعدتهم . ولم
تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبي خالد^(٣) ، إنما قعد به - في أغلب الظن -
حبه لزوجته جمرة ، فقد كان يُشغف بها شغفاً شديداً ، ويعلّل أبو الفرج
ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن
الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب في سن عالية . على أنه إن
كان قعد فقد مضى في شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى
يحسّن لغيره الخروج ويزيّنّه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون في
الحروب ويُغرون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى في ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ،
ولم يلبث شبيب الصُّفريّ وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة في بعض أصحابهما ،
فهلج الحجاج وتحصّن في قصره ، فكتب إليه عمران :

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامةٌ رِبْداءٌ تنفر من صَفير الصافر^(٤)
هلا برزتَ إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحَي طائر^(٥)

(١) العوالى : الرياح .

(٢) قالى : كاره .

(٣) نسبت أبيات أبي خالد إلى عمران في
ترجمته بالأغاني ، والأرجح أنها لأبي خالد كما

جاء عند المبرد .

(٤) رِبْداء : من الربدة وهو لون إلى الغبرة .

(٥) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع
الحجاج ورعبه .

وغضب الحجاج واشتد في طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبته سنة ٧٧ للهجرة ففرّ منه على وجهه يتنقل في القبائل منتسباً في كل حى نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل في سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زبياع الجذامي بالشام . فانتسب له أزدياً فأنزله منزلاً آمناً نحو عام وبالع في إكرامه ، وكان روح سميراً لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه في أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإني تابعك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفاً لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جاركَ حَوَلاً ما ترَوُّعني فيه روائع من إنسٍ ومن جانٍ^(١)
حتى أردتَ بيَ العظمى فأدركني ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث في قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعياً ،
وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له
زُفَرُّ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزدى رأيتُه عند روح ، حينئذ قال له زفر يا هذا
أزدياً مرةً وأوزاعياً أخرى ؟ إن كنت خائفاً أمناك وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما
أمسى هرب وخلف في منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله :

إن التي أصبحتَ يَغِيى بها زُفَرُّ أعيتُ عباءَ على رُوحِ بنِ زُبَاعِ
وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على
الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قوماً من الأزد في روزميسان بالقرب من
الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفي سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة تروىها كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر
عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها لولا جمره ،
ومن ثم نشأ في نفسه صراع عنيف بين الرغبة في الحياة الكريمة التي يحياها

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفرع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة في الموت ، وعبر عن ذلك في صور مختلفة ، كأن يصور تهالك الناس على الدنيا ، وهي ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أرانا لا نملُ العيش فيها وأولعنا بحرصٍ وانتظارٍ
ولا تَبَقَى ، ولا نَبَقَى عليها ولا في الأمر نأخذ بالخيارِ
كركبٍ نازلين على طريقٍ حثيثٍ راتحٍ منهم وسارى^(١)

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتى جياعهم وعمراتهم فأف لم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوي . ولا يُخفى أنه يسير على كره منه في نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوي منها على شيء من الحب والحرص ، وحرى به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عرأةٌ وجوعٌ
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها سحابة صيفٍ عن قليلٍ تقشع^(٢)
وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتي على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتى الموت نفسه ، يقول :

لا يُعجز الموتُ شيءٌ دون خالقه والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأجلُ
وكلُّ كَرَبٍ أمام الموتِ متَضِعٌ للموت ، والموت فيما بعده جَلَلٌ^(٣)
فالموت سيموت في النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التي تلقانا دائماً في شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائناً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدري شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحهم ، فتعرض له يقول :

أبها المادح العبادَ لِيُعْطَى إن لله ما بأيدي العبادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلاً . (٣) جلال : عظيم .

(٢) تقشع : تزول .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا في عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجي الذي تعمقته مقاله حتى الشفاف .

الطَّرِمَّاح (١)

شاعر طائى نشأ في الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فتزل في بني تميم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سميت وفيه وقار ، فكان الطرمّاح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحّه حتى مات عليه . واختلف الرواة في الفرقة التي دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل في فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصُّفْرِيَّة ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يجرّمونه ولا يجيزونه . ولم يُمنّض قعوده في مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو ما صنع عمران بن حطان . فهو صُفْرِيٌّ مسلم . ويظهر أنه كان يمضى في السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوادهم ويصادقهم ، حتى لراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميت ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالا من الكُمَيْتِ والطَّرِمَّاح ، كان الكميت عدنانياً عصبياً ، وكان الطرمّاح خارجياً من الصُّفْرِيَّة ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرمّاح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجتر بينهما صرماً ولا جفوةً ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الحصال إليه . » وأكبر الظن أن الذي وثق بينهما هذه الصلة احترافهما مهنة واحدة ، هي تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويُروى عن الطرمّاح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرى بفارس حيث عُني بتأديب الناشئة

٣٢٣/٢ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٢/٧
والخزائن ٤١٨/٣ وله ديوان نشره كرنكو في
لندن سنة ١٩٢٧ . والطرمّاح : الطويل القامة .

(١) انظر في ترجمة الطرمّاح أعاني (دار
الكتب) ٣٥/١٢ والشعر والشعراء ٥٦٦/٢
والعيني ٢٧٦/٢ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح
للمرزباني ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ٤٦/١ ،

فيها ، وَيُرَوَّى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرِّىءِ فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء . »

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّره عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففي أخباره أنه قدم مع الكميث على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحاه مخلد ، ودعى الكميث فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميث ما أخذه . وفي أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسري الذي ولي العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه وإلى علي سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحاً في طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزدي قبيلة المهلب بن أبي صفرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل في معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزدي والقبائل القحطانية عامة . ومرّ بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت في البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تعمقه هذه العداوة وما يُطوَى فيها من عصبية وهو خارجي ، والخوارج لا يعتدون بالعصبيات القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجي يأتي على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاءه للفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُقذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله في تميم :

لو حان وِرْدُ تميمٍ ثم قيل لها حَوْضُ الرسولِ عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ
أو أنزل الله وَحْيًا أن يعذبها إن لم تَعُدْ لقتال الأَزْدِ لم تَعُدِ
لا تَأْمَنُ تميمياً على جَسَدِ قد مات ما لم تُزَايِلْ أعْظَمُ الجَسَدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه في الحروب على شاكلة قطري إنما يتحدث فيه عن خلقه معتدّاً بشيئله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادني حُباً لنفسى أنى بغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلٍ^(١)
وأنى شقياً باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشائل

والطرماح بذلك كله يبتعد عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل
ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من
حواله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله
من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفى فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان
يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليتمنى الخروج ، يقول :

وإنى لمقتادُ جوادى وقاذفٌ به وبنفسى العامَ إحدى المقاذفِ
لأكسبَ مالا أو أوولَ إلى غنى من الله يكفينى عداتِ الخلائفِ^(٢)
فياربُ إن حانتَ وفاتى فلا تكن على شرجعٍ يُعلَى بخضرِ المطارفِ^(٣)
ولكن أحنُ يومى سعيداً بعُصبةٍ يصابون فى فجعٍ من الأرضِ خائفِ
فوارسُ من شيبانِ ألفٍ بينهم تُقى الله نزالون عند التزاحفِ
إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى
تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى
البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح
غنياً ثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشراةِ إنهمُ إذا الكرى مال بالطلا أرقوا^(٤)
يرجعون الحنين آونةً وإن علا ساعةً بهم شهقوا
خوفاً تبيتُ القلوب واجفةً تكاد عنها الصدورُ تنفلقُ

(١) غير طائل: خسيس .

(٢) عدات: جمع عدة ويريد بها الصلة .

الخلائف: جمع خليفة .

(٣) الشرجع: النعش .

(٤) الطلى: الأعناق ، مفردها طلية .

كيف أرجى الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسي فانطلقوا
 قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا
 وعلى قبس من زهد الخوارج في الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء في القرآن
 الكريم من ذم الشحيح الذي يجمع مالا ويدخره دون أن ينفقه على المحتاجين
 والمساكين ، وما جاء فيه أيضاً من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت
 يده يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فن عمل
 صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كلٌ حَيٌّ مُستَكْمَلٌ عِدَّةُ الْعُمِّ رٍ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهُ (١)
 عجباً ما عجبت للجامع الما ل يباهى به ويرتفده (٢)
 ويضيع الذي يصيره اللا ه إليه فليس يعتقده
 يوم لا ينفع المخول ذا الثر وة خلائنه ولا ولده (٣)
 يوم يؤتى به وخصمه وسط ال جنّ والإنس رجله ويده
 خاشع الصوت ليس ينفعه ذ م أمانيه ولا لدده

وكل من يقرأ شعر الطرواح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ،
 فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن
 حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيتها ،
 وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد
 به أن يدور في أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور في أفواه المتأدبين
 حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمي محض . ويصور
 اللغويون مدى إغرابه في شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابي العالم اللغوي المشهور
 سُئل عن ثمانى عشرة كلمة آبدة في أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، ومرّ بنا
 في غير هذا الموضع أن حسنه اللغوي لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغولاً بإدخال
 الألفاظ النبطية في كلامه . وقد مات حوالي سنة ١٠٥ للهجرة .

(٣) المخول : الثرى .

(١) مود : ميت .

(٢) يرتفده : يكتبه .

شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو في الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغي أن تُردَّ عليهم . وتكوّنت في أثناء ذلك فرقة الكيسانية التي دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سبأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر ، وأنه ورث عن عليٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ، وهو قبس يتنقل في أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفى قالوا برجعته ، وأنه سيعود فيملاً الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموي فتظهر فرقة الزيدية ، ولم تكن غالية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك في حديثنا عن السياسة . وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج في هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيرٌ شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة في أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف في العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ في أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يرعون فيهم إلاً ولا ذمة ، وقد تحلوا ببيكونهم ويندبونهم بدموع لا تترقأً ولا تجفُّ . وربما كان هذا الطابع أهمَّ ما يميّز الشعر الشيعي في هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولاً ثم على زيد بن علي وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قتتة يرثي الحسين (١) :

(ساسي) ١٥٨/١٤ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ والاستيعاب ص ١٤٦ .

(١) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (طبعة الحلبي) ص ١٢١ وانظر أيضاً في مرثي الحسين الطبري ٢٠٩/٤ وما بعدها وأغاني

مررتُ على أبيات آلِ محمدٍ فلم أرها كعهدها يوم حُلتِ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رزِيَّةً وقد عظمتُ تلك الرزايا وجَلَّتِ
ألم تر أن الشمس أضحت مريضةً لفقدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرتِ
وقد أعولتُ تبكى السماءُ لفقدِهِ وأنجمُها ناحتُ عليه وصَلَّتِ

ولم يكونوا يرثونه ويبكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه
وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض
يتحول إلى رغبة شديدة في سفك الدماء ، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن
نصرته . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح
ومن خير من يصورها عوف^(١) بن عبد الله بن الأحمر الأزدي ، وله في
الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضَّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

لَيْبِكِ حُسَيْنًا كلما ذرَّ شارقُ وعند غسوق الليل من كان باكياً
وياليتني إذ كان كنتُ شهيدتهُ فضاربتُ عنه الشانئين الأعدايا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهدًا وأعملتُ سيني فيهمُ وسِنانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون في الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة
التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الحرّ ، ويروى أنه خرج في جماعة
من أصحابه حتى أتى كربلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ،
ثم مضى وهو ينشد^(٢) :

ويا ندى أن لا أكون نصرتهُ ألا كلُّ نفسٍ لا تسدُّ نادمه
وإني لأنى لم أكن من حُماتهِ لدو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه

ويُقْتَلُ زيد بن علي بن الحسين ، فيبكيه الشيعة مُعُولين مندرين لبني
أمية ومهددين من مثل قول المفضل المطلبي^(٣) :

(١) انظر ترجمة عوف في معجم الشعراء (٢) طبرى ٤/٣٦٠ .
المرزبانى ص ١٢٦ . (٣) مقاتل الطالبين ص ١٤٩ .

ألا يا عينُ لا تَرَقِيْ وَجُودِيْ بدمعك ليس ذا حينَ الجمود^(١)
وكيف تَضُنُّ بِالْعِبْرَاتِ عَيْنِيْ وتطمع بعد زيدٍ في الهجود^(٢)
وكيف لها الرُّقَادُ ولم تَرَأِيْ جِيَادَ الْخَيْلِ تَعْدُوْ بِالْأَسْوَدِ
بأَيْدِيهِمْ صَفَائِحُ مَرَهْفَاتُ صَوَارِمُ أَخْلِصَتْ مِنْ عَهْدِ هُودِ
بها نَسَقِيْ النَفُوسَ إِذَا التَّقِيْنَا ونقتل كلُّ جبارٍ عنيْدِ
وَنُحْكِمُ فِي بَنِي الْحَكَمِ الْعَوَالِيْ ونجعلهم بها مثل الحَصِيْدِ^(٣)

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعي يَطْوِي في نفسه حزناً عميقاً على أُمَّته
المستشهدين ورغبة عنيفة في سفك دماء من قتلهم ، ولكن أنى ذلك وسيوف
بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . وإنهم ليتعقبونهم وولاتهم أحياءهم
ويعدون أنفاسهم عدواً . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هي نظرية
التقية ، فمن حق الشيعي أن يخفي عقيدته ويكتمها ، حتى لا يعرض نفسه للخطر
بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سئرى عند كثير الكميت
عما قليل ، إذ ملحا بنى أمية ، وهما يكتنان لهم العداوة والبغضاء .

وهذان المترعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلهم كان
ينطوي فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهي أحياناً إلى دعوة
الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميت حين
ولى خالد القسري أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مرو
يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها^(٤) :

ألا أبلغ جماعةَ أهلِ مرو على ما كان من نأىٍ وبُعْدِ
رسالةً ناصحٍ يُهدى سلاماً ويأمر في الذي ركبوا بجِدِّ
فلا تهنوا ولا ترَضُوا بخَسْفِ ولا يُغررْكمُ أسدٌ بعَهْدِ
وإلا فارفَعوا الراياتِ سوداً على أهل الضلالة والتعدى

(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم .
العوالي : الرماح . الحصيد : الزرع المحصود .
(٤) طبرى ٤٣٢/٥ .

(١) ترقى : من رقاً الدمع إذا جف وسكن .
جمود العين : بخلها بالدمع .
(٢) الهجود : النوم .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغیظ على بنی أمیة فقد كانت تمتلئ بالحُبِّ لآل البيت حبًّا يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرهما، على شاكلة قول أبي الأسود الدؤلي وقد عابه قوم بتشيعه: (١)

أحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا وعباسًا وحمزةً والوصيًّا (٢)
أحبُّهمُ لحبِّ الله حتى أجيء إذا بُعثتُ على هويًّا (٣)
هوى أعطيته منذ استدارت رَحَى الإسلام لم يُعدَلْ سويًّا (٤)
بنو عمِّ النبيِّ وأقربوه أحبُّ الناس كلُّهم إليَّا
فإن يك حبُّهم رُشدًا أصبهُ ولستُ بمخطئٍ إن كان غيًّا

ويقول عبد الله بن كثير السهمي في نفس المعنى (٥):

إن امرؤا أمست معايبه حبُّ النبيِّ لغير ذی ذنبِ
وبني أبي حسنٍ ووالدهم من طاب في الأرحامِ والصُّلبِ
أبعدُ ذنبًا أن أحبُّهم بل حبُّهم كفارة الذنبِ

فهم يحبون آل البيت بلخدم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حتى عبادته ، بل لقد دفع فقرًا منهم إلى الزهد في الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سئرى عند أبي الأسود الدؤلي في حديثنا عن شعراء الزهد ، وهما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان يتشيع ، في كلمة له (٦) :

فحسبي من الدنيا كفافٌ يُقيميني وأثوابُ كنانٍ أزورُ بها قبري (٧)
وحبِّي ذوى قُرْبى النبيِّ محمدٍ فما سألنا إلا المودةَ من أجرٍ (٨)

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٦٠ .
(٦) البيان والتبيين ٣/٣٦٥ .
(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .
(٨) سألنا بالتخفيف : لغة في سأل . وهو يشير إلى الآية الكريمة : (قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى) .

(١) المبرد ص ٥٥٤ .
(٢) يريد بالوصي على بن أبي طالب ، إذ كان الشيعة كما قلنا مراراً يعتقدون أن النبي أوصى له بالخلافة .
(٣) عل هويًا : عل هواي .
(٤) لم يعدل سويًّا : لا مثيل له .

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم في عصر بني أمية منازع قوية من حب آل البيت حباً قد ينتهي إلى الزهد في الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بني أمية ، ثورة تطوى في داخلها رغبة شديدة في أن تُسْفَكَ دماؤهم كما سُفِكَت دماء شهدائهم : الحسين وزيد بن علي ، ومن قبلهما على نفسه. ودائماً سيكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شيء ، وإنهم ليدلعون في قلوبهم ناراً لا تُطْفَأُ من الأسي والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلاً عند كثير شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

كُثَيْرٌ (١)

هو كثيرٌ بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، شاعر حجازي من خُزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر محمقاً وفي الأغاني أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لحميل بن معمر العنزي ، وهو في جمهور غزله يترنم بعزة بنت حميل الضميرية ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمِّي كثير عزة ، وأروع أشعاره فيها تائيته التي يقول في تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر لعزة من أعراضنا ما استحللتِ
وهو يلتزم في رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً في غزله ، ويقول ابن سلام : إنسه كان يقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفي لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكيسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

والخزاة ٣٧٦/٢ ومرآة الجنان ٢٠٢/١
ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والتحل
ص ١١١ وحديث الأربعاء ٣٥٨/١ وما
بعدها . وقد نشر بيريس ديوانه في الجزائر .

(١) انظر في ترجمة كثير أغاني (دار
الكتب) ٢/٩ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفي
مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ وما بعدها
والشعر والشعراء ٤٨٠/١ والفرق بين الفرق
ص ٢٨ والموضح ص ١٤٣ ومجمع الشعراء ص ٢٤٢

قبس النبوة لا يزال يتنقل في علي وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر وفيه يقول :

هو المهديُّ خبْرناه كعبٌ أخو الأخبار في الحقب الأولى^(١)

وزراه يمتلي حقداً على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه في سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفي له في الكوفة وإخراجه واليه منها . وكان ابن الزبير كما مرّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثيرٌ يقول :

تخبّر من لا قيت أنك عائدٌ بل العائدُ المظلومُ في سجن عارمِ
وصى النبيُّ المصطفى وابنُ عمه وفكّكُ أغلال ونفّاع غارمِ
أبي فهو لا يشرى هدى بضلالةٍ ولا يتقى في الله لومة لائمِ
ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيف خيف المحارم^(٢)
بحيث الحمامُ آمنُ الروع ساكنٌ وحيث العدوُّ كالصديق المسالمِ
وما فرح الدنيا بباقي لأهله ولا شدّةُ البلوى بضربة لازمِ

وواضح أنه يسجل على ابن الزبير خرقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذي يأخذ بأيدي العناة ، والذي يتقى الله حق تقواه .

ويرد ابن الزبير لابن الحنفية حرّيته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك في دمشق ، وكثيراً في ركابه ، فيكرمه وينزله منزلاً علياً هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التي انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأخبار ، كان من
(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .
يقصون في المهد الأول .

وأخذ يثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وأزال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ آراه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همّة حَصَانٌ عليها عِقْدُ دُرٍّ يَزِينُهَا^(١)
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكاً مما شجأها قَطِينُهَا^(٢)

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليهما وطن بعض المعاصرين في مديحه لبني أمية ضرباً من النفاق^(٣) ، وهو لم يكن في مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً في ذلك لإمامه الذي رآه يمنح عبد الملك ولاءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية في بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقيّة لا نفاقاً ، ومرّ بنا أن الشيعة كانوا يميزون التقيّة خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهي تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيّعه وأنه يصر عليه إصراراً . على أنه كان يحمل مديحه له كثيراً من السموم ، كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يقلّب عيني حيةً بِمَحَارَةٍ إذا أمكنته شدّة لا يُقِيلُهَا^(٤)

وزراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفي في مجموعة الخلفاء الذين لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مسقطاً خلافة علي ، لأنها الخلافة الصحيحة في رأيه بين تلك الخلافات الظالمة ، يقول :

وكنت المُعَلَّى إذ أُجِيتَ قِدَاحُهُمْ وجِمال المنبجُ وسَطُهَا يَتَقَلَّقُلُ

والمُعَلَّى هو القدح السابع من قده الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنبج فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، بل موّه بذلك في الظاهر ، وعنى في الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

(١) الحصان : العفيفة .

(٢) القطين ، الخدم والوصفاء .

(٣) انظر حديث الأربعاء لطلحة حسين (طبعة

يبرم عزيمته ولا يتردد .

(٤) المحارة هنا : جعر الحية . الشدة :

الهجمة على العدو . بقيلها : يفسخها . أراد أنه

الخلي (١/٢٦٣) .

ترتضى الشيعة إمامتهم . ومن شتمَّ يقابل عبد الملك في ترتيب هؤلاء الخلفاء القدرح السابع بين القدرح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك في مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخلائف بعد الرسو ل الله كلهم تابعوا
شهيديان من بعد صديقهم وكان ابن حرب لهم رابعاً (١)
وكان ابنه بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعاً
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعاً

وعلى هذا النحو لم يتخلَّ عن عقيدته في مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له في مديحه لبني أمية ، وهو إخلص مرجعه في رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ في إكرامهم ومنع عماله منعا باتاً من سبهم على المنابر ، وكان صالحاً تقياً ، وفيه يقول كثير مشيراً إلى هذه المكرة :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمْ عَلَيَّ وَلَمْ تُخِفْ
وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مَعَ الَّذِي
وَقَدْ لَبَسْتَ لُبْسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا
وَتَوَمَّضَ أَحْيَانًا بَعَيْنٍ مَرِيضَةٍ
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مَشْمُوزًا كَأَنَّمَا
تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مَوْثِقًا
وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي
بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّعِبْ إِيَّاهُ مُجْرِمًا
أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِيًّا كُلُّ مُسْلِمٍ
تَرَاءَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمِعْصَمٍ (٢)
وَتَبَسَّمَ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ (٣)
سَقَّتْكَ مَدُوفًا مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمٍ (٤)
وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بَرَأْيٍ مَصْمَمٍ
أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمٍ

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو إخلص لا يقف عند إشادته بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدي أو وصي ، أوصى له على . بل يتجاوز ذلك إلى استشعاره ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

(١) الشهيدان : عمر وعثمان . الصديق : أبو بكر . ابن حرب : معاوية .
(٢) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .
(٤) المدوف : المخلوط . السام : جمع سم .

مما هم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم الحنفية حين لبى نداء ربه :

ألا إن الأئمة من قريشٍ ولاية الحق
 علي والثلاثة من بنيه هم الأسباط
 فسبَّطُ: سبَّطُ. إيمان وبرٍ وسبَّطُ غيبته كربلاء
 وسبَّطُ لا تراه العين حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
 تغيب لا يرى عنهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم علي والحسن والحسين وابن الحنفية ، وهم متساوون في هذه الولاية . ويأبى إلا أن يسمى قتل الحسين في كربلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب يجبل رضوى يطعمهم العسل والماء ، وسيعود في جيش كثيف يقوِّض الحكم الأموي ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

برئت إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا^(١)
 ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دُعي أمير المؤمنين^(٢)
 وواضح أنه يجعل لعلى وبنيه وحدهم الحق في لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الحلفاء الراشدين فهم في رأيه يُعدُّون مختصين . وعلى هذا النحو كان يغلو في تشييعه غلوًا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْت (٣)

هو الكُمَيْت بن زيد الأسدي ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة ، ولم يكد

للجاحظ (انظر الفهرين) وأمال المرتضى (طبعة الحلبي) ٦٦/١ ، ٩٩ ، ٨٠/٢٠ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٣٨ ومعاهد التنخيص وكتابتنا التطور والتجديد في الشعر الأموي (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مداخله في بني هاشم مراراً باسم الهاشميات .

(١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه .
 (٢) العتيق : أبو بكر الصديق .
 (٣) انظر في ترجمة الكيت وأخباره أغاني (ساسة) ١٠٨/١٥ والشعر والشعراء ٦٢/٢٠ والموشح ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة الأدب ٦٩/١ ، ٨٦ والبيان والتبيين والحيوان

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقه والحديث النبوي وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة في مسجد الكوفة . وزراه يشدو الشعر ، وتنعقد مودة بينه وبين الطير مباح على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً .

ولا يلبث أن يبرع في الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والحلفاء ففي أخباره أنه وفد على مخلد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالاً في مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك ، ويقال إنه لقي على بابهِ أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتروى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . وزراه في مطالع القرن الثاني يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة ، ففي أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزین العابدين ، ومعروف أنه توفي سنة تسع وتسعين . ونمضي معه إلى ولاية خالد القسري على العراق (١٠٥ - ١٢٠ هـ) فنجده قد أصبح شيعياً خالصاً ، وقد استخلصه لنفسه زيد بن علي بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع ، ويعيش لهذا النضال والدفاع ، إذ أُشرب قلبه حبه وحب الهاشميين ، حتى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتى ليقول :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لعباً مني وذر الشيب يلعبُ
ولم تلهنى دارٌ ولا رسم منزلٍ ولم يتطربني بنانٌ مخضبُ
ولكنني إلى أهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يُطلبُ
بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

فلم يعد فيه شيء للغزل ولا للحب سوى حب بني هاشم ، وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوفى سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد أجراً وجيهاً فبني ، أي أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن في نظمه . وزراه في تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بني أمية ووالهم خالد القسري . إذ كان ما بني يؤلب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة . حتى لنراه يكتب - كما أسلفنا - إلى أهل مرو أن يثوروا في وجه أسد القسري حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره النائرة لاتصل إلى سَمْع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سَمْع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسه ، فألقاه في غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه في ثياب وهيئة حتى عرفها الحُرَّاس ، فدخلت في غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها وتبياً بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبَيْتَه على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بثيابهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستعطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذي توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفي بني أمية مدائح نظمها حيثئذ : من مثل قوله :

الآن صرتُ إلى أمية والأُمور لها مصائرُ
أهل التجاوب في المحافل والمقاولِ بالمخاصر^(١)
أنتم معادنُ للخلافة كابرًا من بعد كابر

وهي مدائح تُحْمَلُ على التقيّة، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حرّيته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يَفْسُح لأشعاره، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليمين هجاءً شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمني هو حكيم بن عيَّاش الكلبي كان يتعصب للأُمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن علي هجاءً^(٢) مرّاً ، فرأى الكميّة أن يصرفه عن ذلك بفتحة معركة معه في اليمينية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بني هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يُمكّر به فيفخر عليه ببني أمية المضريين حتى يسكته ويغلبه ، وقد ظهر عليه فعلاً لا بذلك فحسب ، بل بما نظم في عصبية لمضريته وهجائه لليمن من قصائد دوّت بعيداً ، وعلى رأسها مذهبته^(٣) : (ألا حُسَيْبٌ عَنَّا يَا مَدِينَا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجّلها ووصمه بها وصماً .

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المقفوء .
والمقاول بالمخاصر : الخطباء لاتخاذهم لها في الخطابة
(٢) انظر في ذلك ترجمته في الأغاني والإصابة
(٣) في خزنة الأدب ١/٨٦ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغاني (طبع الساسي) ١٥/١١٢
والمسعودي (طبعة دارالرجاء بمصر) ٣/١٦٢ .

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهي تمتاز بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال في بيان حق الهاشمين الشرعي في الخلافة ، وهو استدلال وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه في شعره وفي هاشمياته خاصة يخرج على المؤلف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون في الشعر هذه الصورة من الجدل ، إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثم قالوا إن شعره أشبه بالنثر ، كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد هج شعره نهجاً جليداً ، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تُشْفَعُ به من براهين وأدلة . وهو في ذلك يُعَدُّ صدقاً قوياً لما شاع في عصره من الجدل بين المتناظرين في مسائل العقيدة ، فقد مثل هذا الجدل تمثيلاً باهراً . ومن غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدل ، فقد كان إمامه زيد يتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكمييت في هذه التلمذة ، فهو الآخر تلميذ لواصل ، تلقن منه الكلام والجدل في المسائل العقيدية ، وتحول يستخدمه في هاشمياته ، فإذا هي ليست أشعاراً في مديح زيد إمامه ، إنما هي مقالة الزيدية بكل أصولها العقيدية : وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل في دعم هذه الأصول . ومرت بنا أبياتة التي يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطلال يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصبٌ على بني هاشم ، وبذلك كان أول شاعر دعا إلى نبد الوقوف على الديار سنة من سبقوه ، وهو يمضي ، فيسوق الأداة الناصعة على حق البيت الهاشمي من سلالة فاطمة رضي الله عنها في الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعي :

فلم أرَ غَضِباً مثله يُتَغَصَّبُ	بخاتمكم غَضِباً تجوز أمورهم
تأولها منا تقيٌّ ومُغْرِبُ	وجدنا لكم في آل حاميم آية
لكم نَصَبٌ فيها لذي الشك مُنْصَبُ	وفي غيرها آياً وآياً تتابعت
وما ورثتهم ذاك أمٌ ولا أبٌ	وقالوا ورثناها أبانا وأمنا
به دانَ شرقيُّ لكم ومغربيُّ	ولكن مواريثُ ابنِ آمنَةَ الذي
لقد شَرِكْتُ فيه بَكِيلٌ وأَرْحَبُ ^(١)	يقسولون لم يُورثُ ولولا تُراثُهُ

(١) بكيل وأرحب : شيرتان من همدان .

وَعَكَ وَلَخْمٌ وَالسَّكُونُ وَجَمِيرٌ وَكُنْدَةٌ وَالْبِحْيَانُ بَكَرٌ وَتَغْلِبُ
 وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذْلَةً وَلَا غُيْبًا عَنْهَا إِذِ النَّاسُ غُيِبُ
 فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلِحْ لِحَى سَوَاهِمُ فَإِنْ ذُو الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ
 وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بأى القرآن
 الحكيم في سُورَةِ « حَامِيم » وغيرها التي تُشيد بأهل البيت وقرايتهم من الرسول ،
 مقررة حقَّ ذُو الْقُرْبَى من مثل : (وَأَتِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) ومثل : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ويناقش الأمويين في نظامهم الوراثي ، وأنهم لا
 يُدُلُّون للرسول كما يدلُّ آل بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا لورثته القبائل جميعاً
 وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية
 تارة ويحكِّم العقل تارة أخرى .

ودائماً يعرض هذه الأدلة مجادلاً محاولاً الظفر بخصومه ، فإن ترك ذلك لَجَّ
 في عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت - في أصلها - من
 أكثر العقائد الشيعية اعتدالاً وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان
 زيد بن علي لا يؤمن بتناسخ ولا بتبداء ولا بترجعة على نحو ما كان يؤمن الكيسانية ،
 وكان لا يدخل في عقيدته أى شعوذة أو غاو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية
 الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي يوم
 غدِير خُمٌ ، وفي ذلك يقول الكميت :

وَيَوْمَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَدِيرِ خُمٍ أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أُطِيعَا^(١)
 وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك
 صحَّح خلافة أبي بكر وعمر ولم يطعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع
 الرافضة ، وفي هذا يقول الكميت :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَتْمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عَمْرَا
 ومعروف أن زيدا كان يشترط في الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتسب
 أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخياً^(٢) ، ويُردُّد الكميت في هاشمياته هذه
 الصفات ، يقول في مدح الأئمة من الهاشميين :

(١) غدِير خُم : بين المدينة ومكة ، نزله الرسول (٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .
 وخطب فيه .

الحُماة الكُفاة في الحرب إن لُ
والغيوثُ الذين إن أمحلَ النَّا
غالبين هاشميين في العِلِّ
وهمُ الآخذون من ثقة الأمِّ

ويضيف الكميّت إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا
الناس لم يظلموهم نقيراً . وكثيراً ما يقف في تقريره لهذه الصفة عند جور بني
أمية وظلمهم للناس ، وأنهم لا يتقون الله في رعايتهم لهم ؛ بل يعاملونهم كأنهم
أغنام ، مبتدعين دائماً بدعاً لم يجئ بها الإسلام ، يقول

لهم كلُّ عامٍ بدعةٌ يُحدثونها أزلُّوا بها أتباعهم ثم أوحلُّوا
ودائماً يجأر لربه أن يكشف غمّتهم عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطغوا ،
وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب ، وإنه ليسأل الله أن يُحلَّ
الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أجاء الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيها
بمضى السياسة هاشميٌّ يكون حياً لأمته ربيها^(٢)

ووقف الجاحظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق
المذهب الذي ذهب إليه الكميّت في مديح النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إلى السراج المنير أحمد لا تعدلني رغبةٌ ولا رهَبُ
عنه إلى غيره ولو رفع الـ نأس إلى العيون وارتقبوا
وقيل أفرطت بل قصدت ولو عنفني القائلون أو ثلبوا

(١) ربوا : نموا من التربية .
الوثق لا انفصام لها .

(٢) الحيا : المطر .

(١) ربوا : نموا من التربية .
(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن كفر
بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة

فتى رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعتفونه^(١) . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته^(٢) . وقد مضى الكميته يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، فتمعد عن نصرته ، وفي هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه . من مثل قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبةٍ تظلُّ لها الغربان حولي تَحْجِلُ

وخرج زيد وقتل : فجزع الكميته ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفي محمّساً الناس أن ينفضوا عنه وعنهم . وضيق عليه يوسف الحناق ، وظلَّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلَّ ضغنه دَسَّ إليه من قتله .

٤

شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا في حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بنى أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام . ولم يعد لهم من الأمر شيء . وسلّط عليهم الأمويون ولايةً يعتفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد في حقدهم وألمهم ، فتعلقوا بكل نائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لارحمة فيها ولا شفقة ، ويُحسُّ كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم ، فيأنفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

(٢) أمال المرتضى ٢ / ٨٠ .

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢٣٩ .

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسّدت فيه هذه المشاعر من أشرف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي يرجع في نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتبهاً ونخيلاء . وواتته الفرصة كي يقود هذه الثورة التي كانت تغلوبها نفوس الأشراف في الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبي بكره حامل سجستان أخفق في حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بجيشه حتى يقال إنه مات كمدأ .

وفكر الحجاج في قائد محنك يوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهداه تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان في كرمّان ، فأمدّه بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس ، لتمام أهبتة وُعدته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغنائم ، غير أنه رأى - خشية على جيشه - أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبي بكره . ولم يكده يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمه بالخور والضعف ، وهدّده إن لم يمض في القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدّتهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينظرون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهلهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالي بموتنا ، ويريد أن يعرضنا للخطر ، حتى نسوق له وخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

ووادع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، فنعهم . واتجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه في طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بخاميات الأمصار ، ولما صار في فارس نخلع عبد الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش « مثل السيل المنحط من علّ ، ليس يردّه شيء حتى ينتهي إلى قراره » وأعشى همدان وأبو جيلدة الشكري في مقدمته يثيران الناس ويحمّسانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم بينما أخرجوا منها

للحرب والموت في سجستان وخراسان على نحو ما نرى في قول أبي جهمدة (١) :

أيا لهفي ويا حزني جميعاً ويا غمَّ السوادِ لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً واخلينا الحلائل والبنينا (٢)

فما كنا أناساً أهل دينٍ فنصيرَ للبلاء إذا بلينا
ولا كنا أناساً أهل دنيا فنمنعها وإن لم نرج دينا
تركنا دورنا لطعام عكَّ وأنباطِ القرى والأشعرينا (٣)

وتقدم الحجاج بجيشه، فالتقى بجيش ابن الأشعث وتقدم بجنوده، فاستولى على البصرة، ومضى الحجاج فنزل بجيشه في ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية، وحدثت فيها بين الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جهمدة يحرض على قتال الحجاج بمثل قوله (٤) :

نحن جلبنا الخيل من زرنجا مالك يا حجاج منا منجى (٥)
لتبعجن بالسيوف بعبجا أو لتفرن فذاك أحجى (٦)

وما زال أبو جهمدة يحمس الجنود ويبث الغيرة فيهم لنسائهم : حتى شدوا على عسكر الحجاج شدة ضعفته، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام، فراجعوا وثبتوا، وكانت الدائرة له. وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دير الجماجم، وفيها هزم هزيمة ساحقة. ولم يلبث أن جمع للحجاج جموعاً جديدة، والتقى به في «مسكن» فحالفته الهزيمة، فولّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان : فالتجأ إلى زنبيل، وبعد محاولات منه لرجع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج، وقطعت رأسه، وقيل بل مات انتحاراً. ويلقانا بجانب أبي جهمدة شعراء كثيرون بلخوا في هذه الثورة لعل أهمهم أعشى همدان، وهو بحق يعد شاعر هذه الثورة.

(١) مرت في الفصل السالف مصادر ترجمته وانظر في الأبيات أغاني (دار الكتب) ٣١٢/١١
الشام اليمنية. ومنها الأشعر قبيلة يمنية. وسماه
أنباطا يريد أنهم ليسوا بدوا، فهم فلاحون.
(٤) أغاني ٣١٢/١١.
(٥) زرنج : قصبة سجستان
(٦) العج : الشق . أحجى : أخلق وأجد

(٢) الحلائل : الزوجات .
(٣) الطعام : الأوغاد . وعك : من قبائل

أعشى (١) همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الهمداني القحطاني، نشأ في الكوفة، وعنى في أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لرى الشَّعْبِي فقيه الكوفة المشهور يُصنِّهِر إليه ، فيتزوج أخته ويزوجه أخته . وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوي ، وأقبل عليه ، وأخى أحمد النَّصْبِي مغنى بلده ، فكان إذا قال شعراً غنى له فيه . وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصاري الذي ولي على الكوفة سنة تسع وخمسين ، وفيه يقول :

متى أَكْفَرِ النعمانَ لم ألفَ شاكراً وما خيرٌ من لا يقتدى بشكورٍ

وله أشعار يتزع فيها متزع زهد في الدنيا ، فهو ينفّر منها ومن التعلق بمتاعها ، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار في أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبي وغيره من وعاظ الكوفة ، ومن أطرفها قوله :

وبينا المرء أمسى ناعماً جديلاً في أهله مُعْجَباً بالعَيْشِ ذا أنقى^(٢)
غراً ، أتيج له من حينه عَرْضُ فما تلبث حتى مات كالصَّعِقِ
فما تزود مما كان يجمعه إلا حنوطاً وما وراه من خرق^(٣)
وغيرَ نَفْحَةِ أَعْوَادٍ تُشَبُّ له وقلّ ذلك من زادٍ لمنطلق

وزاه حين هُزم التوابون بقيادة سليمان بن سرد سنة خمس وستين بيكهم بقصيدة كانت إحدى المكتّمات التي كتبت في ذلك الزمان^(٤) . ويتولّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه في سلمه وحربه للمختار الثقفي ناظماً أشعاراً كثيرة ، رواها الطبري ، بصور فيها شعوزة المختار الثقفي وما كان يتخذ من

(١) انظر في ترجمة أعشى همدان الأغاني (طبع دار الكتب) ٣٣/٦ والاشتقاق ص ٤٢٣ والمؤتلف ١٤ والموشح ص ١٩١ وراجع فهرس الطبري والجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذري وله ديوان نشره جابر ملحماً
بديوان أعشى قيس .
(٢) أنق : فرح وسرور .
(٣) الحنوط : طيب يتخذ للميت خاصة .
(٤) طبري ٤/٤٧٢ .

كُرْسَى وحمّامات بيضاء تمويهاً على جنده^(١) . ويُدال للبصرة من الكوفة ،
ويفتخر البصريون بانتصارهم ، فيغضب لبلدته ، ويتوجه إليهم بالخطاب قائلاً :
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل^(٢)

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب
وغيره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر
سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ نراه في موقعة جاكولاء . وقد
انتصر الخوارج ، ففضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن
عتاب بن ورقاء أصبهان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه
يخفوه ، فيهجوه . ونراه في شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بدائها .
ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مكّران ، فيمرض هناك ، وينظم
قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغبة ،
خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج في بلاد الديلم ،
فيقع أسيراً ، وتهواه بنت للعلاج الذي أسره وتحل قيوده ، وتأخذ به طرفاً تعرفها ،
وبذلك تخلّصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يُوالّ وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى
سجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبي بكره زنبيل ملك الترك ، ولما دارت
على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبي بكره
سواء في قيادته غير الحكيمة أو في إهداره لمسئوليّاته ، إذ انتهر ما كان فيه جيشه
من ضيق ، فباع القفيز من الشعر بدرهم ، كما باع لهم العنب الحِصْرَم ، وهم
يتساقطون جوعاً ، يقول :

أسمعتَ بالجيش الذين تمزقوا
حُبسوا بكابلَ ياكلون جيادهم
لم يلق جيشٌ في البلاد كما لقوا

وأصابهم ريبُ الزمان الأعوجِ
بأضرّ منزلةٍ وشرّ مُعْرَجِ^(٣)
فلمثلهم قُلْ للنوائح تنشجِ

بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(٣) كابل : قصبة زنبيل ملك الترك .

(١) انظر الطبري ٤/٥٥٠ ، ٥٦١ ،

٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار على فيها

ثم اتجه بخطابه إلى عبید الله فقال :

وَلَيْتَ شَأْنَهُمْ وَكُنْتَ أَمِيرَهُمْ فَأَضَعْتَهُمُ وَالْحَرْبَ ذَاتُ تَوْهَجٍ
وَتَبِيعَهُمْ فِيهَا الْقَفِيزَ بِدَرَاهِمٍ فَيُظَلُّ جَيْشِكَ بِالْمَلَامَةِ يَنْتَجِي (١)
وَمَنْعَتَهُمْ أَلْبَانَهُمْ وَشَعِيرَهُمْ وَتَجَرَّتْ بِالْعَنْبِ الَّذِي لَمْ يَنْضَجْ

ومات ابن أبي بكره كما قدمنا ، فولّيت سجستان ابن الأشعث ، فسأله أن يزيد في عطائه ، فلم يلبّ سؤاله ، ففضي يعاتبه في قصيدة طويلة ، يقول له في تضاعيفها :

مَالِكٌ لَا تَعْطَى وَأَنْتَ أَمْرٌ مُثْرٍ مِنَ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ
تَجْبِي سَجِسْتَانَ وَمَا حَوْلَهَا مَتَكِّسًا فِي عَيْشِكَ الرَّاغِدِ

وتتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى يده في يده وكأنه صدر في ثورته عن أمنيته ، فقد وقف من قديم في صفوف المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاية بني أمية ، ويراهم ظالمين لارعية يسومونها العذاب على نحو ما رأينا في هجائه لابن أبي بكره . وهذا الحجاج على العراق قد بغى وطني ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج في بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مرغماً ، لا يعرف متى يأذن له في العودة لتقر عينه بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر محمّساً بلخنده ، فلما توجه مقبلاً إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إِنَّا سَفَوْنَا لِلْكَفُورِ الْفَتَانَ حِينَ طَغَى فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ (٢)
بِالسَّيِّدِ الْعَطْرِيِّفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَارِ بِجَمْعٍ كَالدَّبِيِّ مِنْ قَحْطَانِ (٣)
أَمْكَنَ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانِ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ يُسَلِّي مَا كَانَ
إِنْ ثَقِيفًا مِنْهُمْ الْكُذَّابَانَ كَذَّابُهَا الْمَاضِي وَكَذَابُ ثَانِ

(١) ينتجى : يتسار ، من النجوى وهي السر .

(٢) سفا : خف وأسرع .

(٣) الدبي : الجراد .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يُشير بها الجند ويحرّض
 في هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم
 ملك وشرف وسيادة في الجاهلية ، وهو بذلك يض
 الثورة ، فهي كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين ان
 النبيلة ، يقول :

يأبى الإله وعزة ابن محمد وُجدود ملأ
 أن تأنسوا بمذممين عُسروقهم في النا
 كم من أب لك كان يعقد تاجه بجبيز
 ما قصرت بك أن تنال مدى العلا أخلاق مكرمة وإرث جدود

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأتى إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ
 يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يُلين قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً
 بانتصاره :

أبى الله إلا أن يتم نوره ويطوق نار الفاسقين فتخمدنا
 ويُنزل ذلاً بالعراق وأهله ليا نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
 وما نكثوا من بيعة بعد بيعة إذا ضمّنها اليوم خاسواها غدا^(٣)
 وما أحدثوا من بدعة عظيمة من القول لم تصعد إلى الله مصعدنا
 وما زاحف الحجاج إلا رأيت معاناً ملق للفتوح معودا
 ليهيئ أمير المؤمنين ظهوره على أمة كانوا بُغاة وحُسدنا

ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فارتدَّ وجهه واهتز منكباه ، وأمر
 الحرس فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

(٢) أبلج : طلق الوجه . مقول : خطيب .
 سنديد : الجواد الشجاع
 (٣) خاس : غدر ونكث

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن
 الأشعث . ويريد بال ثمود قبيلة ثقيف قوم
 الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بقايا ثمود .

شعراء بني أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدَّاح بني أمية ، فالمدائح شيء والشعر السياسي شيء آخر. المدائح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسي فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مدائح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعنتقها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون في الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسي المناصر لبني أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا يهاجمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق في الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثم فهم أولياء دمه . وكان عليٌّ قد بُويع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بني أمية معاوية أمير الشام بسنده جيش يمني موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيعاً ، وأخذت كل شعبة تحاول أن تفرض رأيها السياسي باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم علي ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا في وقعة الجمل ، فخلا الجو لمعاوية ومطالبته بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع علي بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صُفَّين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها عليٌّ انتصاراً حاسماً لولا ما لحأ إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفي هذه الموقعة نُظِم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته في الحكم وعن إمامه الذي ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق في الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جُعَيْل التغلبي :

أرى الشام تكره مُلكَ العراق وأهلُ العراق لهم كارهونا
 وقالوا عليُّ إمامٌ لنا فقلنا رضينا ابنَ هِنْدِ رضينا
 وردَّ عليه بعض شعراء العراق ، فقال بنقض ما زعمه ، مشيراً إلى ما بين
 الطرفين من عداوات قديمة :

أناكم عليُّ بأهلِ العراقِ وأهل الحجاز فما تصنعونا
 فإن يكره القومُ مُلكَ العراق فقد ما رضينا الذي تكرهونا^(١)

وتطورت الظروف وُقُتل علي بعد التحكيم ، وبابح الناس معاوية ، ودخلت
 العراق في طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين ، ولكنها ظلت تعارضهم خفية ،
 وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج ، وتارة
 مع الشيعة ، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب . وعارضتهم الحجاز في
 عهد يزيد بن معاوية وتجسمت معارضتها في عبد الله بن الزبير .

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون في هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن
 نظرياتهم السياسية ، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر .
 وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأنصار
 حين اشتبك مع يزيد بن معاوية ، وفي رواية مع عبد الرحمن بن الحكم ،
 فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصراني التغلبي ، على نحو ما مر بنا في غير هذا
 الموضوع ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويًا يناضل عن السياسة
 الأموية . ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية في بيته ، وأن يأخذ البيعة
 لابنه يزيد في حياته . وكان ذلك في رأي كثيرين بدعة منكرة ، إذ تَخْرُجُ
 الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه ، على نحو ما هو معروف عند
 الروم وما كان معروفاً عند الفرس ، وعرف معاويةُ نفور المسلمين من ذلك ،
 فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته ، كما دفع بعض الشعراء ، وكان أسرع
 من لبّاه منهم مسكين الدارمي فأنشأ يقول في كلمة له^(٢) :

(١) انظر الأخبار الطوال للدينوري (طبع) (٢) الأغاني (سأسي) ٧١/١٨ .

بني خلفاء الله مهلا فإنما يَبُوْثُهَا الرَّحْمَنُ حَيْثُ يَرِيدُ^(١)
 إِذَا الْمِنْبَرُ الْغَرْبِيُّ خَلَّى مَكَانَهُ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ
 عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالْجَدُّ صَاعِدٌ لِكُلِّ أَنْاسٍ طَائِرٌ وَجُدُودٌ^(٢)

ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلاصلته .

ومن شعراء آل أبي سفيان المتوكل^(٣) الليثي وعبدالله^(٤) بن همام السلولي
 « وكان مكيناً حظياً فهم وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية »
 في أشعار يرويها الرواة ، كان يرثي فيها أباه ويحضه على البيعة لابنه من مثل قوله^(٥) :
 اضْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَامِقَةً وَاشْكُرْ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمَلِكِ حَابَا كَا
 لَارْزَاءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ نَعْلِمَهُ كَمَا رَزَيْتَ وَلَا تُعْقِبِي كَعُقْبَا كَا
 أَصْبَحْتَ رَاعِيَّ أَهْلِ الدِّينِ كُلِّهِمْ فَأَنْتَ تَرَعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرَعَا كَا
 وَفِي مَعَاوِيَةَ الْبَاقِي لَنَا خَلْفٌ إِذَا نُعَيْتَ وَلَا نَسْمَعُ بِمَنْعَا كَا
 ونمضى إلى عصر المروانيين ، وأول من تلقاه من شعرائهم أبو العباس^(٦)
 الأعمى الشاعر المكي مولى بني الدثئل يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان من
 شعراء بني أمية المعدودين المقدَّمين في مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم »
 ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان
 ابن الحكم يبكيهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وَلَمْ أَرْ حَيًّا مِثْلَ حَيٍّ تَحْمَلُوا إِلَى الشَّامِ مَظْلُومِينَ مِنْذُ بُرَيْتِ^(٧)
 أَعَزُّ وَأَمْضَى حِينَ تَشْتَجِرُ الْقَنَا وَأَعْلَمَ بِالْمَسْكِينِ حَيْثُ يَبِيتُ

- (١) يَبُوْثُهَا : يَنْزِلُهَا .
 (٢) الْجَدُّ : الْحِطُّ .
 (٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٥٧/١٥ ونكت الحميان للصفدي ص ١٥٣ ومعجم الأدباء . ١٥٩/١٢ .
 (٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٦٣٣/٢ ٢٣٢/١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ .
 (٥) ابن سلام ص ٥٢٢ والخزانة ٦٣٨/٣ . (٧) تحمّلوا : ارتحلوا . برئت : خلقت .
 (٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ ، والمبرد ص ٧٨٥

إذا مات منهم سيّدٌ قام سيّدٌ بصيرُ بعَوْرَاتِ الكلامِ زَميتُ^(١)
وقوله :

ليت شعري أفاح رائحة المسدِّ لك وما إن أخال بالخيف أنسي^(٢)
حين غابت بنو أمية عنه والبهاليلُ من بني عبد شمسِ
خطباءً على المنابر فرسا نٌ عليها وقالةٌ غير خرسِ
لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبسِ
وبلغ ابن الزبير نُبْدًا من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه
وصلاته ، فتفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ بهجوه وآله هجاء مرًا ، محرصاً عبد
الملك على حربيه . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن
بني هاشم ، وفي ذلك يقول لأبي الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعياً :

لعمرك إني وأباطفيلٍ لمختلفان واللهُ الشهيدُ
لقد ضلُّوا بحب أبي ترابٍ كما ضلَّتْ عن الحق اليهودُ
ويقال إنه أدرك دولة بني العباس ، وتروى له أشعار مختلفة - إن
صحت - في بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم ويتحسر تحسراً شديداً من
مثل قوله :

خلتِ المنابرُ والأسرةُ منهمُ فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ
ومن كان يلهج بهم ويقف في صفوفهم نابغة بني شيبان^(٣) عبد الله بن المخارق ،
ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانياً ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التي
يحلف بها النصارى ، وفي ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل
قوله :

ويزجرني الإسلامُ والشَّيبُ والتُّقى وفي الشَّيبِ والإسلامِ للمرءِ زاجرُ

(٣) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار
الكتب) ١٠٦/٧ وقد نشرت دار الكتب ديوانه.

(١) زميت : وقور .
(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همَّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مثل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول في تضاعيفها :

لَابْنُكَ أَوْلَىٰ بِمُلْكِكَ وَالِدُهُ وَنَجْمٌ مِّنْ قَدِّ عَصَاكَ مَطْرَحٌ
 فعلم الناس أن هذا هو رأى عبد الملك . وظل من بعده يمدح أبنائه ، وله
 تهنته طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . ولزم بعده ابنه الوليد ،
 وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه في الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة .
 وعلى شاكلته في الانتصار لبني مروان أعشى قبيلته عبد^(١) الله بن خارجة ،
 وكان شديد التعصب لهم ، وله في عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على
 حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

آلُ الزبير من الخلافة كالتى عَجَلُ النَّجَاجِ بِحَمَلِهَا فَأَحَالِهَا^(٢)
 قوموا إليهم لا تناموا عنهم كَمِ لِلغَوَاةِ أَطْلَمُ إِمِهَالِهَا
 إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زَلَمُ أَرْكَانَهَا وَثِيْمَالِهَا^(٣)
 أمسوا على الخيرات قفلاً مغلِقاً فانهض بِيْمَنِكَ فَافْتَحْ أَقْفَالِهَا

ومن شعراء بني أمية أبو عطاء^(٤) السندي مولى بني أسد ، وكانت فيه
 لكُتُبَةٌ سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاية
 الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه مرثى بديعة . وقد عاش إلى أيام
 المنصور ، ونراه يبكى بني أمية حين سقطت دولتهم هاجياً العباسيين في أشعار
 كثيرة من مثل قوله :

يَالَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرَوَانَ عَادَ لَنَا وَأَنَّ عَدْلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ
 وقوله :

بَنِي هَاشِمٍ عَوَدُوا إِلَىٰ نَخْلَاتِكُمْ فَقَدْ قَامَ سِعْرُ التَّمْرِ صَاعاً بِدَرَاهِمٍ
 فَإِنَّ النَّصَارَىٰ رَهَطُ النَّبِيِّ وَقَوْمُهُ فَإِنْ قَلْتُمْ رَهَطُ النَّبِيِّ وَقَوْمُهُ

(٤) انظر في ترجمة أبي عطاء أغاني (ساسي)
 ٧٨/١٦ والشعر والشعراء ٧٤٢/٢ والخزانة
 ١٧٠/٤ ومجمع الشعراء للمرزباني ص ٤٥٦
 والعيون ٥٦٠/١ .

(١) انظر ترجمته في الأغاني طبع (ساسي)
 ١٥٥/١٦ وقد نشر جابر ديوانه ملحقاً
 بديوان أعشى قيس .
 (٢) أحاطها : جعلها لا تنتج .
 (٣) الثمال : الغياث الذي يقوم بأمر قومه .

ويجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا يتقطعون لبني أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولا تتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحموص في الوليد بن عبد الملك^(١) :

تَخِيرُهُ رَبُّ الْعِبَادِ لِخَلْقِهِ وَكَيْفًا وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمًا
وقد يصعدون بهم فيشبهونهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم في سليمان^(٢) :
سُمِّيَتْ بِاسْمِ امْرِئٍ أَشْبَهَتْ شَيْمَتَهُ عَدَلًا وَفَضْلًا سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَا
أَحْمَدُ بِهِ فِي الْوَرَى الْمَاضِينَ مِنْ مَلِكٍ وَأَنْتَ أَصْبَحْتَ فِي الْبَاقِينَ مَحْمُودَا
وكان في زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا يتهد في تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثير ، ويقول العبلي في هشام بن عبد الملك وأسلافه^(٣) :

يَقْطَعُونَ النَّهَارَ بِالرَّأْيِ وَالْحِزْمِ وَيُخَيِّونَ لَيْلَهُمْ بِالسُّجُودِ
والغريب أن نجد هذا التصوير يمتد حتى إلى من عرفوا منهم بالمجون مثل الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبة^(٤) :

إِمَامٌ يُوضِحُ الْحَقَّ لَهُ نَوْرٌ عَلَى نَوْرِ
ولما اضطربت الدولة في عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يجربون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبتت في الأفق التندر بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك الشيعة في دياره قائلًا^(٥) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ اضْطِرَامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَلْيَقَاطُ أُمِيَّةُ أَمْ نِيَامُ
فَإِنْ كَانُوا لِحَيْنِهِمْ نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ طَالَ الْمَنَامُ

(٤) انظر ترجمته في الأغاني ٧/٩٥ وما

بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١/١٥٨ .

(١) أغاني (دار الكتب) ١/٢٩٨ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ١٢/٢٨٨ .

(٣) أغاني ١١/٣٠٦ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضت حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نحو ما أسلفنا عند أبي عطاء السندی ونقف الآن عند شاعر ين مهمين من شعرائهم .

عبد الله^(١) بن الزبير

كوفي المنزل والمنشأ ، بنى أسد « كان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجو ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مديحاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي أيادى لم تُمنن وإن هى جلت
فتى غير محبوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت^(٢)
ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مجدّ إلا مجدّ أسماء فوقه ولا جرى إلا جرى أسماء فاضله
فتى لا يزال الدهر ما عاش مخصباً ولو كان بالمواة تخدى رواحله^(٣)
وعزل ابن أم الحكم عن الكوفة وضمت إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه يمدحه وينوه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافى عبيدُ الله والمجدُّ صفوة الـ حليفين ما أرسى ثبيرٌ ويثرب^(٤)
وأنت إلى الخيرات أولُ سابقٍ فأبشِرْ فقد أدركت ما كنت تطلبُ
(١) انظر فى ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) (٣) المواة : المفازة . تخدى الناقة : تسرع فى سيرها .
التنصيص ٢٠/١ . (٤) ثبير : جبل بظاهر مكة . يثرب : مدينة
(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع فى العين .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفي فيتحول إليه ابن الزبير يتوعده ويتهدده بكتائب الروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤقى به أسيراً ، فيمن عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمدحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجو حين يبلغه قتله لبعض شيعة بني أمية ، وله يقول :

أَيُّهَا الْعَائِدُ فِي مَكَّةَ كَمْ مِنْ دَمٍ أَهْرَقْتَهُ فِي غَيْرِ دَمٍ
أَيْدُ عَائِدَةٍ مَعْصَمَةٌ وَيَدٌ تَقْتُلُ مَنْ حَلَّ الْحَرَمَ

ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلاً :

كَأَنِّي بَعْدَ اللَّهِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ وَفِيهِ سِنَانٌ زَاعِيٌّ مُحَرَّبٌ^(١)
وَقَدْ فَرَّ عَنْهُ الْمَلْحُدُونَ وَحَلَّقَتْ بِهِ وَبِمَنْ آسَاهُ عَنَقَاءُ مُغْرِبٍ^(٢)
تَوَلَّوْا فَخَلَّوْهُ فَشَالَ بِشَلْوِهِ طَوِيلٌ مِنَ الْأَجْدَاعِ عَارٍ مُشْدَبٌ^(٣)
بِكَفْيِ غَلَامٍ مِنْ ثَقِيفٍ نَمَّتْ بِهِ قَرِيْشٌ وَذُو الْمَجْدِ التَّلِيدُ مَعْتَبٌ
ويُلْزَمُ بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ فِي وِلَايَتِهِ عَلَى الْعِرَاقِ ، وَيَمْدَحُهُ مَدَائِحَ كَثِيرَةً وَقَدْ
تَوَفَّى فِي خِلَافَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَعْشَ طَوِيلًا بَعْدَ بَشْرٍ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ
عَمِيَ بِأَخْرَجٍ ، وَيَقُولُ أَبُو الْفَرَجِ إِنَّهُ كَانَ هَجَاءً يُرْهَبُ شَرَّهُ .

عدي^(٤) بن الرقاع

من عاملة إحدى قبائل قضاة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يُسألُك في حاضرة الشعراء . وكان مقدماً عند بني أمية - كما يقول أبو الفرج مدحاً

- (١) يقال ركب رده: إذا سقط قتيلا يتشخب دمه. والزاعبية: ضرب من الرماح. محرب: محدد.
- (٢) يقال عنقاه مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم.
- (٣) الشلو: الجسد. شال به: رفعه أي أنه صلب على جذع طويل. مشذب: مصلح مقوم.
- (٤) انظر في ترجمة عدي وأخباره وأشعاره
- أغانى (طبع دار الكتب) ٢٩٩/١ وما بعدها
و ٣٠٧/٩ وما بعدها و (طبع الساسي)
١٦٥/١٧ والطبرى ٢/٥ والشعر والشعراء
٦٠٠/٢ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٤٣٥ ،
٥٥٨ ، ٥٥١ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٨٦
والاشتقاق ص ٣٧٥ والموشح ص ١٩٠ والطرائف
الأدبية (طبع لجنة التأليف) ص ٨١ .

لهم ، خاصاً منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك في مخاصمات أشرف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولا أشرعت الأسته بين القبائل اليمنية وقيس في الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك في حربه لمصعب بن الزبير ، وله يمدحه مفاخرأ بنصرتهم له :

لعمري لقد أضحرت خيلنا بأكتاف دجلة للمصعب^(١)
 يهزون كل طويل القنا ة ملتئم النصل والثعلب^(٢)
 تقدمنا واضح وجهه كريم الضرائب والمنصب^(٣)
 أعين بنا ونصرتنا به ومن ينصر الله لم يغلب

ولا نكاد نمضي في عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقربه مند ويتخذها شاعره الرسمي ، حتى ليُعليه على جرير في بعض مجالسه ، ويشور جرير ، ويهجو ، فيتدخل الوليد ويهدده إن عاد إلى هجائه . ويظل في رعايته يصفيه مدائح ، ويتغنى له فيها المغنون ، وما غنّى له ابن سريج فيه قوله :

صلى الذي الصلوات الطيبات له والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
 هو الذي جمع الرحمن أمته على يديه وكانوا قبله شيعا
 إن الوليد أمير المؤمنين له ملك عليه أعان الله فارتفعا
 وقوله :

صلى الإله على امرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها
 أولا ترى أن البرية كلها ألفت خزائمها إليه فقادها^(٤)
 ولقد أراد الله إذ ولأكها من أمة إصلاحها ورشادها
 أعمرت أرض المسلمين فأقبلت ونفيت عنها من يروم فسادها

(٤) الخزائم : جمع خزيمة . وهي البرة يخزم بها البعير في أنفه . كنى بذلك عن الانقياد والطاعة .

(١) أصحرت : برزت

(٢) الثعلب : رأس الرمح

(٣) الضرائب : الطبايع

وَأَصِبتَ فِي أرضِ العَدُوِّ مَصبِيَةً عَمَّتْ أَقاصِيَ غَوْرِها وَنِجادَها
ظَفَرًا وَنَضْرًا ما تَناولَ مِثلَه أَحَدٌ مِنَ الخِلفاءِ كانَ أَرادَها
وَإِذا نَشَرْتُ لَه الثَناءَ وَجَدتُه جَمَعَ المِكارِمَ طِرْفَها وَتِلاذِها^(١)

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولاً بكل ما يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والثام شعثها ، وقد اتقادت إليه بأزمئها ، والله يتم عليه نعمته ، وهي تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله في علاه ليصلى عليه كما يصلى على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ، وكيف أعمار أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليحوطها بجنده منزلاً على أعدائها صواعقه ، فتمحقهم محقاً .

وفي أشعاره ما يدل على أنه كان يُعنى بها عناية شديدة إذ ما يزال يَصقُّها ويشذبها حتى تلين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلاً عقله ، يقول :

وقَصيدَةٍ قَد بَتُّ أَجمَعُ بَينَها حَتى أَقوِّمُ مِيلَها وَسِنادَها^(٢)
نَظَرَ المِثَقِّفِ فِي كُعبِ قَنانِها حَتى يُقِـمُ ثِقالَها مَنادَها^(٣)
وَاشتَهرَ بَينَ القَدَماءِ بِأنه كانَ يَحسُنُ وَصِفَ الإِبِلِ وَحُمُرِ الوَحشِ وَالظَباءِ ،
وَمِنَ بَدِيعِ وَصِفِهِ لَظِيبِيَةٌ تَرْتَعى وَمعَها شادِها أَوِ ابِنا قولَه :

تُرْجى أَغَنَّ كَأَنَّ إِبرَةَ رَوِّقِ قَلَمٌ أَصابَ مِنَ اللِواءِ مِدادَها^(٤)
ويشبه امرأة بجؤذر ، فيقول :

وَكانَها وَسَطَ النِّساءِ أَعارَها عَينِها أَحورٌ مِنَ جِآذِرِ جاسِمِ^(٥)
وَسانُ أَقصدِ النُّعاسِ فَرَنَّقَتْ فِي عَينِها مِئَنَةٌ وَليسَ بِنائِمِ^(٦)

(١) طرفها : حادتها . تلامها : قديمها .
(٢) السناد : من عيوب الروى .
(٣) المثقف : الذى يشحذ الرماح والسيوف ويقومها . منادها : معوجها .
(٤) ترضى : تسوق . الأغن : الشادن فى حوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه المجدد .
(٥) الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . وجاسم : من قرى دمشق .
(٦) أقصد : صرعه . رفقت : خالطت .

ونراه يصف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء ويشيران من
حوطما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول :

يتعاوران من الغبار مُلاءةً غبراء محكمةً هما نسجاها
تُطوى إذا علّوا مكاناً ناشزاً وإذ السنابكُ أسهلتُ نَشراها

وله فى النسيب أبيات تدل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد تببت يَدُ الفتاة وسادةً لى جاعلا يُسرى يديَّ وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب

فى شعره أن يأتى بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل الصريح

رأينا في حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما في الرفه والنعيم ، بتأثير ما صبَّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبي ، وكيف أخذ هذا الرقيق يسدّ حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربي القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التي وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مهيمنة على غنائنا العربي قروناً طويلة .

ويجيئ إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان في الحجاز للغناء ، فالناس يختلفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النسّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه في مجالسهن . وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة تصور كلف سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل^(١) . وقد شاعت في هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجة واسعة من المرح ، ورقبت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستهوى الناس من رجال ونساء . وبذلك كادت تختفي من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرته مقطوعات قصيرة ، وعدل الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرمل والسريع والخفيف والمتقارب والمهزج

(١) انظر في ذلك كتابنا : الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية (طبع دار المعارف) ص ٩٤ ، ٢٢٧

والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوعات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقعونها على الآلهم الوترية وطبولم الموسيقى ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الخمس . وليس ذلك فقط ما أثر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيهاً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلتقي الرجال وتحادثهم ، وكانت - شأن المرأة في كل عصر - تُعجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقاً برزت المرأة في مكة والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الشريفة بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنى بأم البنين في مدائحها لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالاً ونساءً في مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل، وأخذ الشعراء يُخضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه في نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقي طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبي عمّار الجشّميّ ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهي المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحجوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون في الطلب ، وهم جميعاً يلقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثرون في نفوسهم من ريبة ، وبلغ من تبه عمر في ذلك أن رأيناه بصورها متهاككة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلاً عنده وعند صاحبيه ، لتضجع لنا صورة هذا الغزل الصريح .

عمر^(١) بن أبي ربيعة

في بيت قرشي واسع الثراء ، هو بيت بني مخزوم ، ولد عمر في سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبي ربيعة ، ولأم يمنية أو حضرمية تسمى مجدا . وكان أبوه في الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجند ، وظل عليه في عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله في مكة بعد هجرتهم^(٢) ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلاً فدللته ، يؤازرها في ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكّي ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

وشاعر الغزل (في سلسلة اقرأ) لعباس محمود العقاد وكتابيننا : التطور والتجديد في الشعر الأموي (طبع دار المعارف) ص ٢٣٩ والشعر والغناء في المدينة ومكة ص ٢٣٩ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفي بيروت . (٢) ابن سعد ٣٢٨/٥ .

(١) انظر في ترجمة عمر الأغاني (طبع دار الكتب) ٦١/١ وما بعدها ، ٢٣٩/٩ وما بعدها والشعراء ٥٣٥/٢ والموشح ص ٢٠١ والخزائن ٢٣٨/١ ومرآة الجنان لليافعي ١٨٢/١ وابن خلكان وشذرات الذهب ٤٠/١ وأمالى القالي ٥١/٢ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأربعماء (طبعة الحلبي) ٣٧٢/١ وما بعدها

بعض المعاصرين ، وبنوا دراستهم له على هذا الوهم^(١) ، وفي الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً^(٢) ومما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤٌ بِقَرَارٍ مَكَّةَ مَسْكِنِي ولها هَوَايَ فَقَدَ سَبَبْتُ قَلْبِي
وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمه من حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن سريج وابن مسجح والغريض يلزمونه ويغنونه في شعره ، حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمونه حياته ، فضلاً عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة^(٣) . ويقول الرواة إنه كان بيته مغنيتان تغنيانه في أشعاره هما بَعُومٌ وأَسْمَاءُ . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياها من مثل مَعْبُدٍ وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبر غزلي في عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلف أضخم ديوان لا في عصره فحسب ، بل في جميع العصور العربية .

وهو في غزله يُخضع ملكاته لفن الغناء الذي عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدون من الحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تفسح لهم في روعة النغم . ونراه لا يصطنع أي ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظهِرنا على حقيقته في غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحوّل إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِدُ النَّاسَ لِلطَّوَافِ احْتِسَابًا وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةٌ فِي الطَّوَافِ
وتذهب مواسم الحج ، فيتصدى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثريا بنت علي الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الحميلات بها من مثل سَكِينَةَ بنت الحسين وزينب الجُمَحِيَّةَ . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل في فتيات قریش النبيلات ، ومن ثم وصف ترفهن وما كنّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التي تصوّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

(١) انظر عمر بن أبي ربيعة حياته وشعره
لجبور طبع بيروت .
(٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)
٣٥٩/١ ، ٣٢٢/٣ ، ٢٩٦/٤ ، ٢٠٨/٨ .
(٣) انظر الأغاني مع مفتي مكة ومع الثريا .
٥٧٠ ، ٣٧٤ ، وراجع

وحلبي وطيب : على نحو ما نرى في قوله :

قالت ثرياً لأترابٍ لها قُطِفَ قُمْنٌ نُحَيِّي أبا الخطاب من كَشَبٍ (١)
فَطِرُنَ طَيْرًا لما قالت وشايعها مثلُ الهائل قد مُوَهِنَ بالذهب
يرفلن في مُطَرَفَاتِ السُّوسِ آوَنَةٌ وفي العتيق من الديباج والقصب (٢)
تري عليهن حَلَى الدُرِّ مَتَسِقًا مع الزبرجد والياقوت كالشهب
ونراه أحياناً يلهج بصبايته وحبه وما يذوق من وجد وألم ، متلطفاً لصاحبته ،
ملحاً على أن تواصله بودها ، مستعطفاً ، متضرعاً ، بمثل قوله :

ما كنت أشعر إلا مذ عرفتكم أن المضاجع تسمى تُنْبِت الإبرا
قد لمت قلبي وأعياني بـواحدة فقال لي : لا تلمني واذفع القدرا
ولكن هذا يأتي نادراً في غزله ، إذ قلما يشكو من هجر أو يتألم لصداً ،
فقد تحول شعره يملؤه تهاً بنفسه . ويقال إنه كان جميلاً ، وكأنما انعكست
فيه صورة الحب ، فهو لا يشكو الغرام والعشق ، بل محبوبته هي التي تشكو من
ذلك ، فهي التي تحيطه بشباك التضرع والاستعطاف ، وهي التي ما تني
مسهدة تتعذب في حبه وتتمنى لو تراه . واسمعه يقول على لسان إحدى صواحيبه :
تقول إذ أيقنت أني مفارقها ياليتني ميتٌ قبلَ اليوم يا عمرا
ويقول على لسان ثانية :

ما وافق النفس من شيء تُسرُّ به وأعجبَ العينَ إلا فوقه عمرٌ
ويقول عن ثالثة :

قد حلفت ليلة الصورين جاهدةً وما على المرء إلا الحلفُ مجتهداً (٣)
لأختها ولأخرى من مناصفها لقد وجدتُ به فوق الذي وجدنا (٤)
لو جُمع الناسُ ثم اختيرَ صَفْوَهُمْ شخصاً من الناس لم أعدل به أحداً

(٣) الصوران : موضع قرب المدينة .
(٤) مناصف : جمع منصف ككبير ، وهو الخادم .

(١) قطف : جمع قطف وهي بطيئة الخطو .
كشب : قريب .
(٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد بالمغرب . القصب : الحرير .

وَيَصُورُ شُغْلَ ثَلَاثِ أَخْوَاتِ بِهِ ، فَيَقُولُ :

قَالَتِ الْكُبْرَى أَتَعْرِفَنَ الْفَتَى قَالَتِ الْوُسْطَى نَعَمْ هَذَا عُمَرُ
 قَالَتِ الصُّغْرَى وَقَدْ تَيَّمَّتْهَا قَدْ عَرَفْنَا هَلْ يَخْنُقُ الْقَمَرُ
 وَلَمْ يَقِفْ بِإِعْجَابِ الْمَرْأَةِ بِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَدِّ ، فَقَدْ أَخَذَ يَصُورُ كَلْفَهَا بِهِ وَتَصَدَّقُ بِهَا
 لَهُ ، وَأَنَّهَا تَدُورُ حَوْلَهُ لَعَلَّهَا تَجِدُ سَبِيلًا إِلَيْهِ ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَتَدَلَّلُ وَيَتَمَنَعُ ،
 وَهِيَ تَسْعَى إِلَى الْوَصُولِ مَنْتَهَزَةً كُلَّ فُرْصَةٍ ، حَتَّى بَيْنَ مَشَاعِرِ الْحَجِّ ، يَقُولُ :
 قَالَتْ لِيَتْرَبِ لَهَا نَحْدُهَا لِنُفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عُمَرِ
 قَوِي تَصَدَّقْ لَهُ لِيَعْرِفْنَا ثُمَّ اغْمِزِيهِ يَا أُخْتَ فِي خَفْرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَى ثُمَّ اسْبَطْرَتْ تَسْعَى عَلَى أَثْرِي^(١)
 وَعَلَى هَذَا النُّحُونِ رَاهُ فِي غَزَلِهِ ، يُوَقِّدُ قُلُوبَ الْفَتَيَاتِ حُبًّا ، وَهُنَّ يَتَمَنِينَ عَطْفَهُ
 وَحَنَانَهُ ، وَبِذَلِكَ يَعْكَسُ الصُّورَةُ الْمَأْلُوفَةُ فِي الْغَزْلِ الْعَرَبِيِّ ، إِذْ لَا يَزَالُ الشَّاعِرُ
 يَطْلُبُ وَيَأْمَلُ وَيَتَضَرَّعُ وَيَرْجُو الْعَطْفَ وَالْحَنَانَ ، بَلْ لَا يَزَالُ يَعْطَنُ الْعَشْقَ وَالْهَيَامَ
 مَسْتَرْحِمًا مَسْتَعِطْفًا ، أَمَا عِنْدَ عَمْرِ فَهَذَا كُلُّهُ مَوْجُودٌ وَلَكِنْ لَا فِي تَصْوِيرِ حُبِّهِ
 هُوَ وَإِنَّمَا فِي تَصْوِيرِ حُبِّ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءِ لَهُ وَمَا يُوَقِّدُ بِهِ قُلُوبَهُنَّ مِنَ الْعَشْقِ وَالصَّبَابَةِ .
 فَعَمْرُ فِي غَزَلِهِ مَعْشُوقٌ لَا عَاشِقٌ ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى فِي جَمْهُورِ هَذَا الْغَزْلِ ،
 وَيَسْتَمُّ خَطُوطَ هَذِهِ الصُّورَةِ لِإِعْلَانِ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءِ حُبِّهِنَّ لَهُ فَحَسَبَ ، بَلْ
 أَيْضًا بِمَا يَصِفُنَّ مِنْ خَطُوبِ هَذَا الْحُبِّ ، فَهِنَّ يَتَحَدَّثْنَ عَنْ هِجْرَانِهِ ، وَهِنَّ يَذُقْنَ
 مِرَارَةَ الْغَيْرَةِ وَيَصْطَاطِينَ بِنَارِهَا الْمَحْرَقَةَ ، وَهِنَّ يَتَأَلَّمْنَ مِنَ الْوَشَاةِ وَهِنَّ فَقَدْنَ
 لِعَطْفِهِ وَأَمَّنَّ لَا يَجِدْنَ عِنْدَهُ إِلَّا الْإِعْرَاضَ وَالصُّدُوفَ ، يَقُولُ عَلَى لِسَانِ إِحْدَاهُنَّ :
 أَمِنْ أَجْلِ وَاشٍ كَاشِحٍ بِنَمِيمَةٍ مَشَى بَيْنَنَا صَدَّقْتَهُ لَمْ تَكْذِبِ
 وَأَتَاخُ لَهُ ذَلِكَ أَنْ يَصُورَ عَوَاطِفَ الْمَرْأَةِ وَنَفْسِيهَا وَمَا يَتَعَمَّقُهَا مِنْ دَقَائِقِ
 الْحُبِّ وَمَا يَثِيرُ فِي قَلْبِهَا مِنَ الْمَشَاعِرِ الرَّقِيقَةِ ، وَكَيْفَ تَتَخَذُ الْأَسْبَابَ لِاسْتِرْضَاءِ
 عَاشِقِهَا حِينَ تَرَاهُ يَنْصَرِفُ عَنْهَا ، وَكَيْفَ تَتَقَدَّمُ لَهَا بَعْضُ صَدِيقَاتِهَا تَحَاوُلُ
 أَنْ تَعِيدَ الصِّفَاءَ بَيْنَهُمَا ، يَقُولُ :

(١) اسبطرت : أسرعت

قالت على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها ما تأمرين فإن القلب قد سُغِلَا^(١)
فجاوبتها حصانٌ غير فاحشةٍ بِرَجْعِ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطلاً
أقننى حياءك في سِتْرِ وفي كرمٍ فلستِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رجلاً^(٢)
لا تظهرى حُبّه حتى أراجعه إني سأكفيكه إن لم أمت عَجلاً
وترضى خطتها وتوصيها أن تكذب عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف
في لومه وعذله :

فإن عهدي به والله يحفظه وإن أتى الذنب ممن يكره العذلا
وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته في ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهن ،
على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كتبتُ إليك من بلدى كساب موله كَمِيدِ
كثيبٍ واكفٍ العينين بالحسرات متفرد^(٣)
يورقه لهيبُ الشو قِ بين السحر والكبد^(٤)
فيمسك قلبه بيدٍ ويمسح عينه بيدٍ

وتردُّ عليه الثريا شعراً^(٥) ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من
تبادل الرسائل بينه وبين صواحيبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .
ومن أهم ما يطبع غزله هذا الحوار القصصي الذي رأيناه على لسان محبوباته
يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجواريهن حبين له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً
إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحيبه على نحو ما
نعرف في قصيدته :

أمن آل نعيمٍ أنتِ غادٍ فمُبَكِّرُ غداة غَدٍ أم رائحٍ فمُهَجِّرُ^(٦)

(٦) غاد : من الغدوة وهي البكرة أو أول
النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من
الزوال إلى الغروب . مهجر : من المهاجرة وهي
نصف النهار . وانظر في هذه القصيدة وشرحها
المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

(١) رقة : انتظار .
(٢) اقننى حياءك : احتفظى به .
(٣) واكف العيتين : سائل الدموع .
(٤) السحر : الرثة .
(٥) أغاني (دار الكتب) ١/٢٣٥ وما بعدها .

ويمضى فيصور قضاءه الليل في الحديث معها حتى تباشير الصباح ، وكأنه في ذلك يحاكي امرأ القيس في معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نيبلات ، وهي عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثمّ كنا ننفي القيصص التي تزعم أن بعض الخلفاء حين حجج نفاه إلى الطائف أو إلى دمهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظنّ ظناً أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها^(١) ، وإذا صح ذلك يكون قد توفى حوالي سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

الأحوص^(٢)

أوسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجدته عاصم حيميّ الدبّر أي النحل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني تخيان في نفر ، فحاربوهم في يوم يسمى يوم الرجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهراً حتى إذا جنّ الليل أمطرت السماء فاحتمله السيّل ، فسمي حميّ الدبر . ونحال أبيه حنظلة بن أبي عامر الذي قُتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَلَتْ خَالِي الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَارُ مَيْتاً طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيحٍ

وَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتَ لَحْمَهُ الدَّبْرُ قَتِيلُ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيحِ

وإنما لقب الأحوص لحوص كان في عينيه ، وهو ضيق في مؤخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبي ربيعة عاش للحب

سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ٤٩٩/١
والموشح ص ١٨٧ والاشتقاق ص ٤٣٧ والخزاة
٢٣١/١ وحديث الأربعاء ٣٢٩/١ وكتابتنا
الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
ص ١١٤ .

(١) أغاني (دار الكتب) ٧١/١
(٢) انظر في ترجمة الأحوص وأخباره
الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٤/١ ،
٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٢٢٤/٤ وما بعدها ،
٢٥٤/٦ وما بعدها ، ٦٤/٩ وما بعدها وابن

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثرياً، ومن ثمّ كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بني أمية وينال عطاياهم الجزيلة، يقول:

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتَلدداً
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ ملأ الأرض معروفاً وجوداً وسُودداً
وله مدائح مختلفة في الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه
وزيد بن عبد الملك. وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد، ولعله من
أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه، فبهجوم هجاء قبيحاً. وهو
في غزله شديد الصباية، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شيء، حتى
ليقول:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جَلَمداً
فالحب الحياة ومن لم يعشق عدوّ من الأموات، بل من الجماد، بل من
الحجارة أو أشد قسوة. وهو يعلن حبه إعلاناً، يعلن صبوته وثورة نفسه. وكان
فاسد الخلق، فانصرفت الفتيات والنساء عنه، إذ رأينه يذهب بعيداً في
التصريح، على شاكلة قوله:

تعرّضُ سلماك لما حرمه تَ ضلّ ضلالك من مُحرمٍ^(١)
تريد به البرّ يا ليتهُ كفافاً من البرّ والمأثمِ^(٢)
وأشعاره في أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً،
وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن، حتى ليروي أنه أصلاه يوماً سياتاً حامية،
وفيها يقول:

أدورُ ولولا أن أرى أمّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزورُ
وما كنتُ زواراً ولكن ذا الهوى إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

فخرجت غير بار ولا آثم.

(١) حرمت: دخلت الحرم مثل أحرمت.

(٢) يقول: ليتني تعادل إثمى وبري،

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبْهَتَ حتى ما أكاد أُجيبُ
 لكِ اللهُ إني واصلٌ ما وصلتني ومُثْنٍ بما أوليتني ومُثِيبُ
 أبشك ما ألتى وفي النفس حاجةٌ لها بين جِلْدِي والعظام دَبِيبُ
 ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهي تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . ونراه مشغولاً
 بجميلة المغنية وناديتها المشهور في المدينة ومن كنَّ فيه من الإماء مثل الذَّلْفَاءِ
 وَعَقِيلَةَ وسَلَامَةَ القس وله فيهن غزل كثير ، كن يغنين فيه ، من مثل قوله
 في الذَّلْفَاءِ :

إنما الذَّلْفَاءُ هَمِّي فليدعني من يلومُ
 حُبَّ الذَّلْفَاءِ عندي منطلقٌ منها رَحِيمُ
 حُبُّها في القلب داءٌ مستكنٌ لا يَريمُ^(١)

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبيراً به ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ،
 يصورُ كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهاك على شاكلة قوله :

يا دينَ قلبك منها لست ذاكرها إلا ترقرق ماءُ العين أو دمعاً^(٢)
 لا أستطيع نزوعاً عن محبتِها أو يصنع الحبُّ بي فوق الذي صنعا
 وزادني كلفاً في الحب أن منعتُ وحَبُّ شَيْءٍ إلى الإنسان ما مُنعا
 وهو في هذا الغزل بالإماء والجواري يختلف عن ابن أبي ربيعة الذي كان
 لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحرائر النبيلات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف
 عنه أيضاً في بعده في التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن
 ثمَّ شكاه أهل المدينة لأبي بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على
 البُلُس للناس . ولما ولي عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال
 خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سلامة - وقد صارت إليه -
 عنده فعفا عنه . ولما رُدَّت إليه حرите زار دمشق ، وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على
 ابن المهلب طويلاً . ويقال إنه توفي حوالي سنة ١١٠ للهجرة .

(٢) دين هنا : داء .

(١) لا يريم : لا يبرح .

المرجبيّ (١)

لُقِّبَ هذا اللقب لضبيعة له قرب الطائف تسمى العَرَج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه سُهر بالغزل ونَحَا فيه نحو عمر بن أبي ربيعة وتشبّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته في أهله ، وكان مشغولاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عُدَّ في الفرسان ، ومن ثمَّ اجتذبت حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاءً حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبراهم لسهم . وهو لا يختلف في ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً في أنه كان يسرف في فتوته ، حتى ليخرج إلى شيء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالت رضية ولكن جئت في قمر هلاً تلبثت حتى تدخل الظلم
وقوله :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوح كالأغر الأشقر
فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر (٢)
وهو لا يقف بمثل هذه المعاني عند نفسه ، بل يرى بها حتى الحواج
الناسكات ، يقول في إحداهن وقد سمرت عن وجه جميل :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت على الخدين برداً مهلهلاً
من اللاء لم يخججن يبعين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلاً
ونجده يختلف إلى دار جميلة في المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تُقسم أن لا تدخله
منزلها لكثرة عبثه وسفهه ، ويشفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه في
قوله :

والشعراء ٢٠٥٦/٢٠٥٦ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث
الأرباء ٣١٦/١ وقد طبع ديوانه في العراق .
(٢) تلازما : تعانقا . الغريم هنا : الدائن .

(١) انظر في ترجمة المرجبي وأخباره
الأغانى (طبع دار الكتب) ٣٨٣/١ وما
بعدها ، ١٨٤/٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشعر

ألا قاتل الله الهوى كيف أخلقا فلم تُلّفه إلا مشوباً ممدّقا^(١)
وما من حبيبٍ يستزير حبيبه يعاتبه في الودِّ إلا تفرّقا
لقد سنّ هذا الحبُّ من كان قبلنا وقاد الصبا المرء الكريم فأعنّقا^(٢)

وكان يمضي في التغنى بهذا الغزل لا ينجل ولا يستحي من الجموح فيه ،
إذ كان جريئاً ، بل كان عنيفاً ، وهو عنف نراه في تتبعه للنساء المتروجات
يتغزل بهن ، كما نراه في ظلمه لمولى لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً
فإننا نرى هذا العنف في هجائه لمحمد بن هشام المخزومي ، إذ أخذ يتغزل بزوجه
جبيرة المخزومية وأمه جيّداء بنت عفيف ليفضحها بمثل قوله :

عوجى علىّ فسلمى جبرُّ فيم الصدودُ وأنتم سفرُّ
وقوله :

عوجى علينا ربّة الهودج إنك إن لا تفعلى تحرجى
أيسرُّ ما نال محبٌ لدى بين حبيبٍ قوله عرج
نقض إليكم حاجةً أو نقل هل لى مما بى من مخرج

فلما ولي محمد إمارة مكة لهشام بن عبد الملك أقامه على البلس وحبسه ،
وظل في سجنه تسع سنوات إلى أن مات ، وله أشعار كثيرة يأسى فيها على ما صار
إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بيته المشهور :

أضاعونى وأىّ فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر^(٣)
ومما يستجاد له قوله :

ارجع إلى خلقتك المعروف ديدنه إن التخلّق يأتى دونه الخلق
ويقال إن الوليد بن يزيد اقتص^٤ للعرجى من محمد بن هشام المخزومي حين
صارت الخلافة إليه ، إذ لم يرع حرمة قرشيته ونسبه في بنى أمية .

(١) أخلق : بلى . ممدقا : مشوباً ومخلوطاً . ميدانه .
(٢) أعنق : سار سيراً منبسطاً ، يريد أن (٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد
الصبا إذا قاد المرء الكريم انفاد له وجرى في الثغر : ما يسده من الخليل والشجمان .

شعراء الغزل العُدْرى

الغزل العُدْرى غزل نبي طاهر مومن في النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بني عُدْرة إحدى قبائل قضاة التي كانت تنزل في وادي القُرَى شمالي الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنى به ونظمه ، ويُرْوَى أن سائلاً سأل رجلاً من هذه القبيلة من أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروي أيضاً أن سائلاً سأل عروة بن حزام العُدْرى صاحب عَفْراء : أصحیح ما يُروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العُدْرى لهذا العصر عند عُدْرة وحدها ، فقد شاع في بوادي نجد والحجاز ، وخاصة بين بني عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس ، وبرأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة ولا ما يُطَوَى فيها من هو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرّ بنا عند الأحوص والعرجي ، وهي من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضري المترف ولا الحب الذي تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتديتها بالإسلام الخفيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللذين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامي الذي يَصْلَى الحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفي كتاب الأغاني من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا يني يتغنى بمعشوقته ، متدللاً متضرعاً متوسلاً ، فهي ملاك السماوى ، وكأنها فعلاً وراء السحب ، وهو لا يزال يناجها مناجاة شجية ، يصور فيها وجده الذي ليس بعده وجْد وعذابه الذي لا يشبهه

عذاب . وتمضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها في يقظته ويحلم بها في نومه ، وقد يصبح كهلاً أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً في قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرقى إليه السلوان ، حتى ليظل يُغشى عليه ، بل حتى ليُسجن أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسداجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، تخيلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن هن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعرف في جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قتل السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعفين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرم القرآن الكريم والحديث النبوي قتل النفس بغير حق . ولا شك في أن هذا كله قصص لفق الرواة كي يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرم الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طوى فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التي احتلت في الجزء الثاني من كتاب الأغاني تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعي يقول : « رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القريّة وإنما وصفهما الرواة » ، ويقول ابن الكلبي : « حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه آفتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التي يرويها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقياً ، غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذريح ، يقول أبو الفرج في ترجمته لمجنون بنى عامر نقلاً عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل في ليل إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل في لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح . وقد تُفصح القصة المضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينص على ذلك القدماء ، وخير ما يمثل ذلك قصة (١) وضاح اليمن التي تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ، فكانت تدخله عندها وتخفيه في صندوق ، وعرف ذلك زوجها ، فحفر بئراً عميقة ، رماه فيها ، وهيل عليه التراب وسويت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا في هذا الغزل العذري أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وجد هذا الغزل العذري في العصر الأموي بنجد وبوادي الحجاز ، وكثر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتى غدت لونا شعبياً عاماً ، ولعل شعبيتها هي التي أكثرت من القصص حولها ، كما أبهت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ، جعلوا منهم أبطالاً ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التي وجدوا فيها اسم لُبْنَى ، فإنهم أضافوها — كما لاحظ الجاحظ — إلى قيس ابن ذَرِيح .

ومن الأشخاص الحقيقية في هذا الغزل عُرْوَة بن حزام العذري وصاحبه عَفْرَاء ، وقد ترجم له صاحب (٢) الأغاني وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإني لتعروني لذكراك رِعْدَةٌ لها بين جلدي والعظام دَبِيبٌ
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا وما أعقبتها في الرياح جنوبٌ
ومنها الصمّة (٣) القُشَيْرِي ، وكان من فتيان بني عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى رَيْبًا ، وخطبها من أبيها فأثر عليه شاباً موسراً ، فزاد

الشعر والشعراء ٢/٦٠٤ وذيل الأمال ص ١٥٧

والخزائن ١/٥٣٣ .

(٣) ترجمته في الأغاني (طبع دار الكتب)

٢/٦ وما بعدها وانظر قصيدته المينية في

الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

(١) انظرها بترجمته في الأغاني (طبع دار

الكتب) ٢١٨/٦ وما بعدها وراجع أيضاً

تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٩٥

وحديث الأربعة ١/٢٩٣ .

(٢) أغاني (ساسي) ١٥٢/٢٠ وانظر

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها : ثم رأى أن يغزو في طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكرها لا تفارقه حتى قتل في غزوة واسمها على شفتيه ، ومن قوله في عينية له بديعة :

وأذكر أيامَ الحمى ثم أنثى على كبدى من خشية أن تصدعا
ومهم كثير عزة ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له في شعراء
الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن
ابن أبي عمّار الجشمي وعروة بن أذينة وحبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان
عبد^(١) الرحمن من نساءك مكة ، ولقب بالقسّ لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً
إلى سلامة ، فشغف بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة
القسّ ، وفيها يقول :

سلامٌ هل لي منكم ناصرٌ أم هل لقلبي عنكم زاجرٌ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ

وكان عروة^(٢) من فقهاء المدينة ومحدثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقع شعره
ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى في غزله ، فهو ألحان
وأنغام على شاكلة قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملها جعلت هواك كما جعلت هوى لها
فيك الذي زعمت بها وكلاكما يُبدي لصاحبه الصباية كلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقه فأدقها وأجلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها

أما ابن^(٣) عتبة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدّمين في المدينة الذين حمل
عنه الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر في حبه لسلامة الأغاني (طبع دار

الكتب) ٣٣٤/٨ وما بعدها .

(٢) راجع في ترجمته الأغاني (طبعة ساسي)

١٠٥/٢١ والشعر والشعراء ٥٦٠/٢ والموشع

ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

الكتب) ١٣٩/٩ وما بعدها وصفة الصفوة

٥١/٢ وتهذيب التهذيب ونكت الهيبان ١٩٧ .

غزل كثير في زوجته عثمة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمري لئن شطت بعثمة دارها لقد كدت من وشك الفراق أليح^(١)
أروح بهم ثم أغدو بمثله ويحسب أني في الثياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا في هذا الحب العذري بكاء المعشوقات لمن حرموا
منهن، وماتوا على حبهن ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلي^(٢) الأخييلية
الحفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتى شاعر شجاع يسمى توبة
ابن الحمير ، وشغف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ،
حتى ليقول :

ولو أن ليلي الأخييلية سلمت على ودوني تربةً وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدئ من جانب القبر صائح^(٣)

وظل يلهج باسمها إلى أن قتل في بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته
ليلي بقصائد كثيرة تصور ما أوقده في فؤادها من جذوة الحب ، من مثل
قولها :

أيا عين بكى توبة بن حمير يسح كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة بماء شئون العيرة المتحدر

وقولها :

وآليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فنن ورقاء أو طار طائر
وكل شباب أو جديد إلى بلي وكل امرئ يوماً إلى الله صائر

١١/٢٠٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٤١٦

والأمالى للقالى ١/٨٦ وما بعدها .

(٣) زقا : صاح .

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر في ليلي الأخييلية وأخبارها مع

توبة ترجمتها في الأغاني (طبع دار الكتب)

ويقال إنها ماتت في إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جنبه . وتقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذري ، هما : قيس بن ذريح عاشق لُبْنَى وجميل عاشق بثينة .

قيس^(١) بن ذريح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن في ضواحي المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن علي ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هي كل حياته . وهي قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُروى أنه مر في رحلاته بديار لُبْنَى الخزاعية ، فرآها ، ووقعت في قلبه ووقع في قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبى ، وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن علي ، فتوسط له عند أبيه وأبي لُبْنَى ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرزقا الولد ، وداخلت أم قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلِحَّان عليه بعد شفائه من علته أن يفارقها وصدع لمشيئتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قبل أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعق غُراب قبل رحيلها ، فتشام تشاوماً شديداً ، ونظم في نعيه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ بِيَيْنِ لُبْنَى فطار القلبُ من حذر الغرابِ
وقال : غداً تباعدُ دارُ لُبْنَى وتناهى بعد وُدِّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غُراب وكان الدهرُ سعيك في تَبَابِ

ورحلت لُبْنَى ، فاضطربت جذوة الحب في نفس قيس اضطراباً ، ووجد بلُبْنَى وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

٦١٠/٢ وأمالى القالى ٣١٨/٢ وراجع المشع
ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ٢٥٦/١ .

(١) انظر في قصة قيس الأغاني (طبع دار
الكتب) ١٨٠/٩ وما بعدها والشعر والشعراء

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول في غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلني بلُبتى بلاء ما أُسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبتى عيّتُ فما أطيق له جوابا

وقوله :

ولاني لأهوى النومَ في غير حِينه لعل لقاء في المنام يكونُ
تحدثني الأحلامُ أني أراكمُ فياليت أحلام المنام يقين
وكانت لبي تسمع بوجدته وشعره ، فلا يهنا لها عيش ، وتبكي مصيرها
ومصيره . ويُرَوَى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس
في غراب البين ، وأخذت تتف ريشها وهي تصيح بأشعار مختلفة من مثل
قولها :

ألا يا غرابَ البين لونك شاحبُ وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصِرٍ كما ليس لي من ظالمي نصير
ولا أضنى الحب قيساً رقى له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار
لبي لعله يحظى برؤيتها ، فضى معهم وهو ينشد :

لقد عدبتني يا حبُّ ليلي فقَعُ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموتَ أروحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشَّتاتِ
ووقعت عينه عليها ، فخر مغشياً عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق
من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحجج وراها هناك ، فعاوده
فتونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو ينشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت
تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلقُ روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنصرم العهدِ
ولكنه باقٍ على كل حادث وزائرنا في ظلمة القبر واللحدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبتَه .
 وتمضى القصة فترعم أنه رأى في بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها
 مخايل صاحبتَه ، فتزوجها ، ولكن حينه إلى صاحبتَه الأولى عاوده ، وكأنما لم
 يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وترعم القصة أيضاً أن أباهَا شكاه
 إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرَّض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ،
 ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أنَّى له ؟ لقد أمضه الغرام ،
 ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ،
 وبكى أحرَّ بكاء منشداً :

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
 فإن نسيمَ الجوّ يجمع بيننا ونُبصر قَرْنَ الشمس حين تزول
 وأرواحنا بالليل في الحَيِّ تلتقى ونعلم أنا بالنهار نَقِيل^(١)
 وتجمعنا الأرضُ القَرَارُ وفوقنا سماءُ نرى فيها النجومَ تجولُ

واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته
 تمنع في القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفيرِ
 ومن ألمٍ للحب في باطن الحشما وليلٍ طويل الحزن غير قصيرِ
 وقوله :

وبين الحشما والنَّحر منى حرارةُ ولوعةٌ وجَدٍ تترك القلب ساهيا
 تمرُّ اللبالي والشهور ولا أرى ولوعى بها يزداد إلا تماديا
 وقوله :

ألا ليت أياماً مَضِين تَعُودُ فإن عُدُن يوماً إننى لسعيدُ

(١) نقيل : من القيلولة وهي نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبتة ، حتى رأى رضيعة الحسين بن علي ونفر من قريش تعمقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبني في شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئهم راضياً ، فعادت لبني إلى قرّة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبَّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلاً إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جنبها .

جميل^(١) بن معمر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العنريين . فقد نشأ في منازل عُدرة بوادي القُرى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقي ابن أبي ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببني أمية كثيراً ، ففي أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثير عزة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العنريين ، وفي أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدبة بن الحشم تلميذ الخطيئة ، ونعرف أن الخطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمتُّ بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التي كانت تُعنى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الخزيم الكنانى .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، تُعنى الرواة والناس بأشعاره ، كما عُنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهي أشعار يمضى جمهورها في التغنى ببشينة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته ، تحاباً صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ، إذ أحبها حباً انتهى به إلى الهيام بها ، وعرفت ذلك فنحته حبها وعطفها ، وأخذت تلتقى به حين شباً في غفلات من قومها ، وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيقتوا عليها الحناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقي برىء ،

وحديث الأربعاء ٢٤٩/١ ، ٢٨٧ . . . وطبع ديوانه بشير يموت في بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر في بعض قصائده الأملاني ٨٧/٢ ، ٣٠٣ .

(١) انظر في جميل وأخباره وأشعاره الأغاني (طبع دار الكتب) ٩٠/٨ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ والشعر والشعراء ٤٠٠/١ وما بعدها والخزامة ١٩٠/١ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣٩٥/٣

وأخذت الألسنة في الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحابين ، فهجرته ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

وإني لأرضى من بُشِينَةٍ بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلبله^(١)
 بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
 وبالنظرة العجلى وبالحوّل تنقضى أوأخره لا نلتقى وأوائله
 وكانت تلمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتُشرق الدنيا في عينه ،
 ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أيها فردّه ، لكراهة العرب أن يزوجوا
 فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من قى في
 القبيلة يسمى بُبَيْتِهَا ، فتسودُّ الدنيا في عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح
 حيا كل حياته ، فهو يملك عليه كل شيء ، ويأخذ عليه كل طريق ،
 يقول :

ولو تركت عقلي معى ما طلبتها ولكنّ طلابيها لما فات من عقلى
 خليليّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلى
 فلا تقتليني يا بُشَيْنُ فلم أصب من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلى
 ويقول :

لها في سواد القلب بالحب مبيعة هي الموت أو كادت على الموت تُشرف^(٢)
 وما ذكرتك النفس يا بثن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلف
 وإلا اعترتني زفرة واستكانة وجاد لها سجّل من الدمع يذرف^(٣)
 وما استطرفت نفسي حديثاً لخلّة أسرُّ به إلا حديثك أطرف

ويعضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتنبيله في بعض الأحايين
 أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبه ، ويشقى به . ويرحل إلى

(١) البلابل : الوسوس . قرت : سكنت . (٣) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

(٢) يقصد بالمبيعة حرارة الحب وقوته .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملاً من الجهاد في عشقها ما يطيق
ودا لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصبوته إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكرها
لا تبرح مخيلته ؛ بل تعيش في قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات
يُودِعها عبادته على شاكلة قوله :

ألا ليت شعري هل أبين ليلاً بوادي القرى إني إذن لسعيد
وهل ألقين فرداً بشينة مرة تجود لنا من ودها ونجود
علقت الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
وأفانيت عمري في انتظر نوالها وأبليت فيها الدهر وهو جديد
إذا قلت ما بي يابثينة قاتلي من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلي أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالباً ولا حبها فيما يبىد يبىد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ويحياً إذا فارقتها فيعود

وشعر جميل كله في بشينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة
العاطفة . وقد ظلت بشينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر في ولاية
عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن
لحقت به .

شعراء الزهد

تردد في القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها
الزائل ، وهي دعوة تحدى في تضاعيفها الحث على التقوى والعدل الصالح ،
فالمسلم الحق من عاش للأخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ
محدود ، حظ يقيم أوده ، ويعدّه للكفاح في سبيل الله ، ومن ثم كان زهد

الإسلام لا يعنى الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : (وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وهو نصيب ينبغي أن لا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد . .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، وُروى أن رجلاً جاءه فقال : يا رسول الله دُلّنى على عمل إذا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ، فقال : « ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس ^(١) . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة ^(٢) المسجد منزلاً لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمثريين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثير من أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله ابن عمر وأبو الدرداء وأبو ذر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلى لربه . وفي ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس ^(٣) .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضياع وشيدوا القصور ، وهم في ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم في كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقيّة الصالحة ، وسرعان ما تكونت في كل بلد أقاموا فيه جماعات القراء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش في مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقى فيه بهؤلاء النسك والقرء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر في ذلك ، وكأن قوماً انصرفوا عن الفن ، خشية على أنفسهم من التورط في الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثير من ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم وديناهم ، ومضوا يتعبّدون ، وكان الخوارج في

(٣) انظر في ذلك كتابنا التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٦٠ وما بعدها .

(١) انظر في هذا الحديث رقم ٣١ في الأربعين النووية والبيان والتبيين ١٦٦/٣ .

(٢) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

جملتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلّت في اجتهادها وما زعمته من كفر
الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تفضل يوماً في تقواها .

لذلك كله عمّت في العراق موجة واسعة من التقوى والزهد في الدنيا ونعيمها
المادى زهداً كثيراً ما تطرّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل في ثنايا هذا الزهد
تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل في الإسلام من الموالى
والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه
وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهاال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق .
وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس
وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرّة أعينهم ، وهى لذلك مائى تحدثهم
- مستلهمة القرآن الكريم - عن قدرة الله في خلقه السموات والأرض ، وعن
الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ
وهو في وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى لكأنه يشاهدها بين عينيه ،
ويحض حضاً قوياً على الزهد في الدنيا وحطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ
لا يزالون يستشهدون في وعظهم بأشعار لبيد والنابعة الجعدي وغيرهما تلك التى
تدعو إلى خشية الله وتقواه ، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة
تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً في نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون
إلى مجالسهم ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته
الروحية في الشعراء ، كما مرّت بنا في مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار
زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم
العجلى والعجاج يبدءون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول
الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية
وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته (١) :

ياربّ قد أشرفت نفسى وقد علمتُ علماً يقيناً لقد أحصيت آثارى
يامخرج الروح من جسمى إذا احتضرتُ وفارج الكرب زحزحنى عن النار

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريلج)

ونريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا في أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام . وأول من نقف عنده عروة بن أذينة فقيه المدينة الذي رُويت له - كما أسلفنا - مقطوعات في الغزل العفيف ، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد في هذا العصر ، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة في أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه ، وبلغ من مبالغة بعضهم في هذا المبدأ أن رأوا في السعي والكد نقصاً في التوكل والثقة بربهم . ولا شك في أن هذا المبدأ يفضي إلى طمأنينة نفسية قوية ، كما يفضي إلى طرح الدنيا طرحاً تاماً ، وفي تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أُسعى له فيعني تَطَلُّبُهُ ولو قعدتُ أتاني لا يُعني
خيمي كريمٌ ونفسي لا تحدثني إن الإله بلا رزقٍ يخليني

ومن اشتهروا بكثرة أشعارهم في الزهد عبد الله بن عبد الأعلى ، ويظهر أنه كان يستمد في زهده من منابع بعيدة عن الإسلام ، إذ نرى من كتبوا عنه يتهمونه في دينه ، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة^(١) ، وهو في أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وَيْحَ هذي الأرض ما تصنع أكلٌ حَيٌّ فوقها تَصْرَعُ
تزرعهم حتى إذا ما أتوا عادت لهم تحصد ما تزرع
وقوله :

مَنْ كان حين تُصيب الشمسُ جَبْهته أو الغبارُ يخاف الشَّيْنِ والشُّعْثَا
ويألفُ الظِّلَّ كى تَبْقَى بِشاشته فسوف يسكن يوماً راغماً جَدْنَا^(٢)

وفي تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضيء أصحابها بما جاء في الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة ، وأكثر من لهجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣/٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ (٢) البلدت : القبر .

وما بعدها وانظر أمالي القالي ٢/٣٢٣ .

الدعوة مسكين (١) الدارمي القائل :

وُسِّمْتُ مِسْكِينًا وَكَانَتْ لِحَاجَةً وَإِنِّي لِمَسْكِينٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ
ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ،
ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً
أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . وبما يتردد في كتب
الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قد رله ، وأن الله لا بد أن يكشف
غمته :

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَأَكْرَهَهُ إِلَّا سَيَجْعَلُ لِي مِنْ بَعْدِهِ فَرْجًا
ومن مستحسن شعره قوله :

وَلَيْسْتُ إِذَا مَا سَرَّنِي الدَّهْرَ ضَاحِكًا وَلَا خَاشِعًا مَا عَشْتُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ
أَعِيفٌ لَدَى عُسْرِي وَأَبْدَى تَجْمَلًا وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَعِفُّ لَدَى العُسْرِ
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي إِذَا كُنْتُ مُعْسِرًا صَدِيقِي وَإِخْوَانِي بَأَنَّ يَعْلَمُوا فَقْرِي
وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعْلَمُ مَكَانَ صَدِيقِهِ وَمَنْ يَغْنَى لَا يَعْدَمُ بِلَاءَ مِنَ الدَّهْرِ
وهو القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بغير سلاح
وله أشعار طريفة في الغيرة (٢) وأن على الزوج أن لا يبالي في اتهام زوجته ،
حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبية
القبلية في فخره بنحصاله ؛ وقد مررنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه
في ذلك من شعر . وهو في الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ،
إنما كان متأثراً تأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها في إشادته
بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (سأسي) المرتضى ٤٧٢/١ وابن عساكر ٣٠٠/٥ .
(٢) أمالي المرتضى ٤٧٥/١ وما بعدها .
١١٦/٢ ومعجم الأدباء ١٢٦/١١ وأمالي

أبو الأسود الدؤلي (١)

اسمه ظالم بن عمرو من بني كنانة ، ولي قضاء البصرة في ولاية عبد الله ابن عباس عليها لعلي بن أبي طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه في حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشيعة لآل البيت . وهو أول من وضع النقط في المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدُّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم . وله مدائح وأهاج في معاصريه وأشعار في أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلاً شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقياً صالحاً ، وله أشعار كثيرة في الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبت من الحوائج حاجةً فادعُ الإله وأحسن الأعمالا
فليعطينك ما أراد بقدره فهو اللطيف لما أراد فعلا
ودع العباد ولا تكن بطلابهم لهجاً تضععُ للعباد سؤالا^(٢)
إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقلب الأحوال

وهو في زهده لا يدعو إلى الحمول بل يدعو إلى السعي في الدنيا والمشى في مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يجيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتعنى ولكن أتتِ دلوك في الدلاء
تجئك بملئها يوماً ويوماً تجئك بحمأةٍ وقليلٍ ماء^(٣)
ولا تقعد على كسلٍ تمنى تحيل على المقادر والقضاء

على أنباء النحاة ١٣/١ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٠٤/٧ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيل ببغداد .

(٢) تضعع : تذل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٧/١٢ والشعر والشعراء ٧٠٧/٢ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٧٠ وأسد الغابة ٦٩/٣ والإصابة ٣٠٤/٣ والخزانة ١٣٦/١ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجزري ٣٤٥/١ ومعجم الأدباء ١٢/٣٤ وإنباء الرواة

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغى من الربط بين العلم الدينى والعمل ، فالعلم إن لم يُقَرَّن بالعمل لم يكن علماً ، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه بمسوفٍ بميثاقٍ عليه ولا عهدٍ ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرءُ مالا ثم يُحرِّمهُ عمَّا قليلٍ فيلقى الذلَّ والحرباً^(١)
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذرُ منه الفوتَ والسلبا
وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول الأول هو الصحيح .

سابق^(٢) البربرى

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان قاضى الرقة بالموصل وإمام مسجدتها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز بعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنٌ
وتجمعُ ما لاتأكل الدهرُ دائباً كأنك فى الدنيا لغيرك خازنٌ
ويقول :

أموالُنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنينا
والنفس تكلفُ بالدنيا وقد علمتُ أن السلامةَ منها ترك ما فيها

(١) ٣٨/٦ والخزاة ١٦٤/٤ والبيان والتبيين ٢٠٦/١ والمبرد ص ٢٥٢ .

(٢) الحرب : سلب المال .
(٢) انظر فى سابق تاريخ ابن عساكر

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغي لكل إنسان أن يعدَّ العُدَّةَ للرحيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملاً صالحاً ، ومن قوله في ذلك :

إذا الجسدُ المعمورُ زایلَ روحَه خوى وجمالُ البيتِ يانفسُ أهلهُ
وقد كان فيه الروحُ حيناً يزيئُه وما الغمُّدُ لولا نصلُّه وحمائله
إذا الأرضُ خفَّتْ بعد ثقلِ جبالها وخلقُ سبيلَ البحرِيا نفسُ ساحلهُ
فلا يرتجى عوناً على حملِ وزره ميسىءُ وأولى الناسِ بالوزرِ حاملهُ

وزراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله ، فلا معندي عنه ، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك في أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء مالا تستطيعان دفعه فلا تجزعا مما قضى الله واضبراً
ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته :
« لو أن شعر سابق البربرى كان مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عايه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع . »

شعراء اللهو والمجون

رأينا في غير هذا الموضع كيف تحضر العرب في هذا العصر ، وكيف أن كثيرين منهم أتشفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم في الترف يتورط كثير من أبنائها في آثام مختلفة من اللهو والمجون ، وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد في العصر كان لها آثار عميقة في

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد في الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتهالك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرّم الخمر ، وأن عمر شدّد في عقابها حين وجد بعض المسلمين يقترفونها من مثل أبي محجن الثقفي ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة وإلى الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبي محجن في عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نمضي في عصر بني أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملت من أموال وحضارات وصور من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أترفتا ، وتحضر العرب الذين خرجوا في الفتوح واستقروا في البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع في الاستمتاع بالحياة ، وبالغ تفر في هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا في العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة في البيئات البعيدة التي رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيثة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرّ بنا كيف أن والياً عليها – هو قتيبة بن مسلم – اضطرّ حين وجد تفشى الخمر في جنده أن يعاقب على احتسابها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر في كل البيئات ، وقلما نجدتها في مكة والمدينة حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين هلوا من كثوسها في هذه البيثة لعهد معاوية ابن أُرطاة^(١) ، وعبثا حاول مروان بن الحكم وإلى المدينة أن يردّه عنها ، وفيها يقول :

إنا لنشربُها حتى تَمِيلَ بنا كما تَمِيلَ وَسَنَانُ بوسنانِ
ومنهم عبد الرحمن بن الحكم^(٢) الذي كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ،
وفيها يقول :

(١) راجع في ابن أُرطاة الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٤٢/٢ وما بعدها .
(٢) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ٢٥٩/١٣ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان والتبيين ٣٤٨/٣ .

ترى شاربِئِها حين يَعتورانها يَميلان أحياناً ويعتدلان
ومن كانوا يحتسونها في هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميادة^(١) مادح الوليد
ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضرمي الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتني حُرْمِ الوَقودِ كرامةً كدم الذَّبِيحِ تمجُّهُ أوداجُهُ^(٢)
ضمنَ الكرومِ له أوائلَ حَمَلِهِ وعلى الدَّنانِ تمامُهُ ونتاجه^(٣)
ومثله ابن هرمة^(٤) ، وكان مشغوقاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أسألُ الله سكرةً قبل موتي وصباحَ الصُّبيانِ يا سكرانُ

وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر في غير
حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حملتهم من الخطوب باعناً لهم
على المحجون ، حتى ينسوا به عناءهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقرة
لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَّيم^(٥) بن وثيل الرياحي التيمي ،
وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرة لغالب
أبي الفرزدق التي مرت بنا ، والتي مضى فيها ينافس في نحر إبلة لقومه ،
ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حذراً راء تراجعته وتكثر من
مراجعته ، فقال :

تقول حذراء ليس فيك سوى الـ خمرٌ معيبٌ يعيبُهُ أَحَدُ
فقلت : أخطأتِ بل مُعاقرتي الـ خمرَ وبذلتِ فيها الذي أجِدُ

(٤) راجع في ترجمته أغاني (دار الكتب)
٣٦٧/٤ والشعر والشعراء ٧٢٩/٢ والخزاة
٢٠٣/١ والموشح ص ٢٢٣ .

(٥) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩
والإصابة ١٦٤/٣ والخزاة ١٢٣/١ والشعر
والشعراء ٦٢٦/٢ .

(١) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)
٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزاة
٧٦/١ والبيان والتبيين ٣/٣٤٣ .

(٢) المعتق : الشراب القديم . حرم الوقود : لم
يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق
في العنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمله .

هو الثناء الذي سمعت به لا سبْدٌ مُخلدى ولا لَبْدٌ^(١)
ويحك لولا الخمور لم أحفلي الـ عيش ولا أن يضمني لحد^(٢)
هي الحيا والحياة واللّهو لا أنتِ ولا ثروة ولا وكد
ويقف السرادق الذهُلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلن أنه لن يكف
عنها ، إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه^(٣) . ويلقانا في عهد زياد بن
أبيه حارثة^(٤) بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدَّاحه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله
فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج في ترجمته يجاهر فيها بأنه لن يكف عنها ،
مهما أكثر لأعموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ على الرَّاحِ من لو يذوقها لجنُّ بها حتى يغيب في القبرِ
علامَ تدمُّ الرَّاحُ والرَّاحُ كاسمها تُريح الفتى من همِّه آخر الدهر
فلمُننى فإنَّ اللوم فيها يزيدنى غراماً بها إن الملامة قد تُغرى
وكان يذهب مذهبه في الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفي
وواليه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج في ترجمته^(٥) . ولعل
عراقياً لم يشهر بها كما اشهر الأقيشر^(٦) الأسدى وكان كوفياً خليعاً ماجناً ،
وفيها يقول :

أفنى تِلادى وما جمعتُ من نَشَبِ
قرعُ القواقيزِ أفواهَ الأباريقِ^(٧)
ويقول :

كُميتُ إذا فُضتُ وفي الكأسِ وردةٌ
لها في عظامِ الشاربين دبيبٌ
ص ٢٦٦ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء
٧٥٦/٢ .
(٦) انظر في ترجمة الأقيشر أغاني (دار الكتب)
٢٥١/١١ والشعر والشعراء ٥٤١/٢ ومعجم
الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢٧٩/٢ والموشح
ص ٢٢١ .
(٧) التلاد : المال القديم . النشب : الفغار
والضباع . القواقيز : الكئوس وأواني الخمر التي
تُشرب فيها .
(١) لا سبْد ولا لَبْد : مثل أى لا قليل
ولا كثير .
(٢) اللحد : شق للميت في جانب القبر .
(٣) الشعر والشعراء ٦٧٠/٢ .
(٤) انظر ترجمته في الأغاني (طبع الساسى)
١٣/٢١ وأمال المرتضى ٣٨٠/١ وما بعدها
وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين
والطبرى .
(٥) انظر ترجمته في الأغاني (ساسى)
٤٠/١٦ والخزانة ٤٨٥/٢ ومعجم الشعراء

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم في الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان في المجون والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربية وعناء الحروب. ويسرّوي البلاذري أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا في جيش الحجاج الذي وجهه إلى الديلم ، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم ، فدفنه صاحبه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغت الكأس أراقاها على القبر ، وبكى . ومات الثاني فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء^(١) . ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّمَرْدَل^(٢) بن شَرِيك ، وكان قد خرج للغزو في تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يفرق فيها حزنه . ومنهم أبو جِلْدَةَ اليشكري الذي سبق أن عرضنا له في شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدَمِّمُها إدماناً ثم تاب عنها ، فقال^(٣) :

سأركن في التقوى وفي العلم بعدما ركضتُ إلى أمر الغويّ المشهرِّ

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المجون في خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحماد الراوية وحماد عَجْرَد وبيحي بن زياد، وهم جميعاً ممن عاشوا في الدولتين الأموية والعباسية ، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسي منهم بالعصر الأموي ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا في قوة إلى تهالك الناس على المجون في الكوفة في أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هيا لهذا الانحلال الخلق على الأقل عند بعض الأفراد في هذا العصر أن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذي أكبَّ على الخمر والمجون إكباباً ، كما أكبَّ على نظم الحمريات وهو وأبو الهندي شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

١٣/٣٥١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٦٨٥

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٣) أغاني (دار الكتب) ١١/٢٣٠ .

(٢) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب)

الوليد^(١) بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك في سنة ٨٨ للهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمير والغناء ، حتى في خلافته ، إذ كان يستقدم مغني مكة والمدينة ومغنياتها ، واشترى سلامة القس وحبابة ، وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقصف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف في المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذي خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفى سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحول قصره ببادية شرق الأردن مقصفاً كبيراً للخمير والعزف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً في مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعب من كثوس المجون عباً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ توارزه اليمانية ثاراً لخالد القسري وما كان من تعذيبه له وقتله .

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، وما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمير والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقنص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل في نفس الجو الماجن ، الذي كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة ، ومن ثم آثر قصره ببادية شرق الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا في غير هذا الموضع أنه كلف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما في ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارحة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتمائيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصناعات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

٣١٨ وحديث الأربعاء ١٦٩/١ وقد نشر ديوانه في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

(١) انظر في ترجمة الوليد أغاني (دار الكتب) ١/٧ وما بعدها والطبري في سنتي ١٢٥ و ١٢٦ وكتابنا التطور والتجديد في الشعر الأموي ص

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأتقياء .

وينبغي أن لا نمضى مع الرواة فى كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانويًا زنديقًا ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقًا^(١) ، وفى الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان^(٢) . وفى الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ فى وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه فى التشنيع على خلفاء بنى أمية ، وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرّم الله ومن شرب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التى لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره فى الخمر ، وله أشعار فى الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخمر فى الإبداع والروعة ، ويظهر أنه ثقّف كل ما نُظِم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى^(٣) بن زيد العبادى ، وقد مضى ينميه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الحمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع فى ثنايا قصيدة أو فى مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنظَّم فى مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالجلد والسرور ، لسبب طبيعى ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها فى غمرة عشقه ، وكأنما تفجّر له ينابيع الفرح تفجيراً . وقرأ له هذه الحمرية :

اصدَعْ نَجِيَّ الهموم بالطَّرَبِ وانعمْ على الدهر بابتنة العنَبِ
واستقبل العيش فى غضارته لا تقفُ منه آثار مُعتقبِ
من قهوة زانها تقادُمها فهى عجوزُ تعلقو على الحقبِ

(١) راجع الأغاني ٦/٧ وما بعدها ، ٧٢/٧ .

(٢) انظر الطبرى ٥٥١/٥ .

(٣) انظر الأغاني ٧/٧٥ .

أشهى إلى الشرب يومَ جلوتها من الفتاةِ الكريمةِ النَّسبِ
فقد تجلَّت ورقٌ جَوْهرُها حتى تبدَّت في منظرٍ عجبِ
كانها في زُجاجها قَبَسٌ تذكو ضياءً في عَيْنِ مُرتقبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب
المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرة .
واقراً أيضاً هذه الحميرية :

عللانى واسقيانى من شرابِ أصبهاى
من شرابِ الشيخِ كِسرى أو شرابِ القبروانِ
إن فى الكأسِ لِمسكا أو بكفى من سقانى
أو لقد عُودِرَ فيها حين صُبَّت فى الدنانِ
كللانى تَوَجَّانى وبِشعري غنَّيانى
إنما الكأسُ ربيعُ يُتعاطى بالبَنانِ
وحُمياً الكأسُ دَبَّت بين رِجلى ولسانى

وهى تجرى أيضاً فى نطاقِ الفرحَةِ العميقةِ بالخمِرِ ، بل لعلها أقوى
من سابقتها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى فى رأيه عطر الوجود بل ربيعهُ ، وهو يتلظى
بنشوتها التى تسرى فى جسده من فرعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين
من أمثال أبى نواس فى هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً
فقال أبو الفرج : « ولوليد فى ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها
الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه
سلك معانيه كلها وجعلها فى شعره » .

ولم تستم الحميرية عنده وحدثها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى
يجعلها كاللهب المنذلع فحسب ، فإنها استمت عنده أيضاً التفاعل الحميم
بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ،
يحسن اللعب على أوتار العيذان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره^(١) . ومن ثمَّ اجتمع للخمرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل التهجيز والرَّمَل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقي إلى اكتشاف وزن المَجْتَث ، فكان أول من نظم فيه^(٢) . وإذا صححت الخطبة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم الجمعة - وهي موعظة^(٣) طويلة - كان أول من أعدَّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي

أبو الهندي^(٤)

هو غالب بن عبد القدوس بن شيبث بن ربيعة الرياحي التميمي ، وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرته الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فرَّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندي ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنَّتها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان فزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تُباع فيه الخمر وتُتَرَفُّ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرية بكل شيائها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لئرى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبي نواس والخليل وأبي هفان وطبقتهم إنما اقتلدوا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معانيه » . وله في مداومة سكره وعدم إفاقتة منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع والبة . إذ يقال إنه

(١) الأغاني ٢٧٤/٩ و ٣٢/٧ ، ٤٤ .
 (٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص ٥٩ .
 (٣) الأغاني ٥٧/٧ .
 (٤) انظر في ترجمته أغاني (مأسي) ١٧٧/٢١ والشعر والشعراء ٦٦٣/٢ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

شرب عند خمارة ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشربوا وناموا وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرعون من الخمر ، فشرب ، حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ، يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم في بعض شعره . إنه يعيش للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سقاتها ودنانها وأباريقها وزقاقها مثل قوله :

يَجُّ سُلَاقًا مِنْ زِقَاقِ كَأَنها شيوخُ بني حَامٍ تحنَّتْ ظهورها
وقوله :

وَإِذَا صُبَّتْ لِشَرَبِ نِجَلَتِها حَبَشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ
وزاه يصف القيان اللأئي يسمعون في أثناء شربها ، كما يصف من تصرعهم وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينته ، بل فرحته ومسرته حتى ليتمنى أن يضمها إلى صدره في قبره ، فلا تزيله حياً ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا - إن مت يوماً - كَفَى وَرَقَ الكَرَمِ وقبري مَعْصِرَةَ
وادفنوني وادفنوا السَّراحَ معي واجعلوا الأقداحَ حول المَقْبِرَةِ
وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في سكة الحسران إلى الأنفاس الأخيرة من حياته ، يصدحُ بنغمرياته ، ويتخذ الخمر وحى إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير في نفسية الشاعر العربي ، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يصدرون عنها في أشعارهم ، فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة في صمتها ولا في حركتها دون أن يرسموها في أشعارهم ، فهم يصورون فلكواتها بكثبانها ورمالها وغدرانها وغبيثها وسيولها وخصبها وجمد بها ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموي - على سُنَّة آباؤهم - يستلهمون صحراءهم ، مزاجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التي قضى بها شبابه مع بعض صواحيبه ، ويسترسل في الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته في الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التي يُسهب في وصفها لما لها من جمال في نفسه ، كما يُسهب في وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو في ثنايا ذلك يحدثنا عن كل ما تقع عليه عينه في صحرائه ويخلف أثراً في ذهنه من طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة ، فإن الصحراء لم تجف بناييعها في نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرزهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجريير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء ونهْيَرْدُجَيْل وما يجري فيه من سفن ، موازنة يُعَلِّي فيها الطبيعة الأولى علواً كبيراً ، يقول (١) :

لَفْدَجٌ وَصَحْرَاوَاهُ لَوْ سَرْتُ فِيهَا	أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُجَيْلٍ وَأَفْضَلُ (٢)
وَرَا حَلَّةٍ قَدْ عَوَّدُونِي رَكُوبَهَا	وَمَا كُنْتُ رَكَّابًا لَهَا حِينَ تُرْحَلُ (٣)
قَوَائِمُهَا أَيْدِي الرِّجَالِ إِذَا انْتَحَتْ	وَتَحْمَلُ مَنْ فِيهَا قَعُودًا وَتَحْمَلُ (٤)
إِذَا مَا تَلَقَّتْهَا الْأَوَادِي شَقَّهَا	لَهَا جُوجُؤٌ لَا يَسْتَرِيحُ وَكَلْكَلُ (٥)
إِذَا رَفَعُوا فِيهَا الشُّرَاعَ كَأَنَّهَا	قَلُوصُ نَعَامٍ أَوْ ظَلِيمٌ شَمَرْدَلُ (٦)

وواضح أنه يُؤثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس في رحلات نهريّة ممتعة ، وهو يعبر بذلك

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص ٦٢٦ .
 (٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة وحى ضرية . ودجيل : من أنهار دجلة .
 (٣) ترحل : تهباً للرحيل .
 (٤) القوائم هنا : المهاذيف بأيدي الملاحين .
 (٥) الأواذي : الأمواج . الجوجؤ : بطن السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .
 (٦) قلوص النعام : طويلة القوائم ، الظليم : ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتِنوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرَجَّاز . أمثال رُوْبَة الذى يقول (١) :

إِن الرُّدافى والكْرِىِّ الأَرْقَبَا يكفبك درء الفيل حتى تَرَكبَا (٢)
فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَتَفَسَّحْ لطبيعة البيئات الجديدة في شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هي التي كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه في بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه في طريقه شتاءً من نثير الثلج : يقول (٣) :

مستقبلين شمالَ الشام تَضْرِبُهُم بحاصِبِ كَنْدِيفِ القُطْنِ مَنثورِ (٤)
على عَمائِمنا يُلقَى ، وأرْحَلنا على زواحف نَزْجِها محاسيرِ (٥)
وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد في وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا في ديوانه قطعة صور فيها نُهَيِّرات شَقَّها هشام بن عبد الملك من نهر الفرات ، وخاصة نهر الهنيء ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهي تطرد على هذا النمط (٦) :

شَقَّقْتَ من الفُراتِ مباركاتِ جِوارى قد بَلَّغْنَ كما تريدُ
وسخَّرْتَ الجبالَ وَكُنَّ خُرُساءَ يقطعُ في مناكبها الحديدُ

(٤) شمال الشام: ريح شمالية . الحاصب : ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج .
الكنديف : نثير الثلج والبرد .
(٥) نزجها : نسوقها ونُدفعها ، محاسير : كليلة .
(٦) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ١٥٠ .

(١) الحيوان ٩٠/٧ .
(٢) الردافى : الحادى . الكرى : الذى يكرى دابته ويؤجرها . والأرقب : غليظ الرقبة .
دره الفيل : ذفمه وكفه .
(٣) اللديوان ص ٢٦٢ .

بلغت من الهنيء فقلت شكرا هناك ، وسهل الجبل الصلود^(١)
 بها الزيتون في غللي ومالت عنساقيد الكروم فهن سود^(٢)
 فتمت في الهنيء جنان دنيا فقال الحاسدون هي الخلود
 يعضون الأنامل أن رأوها بساتينا يؤازرها الحصيد^(٣)
 ومن أزواج فاكهة ونخل يكون لحمه طلع نصيد^(٤)

وجرير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات في الجبال وتحطيم ما يعترض من
 الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية في تلك البيئة وما حف بها من
 أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموي مع استغراق مناظر الصحراء له لم يغمض عينيه عن مناظر
 البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من
 كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك في حديثنا عن
 الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رؤبة
 يصفه^(٥) :

أجرّد كالحصن طويل النَّابِينُ مشرف اللّحي صغيرُ الفَقْمِينِ^(٦)
 عليه أذنان كفضل الثَّوبِينِ

واشتهر في هذا المجال هرون مولى الأزدي^(٧) . فالطبيعة الجديدة المتحركة
 والصامته ألهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن يبتهم الصحراوية
 كانت ملهمهم الأول في هذا العصر .

(١) الصلود : اليابس .
 (٢) الغللي : الماء الجاري تحت الشجر على وجه الأرض . الكروم : الأعتاب .
 (٣) الحصيد : الزروع التي تحصد ثمارها كالقمح .
 (٤) الطلع : ثمر النخل في إبانة . نصيد : منتظم .
 (٥) الحيوان ٧٩/٧ .
 (٦) الفقمان : اللحيان .
 (٧) الحيوان ١١٤/٧ وما بعدها .

ذو الرُّمَّة (١)

هو غَيْلان بن عقبة من بني عدى بن عبَّد مَناة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله في بعض شعره يصف الوتدَ : « أشعث باقى رُمَّة التقليد » والرُّمَّة : القطعة البالية من الحبل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّبَ بذى الرمة لأنه كان - وهو غلام - يتفزع ، فأنت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له معاذة في جلد غليظ ، وعلقتها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمي ذا الرمة . وقيل إن مية التي شغفت قلبه حبَّاهى التي لُقِّبته بذلك حين ألمَّ بنخبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لاتعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بني أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء . هم مسعود وأوفى وهشام ، وفي بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس . وقد ولد حوالى عام ٧٧ للهجرة . وتلقن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر في خلاف نشب بين قبيلته وعتيبة بن طرثوث بسبب بئر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة في هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مناة : فلم يكرمهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً في اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرثى ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمده به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان يتزل الكوفة والبصرة - ويطيل النزول فيهما - منذ مطلع القرن الثانى للهجرة مادحاً رجالاتهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

والبيان والتبيين والحيوان والكامل للمبرد وأمالى المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد في الشعر الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارنى ديوانه في كبريدج سنة ١٩١٩

(١) انظر في ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٠٦/١ وأغانى (سالى) ١٠٦/١٦ وابن خلكان في غيلان والموشح للمرزبانى ص ١٧٠ والخزانة ٥٠/١ ورسالة الجنان لليافعى ٢٥٣/١ وفهارس الأغاني

لهلال بين أحوز المازني في انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقي منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق في سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزاري فاتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسري منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام ، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البجلي ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبي بريدة الأشعري الذي ولي شئون الشرطة لخالد في البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولي منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفي الشاعر . وقد امتدت رحلاته في طلب النوال إلى دمشق وخاصة في عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومي ، ولما ولي فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا في بعض شعره حكيم بن عياش الكلبي الكوفي الذي كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة في شعر ذي الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالفضلال ، ودائماً يذكر في رحلاته الصحراوية التيمم والقصر في الصلاة وتلاوة آي الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعظ والمتكلمين في عصره ، حتى لراه يعتنق مذهب القدرية في العدل على الله جلّ جلاله وفي حرية الإرادة ، ويناقش رؤبة في ذلك ويعلو عليه في نقاشه^(١) ، وما صدر فيه عن مذهبه قوله في الغزل :

وعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كَوْنَا فَكَانَتَا فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرّز بذلك من القول بخلاف العدل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويُجمَع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاءً حاداً وأنه كان كنزاً من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان كنزاً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعي ، حتى قالوا إنه كان راويته

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى
يتغناها إلى أن دُفن في أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف في المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق
وجرير ، وكان الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبْقيا فيه بقية . ومُلْهَمته الأولى
في الديوان مَيَّة بنت طُلْبَة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها في بعض رحلاته ، فشغفت
قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها في كل مكان . وفي الديوان أخرى تسمى
خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة
أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ
من مثل قوله :

وقفتُ على رَبِّعٍ لَمِيَّةٍ ناقِي فمازلتُ أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثُّه تكلمنى أحجاره وملاعبه^(١)

وقوله :

وحبها لى سوادَ الليل مرتعداً كأنها النار تخبوثم تلتهب

وقوله :

أداراً بِحُزْوَى هِجَّتِ للعين عبرةً فماءُ الهوى يرفضُ أو يترقرقُ^(٢)

وقوله :

أَجَلٌ عبرةٌ كادتُ لِعِرْفانِ منزلِ لَمِيَّةٍ لو لم تُسهلِ الماءَ تَذْبَحُ

ولعل شاعراً عربياً لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً
كان يطغى بها نيران الحب المتدلعة في قلبه لمية ، وقد مضى يتغزى عنها بمحرابها
الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقاً
كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها
وليلاتها ورمالها وكتبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

(١) أسقيه : أدعوه بالسقيا .

يسيل . يترقرق : يسكن في العين جائلاً .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض :

وكل ما يُطَوَى فيها من آبار وسمائم وسراب وطير ورياح وكل ما يلعب في
سماؤها من كواكب ونجوم وسحاب وغيوم .

وكأنما وجد ذوالرمة عشقه الحقيقي في الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها
إلى شعره في لوحات رائعة ، وارجع إلى القصيدة الأولى في ديوانه التي يفتتحها
بوصف دموعه التي تسيل دائماً ولا تفر ، إذ يقول :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ

كأنه من كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرِبُ (١)

فإنك ستراه ينحس محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضي في نحو مائة
بيت يصور ثلاثة مشاهد رائعة من مشاهد الصحراء التي كانت تبهج
نفسه ، أولها مشهد أثن الوحش وحمارها ، وهو يقودها في يوم حار إلى ماء
بعيد ، تصل إليه ، وهوى عليه تريد أن تشفى غلَّتْها ، فيتعرض لها صائد
مخفف وراء الأشجار بسهامه ، فتفر على وجهها ، وتطيش سهامه ، ودائماً
تطيش هذه السهام في شعر ذى الرمة حباً للحيوان . والمشهد الثاني مشهد ثور
الوحش في كيناسه مكتناً من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل وسواسه ،
وتفتلت أضواء الصباح فيخرج من كيناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه
كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروع . والمشهد الثالث مشهد الظليم
وصاحبه يرعيان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهر الجو ، فيسرعان إليها خيفة
أن يسقط عليها برْدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة في المشاهد الثلاثة يشبه
الرسامين الذين يحشدون في لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يجسم صورة
الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمائها ومفازاتها وأعشابها ونباتاتها وغد رانها ،
وهو إلى ذلك يبت في الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس .
وقد صور في الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثل فيه البدوى
وإحساسه بكرامته ، كما صور في الظليم وصاحبه عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة .
ولعل هذه أهم خاصية تميز وصف الحيوان الوحشي عند ذى الرمة إذ يحمله

البالية التي لا تنى ترسل الماء .

(١) الكل: الرقع في عروة المزادة. مفرية :

مقطوعة ، يشبه عينه التي يسيل دمعها برقع المزادة

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله في ظبية وابنها أو خيشفها :

إذا استودعته صنفصفاً أو صريمَةً تنحّت ونصّت جيدها بالمناظر^(١)
 حذاراً على وشنان يضرعه الكرى بكل مقيلٍ عن ضِعافٍ فواتر^(٢)
 وتهجره إلا اختلاسا نهارها وكم من محب رهبة العين هاجر
 حذار المنايا رهبة أن يفتنّها به وهى إلا ذاك أضعف ناصر^(٣)

وواضح أنه صور محبة الظبية لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهي تبعد عنه حتى لا تدهنأ عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبت في الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .
 وبجانب هذه الخاصة في وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى في وصف الطبيعة الصامتة : إذ ملأها بالحياة والحركة ، واكن كيف يأتي بذلك في خمود الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان في النهار بالسراب ، فإذا ذرى الجبال تتحرك كأنها خيل ظالعة أو إبل مهدى للنحر عند البيت الحرام ، أو لعلها سفن تجرى في الفرات ، أما إذا جنه الليل فحسبه النجوم التي يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجرى في الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله في وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كأن بلادهن سماء ليلى تكشّف عن كواكبها الغيوم
 وقوله في ظباء أخرى :

كان أذمانها والشمس جانحةً ودع بأرجائها فض ومنظوم^(٤)
 وقوله في وصف الإبل ورحلتها في الصحراء :

كان مطايانا بكل مفازة قراقير في صحراء دجلة تسبح^(٥)

(١) الصفصاف : الأرض المستوية . صريمة : (٣) يفتنها . يسبقها .

رملة . نصت : نصبت مستقصية . (٤) الأذمان : الظباء ، فض : متفرق .

(٢) الكرى : النوم . المقيل : وقت القيلولة . (٥) القراقير : السفن .

وفي الحق أن مخيلته كانت حاملة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة في رؤى غريبة، وهي رؤى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله:

وريحُ الخُزامى رُشها الطُّلُّ بعدما دنا الليلُ حتى مَسَّها بالقَوادمِ^(١)

وقوله:

ألا طرقتُ مَيَّ هَيُوماً بذكرها وأيدي الثُّريا جُنحُ في المغاربِ^(٢)

ومن صورهِ الطريفة صورته للحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول:

إذا جعل الحرباء يَغْبِرُ لونه ويخضرُ من لَفحِ الهجيرِ غباغِبُهُ^(٣)

ويشبحُ بالكفَّينِ شَبْحاً كأنه أخو فجرةٍ عالى به الجِدْعُ صالبه^(٤)

وعنى طويلاً بوصف همس الفلوات وما يُسمع في حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن، ونراه يشبها بتراطن الروم وتضراب الطبل وصياح الضرائر وأصوات السم^(٥). ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة في صورهِ، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض، فنصبح وكأننا حقاً في عالم من عوالم الرؤى والأحلام.

الرُّجَّاز

الرُّجَّازُ من البحور القديمة في الشعر العربي، فقد كان يُستخدَم بكثرة في العصر الجاهلي، وهي كرة تؤكد أنه كان الوزن الشعبي العام الذي يدور على

(١) القوادم: الريش الطويل في جناح الطائر.

(٢) الهيوم: ذاهب العقل، وأراد بأيدي الثريا أوائلها.

(٣) الغباغ: الجلد أسفل الخنك،

ومعروف أنه كلما حميت الشمس على الحرباء رأيت جلده يخضر بينما يظل أعلاه أصفر.

(٤) يشبح: يمد يديه.

(٥) الحيوان ٦/١٧٥ وما بعدها، ٢٤٧، ٣٦٣.

كل لسان ، ومن ثمّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزحاف ، لا تلقانا في أي وزن آخر ، فكثرت فيه المشطور والمهوك ، وأيضاً فإنه لم يتطّل إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يحدون ببعير وحين يجولون في ميادين الحروب ، وحين يتناولون أي عمل كحفّر بئر أو مستح منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنظّم بديهة وارتجالاً مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثمّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسراها ، وهبّاه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقرانه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب^(١) العجلى ، ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى يتكاثر من يحاكونه . وحتى يتقصر بعض الشعراء النابيين حياتهم على تجويده وتحبيره ، وهم في ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثروا منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد .

وقد أخذت الأرجوزة - حين طالت - تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة في الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهي لا تختلف غالباً عنها في النظام وسرود الموضوعات المتنوعة . ومضت تزحمها حتى غلبتها في باب الصيد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم في هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشمرّدل بن شريك التميمي الذي عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان الشمرّدل صاحب قنص وصيد بالجوارح وله في الصقّر والكلب أراجيز كثيرة^(٢) » ويسوق له أرجوزة يستهلها على هذا النمط :

ص ٥٧١ وما بعدها والموشح ص ٢١٣ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ .

(١) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٢/٥٩٥ .

والأغاني ١٦٤/١٨ والخزاة ١/٣٣٢ وأسد

الغابة ١/١٠٥ والإصابة ١/٥٦ وابن سلام

قد أغتدى والصبحُ في حِجابِهِ والليلُ لم يَأوِ إلى مآبِهِ
وقد بدا أبلقَ من مُنْجابه بتوجيُّ صاد في شبابه^(١)
مُعاوِدٍ قد ذلَّ في إصعابه قد خرَّق الضُّفَّارَ من جذابه^(٢)
وعرفَ الصوتَ الذي يُدعى به ولعنةَ المُلْمَعِ في أثوابه^(٣)

ويلقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلَةَ^(٤) ، وهو مثل الشمردل كان يجمع بين الرجز والقصيد ، ويقول ابن المعتز : « له في الطَّرْد أراجيز كثيرة مشهورة ... وأعاجيبه في القَسْنَص وغيره كثيرة » وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز ، ولعل في هذا ما يصحح الفكرة التي كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب . وربما كان أهم من جمع بين الرجز والقصيد في هذا العصر أبو النجم العجلي ، وسنعرض له عما قليل .

ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد ، منهم دُكَيْنُ^(٥) بن رجاء الفُتَيْمِيُّ ودكين^(٦) بن سعيد الدارمي ، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظت ياقوت في معجمه ، ومنهم الزَّفِيَانُ^(٧) السعدي التيمي ، وأبرزهم جميعاً العَجَّاج وابنه رُوَيْبَةُ اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز ، ونقول صناعة ، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية ، فلم يعد يُقصد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها ، بل أصبح يُقصد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة ، وشركهما في ذلك من بعض الوجوه أبو النجم ، ولكنه لم يُبعد في الإغراب إبعادهما .

(٥) انظره في معجم الأدباء (طبع مصر) ١١٣/١١ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وتهذيب ابن عساكر ٢٤٧/٥ .
(٦) راجع معجم الأدباء ١١٧/١١ وابن عساكر ٢٤٨/٥ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وانظر الهامش .
(٧) راجع معجم المرزباني ص ١٤٩ وقد نشر الوارد ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان انكشافه. التوجي: الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس .
(٢) خرَّق: شق. الضُّفَّار: الحبل يشده به .
(٣) الملمع: المشير بثوبه .
(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٨٣/٢ والأغاني (ساسة) ١٣٩/١٨ والخزانة ٧٨/١ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها والموشح ص ٢١٩ .

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطُّرْمَاحِ والكُمَيْتِ ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضوع . واشتهر شُبَيْبُ بْنُ عَزْرَةَ الضُّبَيْعِيُّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب^(١) . وهو اتجاه تعليمي نظن أننا أن الذي دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية وهو طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاجُ وابنه رُوْبَةُ يجمعان لهم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوّل ديوانهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يُعَدَّان أهم من هبياً لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذي صنّفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقصّوا وساقوا الحكم والأمثال^(٢) .

أبو النجم^(٣) العجّليّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفيرك ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول^(٤) :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخرفِ تخطُّ رجلاي بخطِّ مختلفٍ
تكتبان في الطريق لأمّ ألف

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويجمع الرواة على أنه كان سريع البديهة في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثمّ كان يغلب الشعراء والرجّاز حين

والموشع ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٥٨٤/٢
وأغاني دار الكتب ١٥٠/١٠ والخزّانة
٤٨/١ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها
ومعجم الشعراء ص ١٨٠ .
(٤) الحصائص لابن جنّي (طبع دار الكتب)
٢٩٧/٣ .

(١) البيان والتبيين ٣٤٣/١ وانظر كتاب
المكائنة عند المذاكرة للطياشي (قشر
جاير) ص ٤٠ .
(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر
العربي (طبع دار المعارف) ص ١٣٩ وما بعدها .
(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦

يَسْتَبِقُونَ فِي مَوْضُوعٍ يَطْرَحُهُ خَلِيفَةُ أَوْ وَالٍ ، وَيُظْفَرُ بِالْجَائِزَةِ مِنْ دُونِهِمْ ، وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ : إِنَّهُ أَبْلَغُ فِي النَّعْتِ مِنَ الْعَجَاجِ . وَأَمَّ أَرَاجِيْزَهُ لِأَمِيَّتِهِ الَّتِي يَسْتَهْلِهَا بِقَوْلِهِ (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَهَّابِ الْمُجْزِلِ أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يُبْخَلِ

والأرجوزة بعد ذلك تفيض بالغريب في وصف الإبل ومراعيها ، وكان رؤية يسميها أمّ الرجز استحساناً لها وإعجاباً بها . وَيُرْوَى أَنَّ الْعَجَاجَ غَدَا عَلَى النَّاسِ بِالْمِرْبَدِ يَنْشُدُهُمْ أَرْجُوزَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فُجَبَرَ (٢) » وَقَدْ ضَمَّنَهَا هَجَاءَهُ لِرَبِيعَةَ ، فَاسْتَعَدْتُ عَلَيْهِ رَاجِزَهَا أَبَا النِّجْمِ ، فَبَادَرَهُ يَنْشُدُ أَرْجُوزَتَهُ « تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجَسَّهَا مَا ذَكَرَ » حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : « شَيْطَانُهُ أَثْنَى وَشَيْطَانِي ذَكَرَ » تَعَلَّقَ النَّاسُ هَذَا الشَّطْرَ وَهَرَبَ الْعَجَاجُ عَنْهُ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى مِنْ أَرَاجِيْزِهِ أَرْجُوزَتَهُ فِي وَصْفِ فَهْرٍ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَهُوَ يَسْتَهْلِهَا بِقَوْلِهِ :

إِنَّا نَزَلْنَا خَيْرَ مَنَزِلَاتٍ بَيْنَ الْحُمَيْرَاتِ الْمُبَارَكَاتِ
فِي لَحْمٍ وَحَشٍّ وَحُبَارِيَّاتٍ وَإِن أَرَدْنَا الصَّيْدَ ذَا اللَّذَاتِ (٣)
جَاءَ مُطِيعًا لِمَطَاوِعَاتِ عَلَّمَنَ أَوْ قَدْ كُنَّ عَالِمَاتِ
فَهَى ضَوَارٍ مِنْ مَضْرِيَّاتِ تُرِيكَ آمَاقًا مَخْطَطَاتِ
سُودًا عَلَى الْأَشْدَاقِ سَائِلَاتِ تَلْوَى بِأَذْنَابِ مَسُوقَاتِ

وكثير من رجزه على هذا النحو لا يُسْتَعَدُّ فِيهِ وَلَا يَغْرِبُ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْحَقِّ أَنَّهُ « كَانَ يَتَوَسَّعُ فِي الْكَلَامِ وَيَحْمَلُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَشْتَقُّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ (٤) » ، وَلَكِنَّهُ يَظَلُّ قَرِيبًا مِنَّا فِي جَمْهُورِ رَجْزِهِ ، وَخَاصَّةً حِينَ يَعْمَدُ إِلَى التَّنْدُرِ وَالِدَعَابَةِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ يَوْصِي ابْنَتَهُ « بَسْرَةَ » عِنْدَ زَوَاجِهَا :

(١) نشر هذه اللامية عبد العزيز الميمنى في «الطرائف الأدبية» طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥٥ .
(٢) جبر الثافية بمعنى انجبر .
(٣) حباريات : جمع حبارى وهو طائر .
(٤) الحصاص ١ / ٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةٍ قلباً حُرّاً بالكلب خيراً والحماة شراً
لا تسأى ضرباً لها وجراً حتى ترى حُلُوَ الحياة مُراً
وإن كستك ذهباً وُدراً والحى عُميهم بشرٌ طراً

وكان يمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له في مجالسهم ويمزلون له العطاء .

العجاج^(١)

هو عبد الله بن رُوْبَة التميمي ، نشأ في البادية ونزل البصرة ، وكان دائم الرحلة إلى منازل قومه في الصحراء ، وقد سخر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية في مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه في خصومتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولي مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفي ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان وإلى العراق وأخاه عبد العزيز وإلى مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبي فُدَيْك زعيم النجدات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، ومرّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتص منه أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسُئِل في ذلك فقال : هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التي ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض ، في وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكثبانها ونباتاتها وحيوانها الوحشي والأليف ، وكل ما يجري في أرضها من رياح وسموم وطيور وفي

٧ / ٣٩٤ وفهارس البيان والتبيين والخصائص لابن جني والمزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) وقد نشر الوارد ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) انظر في العجاج الشعر والشعراء ٥٧٢/٢ والموشح لمرزبان ص ٢١٥ وما بعدها وشرح شواهد المفتي ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر

سماتها من كواكب ونجوم . وهو يُعمدُ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض في كل ما تخوض فيه التصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتب بذلك ، فقد أخذ يقيس في اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف في ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعربها ، وقد بصرف منها أفعالا ، على نحو ما صنع في أرجوزته الجيمية ، إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت في الملاء البردجما » يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشي التف أو تسبجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبي ، فعربه بسبيجة ، ثم صرف منه فعلا في بعض أبياته (١) .

وزراه يلتزم في أراجيزه الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروي في الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحظ ذلك في أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجبر » ، وهي في نحو مائتي بيت ، ولو أُطلقت قوافيها كانت كلها خنصوبة (٢) . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أراجيزه بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل في ذلك استرسالا ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شاكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذي استقلَّتْ بإذنه السماءُ واطمأنَّتْ

وقد تحدَّثَ فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه في ثوابه . وهو في ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصري وغيره وقد توفي سنة ٩٧ للهجرة . وتُنسبُ له أرجوزة في مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحت يكون قد لحق أوائل القرن الثاني حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة الحلبي) (٢) انظر الأغاني (طبع ساسي) ٦٠/١٨

عالية ، ونراه في أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ،
من مثل قوله :

إِذَا تَرِينِي أَصِلُ الْقُعَادَا وَأَتَقِي - أَنْ أَنْهَضُ - الْإِرْعَادَا^(١)
مَنْ أَنْ تَبَدَّلْتُ بِآدِي آدَا لَمْ يَكْ يَنْآدُ فَأَمْسَى انْآدَا^(٢)
وَقَصْبَا حُتَّى حَتَّى كَادَا يَعُودُ بَعْدَ أَعْظَمِ أَعْوَادَا^(٣)

والجناس واضح في البيت الثاني ، وهو يشيع في أراجيزه ، لكثرة ما كان
يُعنى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا في
الآد وانآد ، وقد جانس في البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق
من الأسماء الجامدة أفعالاً ومشتقات ، أو يأتي ببعض المزيديات من الحروف ،
وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقصد لذاته ، فإن
قائه في اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

رُؤْيَةٌ^(٤)

سمَّاهُ أبوه العجاج باسم جَدِّهِ ، وقد وُلِدَ له حوالي عام ٦٥ للهجرة ،
ويظهر أنه عُنِيَ به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ،
إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، ونراه في رقصة
الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين^(٥) . ويظهر
أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل نارة السند ونارة خراسان .

١٨/١٢٤ وما بعدها و ٥٧/٢١ والخزانة
١/٤٣ ومعجم الأدباء ١١/١٤٩ وابن خلكان
وتهذيب التهذيب ٣/٢٩٠ ولسان الميزان ٢/٤٦٤
والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥/٣٢١ وكتابتنا
« التطور والتجديد في الشعر الأموي » ص ٣٤٠ .
وقد نشر ديوانه آلوارد وخصه بالجزء الثالث
من مجموع أشعار العرب .
(٥) طبرى ٥/٣٠٥ .

(١) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون
منهم ويفعل فعلهم .

(٢) الآد : القوة كالأيدي . انآد : اعوج
وانحنى .

(٣) القصب : كل عظم ذي مخ . حتى :
دق ، يريد أن عظمه وهن .

(٤) انظر في ترجمة رؤْيَةٌ الشعر والشعراء
٥٧٥/٢ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغانى (ساسى)

ومنذ أوائل القرن الثاني يلزم ولاية العراق بمدحهم ، بمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزد وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويجترأ في هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى بمدح هريم بن أبي طحمة الجاشعي أحد قوادهم الذين أبلوا في القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا في ديوانه أراجيز كثيرة في مدح خالد القسري وولاته وفي مدح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله والي الحامة، وبلال بن أبي بردة الأشعري نائب خالد على البصرة، وأبان بن الوليد البجلي نائبه في شؤون الخراج ثم والي فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود، وعمرو بن عنبسة بن سعيد بن العاص . ويقدمُ على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلجّ في هجاء خصومه المارقين . ويتزل خراسان . فيمدح نصر بن سيار ويحذّره من أبي مسلم الخراساني في غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراساني أن يذهب عنه روعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح ، وله في مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمائة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو في أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبيّ فداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومرّ بنا أنه كان جتبرياً ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدره مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة في مذهبه القسدي على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية في شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتأله . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية . إذ تحوّل به يرضى اللغويين من حوله ويقدم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية في الألفاظ وأبنيها وهيئاتها وما قد يحدث في بعض الحروف كالهزمة من إعلال ، وكأنما تحوّل معينا لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثمّ غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوي معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبي عبيدة وخلف الأحمر وأبي عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيده استغلاقاً ، زوائد من تغيير في الحركات أو إعلال في الحروف أو إتيان بصيغ جديدة في التصريف بواسطة المصادر والجمع والأفعال ، كأن يقول في مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأعماقِ خاوى المُخْتَرَقِ مُشْتَبِهِ الأعلامِ لَمَاعِ الخَفَقِ^(١)

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإتباع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيسعل بفتح العين في قوله : « ما بال عيني كالشعيب العيين » والقياس العيين بكسر الياء مع التشديد^(٢) . وقرأ قوله في وصف الليل :

وجلُّ ليلٍ يُحْسَبُ السُّدوسا يَسْتَسْمَعُ السَّارَى به الجُروسا^(٣)
هَمَاهِمًا يَسْمَهِنُ أَوْرَسيسا علوتُ حين يَخضع الرُّعوسا^(٤)
قَرَعُ يدِ اللَّعَابَةِ الطُّسيسا^(٥)

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والرسيس والرعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعنى بأن يلائم بين الروى

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

(٤) همهم : جمع غممة وهي الصوت الخفى ، الرسيس : الحديد غير البين . الرعوس : الذى يهز رأسه فى نومه .

(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطست .

(١) يتحدث روضة عن فلاة . قاتم : أسود ، أعماق المفازة : أطرافها البعيدة . مخترق الرياح : مهبا . خوازه : خلوه . الأعلام : الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه .
(٢) راجع الحصائص ٣/٢١٤ ، وسيبويه ٢/٢٧٢ . الشعيب : المزايدة والسقاء البال . العين : سائل الماء .

والكلمات الداخلية في البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعْنَى بالجناس كثيراً في نظمه ، وخاصة بجناس الاشتقاق .

واقراً في أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تَعَكسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر في سبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ في شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذي فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذي انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة في الإغراب ، إذ كان يُكثّر من القياس في اللغة والتصرف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولاً أن يأتي بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفرع إليه الشعراء الذين كانوا يُعْنون بإدخال الغريب من مثل الطَّرِمَّاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه في أشعارهم^(١) . وتحول إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجلون رجزه وما يأتي به من مستغلات لغوية ، كان يحشدها في أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرح بذلك ، إذ يقول في أرجوزة له « يلتبس النحويّ فيها قصدي » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤية بغاية تعليمية واضحة ، وهي غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمي الذي أخذ ينظمه الشعراء في العصر العباسي ، وكانهم وجدوا في وفرة موسيقاها ما يتلافون به نقص المعاني الشعرية في هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولدون من اتحاد مصاريحها صوراً جديدة من المزدوج والخمس . ونرى الأندلسيين حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالقون بين القوافي يعتمدون في هذا الصنيع على نظام الأرجوزة في التصريح ، فيجعلون الشطر وحدة في الموشحة ، على نحو ما صنع رؤبة ورُجَّاز هذا العصر في أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هي التي ألهمت ابن دريد حكاياته في تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمداني والحريري صنع مقاماتهم المعروفة .

الفصل السادس الخطابة والخطباء

١

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة لعصر بني أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلاقتهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يتبلى ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً في كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشاداته بهذه القدرة أن رفعهم في الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق في تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوجَّ هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسططاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان في الخطابة ، وبما لا شك فيه أنهم يتخلفون عنهم وعن العرب جميعاً في مضمار هذا الفن من فنون النثر القولي .

وعواملٌ مختلفةٌ هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان يُنتظر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة في الدولة الأموية ، وهي معارضة كانت تدور كما مرّ بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُنصَرُ على بني أمية أو

تكون حقاً شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُردّ إلى بني هاشم وأبناء علي خاصة ،
أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرّرون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الحوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولّاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشي ، بل لو كان غير عربي . ومضوا يحاجّون في أول الأمر عليّاً وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجّون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَاداً ، فكان منهم الأزارقة والنَّجِدات والصفُرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يَحْتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله في حجته .

ومنذ قيام علي بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعي في الخلافة . ويتوقّى علي ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوقّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقتلُ بكرِّبلاء دون غايته . ويتوقّى يزيد ابن معاوية ، فتتشب حركة التوايين ، يقودها سليمان بن صُرْد : وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفي ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير : فيتقضى عليه قضاء مبرماً . ونمضى إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين ، ويشور ، وسرعان ما يُقضى عليه .

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تُقصر على قريش وأن تُردَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدِي يعبر عنه في ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم في تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتفاض على بني أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يَضِلُّون الطريق . وكل ذلك هياً في قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرَّ بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة ؛ وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة ، وما اندلع من السنة هذه الحصومات جميعاً في خراسان . وهي - كما قدمنا - خصومات كانت تختلط فيها العصبية القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونُصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبتونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصر الجديد . وندخل في عصر بني أمية ، ففتحول هذه الوفود إلى سيول ، تتقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة في شئون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تَعَيَّن له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

في بيعة الخليفة الجديد وفي بثِّ شكواها حين يلمُّ بها ما يوجب الشكوى. وانبثقت في هذه الأثناء خطب التهئة والتعزية . وكانوا يُسَمُّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصدر عن رأيه . ويتصادف في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق في البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع في الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأَيَّانَ ركَّزَ الإسلامُ أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كي يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسَمُّون في ذلك الحلقاء والولاء ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة في كل مصرٍ ، وكثر بجانبهم جماعة من القصاص ، كانوا يقصون على الناس ما زججوا قصصهم بتفسير آي الذكر الحكيم وبكثير من مخلفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني . وكانوا يستهون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد في هذه الأخبار تزيداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفساءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإضرار على خصومهم^(١) ، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية^(٢) . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبشون في الجيوش لتحسيس الجند على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفي الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عتَّاب بن ورقاء حين نازل شيبباً الخارجي يقصُّ على جنده محملاً لهم^(٣) كما نجد قتيبة بن مسلم في خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدي الناسك المشهور^(٤) . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قُصَّاصهم صالح بن مسرح الصُفْرى ،

(١) انظر حاشية الولاية والقضاة للكندي ص

٣٠٤ وخطط المقرئ (طبعة بولاق) ٢٤٣/٢

(٢) الولاية والقضاة ص ٣١٧ .

(٣) طبرى ٨٩/٥ .

(٤) البيان والتبيين ٢٧٣/٢ .

وفي الطبري طَرَف من قصصه^(١) ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جَهَنم بن صفوان وصنيعه في فتنة الحارث بن سريج بخراسان^(٢) .
وفي هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رُقُّ العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدلٌ كثير ينشب في مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ؛ ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيرٌ في الحياة أو مسيرٌ لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجبَّرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشَّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم في جدالهم يستعينون بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في عصر بني أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمخاطرة ، وهي صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخادعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور في حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدَّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر في رُقِّ الخطابة رُقياً بعيداً .

(٢) طبري ٢/٦ وما بعدنا .

(١) طبري ٥٠/٥ .

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأبان وليت وجهك في السلم والحرب وجدت الخطباء متراصين في صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبرى فستره لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما في رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فالحوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنة سهم أو من ولايتهم وقوادهم . وهناك في أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد في سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية في كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الحوارج ، إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم : ولم يدعوا لها سراً كما دعا الشيعة في أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم في وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيتهم كانوا يتخرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم^(١) .

(١) البيان والتبيين ٢٤٣/١ وما بعدها

و ٣٦٤/٢ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظُبَيَّان السُّلَمي والمستورد بن عُلْفَةَ لعهد المغيرة بن شعبة في ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقي بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا - على نحو ما مرَّ بنا - إلى أزارقة ونجدات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم في وجوه ولاية ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاية بني أمية ، وتصدَّى لهم المهلب ابن أبي صُفْرَةَ وقواد آخرون ، ومزَّقوهم شرَّ ممزَّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن علي الذي وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا في خطابهم نفس الروح التي وصفناها في أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامي على الموت ترامي الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، إنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة في الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون في سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التي ضلت في رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير في بعض خطبه^(١) : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخيزم . وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض والعاقبة للمتقين » . فهم في رأيه الفئة المحققة وخصومهم الفئة المبطلّة ، وهم المؤمنون حقاً وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم في الجنة أما قتلى غيرهم في النار . وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العجالة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون في الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم ، على نحو ما يلقانا في خطبة قَطْرِيّ ابن الفُجاءة قائدهم بعد الزبير بن علي ، وهو يستهلها على هذا النمط^(٢) :

٢٥٠/٢ والعقد الفريد ١٤١/٤ .

(١) الكامل للمبرد ص ٦٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ١٢٦/٢ وعيون الأخبار

« أما بعد فإني أخذتكم الدنيا فإنها حلوة خَضِرَةٌ^(١) ، حُفَّتْ بالشهوات... مع أن امرأ لم يكن منها في حَبْرَةٍ^(٢) ، إلا أعقبته بعدها عِبْرَةٌ ، ولم يلق من سرَّائها بطناً ، إلا منحته من سرَّائها ظهراً ، ولم تَطُلْهُ غَبِيَّةٌ^(٣) رخاء ، إلا هطلت عليه مُزْنَةٌ^(٤) بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متنكرة ، وإن بجانب منها اعذوب واحلّولى^(٥) أمر عليه منها بجانب وأوبى^(٦) ، وإن آتت امرءاً من غضارتها^(٧) ورفاتها نِعَمًا أرهقته من نوائبها نِقَمًا ، ولم يُمَسَّ امرؤٌ منها في جناح أمنٍ إلا أصبح منها على قوادم^(٨) خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى . »

وتمضي الخطبة وهي طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها قطري السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباق ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه . ومن أشهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدَةُ بن هلال اليَشْكُورِيّ وزيد بن جُنْدُب الإيادي وعبد ربّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُفْرِيَّةِ عمران بن حِطَّان وصالح بن مسرح الذي كان يعظهم ويقص فيهم قصصاً كثيراً وكان في وعظه وقصصه يحمل على بني أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه في الجزيرة والموصل ما أراد خرّج على الحجاج ، وقتل ، فخلفه شبيب الذي دوّخ بجيوش الحجاج طويلاً ، ومن قول صالح في بعض مواعظه^(٩) :

« أوصيكم بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة في الدنيا ترغّب العبد فيما عند الله وتفرغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

(١) خضرة : ناضرة .
(٢) حبرة : سرور .
(٣) الطل : المطر القليل . الغيبة : المطرة القليلة .
(٤) المطل : المطر الكثير . المزنة : السحابة .
(٥) احلولى : صار حلواً .
(٦) أوبى : من الوباء .
(٧) الغضارة : النضارة والخصب .
(٨) القوادم : الريش في مقدم جناح الطائر .
(٩) تاريخ الطبري ٥٠/٥ .
المطرّة .

يَجْأَرُ^(١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين : قال الله في كتابه : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) وإن حبَّ المؤمنين للسبِّ الذي يُنال به كرامة الله ورحمته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرِيَّةِ ويحرضهم على قتال بني أمية أئمة الضلال الظلمة كما يقول ، حاثاً لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . ومن اشتهر بين الصُّفْرِيَّةِ بالخطابة الطرماتح بن حكيم وشُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِي والضحاك بن قيس الذي خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النجيدات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين في سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبي حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردت الأمر إلى نصابه . ولأبي حمزة خطب ماثورة تدل دلالة بيّنة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التي ألقاها في مكة ، ويقال بل ألقاها في المدينة^(٢) ، وهو يستهلها بالثناء على أبي بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن في عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ، مصوراً تعطيهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، مندداً بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الحوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعدين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التي لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكهلون^(٣) في شبابهم غَضِيضَةٌ عن الشرِّ أعينهم ، ثقيلةٌ عن

(١) يجأر : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون

الأخبار ٢٤٩/٢ والعقد القرني ١٤٤/٤

والأغاني ١٠٤/٢٠ .

(٣) مكهلون : يريد أن لهم رزاة الكهل .

الباطل أرجلهم، أنضاء^(١) عبادة وأطلاح^(٢) سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهِق شهقة كأنّ زفير جهنم بين أذنيه. موصول^(٣) كلالهم بكلالهم، كلال الليل بكلال النهار. . . حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت^(٤) والرماح قد أشرعت^(٥) والسيوف قد انتضيت^(٦)، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، ومضى الشباب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء. فكم من عين في متقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كفٍ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله .

وهي صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها في ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل يوم أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قعصاً بالرماح، وأن تنوشه سباع الحيوان والطيور، حتى يستحق رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً ببني أمية، وأنهم اغتصبوا الخلافة، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن أبناء علي هم أصحاب الخلافة الشرعيين بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم. وتلور هذه الأفكار دائماً في خطاباتهم وخطابة أئمتهم، على نحو ما نجا عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمي .

(٥) أشرعت : سددت .

(٦) انتضيت : استلت .

(١) أنضاء : مهزولون .

(٢) أطلاح : مكودون .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٤) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذي أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول في كلمة له ^(١) .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى الله . ونحن - أهل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجنور والعدوان » .

وتتطور الأمور ويقتتل الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بني أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوفى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثار للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم في تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت في الخلافة لقرابتهم من الرسول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صرد في إحدى خطبه ^(٢) :

« قتل فينا ولدينا ولد نبينا وسلالته وعصارتة وبضعة ^(٣) من لحمه ودمه . . اتخذته الفاسقون غرضاً للنسب . . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل ^(٤) والأبناء حتى يرضى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تببروا ^(٥) » .

وكان من زعماء التوابين معه عبيد الله بن عبد الله المرّي ، وكان خطيباً لا يبارى . فضى يعظ الناس ويحرضهم على الانتفاض على الأمويين بمثل قوله ^(٦) :

« هل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجترم ^(٧) إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم ^(٨) إياه بالدم وتجرارهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(١) طبرى ٣٠٣/٤ . (٢) طبرى ٤٢٨/٤ . (٣) بضعة : قطعة . (٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهي الزوجة . (٥) تببروا : تهلکوا . (٦) طبرى ٤٣٣/٤ . (٧) اجترم : اقترف وارتكب . (٨) ترميلهم : من رمه إذا لطمه بالدم .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وخذله وليته ، فويل للقاتل وملامة للخاذل . . إلا أن يناصح الله في التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العشرة . . إنا ندعوكم إلى كتاب الله وستة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين . .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكّل بهم وفرق جمعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقاهم المختار الثقفي ، زاعماً أن ابن الحنفية - على الرغم من تبرئه منه - بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقي لفرقة الكيسانية المشهورة في تاريخ الشيعة ، وقد مرَّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن علي ، وتعهده وصيه والإمام المهدي المنتظر . وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً^(١) وكان لسنا فصيحا ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم في « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير والى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت في المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر في خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم - على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أنه يُوحى إليه ، مصوراً هذا الوحي في فقرات من السجع يوشئها بالآيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله^(٢) :

« أما وربُّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه^(٣) والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لَدَنٍ خطار^(٤) ، ومهند بتار^(٥) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار^(٦) ، ولا بُعزل^(٧) أشرار ، حتى إذا أقيمت عمود الدين ورأبت شَعْب^(٨) صدع المسلمين ، وشفيت

(٦) الميل : جمع أميل وهو الجبان ،
الأغمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .
(٧) العزل : جمع أعزل وخرم لا سلاح معه .
(٨) راب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

(١) الملل والتحل ص ١٠٩ .
(٢) طبرى ٤ / ٤٥٠ .
(٣) المهامه : الفياق .
(٤) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .
(٥) المهند : السيف ، البتار : القاطع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أخفل بالموت إذا أتى .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعاني التي كان يردّها خطباء الشيعة ، وهي معان تُردُّ إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر من قتلهم الأمويون منهم . وفي تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشيء من خطابتهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشيء من خطابة بني صوحان : صعصعة وزيد وسيحان وكانوا شيعة وفي الذروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبي الحديد بكثير من المحاضرات والمحاورات بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص وبعض بني أمية ، وهي محاضرات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المحاضرات التي دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبي الحديد والعقد الفريد والمسعودي .

ولم يعيش حزب الزبيرين طويلا ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يجلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحده ذكائه^(١) ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهي تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول^(٢) :

« إن يُقتلَ فقد قُتل أبوه وعمه وابن عمه^(٣) ، وكانوا الخيارَ الصالحين ، إنا والله لانموت حتف أنوفنا^(٤) ، ولكن قمصاً^(٥) بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ،

(١) طبرى ٤/٤٣٧ وما بعدها

(٢) العقد الفريد ٤/٤١٢ وعيون الأخبار

٢/٤٢٠ .

(٣) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل

وعمه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك

وابنه عبد الله قتل يوم الدار . انظر أسد الغابة

٣/٢١٣ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش .

(٥) قمصاً : موتاً سريعاً .

وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبديد ملكه ، فإن تُقبِل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر^(١) البَطِير ، وإن تُدْبِر عني لم أبك عليها بكاء الخَرِق المهين^(٢) .
ولأنخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إخذائها آيات قرآنية خالصة^(٣) ، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة^(٤) طريفة حين حاصره الحجاج في مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدر لبلاغته في خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث في ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرَهًا مفوّهًا ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شيبث بن ربيع . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى في خراسان حاضاً الجند على متابعته . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب في جنوده يجرّضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم في الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عَسَف وكيف أنهم جميعاً عطّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالفتىء ، حتى لرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم^(٥) .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، ومن اشهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

(١) الأشر : البطر .

. ١٣٥/٤

(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير .

(٤) طبرى ٣٠/٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والنقد الفريد

(٥) طبرى ٣٣٥/٥ .

الخطابة مع جهازة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز
 ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية في خطابته فقال (١) :

رَكوبُ المنايرِ وثأبها مِعْنُ بَخِطْبَتِهِ مِجْهَرٌ (٢)
 تَرِيحٌ إِلَيْهِ هَوَادِي الكَلَامِ إِذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ المِهْدَرُ (٣)

وخطابته قسمان : قسمٌ سياسةٌ خالصة ، وقسمٌ مواعظٌ وترغيبٌ وترهيبٌ ،
 وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما في يديه من قوة ومن عطايا
 وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة
 بالمدينة (٤) . وهو في القسم الثاني ينفر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ،
 ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ (٥) ، وقد اتهم نسبتها إليه
 وقال إنها حرية بأن تنسب إلى علي بن أبي طالب . والجاحظ بهذا الاتهام يقسو
 على معاوية ، وكأنه نسي أنه من كتّاب الوحي وأنه من جِلَّة الصحابة . وتردد في
 خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم
 نفوسهم بالخروج عليه (٦) ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ،
 يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على
 ما قدّمته يداه على شاكلة قوله في كلمة له (٧) :

« أيها الناس ! إنكم لم تُخْلَقُوا عَبَثاً وَلَنْ تُرَكُوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يُحْكَمُ
 الله نبيّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء
 وحُرِّم الجنة التي عرّضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف
 الله اليوم وباع قليلاً بكثير وفائتاً بيباق ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ،
 وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولي الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خصبة

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
 (٢) معن : تعن له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها .
 (٣) تريح : ترجع . هوادي الكلام :
 أوائله .
 (٤) العقد الفريد ٤/٨١ .
 (٥) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار
 ٢/٢٤٦ .
 (٦) العقد الفريد ٤/٨١ .
 (٧) العقد الفريد ٤/٨١ .

بديعة^(١) يصور فيها سياسته ودستوره في الحكم معلناً أنه إن وقى بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ، ويقول إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وكان ولاية بني أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبي سفيان والى مصر وعند ولاية العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول^(٢) :

« إني لأرى رهوساً قد أينعت وحان قِطافها، وإني لصاحبها، وإني لأنظر إلى الدماء تفرقُ بين العمام واللحمى . إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوى الأخلاق ما أُغمز تغماز التين ولا يُقنعع لي بالشنان^(٣) ، ولقد فررت^(٤) عن ذكاء وفتشت عن تجربة . إن أمير المؤمنين كَبَّ كِنَانته^(٥) ثم عَجَمَ^(٦) عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجهني إليكم ، فإنكم طالما أَوْضَعْتُمْ^(٧) في القن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي . أما والله لألحونكم^(٨) لَحْوَ العصا ولأضربنكم ضربَ غرائب الإبل^(٩) .. أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شُغلاً في جسده . »

وهو يفتح هذه الخطبة بأشعار تمتلي باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زخرت خطبته بأسلوب تصويرى قوى ، وهو يُعدُّ في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه في طبقة واحدة ، وإن فضله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

(١) البيان والتبيين ١٤١/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ وعيون الأخبار

٢٤٤/٢ .

(٣) القمعة : التحريك ، الشنان : جمع

شن وهو القربة البالية كانوا يحركونها إذا استحوا

الإبل للمير . مثل يضرب لمن يروعه

ما لا حقيقة له .

(٤) فررت : اختبرت .

(٥) الكنانة : جعبة السهام .

(٦) عجم : اختبر .

(٧) أوضع : أسرع في سيره أو سار بين القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تضرب عند الحرب وعند

الخلاط على الحوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتبعد .

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُرْوَى أن الحسن البصرى كان يقول عنه إنه «يعظُ عظة الأزارقة وَيَبْطِشُ بِطِشِ الْجَبَّارِينَ»^(١) ومن قوله في بعض مواعظه : « اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه وأرني الغى غياً فأجتنبه ولا تكليتي إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعيداً^(٢) » .

وكان خالد القسرى خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقته ، وله خطب كثيرة بحث فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً من يَنْقُصُ حَبْلَ الْجَمَاعَةِ . وأكثر في خطب أجمع من المواعظ ، حتى سُمِّيَ خطيبَ الله^(٣) ، ويُرْوَى أنه كان يخطب يوماً فسقطت جرادة على ثوبه ، فقال^(٤) :

« سبحان من الجرادَةُ من خلقه ، أد مَجَّ قوائِمها ، وطوقها جناحها ، ووشى جلدُها ، وسلَّطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة وناشرين مختلفين حاربوا بني أمية غَضَباً لدينهم كما دار على السنة خطبائهم فإن قواد بني أمية في الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام في وقعة الحرَّة : « يا أهل الشام أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يُعزِّزوا به نصير إمامهم^(٥) » وقول المهلب بن أبي صفرة في حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قدروا عليكم فتعنوكم في دينكم وسفكوا دماءكم^(٦) » . فقواد بني أمية في هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق في جانبهم وأن أعداءهم أهل غيٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفي بلاد الروم لا يزالون يَحْثُونَ جنودهم على الاستشهاد في سبيل الله مقتبسين من آي الذكر الحكيم ما يُشْعَلُ حماسهم ،

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .

(٥) طبرى ٤/٣٧٥ .

(٦) الكامل للبرد ص ٦٣٠ .

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد

٤/١١٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧٥ .

ويذكر جذوة شجاعتهم وبسالتهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي وقد تهباً لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول (١) :

« وعَدَّ اللهُ نبيه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مَحْمَصَةٌ في سبيل الله ولا يَظْطُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ ولا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْباً إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ولا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً ولا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وأخبر عن قُتْلٍ في سبيله أنه حتى مرزوق فقال : (ولا تحسبن الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقُونَ) فتنجزوا موعود ربكم . »

واشتهر في خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القسري ونصر ابن سيار ، ويلقانا في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته في جنده حين دخلها مشهورة (٢) ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية في هذا العصر من نهوض ورفق .

زياد (٣) بن أبيه

وُلِدَ في عام الهجرة أو قبله بقليل لسُمَيَّةَ جارية فارسية كانت للحارث بن كَلْدَةَ الثقفى المشهور بطبته ، ويقال إنه زوجها ثقفياً يسمى عُبَيْدًا ، ومن ثم كان يسمَّى في بعض الروايات زياد بن عبيد . ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلِدَ على فراش الحارث وأن عبيداً كان عبداً رومياً ، ولم يكن ثقفياً ،

٢٥٩/١ والأغاني (طبعة الساسي) ٣/١٦
وما بعدها وابن عساكر ٤٠٦/٥ والعقد الفريد
٤/٥ (راجع المهرس) ومروج الذهب
للمسعودي (طبعة مصر) ٥٥/٢ والطبرى في
مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية
لقلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

(١) طبرى ٥ / ٢١٤
(٢) انظر نفع الطيب ١١٢/١
(٣) انظر في ترجمة زياد وتحقيق نسبه
طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٠٧ وأسد الغابة
٢ / ٢١٥ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن)
ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنوى

وما نتقدم معه إلى عهد عمر : حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية في الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر في فتوح الأبلّة تسجيل الغنائم وقسمها في الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابة والحساب . ويلزم ولاية البصرة يكتب لهم . ويوفده إليها أبو موسى الأشعري إلى عمر ، فيُعجب بذكائه ولأسنه . ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعنّ عجز أم عن خيانة صرفتني . فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك (١) .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر وإليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعليّ وولّى عليّ البصرة ابن عباس جعله على خراجها . وأتابه عنه أحياناً ، وأظهر في أثناء نيابته له حُنُكَةً . ذلك أن معاوية دَسَّ إلى تميم بعض من أفسدها على عليّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على عليّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشّعَثَ ورأب الصدع متوسلاً إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعد من نصره ومنّاه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة . وقتل بعضهم بعضاً ، وصدّفت له فارس فلم يلق فيها جَمْعاً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكرمان (٢) . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة (٣) » . ولما قُتِلَ عليّ ظلّ على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شُعْبَةَ الثقفي ، ذاكرًا ما بينهما من الرّجيم . وما زال به ، حتى دخل في طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق ، ولما صار إليه

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠ .

(٢) طبري ٤/١٠٥ .

(٣) طبري ٤/١٠٦ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبه لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون في هذا النسب ويتهمونّه . ولم يلبث معاوية أن ولّاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة . فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفساق والخناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعه وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقي حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسياً ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارى في جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ كليمه صوغاً تهش له الأسماع وتُصغى له القلوب والأفئدة ، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعبي : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً^(١) . » وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواظب الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقرة وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خَلَفها هذا العصر ، وهي الملقبة بالبترء^(٢) ، سُميت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد^(٣) ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجمل سياسة زياد التي اشتهر بها والتي رَدَّتْ إلى البصرة أمّتها بعد أن عاث فيها الفُسّاق واللصوص واضطرب حَبْلُ النظام ، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسم الله للمسلمين في كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

(١) البيان والتبيين ٦٥/٢ .
 (٢) انظرها في البيان والتبيين ٦٢/٢ وعيون
 الأخبار ٢٤١/١ والعقد الفريد ١١٠/٤ .
 (٣) البيان والتبيين ٦/٢ وانظر ٦٢/٢ .

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء^(١) والضلالة العمى والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا ينشأش^(٢) عنها الكبير ، كأنكم لم تقرعوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرم^(٣) الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت^(٤) عينيه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدّث الذي لم تُسبّبوا إليه من ترككم الضعيف يُقهر^(٥) ويؤخذ ماله وهذه المواخير^(٥) المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نُهاة^(٦) تمنع الغواية عن دلج^(٦) الليل وغارة النهار؟! قربتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعت السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرّم الإسلام . »

وعلى هذا النحو استهلّ خطبته بتجسيم صور الفساد التي انتهت إليها حياة الناس في البصرة ، وهو في أثناء ذلك يقرّع ساهميه بأنهم انتبذوا كتاب الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانية على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترّون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل بصور خطبته في حكمهم وما أعدّه لهم من ضرور العقوبات ، يقول :

« إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى^(٧) والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلتقي الرجل منكم أخاه فيقول : (انجُ سَعِيدُ فقد هلك سَعِيدُ) أو تستقيم لي قناتكم . . من نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمُدلج إلا سفكت دمه .. وإياي ودعوى^(٨) الجاهلية فإني لا آخذ

(١) الجهلاء: وصف مؤكد كما تقول ايلة ايلاء.

الرية .

(٢) ينشأش : ينفر .

(٦) الداج : السير في الليل .

(٣) السرم : الدائم .

(٧) الولي : السيد ، المولى : العبد .

(٤) طرف عينه : أصابها بشيء فدمعت .

(٨) دعوى الجاهلية : قولهم ياتيم مثلاً ، إثارة

(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت

من الشخص لقومه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفوا عن أيديكم وألستكم أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحسن^(١) جعلتها دبيرة^(٢) أذنى وتحت قدمي ، فمن كان منكم مسيئاً فليترع عن إساءته . إني والله لو علمت أن أحدكم قتله السُّل من بغضي لم أكشف له قيناعاً ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدى لي صفحته^(٣) ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرعوا^(٤) على أنفسكم ، فرب مسوء بقدمونا سنسره ، ومسرور بقدمونا سنسوءه .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره في حكم البصرة ، وهو دستور أوضح فيه مواد العقوبة وأنه سيأخذ بالظننة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جر دسيفه لقتل من لا يرعى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة في إعادة الأمور إلى نصابها في ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تبيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصاً ، وكان الشيء يسقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفي نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش ، وإنما يبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فليتن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخص خطته في الحكم بأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وأيضاً حين يجهر في ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعوه . ويمضي في فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، وندود عنكم بيفسىء^(٥) الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

(١) إحسن : جمع إحنة ، وهي الحقد والضعينة .
 (٢) دبيرة : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها .
 (٣) أبدي صفحته : جاهر بعبادته .
 (٤) أرعوا : أبقوا وارفقوا .
 (٥) الفىء هنا : الحراج وغنائم الحروب .

فيا أحببنا، ولكم علينا العدلُ والإنصافُ فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عدلنا وقِيَّسْنَا
بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصَّلاح لأتاكم فإنهم ساستكم المؤدِّبون وكهفكم
الذى إليه تأوون، ومتى يتصلحوا تتصلحوا، ولا تُشربوا قلوبكم بغضبهم، فيشتد
لذلك غيظكم، ويطولَ له حزنكم، ولا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استُجيب
لكم فيهم لكان شراً لكم. أمال الله أن يُعينَ كلاً على كلِّ. وإذا رأيتموني
أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله^(١)، وأيمُّ الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة،
فليحذر كل امرئٍ منكم أن يكون من صرعى .

وزياد في هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهي المعروفة عند الفرس،
إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضون لحكمهم من قِبَلِ ربهم، وفي ذلك دلالة
واضحة على تأثير الخطباء بالأفكار الأجنبية. وهو يلوح لسامعيه بما في يد الدولة
من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنتزها على رعاياها المطيعين الموالين لها
نَشْراً، ولا يلبث أن يهدد من تحدَّتهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا
فالسيف ينتظرهم وضرب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة، إذ ترسم سياسة زياد
وطريقته في الحكم من جميع أطرافهما. وهي مقسمة إلى فقر تتسلسل فيها
الأفكار تسلسلاً دقيقاً، وكل لفظة تقع في مكانها وقرارها مع جمال الדיباجة
ووضوح الدلالة، فلا توغر ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته في الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً، وهو
فيه يُبدع، كما يبدع في خطبه السياسية، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال
إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده، وهي تطرد على هذا السياق^(٢) :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها
على طاعته، فالناس بين محسنٍ بنعمة الله ومسيءٍ بخذلان الله إياه . ولله النعمةُ
على المحسن والحجة على المسيء . فما أولى من تمت عليه النعمة في نفسه ورأى
العبرة في غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله، فيعطى ما عليه منها ولا يتكثَّر

(١) اذلاله : وجوهه .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٨٧ .

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل ، فأخذ رُكْمُ الله الذي حذر رُكْمُ نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجْزة ، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدرُوا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة .

وواضح ما في هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقاً ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه في بعض خطبه ، من أنه أوفى حُسْنِ البيان وبراعة الخطاب .

٣

خطباء المحافل

مرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللون من الخطابة ، إذ كانوا يتقدّمون على ملوكهم وأمراءهم ، فيخطبون بين أيديهم مُثْنين عليهم ، ومفاخرين بقباثلهم . وكانوا يخطبون في أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا في الأسواق وفي عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها في نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كي يطمئنوا إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تمشلُ بين أيديهم ، وكانوا يُغدقون عليها إغداقاً واسعاً . ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريحها لتلك الوفود ، فكانت تردُّ تباعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظُلامة لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضيق عليها من نواله الغمَّس ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سُنَّته . ومن اشهر بالخطابة بين يديه سَحْبَان ، خطيب وائل ، وقد اشهر بخطبته « الشَّوْهَاء » التي خطب بها عنده ، فلم يُنشُد شاعر ولم يخطب خطيب^(١) ،

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٤٨ .

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء . سَلَفَ من منطقته (١) » . ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذي لا يدافع وصُحار بن عِيَّاش العَبْدِيُّ ، الذي قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال : شيء تعجيش به صلورنا فتقذفه على ألسنتنا (٢) » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعة ، وَمَصْقَلَةُ بن رَقَبَةَ وراقية بن مصقلة وكرَب بن مصقلة (٣) ، ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها (٤) ويقابل آل رَقَبَةَ وصُوحان في بني عبد القيس آل الأهم في تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهم الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات (٥) ، ومثله ابنه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شَيْبَةَ بن عبد الله . ومن الخطباء الأبيناء عبد العزيز بن زُرارة الكلابي ، وهو الذي خاطب معاوية بقوله (٦) :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألوى (٧) بي الليل فقُبِضَ البصر وعُفِّي الأثر أقام بدني وسافر أملى ، والنفس تلوم والاجتهاد يعذر ، وإذ قد بلغتك فقطتى (٨) » .

وواضح ما في هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضى خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروى فيها طويلاً حتى يروق لفظه الخليفة ومن حضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون في خطابتهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتاب في دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المناقسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

(٥) نفس المصدر ١/٣٥٥ .

(٦) البيان والتبيين ٢/٧٥ .

(٧) ألوى هنا : استأثر .

(٨) قطى : يكفئني .

(١) البيان والتبيين ١/٣٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٦ .

(٣) نفس المصدر ١/٩٧ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

البيعة لابنه يزيد^(١) ، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العنزي في خطبته التي صدر فيها عن رغبة عبد الملك في خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد^(٢) . ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية ، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلوي الكوفي ، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استخلف والناس مجموعون على بابه يتهيبون القول ، فقال^(٣) :

« يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرزية ، وبارك لك في العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزئت عظيماً ، وأعطيت جسيماً ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واصبر له على ما رزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، ومنحت خلافة الله ، ففازت جليلاً ، ووهبت جزيلاً . . . »

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء . وتلقانا من هذا التأين المزوج بالتعزية نصوص متعددة في المناسبات المماثلة . ومن اشتهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بني أمية عبد الملك بن مروان ، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر ، وكان الحجاج كثيراً ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطبائهم بين يديه . وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبي حازم^(٤) ، ولم يكثر الوعاظ على باب كثيرهم على باب عمر بن عبد العزيز^(٥) ، منهم خالد بن صفة وان وعبد^(٦) الله بن الأهم ومحمد^(٧) بن كعب القرظي . وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن^(٨) صفوان في مجالسه ، ولما فرّ الكميث من سجن خالد القسري وضاقته به الأرض بما رحبت لجأ إلى ساحته متوسلاً ببعض أهله ، حتى إذا مثل بين يديه خطب خطبة طويلة^(٩) يستنزل بها عطفه عليه ، فرق له وعفا عنه .

- | | |
|---|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وعيون الأخبار | (٦) البيان والتبيين ٢/١١٧ . |
| ٢/٢١٠ والعقد الفريد ٤/٣٦٩ والأمال | (٧) فقس المصدر ٢/٣٤ و ٣/١٤٣ ، |
| ٢/٧٣ ، ٣/١٧٧ . | ١٧٠ وعيون الأخبار ٢/٣٤٣ ، ٣٧٠ . |
| (٢) البيان والتبيين ١/٤٨ . | (٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وعيون الأخبار |
| (٣) زهر الآداب ١/٤٩ . | ٢/٣٤١ . |
| (٤) البيان والتبيين ٣/١٣٥ . | (٩) أغاني (سأسي) ١٥/١١٣ . |
| (٥) زهر الآداب ١/٧ . | |

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يفدون على الولاة ، واشتهر عمران بن حِطَّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة^(١) . وَمَنْ وُفِدُوا عَلَى الْحِجَاكِ كَثِيرُونَ ، مِنْهُمْ جَامِعُ الْحَارِثِيِّ وَقَدْ تَسَخَّطَهُ بَعْضُ قَوْلِهِ^(٢) ، وَكَانَ قَوَادِهِ لَا يَتَنُونُ يَرْسَلُونَ إِلَيْهِ مَنْ يَجْبِرُهُ بِانْتِصَارَاتِهِمْ عَلَى نَحْوِ مَا أُرْسِلَ إِلَيْهِ الْمَهْلَبُ كَعَبِ بْنِ مَعْدَانَ الْأَشْقَرِيِّ يَنْبِئُهُ بِقَضَائِهِ عَلَى الْأَزَارِقَةِ^(٣) .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم في المصاهرات^(٤) وفي إصلاح ذات البين^(٥) . وهناك خطب تأخذ شكل المناشرات القديمة ، وهي تلك التي يقال إنها حدثت بين بعض بني هاشم وعمرو بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعفناها ، ورجعنا انتحالها ، ومثلها ما يُروى في بعض كتب الأدب من خصومة أبي الأسود الدؤلي وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشهر في هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

الأحنف^(٦) بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بني سعد إحدى عشائر تميم لُقِّبَ بالأحنف لحنف^(٧) كان في رجليه جميعاً ، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حنكة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولائها في وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال في مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٢) نفس المصدر ٢/١٣٥ .

(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ .

(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٤/٧٣ وعيون الأخبار ٤/٧٢ والعقد الفريد ٤/١٤٩ .

(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ ،

٢/١٣٥ .

(٦) انظر في الأحنف طبقات ابن سعد

ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ١/٤٦ ووفيات

الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبرى (راجع فهرسهما) .

(٧) الحنف : الاوجاج في الرجل .

الأرزاق ومن شقَّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقه إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ: «نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد، والأحنف ملتفت في بيت^(١) له، فترك جميع القوم واستنطقه، فلما تبع^(٢) منه ما تبع، وتكلم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا^(٣). ويقولون إنه استبقاه عنده حولا كاملا ليبالغ في تصفح حاله. وعاد إلى البصرة وأخذ يتقيد على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش، إذ كان النصر دائماً يرافقه.

وزراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أعمدت استجابة لرأيه، حتى إذا انتصر علي دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته، وأصفاه ولاءه، حتى إذا كانت وقعة صفين أبلى فيها بلاء حسناً هو وقومه. وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على علي أن يحكم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبث عمرو بن العاص ودهائه. وما زال علي وولاته لعل إلى أن لبي ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية. وكان معاوية وولاته وخاصة زياداً يكبرونه إكباراً عظيماً، وزراه يُصبح سفيراً لقومه لدى معاوية، فهو يتقيد عليه من حين إلى حين، ويوسع له في مجالسه، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره.

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة، بعد وولاتها، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب. وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُدارى، وأنه كان يجهر برأيه

(٢) البيان والتبيين ١/٢٣٧ وانظر ١/٢٥٤.

(١) البت: كساء صوف غليظ.

(٢) تبع المطر: تفجر وانسال.

لا ينجس لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله في شيء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريد ، جاهره برأيه في رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التي استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره في الكلام قال (١) :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسيره وعلانيته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً ولهذا الإمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكأنه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفى يزيد ، ويضطر عبيد الله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويسلم أمورها إلى الأزدي وزعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزدي ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويحقق الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامة الأحنف في طاعته ، ويقرب مصعب ويصبح من خلدصائه ، فيقف معه في حرب المختار الثقفي ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى في أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكياً من قومه وعارفيه ، ويروى أن فرغانة بنت أوس بن حجر التميمية وقفت على قبره ، فأبنته قائلة (٢) :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر (٣) من مجن (٤) في جنن ، ومدرج في كفن ، فوالذي ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشت حميداً ، وموتاً فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السلم ، رفيع العماد ، وارى الزناد ، منبع الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت في المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفاً ، ومن الناس لقرباً ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لسوداً ، وإلى الخلفاء لموفداً ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين » .

ومر بنا آفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنف مضر الذي تعطس عنه وأبين العرب والعجم

(٤) أجنه : ستره . تريد أنه ستر في الجنن أي وضع في القبر .

(١) العقد الفريد ٤ / ٣٧٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣٠٢ .

(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .

قاطبة^(١) . ونحن لا نقرأ خطبه التي كان يلقيها بين أيدي الخلفاء، حتى يروعا منطقته، لقدرة على حوك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأساليب التصوير . ولم يكن يُطيل في هذه الخطب ، بل كان يعمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقته ، فقد وفد على معاوية مرة ، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه في الخليفة من مَدِّ يد العون والمساعدة^(٢) :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير ، مع تتابع من المَحول واتصال من الذُّحول^(٣) ، فالكثر فيها قد أطرق^(٤) ، والمقل قد أملق ، وبلغ منه الخنثى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُشعش الفقير ، ويسجبر الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذُّحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء^(٥) . وإن السيد من يعم ولا يخص ومن يدعو الجفلى^(٦) ، ولا يدعو النقرى^(٧) ، إن أحسن إليه شكر وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المضلات .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتبه في تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة ، فيمضونه في التو والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصفح الجميل ، مستعظفاً ، ولكنه الاستعطاف الذي يُبقي فيه الرجل الكريم على مروءته . ودائماً كلما قرأناه أحسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه لإرسالاً ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد ، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعاني التي يعبر عنها إحاطة تامة ، وتصور ذلك كلمته الثانية التي أشرنا إليها كما صورته كلمته الآنفه ، وقد ألقى بها حين ادلهم الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزدي بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه^(٨) :

- | | |
|----------------------------|-------------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ٦٠/١ . | (٥) اللأواء : الشدة . |
| (٢) زهر الآداب ٤٦/١ . | (٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة . |
| (٣) الذحول : الثارات . | (٧) الدعوة النقرى : الدعوة الخاصة . |
| (٤) أطرق : هزل وضعف . | (٨) البيان والتبيين ١٣٥/٢ . |

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا في الدين وشركاؤنا في الصَّهْرُ وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو. والله لأزدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام، فإن استشرى^(١) شئنا نكم، وأبي حسك^(٢) صدوركم في أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم ». .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً ، فأغمدت الأُسنة وحقنت الدماء .

وعلى هذا النحو تُثبت خطب الأحنف وسيرته صدق فِرَاسة ابن الخطاب فيه ، إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصره .

٤

خطباء الوعظ والقصاص

نشط الوعظ والقصاصُ الديني في هذا العصر نشاطاً عظيماً ، فقد كان الوعَّاظُ والقُصاصُ في كل بلدة إسلامية لا يَسْتُونُ عن وعظ المسلمين ، وقد أفرد لهم الجاحظ في بيانه صحفاً كثيرة ، أورد فيها أسماء طائفة من مبرزهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسودُ بن سريع وهو أول من قصَّ بالبصرة^(٣) ، وكان يقابله في الكوفة زيد^(٤) بن صُوجان وفي المدينة عبَّيد بن عُسَير^(٥) وكان عبد الله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبيكى من شدة تأثره . ومن القُصاص أيضاً إبراهيم^(٦) التميمي الكوفي وسعيد بن جبير ، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر^(٧) ، ومسلم^(٨) بن جندب قاصٌ مسجد المدينة ، وذُرَّ^(٩) بن عبد الله ، وكان بليغاً ، وهو الذي كان يقصُّ في جند ابن الأشعث حاثاً الناس على حرب الحجاج ، ومطرف

- (١) استشرى : تفاقم . الشنان : العداوة .
 (٢) حلك الصدور : الحقد .
 (٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .
 (٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
 (٥) ابن سعد ج ٥ ص ٢٤١ والبيان والتبيين .
 (٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .
 (٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .
 (٨) البيان والتبيين ١ / ٣٦٧ .
 (٩) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢ / ٢٩٨ والعقد ٣ / ١٩٨ .

ابن عبد الله الشَّخِيرُ وكان يقصُّ في مكان أبيه بمسجد البصرة^(١)، ومنهم وهب^(٢) بن منبه ويزيد بن أبان الرقاشي، ويذكر الجاحظ من وعظه^(٣). « ليتنا لم نُخلِّقْ، وليتنا إذ خُلِّقنا لم نَعصُصْ، وليتنا إذ عَصِينَا لم نَمِتْ، وليتنا إذ متنا لم نُبْعَثْ، وليتنا إذ بُعِثْنَا لم نَحَاسِبْ، وليتنا إذ حوسبنا لم نَعذَّبْ، وليتنا إذ عُدبنا لم نخلِّدْ ».

فالقصاص كانوا وعظاً في الوقت نفسه، بل هم لا يقصون إلا من أجل الوعظ، ومن اشتهروا بوعظهم عبد^(٤) الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء^(٥) ابن حسيوة والأوزاعي^(٦) في الشام وسعيد^(٧) بن المسيب وأبي حازم الأعرج في المدينة، ولثانيتها مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئِلَ ما مالك؟ قال: مالان: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس^(٨). ومن وعظ المدينة أيضاً محمد^(٩) بن كعب القرظي واعظ عمر بن عبد العزيز. وكان العراق يموج بالوعاظ موجاً، من مثل ابن^(١٠) شُبْرمة ومورق^(١١) العجلى وبكر^(١٢) بن عبد الله المزني والشَّعبي^(١٣) وأيوب^(١٤) السخيتاني ومحمد بن واسع الأزدي البصري، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وسان طرير^(١٥). ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك^(١٦) بن دينار، وكان يقول في قصصه: ما أشد فِطام الكبير، وينشد:

وتروض عرسك بعد ما هربتُ ومن العناء رياضة الهرمِ

- | | |
|--|--|
| (١) البيان والتبيين ٣٦٧/١ وعيون الأخبار ١٤٣/٣، ١٧٠. | (١) البيان والتبيين ٣٦٧/١ وعيون الأخبار ٢٨٩/٢. |
| (٢) البيان والتبيين ٣٣٦/١ والعقد ١٨٣، ١٥٠/٣. | (٢) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢٧٢/٢ وما بعدها، ٢٨١/٢، ٢٢٨. |
| (٣) البيان والتبيين ٣٥٣/١ وانظر ١٩٨/٢. | (٣) البيان والتبيين ٢٦٢/١. |
| (٤) نفس المصدر ٣٥٣/١ وانظر ١٤١/٢. | (٤) عيون الأخبار ٢٩٤/٢. |
| (٥) البيان والتبيين ٣٢٢/٢ وصفة الصفوة ٤٠/٣. | (٥) انظر طريراً من مواعظه في صفة الصفوة ١٨٦/٤. |
| (٦) راجع صفة الصفوة ٢١٢/٣. | (٦) انظره في صفة الصفوة ٢٢٨/٤. |
| (٧) البيان والتبيين ٢٧٣/٣ والعقد الفريد ١٧٠/٣ وطرير: محدد. | (٧) راجع صفة الصفوة ٤٤/٢. |
| (٨) البيان والتبيين ٧٩/٢ وصفة الصفوة ١٩٧/٣. | (٨) البيان والتبيين ١٣٩/٣. |
| | (٩) انظر البيان والتبيين ٣٤/٢، |

ومنهم إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضربُ به المثل في الذكاء وصدق الفِراسة^(١)، ومنهم خالد بن صفوان وشيب بن شيبه الأهميان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ: « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشيب بن شيبه الذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلاهما^(٢) » ويقول في خالد: « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين في الخواص خالد بن صفوان . . . ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي الورّاقين^(٣) » وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمّاره، ويؤثرُ عنه أنه كان يقول: « احذروا مجانيق الضعفاء يعني الدعاء^(٤) » ومن قوله: « بيتٌ ليلي كلها أتمنى فلأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطيمران^(٥) » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاه^(٦).

ومن كبار وعاظ العصر وقصّاصه الحسن البصري، وفيه يقول الجاحظ: « أما الخطب (الدينية) فإننا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصري فيها^(٧) » ومن يأتي بعده في الوعظ عبد الله بن شداد، وهو القائل: « أرى داعي الموت لا يُقلع وأرى من مضى لا يرجع^(٨) ». ومن كبار القصّاص والوعاظ الفضل بن عيسى الرقاشي، وكان يسجع في وعظه^(٩)، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصاً مجيداً^(١٠) » وهو الذي يقول في قصصه: « سَلِ الأَرْضَ فقلْ من شَقَّ أنْهَارَكَ، وغرس أشجاركَ . . . وجنى ثماركَ، فإن لم تجبِكَ حواراً أجابتكَ اعتباراً^(١١) ». ومن أشهر الوعاظ وأنبههم واصل^(١٢) بن عطاء رأس المعتزلة، وكان أغزر خطباء عصره

- | | |
|--|--|
| (١) البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها . | (٨) نفس المصدر ٢/١١٢ . |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣١٧ . | (٩) البيان والتبيين ١/٢٩٠ . |
| (٣) نفس المصدر ١/٣٣٩ - ٣٤٠ . | (١٠) البيان والتبيين ١/٢٠٦ . |
| (٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٤ . | (١١) نفس المصدر ١/٣٠٨ . |
| (٥) نفس المصدر ٣/١٦٤ والطبر : الثوب البالي . | (١٢) انظر في ترجمة واصل الملل والنحل للشهرستاني ص ٣١ وما بعدها وأساب السمعاني وابن خلكان ولسان الميزان ٦/٢١٤ . |
| (٦) عيون الأخبار ٢/٣٤١ . | |
| (٧) البيان والتبيين ١/٣٥٤ . | |

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويُرْوَى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في إمارته على العراق (١٢٦ - ١٢٩ هـ) وحضره معه خالد بن صفوان وشيب بن شيبه والفضل بن عيسى الرقاشي ، وتبارى الأربعة بين يديه في الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التي جانب فيها الرأى ، إذ كان يلثغ فيها لثغاً فاحشاً ، ونوه بذلك بشار بن بُرْد طويلاً ، قبل أن يفسد رأى واصل فيه ، على شاكلة قوله (١) :

أبا حذيفة قد أوتيت مُعْجِبَةً في خطبةٍ بدَّهتُ من غير تقدير
وقوله :

تكلفوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلُوا وجبروا خُطْباً ناهيكَ من خُطْبِ
فقام مُرتجلاً بَغْلَى بداهتُه كيرجلِ القَيْنِ لما حُفَّ باللَّهْبِ (٢)
وجانبَ الرأى لم يَشعر بها أَحَدٌ قبل التُّصْفَحِ والإغراقِ في الطلبِ

ولا نستطيع أن نزعج كما زعم بشار أن واصلاً التي هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحسُّ أثر التروية والتحضير وأنه تأتت لها في أناة حتى اتسقت في نسقها البديع ، وهي من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلها بتحميد وتمجيد أطنب فيهما إطناباً لانعرفه لأحد من رُصفائه ، على هذا النمط (٣) :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي عملا في دنوّه ، ودنا في علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يشؤده (٤) حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداءً ، وعدّ له اصطناعاً ، فأحسن كلَّ شيء خلقه ، وتممَّ مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلَّ على ألوهيته ، فسبحانه لامعقب (٥) الحكمة ولا دافع لقضائه ، تواضع كلَّ شيء لعظمته ، وذلَّ كلَّ شيء لسلطانه ، ووسع كلَّ شيء فضله ، لا يعزُّب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدَّست أسماؤه ، وعظمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

(١) الرسائل النادرة لعبد السلام هرون وجمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ٤٨٢/٢ .
(٢) يتوده : يشقله .
(٣) لا معقب : لا راد .

(١) انظر في هذا البيت وما يليه البيان والتبيين ٢٤/١ .
(٢) القين : الحداد .
(٣) انظر في هذه الخطبة الحلقة الثانية من

كل مخلوق ، وتتره عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول والأفهام ، يُعصَى فيَحُلُّمُ ، ويُدْعَى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون .

وواضح أن واصلاً يستظهر في هذا التحميد والتمجيد آي القرآن الكريم في وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرره من نفي التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثل شيء من مخلوقاته . وقد مضى يصلي على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلاً في صلاته كما أطال في حمده . وبقية بس من صنيعه أخذ الكتاب من أمثال عبد الحميد يطيلون في تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك في الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته ، وأحضكم على ما يُدُنِيكم منه ويُزِلُّكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زادٍ وأحسن عاقبة في معاد ، ولا تُلهينكم الحياة الدنيا بزينةا ونحوها وفواتن لذاتها وشهوات آملها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شيء فيها يزول . فكم عانيتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من حباثلها ، وأهلكتم من جنح إليها واعتمد عليها ، أذاقتم حلواً ، ومزجت لهم سمّاً . »

وواصل في هذه الفقرة يرد ما كان يتجري على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا ويرقها الخلب وما يُطَوَى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمد لهم في غوايات الشهوات ، والعاقل من ازور عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمماً قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزود كلُّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيّدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بمحمليها (١)

(١) الحمل : الشقان على البعير يحمل فيهما

شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحنهم بكلكلها^(١)، وعضتهم بأنيابها، وعاضتهم من السَّعة ضيقاً، ومن العزة ذلاً، ومن الحياة فناء، فسكتوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تُحسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم نَبساً .

وهذا الشطر من موعظة واصل بصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الدائرة والدول الزائلة حديثاً أطالوا فيه مستوعبين لقصص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصتهم، وما صبَّ الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جَلْب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة . ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ، وكفى به واعظاً هادياً .

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته، إذ كان فاحش اللثغة في الرأ، فخلَّص كلامه منها تخليصاً، بحيث لم يكن أحد يظن لذلك لبيانه الرائع، يقول: إنه كان داعية ورئيس نحلة . وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لا بد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، ومن أجل الحاجة إلى ذلك « رام إسقاط الرأ من كلامه وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لسره والراحة من هُجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمَّل . ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً ولطرافته معلماً لما استعجزنا الإقرار به والتأكيد له . ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلَّدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة^(٢) الأكفء ومفاوضة الإخوان .. وذكر ذلك أبو الطروق الضبيُّ فقال

علمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ لكل خطيبٍ يغلب الحقُّ باطله^(٣) ،

ولا شك في أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الرأ في جميع محاوراته آية بيّنة على تمام آله في البلاغة وإحكام صنعته. وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

(١) الكلكل : الصدر .

(٢) مناقلة : مدافعة .

(٣) البيان والتبيين ١/١٤ وما بعدها .

معاً ، وخرَّج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق في منزلة بين منزلي المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصاري يصف أتباعه فيقول (١) :

له خلفَ شَعْبَ الصِّينِ في كلِّ ثَغْرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر (٢)
رجالٌ دعاةٌ لا يفلُّ عَزِيمُهُمْ تَهْكُمُ جَبَّارٍ ولا كيدٌ ماكرٍ
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بلدةٍ وموضعُ قُتباها وعلم التشاجر (٣)
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُمْ ولا الشُّدقُ من حَيٍّ هلالِ بنِ عامرٍ (٤)

وهو لا ينوّه بوعظهم فحسب ، بل ينوه أيضاً بقتلتهم على الجدل والإقناع وتقرير الأدلة في عقول الناس . ويمضي فيصور براعة واصل في هذا العلم الحديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشبهة عند خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى أتباعه ، يقول :

تلقَّبَ بِالغَزَّالِ واحدٌ عصره فَمَنْ لِلتَّيْهِمِ وَالقَبِيلِ المُكائِرِ (٥)
وَمَنْ لِحَرُورِيٍّ وآخَرَ رافضٍ وآخَرَ مُرَجِّيٍّ وآخَرَ جائِرِ (٦)
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكارٍ منكرٍ وتحصين دين الله من كل كافرٍ
يُصَيِّبونَ فَضْلَ القَوْلِ في كلِّ موطنٍ كما طبقت في العظم مُدْيَةُ جازِرِ
وسياهمُ معروفةٌ في وجوههم وفي المشي حُجَّاجاً وفوق الأباعِرِ
وفي ركعةٍ تأتي على الليل كلِّه وظاهر قولٍ في مثالِ الضمائرِ

(٥) خير الأقوال في تلقيب واصل بالغزال أنه كان يجلس في سوق الغزالين ليصرف المتعطفات من النساء فيجعل صدقته لمن . انظر المبرد ص ٥٤٦ .
(٦) الحرورية : الحوارج

(١) البيان والبيان ٢٥/١ .
(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت حاضرتها طنجة .
(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدل في العقيدة أو علم الكلام .
(٤) الشدق : البلاء .

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجة واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحرورية ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل في العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلح المتأخرون، فظهر القدرية بزعامه الحسن البصرى، وظهر المرجئة بزعامه غيلان الدمشقي وغيره من دعاة هذا المذهب في العراق وخراسان. وفي كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بني أمية^(١). واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بيينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاورة واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصرى في مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقاً، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافراً، لأنهم كما قدمنا كانوا يتصلون بالإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عبّيد من تلاميذ الحسن البصرى، فجمع بينه وبين واصل لينظره في رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة^(٢)، ويقدم لها بأن واصل أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عبّيد، فحاورة في رأيه، وردّ عليه واصل ردّاً مفحماً مستخدماً بعض آى الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقي دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رعوس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يُعدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعّاظ وأصحاب المقالات في هذا العصر من دقة لا في مناظراته ومحاوراته فحسب، بل أيضاً في آرائه، فإن فكرة المترلة بين المترلتين التي وضع فيها مرتكبي الكبائر فكرة لا يُؤتأها إلا من استبصر المعاني وعرف حدودها ومقاديرها ومدخلها وإطائفها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة في الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

(١) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر» (٢) أمالي المرتضى ١/١٦٥.

العربي، (طبع دار المعارف) ص ٧٩.

لا يأتي عفواً، وإنما يأتي من تصفح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم تكن مغالين ، إذ دُعمت فيها الأدلة ودققت المعاني ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودفائنها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التي كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثمَّ فتحو الأبواب واسعة للأسلوب المولّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفتات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفتات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده النصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم في حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعدّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق، وهياً لهم ذلك شيئاً من التروى والتهمل كان له أثره في روعة الأداء ، حتى لئرى فريقاً منهم يعتمد إلى السجع في وعظه مثل أسرة الرقاشيين^(١) ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشي . ولكن هذا ليس الأسلوب الذي شاع في تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح في خطبة واصل التي مرّت بنا، وفي خطابة الحسن البصري وغيّلان^(٢) الدمشقي، وإنما ألجأهم إليه ضيق معاني الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدّوا لهذا الأسلوب الذي نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومن تلاه من كتاب العصر العباسي أمثال الجاحظ : ولا أغلو إذا قلت إنهم أعدوا لشيوع لون الطباق في كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصبغون خطابتهم على المطابقة والمقابلة بين المعاني .

(١) انظر في هذه الأسرة البيان والتبيين (٢) انظر في مواضعه عين الأخبار ٢/٢٤٥ .

٣٠٦/١ وما بعدها .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدوا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التي يموج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تحولوا يعلمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطقتهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلاحظون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعهم وطبقاتهم، ومتى يستحب الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعول دائماً على وضوح الدلالة حتى يصنع الكلام في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. وبذلك هياؤا لظهور قواعد البلاغة العربية، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعاظهم، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عبَّيد ما البلاغة؟ فأجاب^(١):

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشذك وعواقب غيئك، قال السائل: ليس هذا أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن إفهام؟ قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المثوبة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفسي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستحقت على الله جزيل الثواب.»

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق في الخطابة وفي المحاوراة والمناظرة، ويؤثر عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: «اعلم - رحمك الله - أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجية»^(٢) وكان شبيب بن شيبه يقول: «الناس موكَّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكَّل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت»^(٣). ولم يكونوا يتفقدون

(١) البيان والتبيين ١١٤/١ وانظر العقد

(٢) العقد الفريد ٢٦١/٢ .

(٣) البيان والتبيين ١١٢/١ .

الفريد ٢٦٠/٢ وزهر الآداب ٩٣/١ .

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثنانياً ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلاً عند الحسن البصرى وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن (١) البصرى

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمى يسمى يساراً من سبي ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هي الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة في وادى القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقتبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت تروى أحاديث عن أم سلمة وتدبجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق في نفس ابنها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفي أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما في المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة عليّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن ينجح عن المشاركة في الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك في الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش بمدارسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولاً الوقوف على جوانب التشريع الإسلامى . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية في الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة في خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصرى لابن الجوزى والحسن البصرى لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربى) .

(١) انظر فى ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبعا من يبايعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ في مصره إذ كان لا يجارى في بلاغته وبيانه .

ويُكبره عصره كما تكبره العصور التالية لزهد الذي لم يكن يتعمل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية في المدينة دار النبوة ، ومن ثم أخذت الفرق الدينية تتنازع ، حتى تسوخ آراءها في عقول الناس ، فكل فرقة تنسب إليه من عقائدها ما يجعله يتنظم بين رؤاها الأولين ، فالجسرية يقولون إنه كان يني حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شيء بقضاء من الله ، ويقول القدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار في أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قدرياً ، إذ كان يقول من زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوه به الجاحظ المعتزلي هذا التنويه العريض الذي تلقاه دائماً كلما ذكره في صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه في القدر ، فكتب إليه رسالة ضممتها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله^(١) ، وتلتقى بهذه الرسالة في نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك^(٢) .

والذي لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد في عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شيء والزهد شيء آخر ، حقاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صور إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه في مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر
المصرية برقم ٥٢٢١ أدب .
آباد) ص ١٢ .

(٢) انظر بصورة هذه الرسالة في دار الكتب

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقبيل أن يتولى القضاء إلى فترة في عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربي محكك»^(١) ، ويؤثر عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص^(٢) البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت^(٣) » وهو إنما يعنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج^(٤) ». وكان يجمع إلى فصاحته حساً لغوياً دقيقاً ، وبما يصور ذلك ما يروى عن رجل من بني مجاشع قال : « جاء الحسن في دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجهكم ، وأجرك الله^(٥) » .

وتموج بعضاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تموج بها ترجمته في الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وقد نوه به الغزالي في الإحياء مراراً . وهو في مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته^(٦) .

وهو في وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاشاً على التقوى والعمل الصالح والتأسي بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكرممة التي حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التي رواها له الجاحظ قوله^(٧) :

« يا بن آدم بيع دنياك بأخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع أخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الشواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .
 (٢) الخصى : البيت من قصب ، وكان في البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها الحسن زهداً وورعاً .
 (٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .
 (٤) نفس المصدر ١/١٦٢ .
 (٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .
 (٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .
 (٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٣٤٤ .

والساعة تسوقكم، وإنما يُنتظرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً^(١) لم يضع لِسِينَةً على لبته ولا قصبة على قصبة . . (لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة) . يابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبْرُكَ، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . . يابن آدم اذكر قوله : (وكلَّ إنسانَ أَلَمَناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عدل ، والله ، عليك من جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدّها ، دعوا ما يربيبكم إلى ما لا يربيبكم . لقد صحبت أقواماً^(٢) ما كانت صحبتهم إلا قرّة العين وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن تُردّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهّد منكم فيما حرّم عليكم منها . . لو تكاشفتُم ما تدافنتُم^(٣) ، تهاديتُم الأطباق ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطّاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوِيناً . أعدُّوا الجواب فإنكم مسؤلون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتقني ، ولكنه ما وقّر في القلوب وصدّقته الأعمال .

وواضح كيف كان يمزج عظته بأيّ الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضيء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يربيبكم إلى ما لا يربيبكم » ففي الحديث النبوي : « دع ما يربيك إلى ما لا يربيك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتُم ما تدافنتُم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتي بها في قضا عيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) ثم عقب عليها بقوله^(٤) :

(٢) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض
لاستقلتم المشي في الجنائز .
(٤) أمال المرتضى ١/١٥٤ .

(١) يريد أنه كان يفلو ويروح في كسب
عيه الضروري .
(٢) يريد صحابة الرسول .

« إن قوماً غَدَّوْا في المطارف^(١) العِتاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية ، حتى إذا أخافوا مَسَنُ فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمَّة أهلكوا دينهم وأسمنوا بَراديتهم^(٢) وسعوا دورهم وضيتوا قبورهم . ألم ترهم قد جمَدَّ دوا الثياب وأخلاقوا الدين ، يتكىء أحدهم على شماله ، فيأكل من غير ماله .. يدعو بحلُّو بعد حامضٍ وبحارٍ بعد باردٍ وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكفظة^(٣) تجشَّأ من البشِّم^(٤) ، ثم قال يا جارية هاتي حاطوماً^(٥) يهضم الطعام ، يا أحييِّمق لا والله لن تهضم لإدينك أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عزَّ وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الحنيف من رعاية الجار واليتم والمسكين . وكان يعنُف بالأغنياء عنقه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قلَّ ورقها وكثُر شوكتها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسليها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسليها الراجحة ، ومن قوله^(٦) :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قَصْداً ، وقدَّم فضلاً ، وجهَّوا هذه الفضولَ حيث وجهَّها الله ، وضَعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا ، ففضَّحها ، فلا والله ما وجد ذو لُبٍّ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار . أدركتُ من صدُر هذه الأمة قوماً كانوا إذا أجنَّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفرشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خلدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم^(٧) . . . يا ابن آدم إن كان لا يُغْنِيكَ

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز .
 (٢) براديتهم : دوابهم .
 (٣) الكفظة : الشبع .
 (٤) البشِّم : الامتلاء .
 (٥) الحاطوم : الماظوم المهضم .
 (٦) البيان والتبيين ٣ / ١٣٥ .
 (٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يُغنيك ، وإن كان يُغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدَّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويجلِّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهسوم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون ، فطوبى لمن قنع بالكفاف وذكر في غدوة ورواحه المعاد ، وأعدَّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدي الله ، وهو لا يدري أيؤمّرُ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير في ذلك حرى أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل في هذا كله ما يوضح المعاني التي كان يخوض فيها الحسن البصرى ، وقد كان يختار لها كُسوة حسنة من هذا الأسلوب الذي يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه . »

وهو بلا ريب أكبر من ثبتوا في هذا العصر ذلك الأسلوب المونق الذي تأثر به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

الفصل السابع الكتابة والكتاب

١

التلويح

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضهم - كما مر بنا - على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيباً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحفٌ يُجمع بعضها إلى بعض في موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أمية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة ، تدون معارفها العربية والإسلامية واضعة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ، ومن ثم كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار^(١) ومن أشهرهم دغفل^(٢) بن حنظلة السدوسي المتوفى سنة ٧٠ للهجرة ، وله مجالس عند معاوية دُوت في كتاب له اسمه «التضافر والتناصر»^(٣) وهي تدور بينهما في أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويجيبه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها في بيانه ببعض إجابات طريفة.^(٤)

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .
(٢) انظر التحفة البهية (طبعة إستانبول) ص ٢٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٢١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٨٠/٢ .

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١/٣١٨ وما بعدها
(٢) راجع في ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال الميداني ٢/٢٧٣ والإصابة ، وفي

وبجانب ذلك نجد القبائل تُعنى بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها، وتكاثرت هذا التدوين في الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلي وكل ما يتصل به من أخبار وأيام^(١). وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامي كان يُكتَبُ ويدون، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ذي الرمة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر: «اكتب شعري فالكتاب أحب إلى من الحفظ»، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم يُتشدّها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام^(٢)، وفي أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسينا بإعداد ألواح ودواة ليُحلى عليه بعض أشعاره^(٣) وأنه كان يقول لسامعيه بالمربد قيّدوا قيّدوا أي اكتبوا^(٤)، وفي الأغاني أن خالد بن كلثوم الكلبي كان يدون شعره وشعر الفرزدق^(٥). ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيل من الرواة، يُعنى بتدوين أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم، لعل خير من يمثله أبو عمرو بن العلاء، وفيه يقول الجاحظ: «كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له، إلى قريب من السقف، ثم إنه قرأ (تسك) فأحرقها كلها، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية»^(٦).

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدونة دينية عُنيت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوي وتلقين الناس الفقه وشؤون التشريع. وكان كثيرون من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون. وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم، وحمل عنه تفسيره نفر من التابعين

(١) أغاني (دار الكتب) ٤٤/٦.

(٢) الميوان ٤١/١.

(٣) نقائض جرير والفرزدق (طبعة يثرب).

مر ٤٣٠ وانظر أغاني (دار الكتب) ٣٢/٨.

(٤) ابن سلام ص ٣٧٤.

(٥) أغاني (سامي) ١١/١٩ - ١٢.

(٦) البيان والتبيين ١/٣٢١.

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «مصر صحيحة في التفسير عن ابن عباس رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً»^(١). ولا يحتمل تفسير الطبري تفسير ابن عباس وحده، بل يحمل أيضاً كل ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب. وقد أخذت معظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون، وما نشك في أن كثيراً منها دون في هذا العصر، وإلا ما وصلت إلى الطبري. وكان الصحابة والحيل الأول من التابعين كما مر بنا في غير هذا الموضع يترددون في تدوين الحديث، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان، فعملوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما بصور لنا ذلك البغدادي في كتابه «تقييد العلم». ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث، ويعتني بذلك كما مر بنا الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه، ويتابع التدوين فيه. وعلى نحو ما أخذوا في تدوين الحديث والتفسير أخذوا في تدوين الفقه، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية، فإنهم حرروا فتاياه ومذهبه في التشريع^(٢). ويذكر جولدتسيهر أن عروة^(٣) بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة^(٤). ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لاعتقادهم في أئمتهم أنهم المهادون المهديون الذين ينبغي أن يلتزموا بفتاواهم ون ثم عنوا بفتاوى علي وأقضيته، ويظهر أن أول من ألف فيها سليم بن قيس الهلالي معاصر الحجاج^(٥)، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد في المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر في الفقه اسمه «مجموعة زيد بن علي»^(٦).

وأخذت تدون منذ القرن الأول مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عنوا

- | | |
|--|---|
| (١) انظر النوع التاسع والسبعين في كتاب الإتيان للسيوطي. | وصفة الصفوة ٤٧/٢ والمعارف لابن قتيبة ص ١١٤ |
| (٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية. | (٤) انظر مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية. |
| (٣) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب | (٥) الفهرست ص ٢٠٧. |
| (٤) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب | (٦) مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية. |

بها عروة بن الزبير وأبان^(١) بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة ووهب^(٢) ابن منبه المتوفى سنة ١١٤ . وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين ، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا في العصرين الأموي والعباسي كتبهم التاريخية التي يُفيض الفهرست لابن النديم في بيان أسماؤها ، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ . وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ . ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة ، وتمثلت هذه العناية في معاوية ، إذ استقدم عبيد^(٣) بن شريفة الجرهمي اليمنى ليحدثه في مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين ، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم ، فتألف من ذلك كتابه « أخبار الأمم الماضية » وكان متداولاً في عصر المسعودي^(٤) . وقد طُبِعَ له في « حيدرآباد » كتاب باسم « أخبار عبيد بن شريفة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » وهو يدور في أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية ويجيب عبيد ، ويستهلُّ بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جرهم من اليمن وأخبار تبع إلى زمان مملكة طسم وجديس ، وتتخلله أشعار كثيرة . ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه ، وهو مطبوع معه ، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة . ولوهب كتاب يسمى « المبتدأ في الأمم الخالية » ذكره المقدمي^(٥) وقال السخاوى إنه كثير الخرافات^(٦) . وله في الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً ، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسب إليه باسم « قصص الأنبياء » . ويلمع في هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب^(٧)

- | | |
|---|---|
| (١) انظر في ترجمة أبان المعارف ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٤٥ وابن سعد ١١٢/٥ والنووي (طبعة ومتمفلة) ص ١٢٥ . | (٢) راجع في ترجمته الفهرست ص ١٢٢ والمعرين لأبي حاتم السجستاني ومعجم الأدباء . ٧٢/١٢ . |
| (٣) انظر ترجمته في كتاب المعارف ص ٣٠١، ٢٣٣ وطبقات ابن سعد ٣٩٥/٥ وميزان الاعتدال ٢٧٨/٣ وتهذيب ابن حجر وطبقات الحفاظ للسيوطي ١٧/١ وشذرات ابن العباد ١٥٠/١ . | (٤) مروج الذهب (طبعة أوربا) ٨٩/٤ . |
| (٥) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ١١٥ . | (٥) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ١١٥ . |
| (٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨ . | (٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨ . |
| (٧) انظر في ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦ . | (٧) انظر في ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦ . |

الأخبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طبع له في القرن الماضي كتاب بمطبعة بولاق « في حديث ذي الكفيل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضَعُ زياد بن أبيه لكتاب في المثالب ^(١) ووضَعُ ابن مفرغ الشاعر قصة تُبَعُّ وأشعاره ^(٢) وتأليف كل من علاقة الكلابي ^(٣) معاصر يزيد بن معاوية وصُحار ^(٤) العَبْدِي كتاباً في الأمثال . ومن ذلك كتاب ^(٥) في الوصايا والحكم للمستورد بن عُلقمة الخارجي . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبّه لكتاب في القدر ^(٦) ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان ^(٧) المرجيء رسائل في ألني ورقة ^(٨) ، ومع أنها كانت تدور في المواعظ ^(٩) تؤمن بأنها حملت آراءه في الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة ^(١٠) . ومر بنا في الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصري أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتج لرأيه في القدر ، وهو ممن أملاوا تفسيراً حمل عنه ^(١١) . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب في الغناء ^(١٢) ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب ^(١٣) .

وفي ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين في عصر بني أمية ، ولا نشك في أن القوم دونوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبري وغيره أن يرووها وكذلك قل في رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتاب البلقاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة ^(١٤) وبالمثل كانوا يدونون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

- | | |
|--|---|
| (١) انظر الفهرست ص ١٣١ . | (٩) انظر عيون الأخبار ٢/٣٤٥ . |
| (٢) أغاني (سأسي) ١٧/٥٢ . | (١٠) البيان والتبيين ١/١٥٠ . |
| (٣) الفهرست ص ١٣٢ . | (١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ . |
| (٤) نفس المصدر ص ١٣٢ . | (١٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) |
| (٥) المبرد ص ٥٧٨ . | ٣٩٨/٤ . |
| (٦) انظر معجم الأدباء ١٩/٢٥٩ . | (١٣) الفهرست ص ٢٠٧ . |
| (٧) مضت مصادر ترجمته في الفصل الثاني من هذا الكتاب . | (١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها . |
| (٨) الفهرست ص ١٧١ . | |

الخلفاء والخطباء النابيين وعمّالاً وغير وعمّال ، من مثل الحسن البصرى وواصل ومثل خالد بن صفوان^(١) المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «لكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين»^(٢) ومرت بنا في الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا في حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغولاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : «رأيت من كتبه كتاب الحرارة ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة»^(٣) . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهرن في الطب ، ويروى الرواة أن ثيادوق طيبب الحجاج ابن يوسف نظم في علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا^(٤) وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسططاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل القرس السياسية^(٥) . ويقال إنه نقل لهشام كتاب عن الفارسية في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية^(٦) . ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع وينتشر بين العرب لهذا العصر في جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لتحدث عما ختلف العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل المدوّنة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أثمرت عن هذا العصر .

- | | |
|--|--|
| (١) انظر في خالد المعارف ص ٢٠٦ | (٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١٢١/١ وابن القفطى ص ١٠٥ . |
| والبيان والتبيين في مواضع متفرقة (راجع الفهرست) وابن خلّكان ومعجم الأدباء ٢٤/١٢ والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ . | (٥) الصناعتين لأبي هلال العسكري (طبعة الحلبي) ص ٦٩ . |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ . | (٦) انظر «صفحات عن إيران» لصادق نشأت ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١ |
| (٣) الفهرست ص ٤٩٧ . | |

وحقاً هناك كتب تزيّدت في هذه الرسائل ونقصد كتب الشيعة من مثل شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة. ولكن إذا نحينا هذين الكتابين وأضربهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطبرى والبيان والتبيين والكامل للمبرد استقبلتنا وخاصة في الطبرى سيول من هذه الرسائل كتبها على مرّ العصر وأحداثه فرق الخوارج والشيعة والزبيريين ومنّ ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ، كما كتبها خلفاء بني أمية وولاتهم وقوادهم .

ولن نستطيع أن نعرض كل ما روي للخوارج من رسائل ، لكثرتها ، ومن ثمّ سنكتفي بالحديث عن أهم رسائلهم ، ومعروف ما شجر بينهم من خلاف أدّى كما مرّ بنا إلى تفرقهم أربع فرق ، هي الأزارقة والنجدية والصنميرية والإباضية ، وقد مضى الأولون بقيادة نافع بن الأزرق بحرمون القعود عن الخروج ويستحلّون دماء المسلمين وقتل أطفالم ، وخالفهم في ذلك الفرق الأخرى . ويسوق المبرد في تصوير هذا الخلاف رسالتين^(١) متبادلتين بين نَجْدَة بن عامر الحنفي زعيم النجدات وناقع بن الأزرق ، فنجدة يراجعه في مقاله ، وناقع يحتج لها . والرسالتان وثيقتان طريفتان في بيان مقالتي النجدات والأزارقة . ومرّ بنا كيف قاد الأزارقة مع قواد مصعب بن الزبير حرباً عنيفة على الرغم من قتل قائدهم نافع في وقعة دولا ب ، فقد ظلوا يحاربون قائده المهلب ، حتى إذا دخلت العراق في طاعة عبد الملك مضوا في ثورتهم ، وظلت الجيوش توجه إليهم ، يوجهها ولاية العراق وخاصة الحجاج ، وكان زعيمهم لعهد قطرى ابن الفُجاءة ، ونرى الحجاج يرأسه مهدداً متوعداً ، ويرد عليه قطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعّد ، ونحن نسوق رسالتين^(٢) لهما تصوران كيف كان يتراسل الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج ، أما رسالة الحجاج فتجرى على هذا النمط .

«سلام عليك . أما بعد فإنك مرّقت من الدين مَرّوقَ السهم من الرميّة ، وقد علمت حيث تجرّمت ،^(٣) ذاك أنك عاصي لله ولولاة أمره . غير أنك أعوانى

(١) المبرد ص ٦١١ وما بعدها .

ص ٢١٤ .

(٢) البيان والتبيين ٣١٠/٢ وانظر المبرد

(٣) تجرّمت الشيء : أخذت معظمه .

جِلْفٌ*^(١) أُمِّيٌ تَسْتَطْعِمُ^(٢) الْكَيْسِرَةَ وَتَسْتَشْفِي^(٣) بِالنَّمْرَةِ، وَالْأُمُورَ عَلَيْكَ حَسْرَةً، خَرَجْتَ لِنَالِ شُبْعَةَ^(٤)، فَلَحِقَ بِكَ طَعَامٌ*^(٥) صَلَّوْا بِمَا صَلَّيْتَ بِهِ مِنَ الْعَيْشِ فَهَمَّ يَهْرُونَ الرِّمَاحَ وَيَسْتَنْشِثُونَ^(٦) الرِّيحَ، عَلَى خَوْفٍ وَجَهْدٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَمَا أَصْبَحُوا يَنْتَظِرُونَ أَعْظَمَ مِمَّا جَهِلُوا مَعْرِفَتَهُ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِنَزْحَتَيْنِ^(٧).
والسلام .

وأجابه قطري :

« سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نعمة، فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظلمع به أهل السفال^(٨) وهدي به من الضلال ونصر به عند استخفافك بحقه . كتبت إلى تذكر أني أعرابي جلف أُمِّيٌ أستطعم الكيسرة، وأستشفي بالنمرة، ولعمري يا ابن أم الحجاج^(٩) إنك لمتية في جيلتاك^(١٠)، مطلقخيم^(١١) في طريقك، واه في وثيقك^(١٢)، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك، يثت واستياست من ربك، فالشيطان قرينك ، لا تجاذبه وثاقلك ، ولا تنازعه خناقك . فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي صفحتك ، وأوضح لي صلعتك^(١٣)، فوالذي نفس قطري بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير^(١٤) المقال، مع أني أرجو أن يدحض الله حججتك ، وأن يمنحني مهجتك . »

وواضح أن كلا منهما يرمي صاحبه بالضلالة والغواية ، وقد عنيا جميعاً بالتأنيق في أسلوبيهما . ومن ثم زينا كلامهما بالسجع . وإذا تركنا الأزارقة إلى الصنفرية وجدنا شبيهاً يرأسل صالح بن مسرح حاضماً على الخروج^(١٥). ولم تحتفظ المصادر برسائل للنجدات والإباضية .

- | | |
|---|--|
| (١) جلف : جاف . | (٨) أظلمع : من الظلم وهو العرج . السفال : سفول الخلق . |
| (٢) تستطعم الناس : تسألهم أن يطعموك . | (٩) يقولون ذلك إذا أرادوا العطن في النسب . |
| (٣) تستشفي : تطلب الشفاء . | (١٠) متية : مضلل . الجيلة : السجية . |
| (٤) الشبعة : ما يشبع من الطعام . | (١١) مطلقخيم : متعجرف . |
| (٥) طعام الناس : أرذالم . | (١٢) الوثيقة : الثمة . |
| (٦) يستنشثون الرياح : يتنسمونها ، كناية عن جوعهم . | (١٣) كناية عن ذلته وانكشاف أمره . |
| (٧) يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما الأزارقة أمام المهلب بن أبي صفرة . | (١٤) تصدير المقال : تبطيره وتحييره . |
| | (١٥) طبرى ٥٢/٥ . |

ورسائلُ الشيعة في هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات (١) تحضُّ على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحابها الشرعيين . ونمضى بعد مقتله فتلقانا حركة التوأين ، ويصور زعيمهم سليمان بن صرد في مكاتبه لبعض أصحابه ندمهم على خذلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالثأر من قاتليه (٢) . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفي لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول (٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومن قبيلة ، فسلم أنتم ، أما بعد فويل أم ربيعة من مضر (٤) ، فإن الأحنف مورد قومه سقر (٥) ، حيث لا يستطيع لهم الصدر (٦) ، وإني لأملك ما خُطَّ في القدر ، وقد بلغني أنكم تسمونني كذاباً ، وإن كذبت فقد كذبت رسل من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » .

وفي الرسالة خصائصه التي مرت بنا في خطابته ، إذ كان يُعنى باختيار ألفاظه والسجع في كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفي إلى أنه يوحى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً في خطابته وأحاديثه كما استخدمه في الرسالة الآتفة (٧) .

وأثرت عن ابن الزبير وولاته في العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبري ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار (٨) الثقفي . ونرى ولاته يكاتبون من يوجهونهم إلى الخوارج (٩) . وولتقى في عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القيرية المشهور بسجعه .

- | | |
|--|------------------------------|
| (١) طبرى ٢٥٧/٤ وما بعدها . | من قبائل مضر . |
| (٢) طبرى ٤٢٩/٤ . | (٥) سقر : جهنم . |
| (٣) طبرى ٥٣٩/٤ . | (٦) الصدر : الرجوع . |
| (٤) يقولون ويل أم فلان إذا أرادوا التعجب منه . وكان المختار يعلى من شأن قبائل ربيعة التي آزرته ، ويقول إنها ستكمل بتميم وغيرها | (٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها . |
| | (٨) طبرى ٥٤١/٤ . |
| | (٩) طبرى ٤٨١/٤ وما بعدها . |

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت في البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون بالعهد إلى من يتولون الخلافة بعدهم^(١) ، سُنَّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بني أمية . وكذلك كانوا يكتبون بالعهد إلى من يولونهم على الولايات^(٢) . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آية بينهم وبين ولايتهم في كل كبيرة وصغيرة . وكان قوادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولايتهم وقوادهم من مراسلات يَطْفَح بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية في شأن حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة^(٣) ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته في الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن علي^(٤) ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد في وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه^(٥) . ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولايتهم كما كثرت في عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يُكثِر من الكتابة إلى قواده ، ويكثر من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآنفة التي أرسل بها إلى قطرى . ولا بد أن نقف قليلاً عنده إذ كان يُعْنَى بتعبير رسائله على نحو ما كان يعنى بتعبير خطبه . وزراه يكثر من مراسلة المهلب وحشّه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة^(٦) ، كما يكثر من مراسلة قواده في حروب الخوارج الشيبية^(٧) وفي فتنة ابن الأشعث^(٨) وحروب خراسان^(٩) . ورسائله مثل سياسته التي اشتهر بها تقطر شدة وحدّة ، حتى في مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك — وهو لا يزال ولياً للعهد — من رسالة له : « إنما

(١) طبرى ٣٠٧/٥ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ .

(٣) طبرى ٢٠٢/٤ وما بعدها .

(٤) طبرى ٢٥٠/٤ وما بعدها .

(٥) طبرى ٢٦٥/٤ وما بعدها والوزراء

والكتاب للجيشيارى ص ٣١ .

(٦) طبرى ١٢٠/٥ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها .

(٧) طبرى ٧٩/٥ وما بعدها .

(٨) طبرى ١٤٩/٥ وما بعدها .

(٩) طبرى ١٤٠/٥ ، ١٤٦ .

أنت نقطة من مباد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محرتك وإن شئت أثبتك^(١) وكان الخلاف دبّ بينهما ، ومن ثمّ حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ، ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة . ومعروف أنه كان صنيعه عبد الملك ، فهو الذي أظهره ، وما زال يرفع من أمره حتى ولاه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأتق ما استطاع في تعبيره ، ومن خير ما يصور ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها لعبد الملك خصباً بعد جندب ومطراً بعد قحط ، وهي تجرى على هذا النمط (٢) :

« أما بعد فإننا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وابل منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا إلا ما بسل وجه الأرض من الطش والرش والرذاذ^(٣) ، حتى دقعت^(٤) الأرض واقشعرت^(٥) واغيرت^(٦) وثار في نواحيها أعاصير تذر^(٧) ودقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها^(٨) وامتناعها ، وأرضنا أرض سريع تغييرها ، وشيك تنكسرها ، سبيء ظن أهلها عند قحوظ المطر ، حتى أرسل الله بالقبول^(٩) يوم الجمعة ، فأثارت زبرجاً متقطعاً متمصراً^(١٠) ، ثم أعقبته الشمال^(١١) يوم السبت ، فطحطحت^(١٢) عنه جهامه^(١٣) وألقت متقطعته ، وجمعت متمصره ، حتى انتضد فاستوى ، وطما وطحا^(١٤) ، وكان^(١٥) جيونا^(١٦) مرثعنا^(١٧) ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابل منهل

- | | |
|---|--|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٩٧ . | (١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتصر : المتقطع . |
| (٢) البيان والتبيين ٤/٩٩ . | (١١) الشمال : الريح الشمالية . |
| (٣) الطش والرش والرذاذ : المطر القليل . | (١٢) طحطحت : بددت وفرقت . |
| (٤) دقعت : خلت من النبات . | (١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه . |
| (٥) اقشعرت : تقبضت من الجذب . | (١٤) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط وبلاد الأفق . |
| (٦) اغبرت : تربت من الغبار . | (١٥) كان هنا بمعنى صار . |
| (٧) تذر : تسقى وتحمل . | (١٦) الجون : الضارب إلى السواد . |
| (٨) الاعتزاز : من العزاز ، وهي الأرض الصلبة . | (١٧) مرثعنا : سائلا . |
| (٩) القبول : الريح الشرقية . | |

مُنسَجِلٌ^(١) ، يردف^(٢) بعضه بعضاً ، كلما أردف شؤبوب أردفته شأبيب^(٣) لشدة وقعه في العراض^(٤) . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهي ترمى بمثل قطعِ القطن ، قد ملأَ اليباب^(٥) . وسدَّ الشَّعَابَ^(٦) ، وسقى منها كلُّ ساق . فالحمدُ لله الذي أنزل غَيْثَهُ ونشر رحمته من بعد ما قنطوا^(٧) ، وهو الوليُّ الحميد ، والسلام .

ويتضح في الرسالة ما اشتهر به الحجاج في خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يخالون لكلامهم ، وينمقونه صوراً مختلفة من التنميق ، وسرى عما قليل طبقة من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتَّاب الدواوين .

وأخذت تشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعَّاظ أن يرسلوا إليه بعضاتهم ، ويروى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّج له رسالة طويلة استهلها بقوله^(٨) .

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قيوام كل مائة وقصد^(٩) كل جائز ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة^(١٠) كل مظلوم ، ومفرغ كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيقي بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مَرَاتِعِ الهلكة ، ويحميها من السَّبَاع ، ويكفيها من أذى الحَرِّ والقُرِّ .^(١١) والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدنِّخ لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة بولدها ، حملته كرها ، ووضعت كرها ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ،

- | | |
|---|----------------------------------|
| (١) منسجل : منصب . | (٦) الشَّعَاب : المسالك والسبل . |
| (٢) يردف : يتبع . | (٧) قنطوا : ينسوا . |
| (٣) الشَّأبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر . | (٨) العقد الفريد ١ / ٣٤ . |
| (٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية . | (٩) قصد : هداية . |
| (٥) اليباب : الموضع الخالي لآفات فيه . | (١٠) نصفة : من الإنصاف . |
| | (١١) القر : البرد ، مثلث القاف . |

وتسكن بسكونه، تُرَضِّعه تارة وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته .
ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت
والبعث والوقوف بين يدي الله وما ينبغي أن يتزوَّد لذلك من التقوى والحكم الصالح .
والحسن في هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذي مرَّ بنا وصفه ،
والذي يقوم على الازدواج وتزيين المعاني بالصور حتى تتمكن في النفس ، وكان
يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطباقاته الكثيرة . وكان يجاريه - كما قدمنا - في هذا
الأسلوب كثير من الوعاظ ، وعلى رأسهم غيَّيلان الدمشقي، ويُروى أنه كتب
إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة، منها قوله (١) :

« اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خدائاً بالياً، ورثما عافياً، فياميتُ
بين الأموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتنزع ، طنقى أمر السنة ،
وظهرت البدعة ، أُخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يُعطي الجاهل فيسأل . »

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته (٢)، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسي كانوا
يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصري ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة
البيانية (٣) . وما نشك كما أسلفنا - في أن بلغاء الكتاب في عصرهما كانوا
يجارونهما في أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ ، فنحن لا نقرأ في
سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذي يتحلى
بالطباق والتصوير والذي يقوم على التوازن في الكلام توازناً ينهى به إلى الازدواج ،
حتى يؤثر في أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم .

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت في هذا العصر الكتابات
الشخصية ، بحكم تباعد العرب في مواطنهم ، وبتأثير بعض الظروف من موت
يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهئة ، أو شفاعة عند وال لقریب أو صديق ،
أو عتاب أو اعتذار . وطبيعي أن لا يُعنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها،
لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة ، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية
قليلة ، فمن ذلك رسالة عقال بن شبة إلى خالد القسري في شفاعة تجرى على
هذه الصورة (٤) :

(٤) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ٤١٦/٢ .

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٩٥/١ .

« إن الله انتجيبك^(١) من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطراً^(٢) شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية: وأعان خطرك بقدره مقسومة، ومتزلة ملحوظة، فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار^(٣) الله لك، وليس كلهم أداله^(٤) الزمان ولا ساعده الحظ. وأحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره، ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دنية^(٥) قرابتي، وذوي الهيئة من أسرتي، عرف معروفك، وأحببت أن تُلبسَ نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعني وإياه ما تجده باقياً على النشر، جميلاً في الغيب^(٦) ».

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تُعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقي في الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى، والفقہ الحسن بمدخل التأثير في نفس القارئ وما ينبغي أن يسلك إليه الكاتب من طرق كي يستولى على عقله، فيقضى له حاجته. ومن اشتهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي قُتل بخراسان بأخرة من هذا العصر، فقد كان لَسِيناً بليغاً، يعرف كيف يحول الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد في هذه الرسالة التي كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً، إذ يقول^(٧):

« أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خبيرة، ثم أعقبني جفاء عن غير ذنب، فأطمعني أولك في إخطائك، وأياسني آخرك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام ».

(١) انتجيبك : اختارك .

(٢) خطراً : قدراً .

(٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير .

(٤) أداله : نصره وأعانه .

(٥) دنية : لاصق .

(٦) الغب : العاقبة .

(٧) البيان والتبيين ٨٤/٢

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحذقه ، وأنه يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جلب المعاني الطريفة ، التي تروع بما فيها من منطق عقلي دقيق ، وهو يعرضها في أسلوب من الازدواج الرشيح تزيينه الاستعارات والطباقات .

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تترقى لافي الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحققون نفس الرق ، وحرى بنا الآن أن نتحول إلى كتّاب الدواوين ، لئلا نرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتحبير .

٣

كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين في الإسلام ، وتؤكد الروايات التي راققت صنيعة بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم^(١) ، إذ أحس حاجته إلى سجلات يدوّن فيها الناس وأعطياتهم وأموال القبي والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديواني الخراج والجنّد ، حتى إذا ولي معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم^(٢) ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يُكْتَبُ في الشام ومصر بالرومية وفي العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان ، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخُشْتِي كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومي^(٣) ، وفي الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

(١) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ١٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ .

الفارسي (١) ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر (٢) هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نظم ، وما توأصى به أهلها وخاصة من الفرس في إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهمشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن في الواقع إنما يهمننا ديوان الرسائل ، لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبجون الكتب على السنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللسن والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يُظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتّاب محترفين ، تتابعت أجيالهم على مرّ الزمن في هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسلم إلى خلفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل وال وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتّاب . وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات إلى أن يسلّموا ببلاغتهم من يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يعيّنوهم في دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه (٣) ، وكان إذا أعجبه كاتب وملاً نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتّابه ، على نحو ما صنع بمحمد (٤) بن يزيد الأنصارى . ولم يعرض علينا الجهمشيارى آثار هؤلاء الكتّاب إلا قليلاً ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفي عهد كل خليفة يسرد أسماء

١٨٧/٥ والمبرد ص ١٥٨ .

(٤) طبرى ٢٠٨/٥ .

(١) الجهمشيارى ص ٢٨

(٢) الجهمشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢٨٧/١ والطبرى

كتاب الولاية . وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كتابه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لفصاحته وروعة منطقته وجهازة صوته ، وكان خطيباً لا يبارى^(١) . ولم يؤثر عنه شيء من الرسائل في عهد معاوية ، وقد روى له الجاحظ رسالة في عهد عبد الملك حين خرج عليه ، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده ، فأجابه عمرو^(٢) :

« أما بعد فإن استدراج النعم إياك أفادك البغى ، ورائحة القدرة أورثتك الغفلة . زجرت عما واقعت مثله ، وتدبت إلى ما تركت سبيله ، ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطلاب ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز . وعمّا قليل تبيّن من أسير الغفلة ، وصريع الخدع ، والرحيم تعطف على الإبقاء عليك ، مع دفعك ما غيرك أقوم به منك والسلام . »

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة . وكان يتولى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد عبيد^(٣) الله بن أوس الغسانی ، وروى له الجهمشيارى رسالة على لسان يزيد إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العدة في مقاومة الحسين بن علي حين نزوله العراق وهي تمضي على هذا النحو^(٤) :

« أما بعد فإن الممدوح مسبب يوماً ما ، وإن المسبوب ممدوح يوماً ما وقد انتميت إلى منصب كما قال الأول :

رُفِعَتْ فَجَاوَرَتَ السَّحَابَ وَفَوْقَهُ فَمَا لَكَ إِلَّا مَرَقَبَ الشَّمْسِ مَرَقِبُ
وَقَدْ ابْتُلِيَ بِحُسَيْنٍ زَمَانُكَ دُونَ الْأَزْمَانِ ، وَبِلَدِّكَ دُونَ الْبِلْدَانِ ، وَنُكِبَتْ
بِهِ مِنْ بَيْنِ الْعُمَّالِ ، فَلِإِذَا تُعْتَقُ أَوْ تَعُودُ عَبْدًا ، كَمَا يُعَبَّدُ الْعَبْدُ ، وَالسَّلَامُ .
والرسالة قصيرة ، ويظهر أنهم كانوا يستحبون القصر في الرسائل الديوانية حتى هذا العهد . وكان أول من أطلال فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو^(٥) بن نافع ، ولا شك في أن هذا الطول رمز لما كان يأخذ به الكتاب أنفسهم في هذا التاريخ من التفنن في القول ، وهو تفنن كان يفتقر إلى ترتيب

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣١٥ وراجع

(٢) الجهمشيارى ص ٢٤ ، ٣١ .

(٣) الجهمشيارى ص ٣١ .

(٤) طبري ٤/٢٨٥ .

(٥) البيان والتبيين ٤/٨٧ .

ورياضة في نسق الكلام وضبط أساليبه، حتى يخلبوا ألباب من يقرءونهم .
ونمضي إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتّابه رَوْح بن
زِنْبَاع الجُنْدَامِي ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسي^(١) الكتابة ، وليس بين
أيدينا رسائل ماثورة له ، وروى له الجهشيارى وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد
غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له^(٢) :
« لَا تُشْمِتَنَّ بِي عَدُوًّا أَنْتَ وَقَمْتَهُ^(٣) ، وَلَا تَسْوَأَنَّ بِي صَدِيقًا أَنْتَ سَرَرْتَهُ ،
وَلَا تَهْلِمَنَّ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، هَلَا أَتَى حَلْمُكَ وَإِحْسَانُكَ عَلَى جَهْلِي وَإِسَاءَتِي ؟ » .
فحفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتَّابِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَبْنَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ سَلِيمَانُ بْنُ سَعْدِ الْحُشْنِيِّ كَاتِبُ
رِسَائِلِهِ الَّذِي حَوَّلَ الدَّوَاوِينَ مِنَ الرُّومِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَمْ تَنْصُرْ الْمَصَادِرُ الْقَدِيمَةُ
عَلَى مَا كَتَبَ بِهِ بَيْنَ يَدَيْ الْخُلَفَاءِ . وَمَا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ
وَالْبَيَانِ ، وَفِي الْجَهْشِيَارِيِّ أَنَّهُ خَلَا بِيَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَاتِبِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
قَبْلَ تَوَلِّيهِ الْخِلَافَةَ وَكَانَ يَزِيدُ حِينَ وَلى أَمْرَهُ اسْتَدْعَى أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ
وَإِلَى الْخِرَاجِ عَلَى مِصْرَ ، فَقَالَ سَلِيمَانُ لِابْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(٤) : « لِمَ بَعَثَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَى أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ؟ فَقَالَ : لَا أَدْرِي ، قَالَ : أَفْتَدْرِي مَا مِثْلُكَ وَمِثْلُ أَسَامَةَ ؟
قَالَ : لَا . قَالَ : مِثْلُكَ وَمِثْلُهُ مِثْلُ حَيَّةٍ كَانَتْ فِي مَاءٍ وَطِينٍ وَبَسْرَدٍ ، فَإِنْ رَفَعْتَ
رَأْسَهَا وَقَعَتْ عَلَيْهَا حَافِرٌ دَابَّةٌ ، وَإِنْ بَقِيَتْ مَاتَتْ بَسْرَدًا ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ ، فَقَالَتْ :
أَدْخَلْتَنِي فِي كَمِّكَ حَتَّى أَدْفَأَ ثُمَّ أَخْرَجَ ، فَأَدْخَلَهَا ، فَلَمَّا دَفَعْتَ قَالَ لَهَا :
أَخْرَجِي ، فَقَالَتْ : إِنْى مَا دَخَلْتُ فِي هَذَا الْمَدْخَلِ قَطُّ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَنْقُرَ
نَقْرَةً ، إِمَّا أَنْ تَسْلَمَ مِنْهَا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ ، وَوَاللَّهِ لَئِنْ دَخَلَ أَسَامَةُ لَيَسْتَنْقُرَنَّكَ
نَقْرَةً إِمَّا أَنْ تَسْلَمَ مَعَهَا وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ » .

والكلمة تدل دلالة بيّنة على دقة مداخلة ومسالكه إلى الإقناع ، وإن
في نقله الدواوين ما يدل على سعة ثقافته وهي سعة كانت تقترن بعدوية المنطق
وتزيينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضحه كلمته .

(٢) وقته : قهره وأذله .

(١) الجهشيارى ص ٣٥ .

(٤) الجهشيارى ص ٥٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٥٨ والجهشيارى

ص ٣٥ والأمالى ٢/٢٥٩ .

وإذا ولينا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتاب يُعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، وما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القيرية كاتبه حين ثار على الحجاج : « إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجماً أعرفه فيه سوء فعاله وأبصره قبح سريرته » ويُنفذ ابن القرية مشيئته ، ويردُّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة^(١) . ولا تهمنا الرسائل بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث في أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه .

وفي ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تقترن بها غايات بلاغية ، وكلُّ كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يُروى في هذا الصدد أن يحيى بن يعمر - أحد علماء اللغة الأوائل - كان يكتب ليزيد بن المهلب في ولايته على خراسان للحجاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك في « باذغيس » انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكُتب^(٢) : « إنا لقينا العدو ، فنحننا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرونا طائفة ، ولحقت طائفة بعرائر^(٣) الأودية وأهضام^(٤) الغيطان ، وبتنا بعُرْعرة^(٥) الجبل وبات العدو بحضيفه^(٦) » .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة ، وشجعته على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوابد الألفاظ ، على نحو ما قدّمنا في غير هذا الموضع . وفعلاً راعت الرسالة الحجاج ، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال : ما يزيد بأبي عُدْرة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكُتب إلى يزيد أن يُشخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنسى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي^(٧) .

- | | |
|---|--|
| (١) الأخبار الطوال للدينوري (طبع ليدن) ص ٣٢٣ . | جمع غائط وهو المستوى من الأرض . |
| (٢) البيان والتبيين ٢٧٧/١ والمبرد ص ١٥٨ والطبري ١٨٧/٥ . | (٥) عرعة الجبل : أعلاه . |
| (٣) عرائر الأودية : أسافلها . | (٦) الحضيف : القراز من الأرض عند منقطع الجبل . |
| (٤) أهضام الغيطان : مداخلها . والغيطان : | (٧) البيان والتبيين ٣٧٨/١ . |

وعلى هذا النحو كان كَتَّابُ الولاية والقواد في الشرق يجبرون رسائلهم، كل حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوانُ الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرج فيها الكَتَّابُ على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذي نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، يقول الجهمشيارى : « كان عامة كَتَّابُ العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبي قُرَّة كتب ليزيد بن المهلب (في ولايته لسليمان بن عبد الملك) ومنهم قُحْدُمُ بن أبي سُليم وشيبة بن أيمن كاتباً يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مَرَّوان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم » (١) .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعَنِّون بالطوامير والقراطيس (٢) التي كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفي الجهمشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير وأنه أمر بأن تعظم كتبه ويجلّل (٣) الخط الذي يكتب به ، وكان يقول : تكون كُتُبِي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض (٤) . ويظهر أن الكتاب غالوا في النفقة على كتبهم ، حتى لئرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاقْتِصَاد في القراطيس ، طالباً من الكَتَّاب أن يوجزوا (٥) ، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهي مدرسة رَقِيَّ فيها النثر الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرج غير كاتب ، وقد اشهر له تلميذان أحدهما من بيئته هو ابنه عبد الله والثانى من غير بيئته ، هو صهره وختنه عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، ونقل منها - كما مر بنا - بعض رسائل لأرسططاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول (٦) ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة (٧) . ومن يرجع إلى الجهمشيارى

(١) الجهمشيارى ص ٣٩ .
 (٢) الطوامير والقراطيس : الصحف الكبيرة .
 (٣) مجلل : يعظم .
 (٤) الجهمشيارى ص ٤٧ .
 (٥) الجهمشيارى ص ٥٣ .
 (٦) الفهرست ص ١٨٢ .
 (٧) الفهرست ص ١٧١ .

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته في الشئون التي تعرض له (١).

فالخليفة لم يعد يُملى كتبه على كتابه كما كان الشأن في القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثمّ لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول في مستهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزعم أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يُنصّ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصت المصادر على اسمه . وتحول عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية . ولعل من الطريف أن الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام تُطبع بطوايع أسلوبية واحدة ، إذ تجرى في أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرصينة ، على شكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفّ ببعض أهله (٢) .

« حللت هضبة أصبحت تنحو (٣) بها عليهم مفتخرأ ، هذا إن لم يد هذه (٤) بك قلة شكرك متحطماً وقيذاً (٥) ، فهلا - يا بن مجرشة (٦) قومك - أعظمت رَجَلهم عليك داخلا ، ووسّعت مجلسه إذ رأيتك إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاوضته (٧) مقبلا عليه ببيشرك إكراماً لأمير المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهي كلها من هذا النسيج الأنيق الذي يترينه الازدواج والصور البيانية ، وقد أثرت لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنيع قدّمه إليه ، وهي على هذا النمط (٨) .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك ، جسيم الرجاء فيما بقي لي عندك . قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك ، وجعل

(٦) المجرشة : المشطة .
(٧) فاوضته : حدثته .
(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ٤٣١/٢ .

(١) الجهشيارى ص ٦٢ .
(٢) طبرى ٦٨/٥ وما بعدها .
(٣) تنحو : تشرف وتطل .
(٤) يدهده : يسقط .
(٥) وقيذاً : صريماً .

ما سلف إلى منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك .
 وفي الرسالة ما يصور دقة تفكيره ولطف مداخلة إلى ما يريد من إخوانه ،
 فهو يشكر ويرجو ، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ
 المبرد في كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة
 تسع عشرة ومائة إلى خالد القسري حين أخذ ابن حسان النبطي وكيل هشام
 على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط . وهو يفتحها بقوله (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمله
 لك إلا لما أحب من رب (٢) الصنعة قبلك واستهام معروفه عندك . وكان أمير
 المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعدد مثل مقاتك وما بلغ
 أمير المؤمنين عنك رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد
 ممتدة أبطرته ، فأساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه
 إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته ، فإذا نزلت به الغيرة (٣) ، وانكشطت (٤)
 عنه عمية الغي والسلطان ، ذل متقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عدوه قادراً
 عليه قاهراً له . . . »

وأطنب عبد الله في الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ،
 ومصغراً لأمره بالقياس إلى سلفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف
 أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يعاوه ويتغمره . ويمضى
 يعدد عليه أخطائه في سياسته وكيف أنه يستعين بالهجوم في أعماله ، وكيف
 ضيغ أموالاً كثيرة ، هي أموال المسلمين ، في حفن نهر المبارك ، وكيف يبتز
 أموال رعاياه باسم هدايا التبروز والمهرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع
 بابن حسان ، ويسجل عليه نقص الحراج وأنه ولّى أسداً أخاه خراسان ، مظهراً
 بها العصية اليمنية متحاملاً على المصرية . وهو في ثنايا ذلك يتهدده برواجع
 بغيه وأنه إن لم يكف عن غيئه فقبيل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبة وعملاً .
 وطالت الرسالة ، حتى لكانها تاريخ مختصر لخالد القسري وولايته الطويلة

(٣) الغير : حوادث الدهر .

(٤) انكشطت : انكشفت .

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٢) رب الصنعة : إتمامها وتنميتها .

على العراق . وهي جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذي رأيناه في فاتحتها ،
والذي ثبتته سالم في دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه
عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

عبد الحميد ^(١) الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسي
الأصل . ويقول أكثر من ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق ^(٢) وسكن
الرقّة . وكان في أول أمره يتنقل في القرى معلماً في كتائبها ، وعرف في
نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك ، وأُعجب
به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرّجه كاتباً لا يبارى . وعرفه مروان
ابن محمد ، وكان عاملاً لهشام ، كما مرّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذه
كاتباً له . ولعلنا لا نخطئ في الحكم إذا قلنا إن ما أثبتته الطبرى من رسائل
لمروان في ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم
عبد الحميد . ويتولّى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد
رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ، وعبثاً حاول أن يلم الشعث حين انتقضت
جيوش أبي مسلم من خراسان ، حتى إذا هزم مروان في موقعة الزّاب ولّى
وجهه معه إلى مصر حيث قُتلا معاً في معركة بوضير .

وهكذا كان وفيّاً لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض
الرواة أنه فرّ بعد موقعة الزّاب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح
فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل
عشور السفاح عليه . وهي مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعلّ مما يدل

(١) انظر في عبد الحميد الوزراء والكاتب
للجهشياري ص ٧٢ وما بعدها ووقيات الأعيان
لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١ .
والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك
للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان
والتبيين ٢٠٨/١ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ ، وعيون
الأخبار ٢٦/١ والصناعتين للمسكرى (طبعة
الجلبي) ص ٦٩ وصبح الأعشى ٨٥/١ ،
١٩٥/١٠ والبيهية للثعالبي (طبعة الصاوي)
١٣٧/٣ والجزء الثاني من جمهرة رسائل
العرب لأحمد زكي صفوت ومن حديث
الشعر والنثر لطلح حسين ص ٤٠ وما بعدها .
(٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول
إنه من أهل الشام .

(١) انظر في عبد الحميد الوزراء والكاتب
للجهشياري ص ٧٢ وما بعدها ووقيات الأعيان
لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١ .
والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك
للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان
والتبيين ٢٠٨/١ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ ، وعيون
الأخبار ٢٦/١ والصناعتين للمسكرى (طبعة

على أنه قُتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم ^(١)

وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتّاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونصّح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم ^(٢) ، وظلت شهرته ممدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسّل » . وقد أجمع كثيرون على أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب ، وكأنه تأثر في ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعّاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمثور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كماً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذي مرّ بنا في أول خطبته المتزوعة الرائ . ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب ، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت عن الساسانيين والتي يُقال إنه كان أحدَ نقلتها إلى العربية ^(٣) . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التي تنهى إلى التمثل وصنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكتّاب ^(٤) وهي رسالة عامة ليست موجهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، إنما هي موجهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان واضح في حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب في تدبير الحكم وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية . ونحن لا نقرننا إلى ما استهلّ به الجهمشيارى كتابه « الوزراء والكتّاب » من وصايا كان يوصي بها ملوك الفرس ووزراؤهم الكتّاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا في رسالته التي تُعدُّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية في سياستها

(١) الجهمشيارى ص ٨٢ .

٢٩/٢ .

(٤) الجهمشيارى ص ٧٢ وصحح الأعمش

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

٨٥/١ .

(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والنبئين

وضبط شئونها في الخراج وغير الخراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغي أن يحسنه الكتاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنفأفسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقافُ ألسنتكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حليمةُ كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين لكم على ما تسمون إليه بهنكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإنه قيوم كتاب الخراج منكم . »

فهو يطلب إليهم أن يتجملوا بحلى العلم والأدب ، ويصرح بأن عليهم أن يوسعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم في شئون الخراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التي تعينهم على إحسان التعبير عما في أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتثقفوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، لينتفعوا بذلك في كتاباتهم السياسية . ونراه في تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد حضّمهم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرفه في العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة في وصف الإخاء رواها ابن طيفور^(١) وهي في رأينا تكملها ، فقد عرض في رسالة الكتاب لأخوتهم وما ينبغي أن يجمعهم من إلف الوداد والصدقة ، ومضى في هذه الرسالة يفصل الحديث في معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيناً دعائم التي تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحباً وعشرة عذبة ، بما يبرّ به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تدخل الرسالة في هذا الضرب من الأدب الأخلاقي الذي شاع في بلاط الساسانيين ، وصدر عنه ابن المقفع في كتابه

(١) انظر جمهرة رسائل العرب ٢/٤٣٤ .

الأدب الكبير والأدب الصغير (١) .

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقي الساساني في الرسالتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسي في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه (٢) وولي عهده عبد الله حين أمره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصُّفُّوري ، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨ . ولا نكاد نلمُّ بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طويلاً غير مألوف ، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القَطْع الكبير . وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له في محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا في الأرض مستحلِّين دماء المسلمين ، وأنه رأى أن يكتب إليه بعهده يؤدي به حقَّ الله الواجب عليه في إرشاده . ويمضي العهد بعد ذلك موزعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة ، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة ، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها . وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش في سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده . ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو وما ينبغي أن يتخذ من عيون ترصد حركاته ، ويُفِيض في بيان الخصال التي ينبغي أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التي ينبغي أن تتصف بها طلابه . وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب ، ويقول إنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة ، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يُقَسِّمُه إلى وحدات ، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة . ويشير إلى ما ينبغي أن يتحلى به خازن أمواله من خلال . وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعده لهم بالمنالات والولايات . ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله في غُدُوِّه ورواحه ومنازلة خصمه . ويختم الرسالة بالدعاء له .

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش ، وهو دستور استعان

(٢) صبح الأعشى ١٠/١٩٥

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر

العربي » ص ١٣٩ وما بعدها .

فيه عبد الحميد بما قرأه في أدب الفرس السياسى من وصايا وتعاليم ، كانوا يديرونها في كتبهم ، هي خلاصة تجاربهم في حروبهم وسياسة حكّامهم وماوكهم ، وقد شفّعها بتعاليم الإسلام الزكّية واطّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذى لا يحجب شيئاً من الفكرة ، بل يوضّحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتيج له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهي صياغة لا تكاد تفرق في شيء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألنوا اللغة ومرنّوها لأداء معانيهم ، وكأنا تحول إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفرق عنهم في شيء ، فهو يزاوج في ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقهم في الترادف ، موشياً كلامه بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية^(١) ، معتمداً في ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال ونشرها في كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش في الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتوح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فعرفة عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضّح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية ، وهي شائعة في الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، ومرّت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذى كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مرّ بنا .

وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربى ، وهي تنضح في رسالة ولى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصّل له ما ينبغى أن تكون عليه

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخبيلته من صفات، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً. ومن هذا الباب رسالته (١) التي وصف بها الصيد، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحُمر الوحش، وما وقعوا عليه من بعض الغُدْران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين.

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد. وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة، فلم تعد الكتابة وحدها كافية، بل أصبح أساساً فيها أن تُسْنَد بالتفنن في القول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة: أجنبية وعربية. وأخذت تزحم الشعر وتحاول أن تفتح عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين، إذ نرى عبد الحميد يُجْرِي قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد. ودائماً تروعنا براعته البيانية، ولا نستطيع أن ننقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة، غير أنه ينبغي أن لا نمضي دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة (٢) التي كتب بها إلى أهله يعزيهم عن نفسه، وهو منهزم مع مروان:

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُره والسرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها، فمن درت (٣) له بحلاوتها، وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعصفته بأنيابها، وتوطأته بثقلها، قلاها (٤) نافرأ عنها، وذمَّها ساخطاً عليها، وشكاها مستريداً منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درِّها أفأويق (٥) استحلبنها، ثم شمت (٦) منا نافرة، وأعرضت عنامتكرة، ورحتنا (٧) مولية، فلدح عذبتها، وأمر»

(٥) الأفويق: ما يتجمع في الضرع من اللبن.

(٦) شمت: من شمس الفرس إذا جمع.

(٧) رحتنا: من رحه الفرس إذا ركله.

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٤٤.

(٢) الجهمشيارى ص ٧٢.

(٣) درت: من الدر وهو اللبن.

(٤) قلاها: كرهها وأبغضها.

حلوها، ونحشش ليتها، ففرقتنا عن الأوطان، وقطعتنا عن الإخوان، فدارنا نازحة،
 وطيرنا بارحة^(١)، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تقربت، وأعقبت
 بالراحة نصبا^(٢)، وبالجدل^(٣) هما، وبالأمن خوفاً، وبالعز ذلاً، وبالجدة^(٤)
 حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتاً، لا ترحم من استرحمها، سالكة بنا
 سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء .
 والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميز بها في أسلوبه
 ومعانيه، فالألفاظ منتخبة وليس فيها توغر ولا غريب وحشي، وإنما فيها
 العذوبة والحلاوة. والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها
 الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يعنى بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينتهي به
 إلى ازدواج واضح، ازدواج من شأنه أن يؤكد المعاني بما يحمل من معادلات
 موسيقية تثبت في الذهن وتجلوها جلاء تاماً. وهو يضيف إلى ذلك حلي من
 طباقات وتصويرات تُضفي على أسلوبه روعة بيانية خلابة، بل إننا لا ندقق في
 القول حين نزع أنه يضيف هذه الحلي، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام،
 وكأنها سداه ولحمته. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر
 الأموي على كل ما كان يُستَظر لها من رقي وإبداع فني .

(٣) الجدل : السرور .

(٤) الجدّة : الميسرة .

(١) الطير البارحة : التي تمر من اليمين إلى

اليسار، والعرب القدماء كانوا يتشائمون بها .

(٢) نصبا : تعباً

خاتمة

١

خلاصة

انقسم العصر الإسلامي في هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بني أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقيّمه الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية ، مبيّناً كيف أخرج العرب من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريشاً والعرب ، حتى دخلوا في دين الله أفواجا . وألّمت بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروب الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعها حروب على . وتأثر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثالية الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا في مدى تأثرهم واستلهاهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسّ الدين روحه مسّاً عنيفاً ، ومنهم من مسّ روحه مسّاً خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الخفيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الخطيب ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيق الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعمد إلى الإقذاع في الهجاء فحسبته التهمك والسخرية . وكان بجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثّر في نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لبيد والناطقة الجعدى فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواظ خالصة .

وكان تأثر النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوي باهر ، تخوض في معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد ووصف الكون في طرفيه من النشأة والدثور ورسم الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمة التي تحقّق للناس السعادة في الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشريعاً ، وقد تجمّع بين الطرفين . ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا بخطبون في الجيوش الفاتحة محمّسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة في معاملة الأمم المغلوبة . وسار في نفس الدرب عثمان ، ثم علي بن أبي طالب ، وكان خطيباً مفوهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة في صفوفه وفي الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة في الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسّح طاقة النثر العربي في صدر الإسلام ، ومدّ أطنابها مدّاً واسعاً . وجدّت بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذّكر الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة موثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتّاب مختلفون ذكروهم الجهشباري وغيره . وتحدّث الفتوح ، وتكثّر الرسائل بين الخلفاء وقوادهم وولاتهم ، كما تكثّر المعاهدات ، وفي أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابي عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابي ، بما أخذ يحمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثاني الخاص بعصر بني أمية ، فتحدّثت عن مراكز الشعر في هذا العصر ، ووقفت أولاً عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترف واللهو والغناء ، مما كان له أثر واسع في نمو الغزل بهما وذيوعه على كل لسان . وكان سكان نجد وبوادي الحجاز يعيشون في شظف من العيش هياً بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العذري العفيف وشيوعه . وحدث أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والجزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفجر والهجاء . وكانت الكوفة مستقرّاً للشيعة وثوراتهم ضد بني أمية فطُبع شعرها في جمهوره

بطابع شعبي حزين . وأخذت العصبية تحتدم في البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون في خراسان ، فكثُر الشعر الذي ينطق عنها في البيتين . وكثرت سيول المديح فيهما وفي الكوفة ، ومضت أسراب تتغنى بالزهد أو بالمجون ، وأسراب أخرى تتغنى بنظرية الخوارج السياسية وخاصة في البصرة وبين جيوش الأزارقة في فارس . ولم ينشط الشعر في الشام إلا قليلاً ، فإن أكثر ما أُنشد فيها وقد عليها إما مع مُدَّاح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التي هاجرت إلى الشمال وإما مع بني أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر في المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تتقدمها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولايتها مادحين .

وكانت تؤثر في الشعر الأموي مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب في البلدان المفتوحة بالموالي ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالي لكلمات مختلفة وانتشر اللحن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم في الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام في أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمسون للجهاد في سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسي واللهو والترف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعثت بينهم فرق الجبّرية والمُرجئة والقدرية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداءه في الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالي ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكأنا مُحييت بينهم الفوارق الحنسية ، حتى ليفتخر الأعاجم بمواليهم من العرب ، إذ يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكثُر شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المدّاحون يَغْدونَ ويروحون على أبواب الولاية والقواد والأجواد ناثرين ورودَ الثناء محمّلين بنفائس

في اتجاه غلبَ على حياتها وساد ، فمن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبي ربيعة والأحوص والعرجي ، وأصحاب الغزل العفيف من أمثال قيس ابن ذريح وجميل بثينة ، وأصحاب الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرمة. ومن ذلك الرجّاز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تتسع لكل أغراض القصيدة ، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحروا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآبلة .

وازدهرت الخطابة في العصر الأموي ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذ ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين ، وكلٌ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن في بيانه ، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه . ونمت بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعَنِّونَ بتحجير كلامهم ، وخيرٌ من يمثلهم الأحنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الديني احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثرُوا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتتوه تثبيتاً قوياً ، وهو أسلوب نهض على حلّي من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني . وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة ، وبذلك أعدوا لنشأة علم البلاغة العربية ، وخير من يمثلهم الحسن البصري .

. ونمتي التلوين في هذا العصر نمواً واسعاً ، إذ دونوا معارفهم التي تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التي تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوي والفتن والمغازي وقصص الأنبياء ، ومضوا يلدنون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات في المثالب والأمثال والمواظ والحكم وفي مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة في الكيمياء والطب والنجوم . وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترفون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبد الملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقصاص الديني الذي تحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعاني وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والروتق والطلاوة ، ومضى يدبج رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

٢

تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم في الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولاً وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية ، وقد نظم ابن سلام المخضرمين منهم في طبقات الجاهليين العشر الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والخطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والنايعة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ ، وكلهم عاشوا في العصرين الجاهلي والإسلامي . وخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا في الجاهلية . ثم مضى في الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المرثي وشعراء القسري ، مشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما في الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والخطيئة ، كما ترجمنا الاثنين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والنايعة الجعدي ، وترجمنا لحسان . ولم نترجم لأحد وراءهم من المخضرمين اكتفاء بهم ، إذ يُعدُّون في الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثّر به الإسلام في أشعارهم. ولم تُغفل من سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفي الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم في الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بني أمية وجدناه يسلكهم في طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام ، ومن يقرون من سبأهم في تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا عرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وعطينا بأخريين لم يجروا على لسانه ، لأنهم فعلا يتقدمون من عرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التي عاشوها ، ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثمّ اهتمّ بجمهورهم صاحب الأغاني ، ففتح لهم في كتابه فصولا طويلة ، وعنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعوه صنعة محكمة . وكثرة من سبأهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجلة ، وهم غالباً من نجد ، وكأنه إنما عنى بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثلين بأشعارهم ومستشعدين ، وتقس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بيّنة ، فقد سلك الراعي في الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقلّ ، ويدنو عن طبقتهم درجات . وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به في بيئته اللغويين من إحسانه لنعته الإبل ، وحشده في هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخّره عن طبقتة ووضع فيها بدلا منه ذا الرمة الذي يتقدم جميع شعراء عصره في وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرمة في الطبقة الثانية وقرن به فيها البعث والقطامي وكثيراً ، والبعث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جعيل وعمرو بن أحمر وسُحَيْم بن وثيل وأوس بن مفرّاء ، ونهشل بن حرّى وحُمَيْد بن ثور الملالي والأشهب بن رُمَيْلة وعمر بن بلحأ التّيسمي ، وأبو زُبَيْد الطّائِي والعُجَيْر وعبدالله بن همام السّلوليان ونُفَيْع بن لقيط الأسدي ، جميعهم مقلّون ، ولا يمثلون عصرهم لا في أحداثه الجسام ولا في تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل في الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلاً ونُصَيْباً ، وهم أعلى من طبقتهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقرن بالمتوكل الليثي في الطبقة السابعة ابن مفرغ وزياداً الأعجم وعدى بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل في الطبقة الثامنة عقيل بن علفه وشبيب بن البرصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك في الطبقة التاسعة أربعة من الرجزاء هم : الأغلب العجلي وأبو النجم والمعجاج ورؤبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العُقَيْلِيّ ويزيد بن الطَّشْرِيَّة وأبي دُوَادِ الرُّؤاسِيّ والقُحَيْبِيّ العُقَيْلِيّ ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام في طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا في الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحى كثيرين يُغنون فيه غناء محموداً ، مسوقاً في ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن ثمَّ عُنِيَ بشعراء نجد والبوادي ، ولم يكدهُ يُعنى بشعراء المدن مع أنهم يفضّلونهم بما دفعوا إليه الشعر من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة . وقد أهمل ابن أبي ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل في عصره ، وأهمل معه العترجي وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح ، ولم يُعنى من شعراء الشيعة إلا بكُثْبَيْر ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري وشعراء المجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبية في عهد بني أمية . وقد ترجمت لكل من ذكرتهم آناً من أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثل في كل جانب من جوانب العصر وفي كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير من ترجمت لهم نائراً في الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تُعين على التوسع في دراستهم . والذي لا شك فيه أن شعراء العصر الأموي تطوروا بالشعر في جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نطقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٧ - ٥	مقدمة
١٣٥ - ٩	الكتاب الأول في عصر صدر الإسلام
٢٤ - ١١	الفصل الأول : الإسلام
١١	(١) قيم روحية
١٥	(٢) قيم عقلية
١٨	(٣) قيم اجتماعية
٢٢	(٤) قيم إنسانية
٤١ - ٢٥	الفصل الثاني : القرآن والحديث
٢٥	(١) نزول القرآن وحفظه وقراءاته
٢٧	(٢) سور القرآن وتفسيره في العهد الأول
٣٠	(٣) أثر القرآن في اللغة والأدب
٣٤	(٤) الحديث النبوي
٦٧ - ٤٢	الفصل الثالث : الشعر
٤٢	(١) كثرة الشعر والشعراء المخضرمين
٤٦	(٢) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٣	(٣) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين
٦٢	(٤) شعر الفتوح

صفحة	
٦٨ - ١٠٥	الفصل الرابع : الشعراء المخضرمون ومدى تأثيرهم بالإسلام
٦٨	(١) كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام . . .
٧٧	(٢) حسان بن ثابت
٨٣	(٣) كعب بن زهير
٨٩	(٤) لبيد
٩٥	(٥) الحطيئة
١٠٠	(٦) النابغة الجعدي
١٠٦ - ١٣٥	الفصل الخامس : النثر وتطوره
١٠٦	(١) تطور الخطابة
١١٤	(٢) خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم
١٢١	(٣) خطابة الخلفاء الراشدين
١٢٩	(٤) الكتابة
١٣٧ - ٤٧٩	الكتاب الثاني في عصر بني أمية
١٣٩ - ١٦٨	الفصل الأول : مراكز الشعر الأموي
١٣٩	(١) المدينة ومكة
١٤٨	(٢) نجد وبادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال
١٥٣	(٣) الكوفة والبصرة
١٦١	(٤) خراسان
١٦٥	(٥) الشام
١٦٦	(٦) مصر والمراكز الأخرى
١٦٩ - ٢١٤	الفصل الثاني : مؤثرات عامة في الشعر والشعراء
١٦٩	(١) الامتزاج بالألم الأجنبيّة وتعريبها وأثر ذلك في اللغة

صفحة	
١٧٦	(٢) الإسلام وأثره في موضوعات الشعر . . .
١٨٢	(٣) السياسة
١٩٣	(٤) الحضارة
١٩٩	(٥) الثقافة
٢٠٧	(٦) الاقتصاد وموقف العرب من الموالى . . .
٢١٥ - ٢٨٩	الفصل الثالث : شعراء المديح والهجاء
	(١) شعراء المديح : نصيب ، القطامي ، كعب بن
٢١٥	معدان الأشقرى الأزدي ، زياد الأعجم . . .
	(٢) شعراء الهجاء : ابن مفرغ ، الحكم بن عبدل ،
٢٢٤	ثابت قطنه
٢٤١	(٣) شعراء النقائض
٢٥٨	(٤) الأنخطل
٢٦٥	(٥) الفرزدق
٢٧٦	(٦) جرير
٢٩٠ - ٣٤٦	الفصل الرابع : شعراء السياسة
٢٩٠	(١) شعراء الزبيريين : ابن قيس الرقيات . . .
٣٠٢	(٢) شعراء الخوارج : عمران بن حطان ، الطرماح
٣١٥	(٣) شعراء الشيعة : كثير ، الكميت
٣٢٩	(٤) شعراء ثورة ابن الأشعث : أعشى همدان
	(٥) شعراء بني أمية : عبد الله بن الزبير ، عدى
٣٣٦	بن الرقاع
٣٤٧ - ٤٠٤	الفصل الخامس : طوائف من الشعراء
	(١) شعراء الغزل الصريح : عمر بن أبي ربيعة ،
٣٤٧	الأحوص ، العرجي

صفحة

	(٢) شعراء الغزل العذرى : قيس بن ذريح ، جميل
٣٥٩	ابن معمر
٣٦٩	(٣) شعراء الزهد : أبو الأسود الدؤلى ، سابق البربرى
٣٧٦	(٤) شعراء اللهو والمجون : الوليد بن يزيد ، أبو الهندى
٣٨٥	(٥) شعراء الطبيعة : ذو الرمة
٣٩٤	(٦) الرجاز : أبو النجم العجلى ، العجاج : رؤبة
٤٥٠ - ٤٠٥	الفصل السادس : الخطابة والخطباء
٤٠٥	(١) ازدهار الخطابة
٤١٠	(٢) خطباء السياسة : زياد بن أبيه
٤٢٨	(٣) خطباء المحافل : الأحنف بن قيس
٤٣٥	(٤) خطباء الوعظ والقصص : الحسن البصرى
٤٧٩ - ٤٥١	الفصل السابع : الكتابة والكتاب
٤٥١	(١) التدوين
٤٥٦	(٢) كثرة الرسائل المدونة
٤٦٥	(٣) كتاب الدواوين : عبد الحميد الكاتب
٤٨٧ - ٤٨٠	خاتمة
٤٨٠	(١) خلاصة
٤٨٥	(٢) تعليق

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة
لعصر بني أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:
طبيعته- ومناهجه- أصوله- مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
● في النقد الأدبي
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية
● البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة السابعة ٢٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة
- في الدراسات القرآنية
● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
● العصر الجاهلي
الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
الطبعة الحادية عشرة ٤٩٦ صفحة
- العصر العباسي الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسي الثاني
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات (١)
الجزيرة العربية- العراق- إيران
الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات (٢)
مصر - الشام
الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات (٣)
الأندلس
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
● الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة

- تجديد النحو
- الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
- تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً
- مع نهج تجديده
- الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات
- الترجمة الشخصية
- الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- الرحلات
- الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- في التراث المحقق
- المغرب في حلي المغرب لابن سعيد
- الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
- الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
- الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
- كتاب الرد على النحاة
- الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة
- الدرر في اختصار المغازي والسير
- لابن عبد البر
- الطبعة الثانية ٣٥٦
- في مجموعة نوابغ الفكر العربي
- ابن زيدون
- الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة
- في مجموعة فنون الأدب العربي
- التراث
- الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
- المقامة
- الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات
- النقد
- الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

في سلسلة «اقرأ»

- العقاد
- الطبعة الرابعة
- البطولة في الشعر العربي
- الطبعة الثانية
- الفكاكة في مصر
- الطبعة الثانية
- معنى (١)
- الطبعة الثانية
- معنى (٢)
- الطبعة الأولى

رقم الإيداع	١٩٨٩ / ٢٤٩٦
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٦٢٦-٢

١ / ٨٨ / ١٦٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)